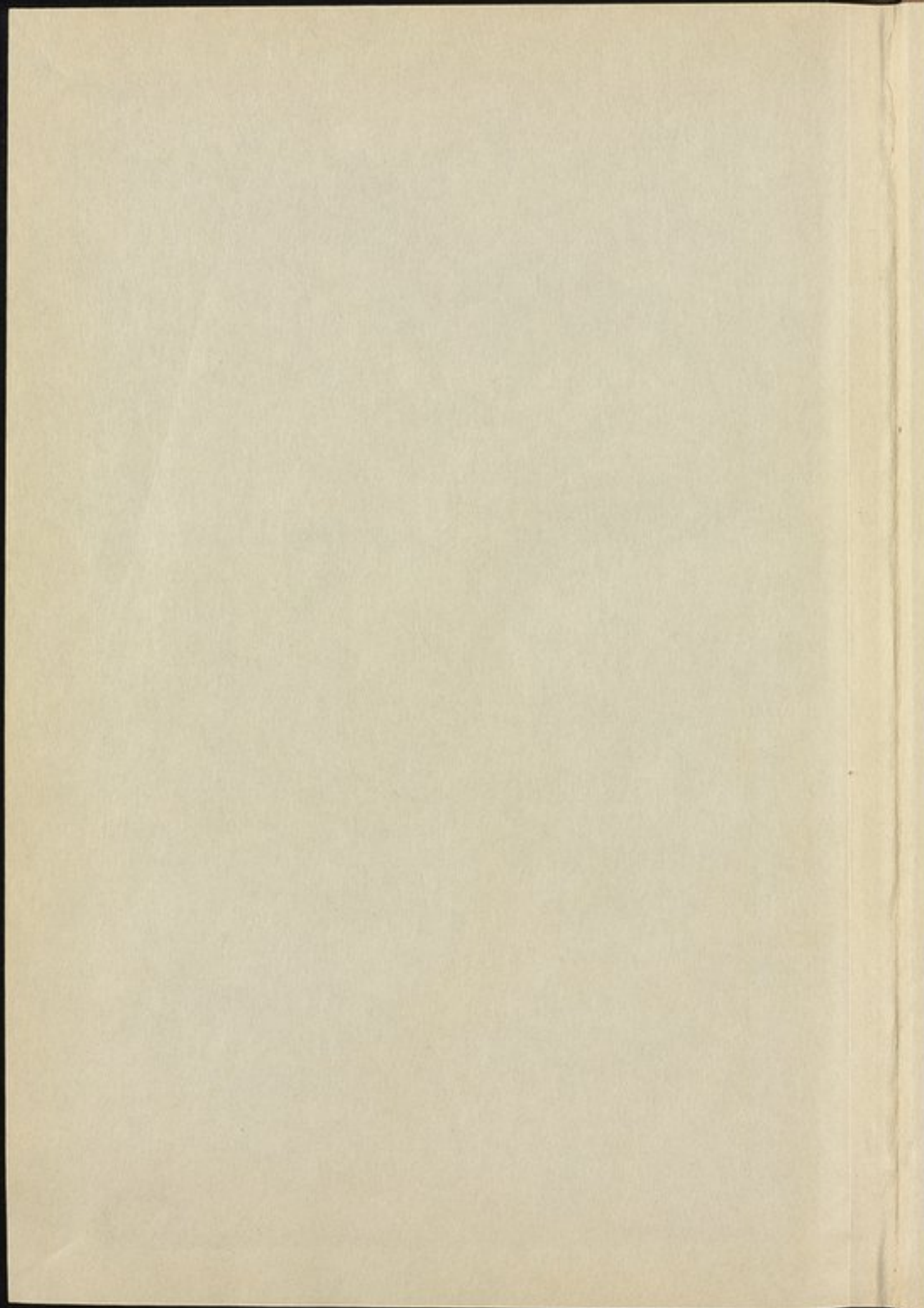
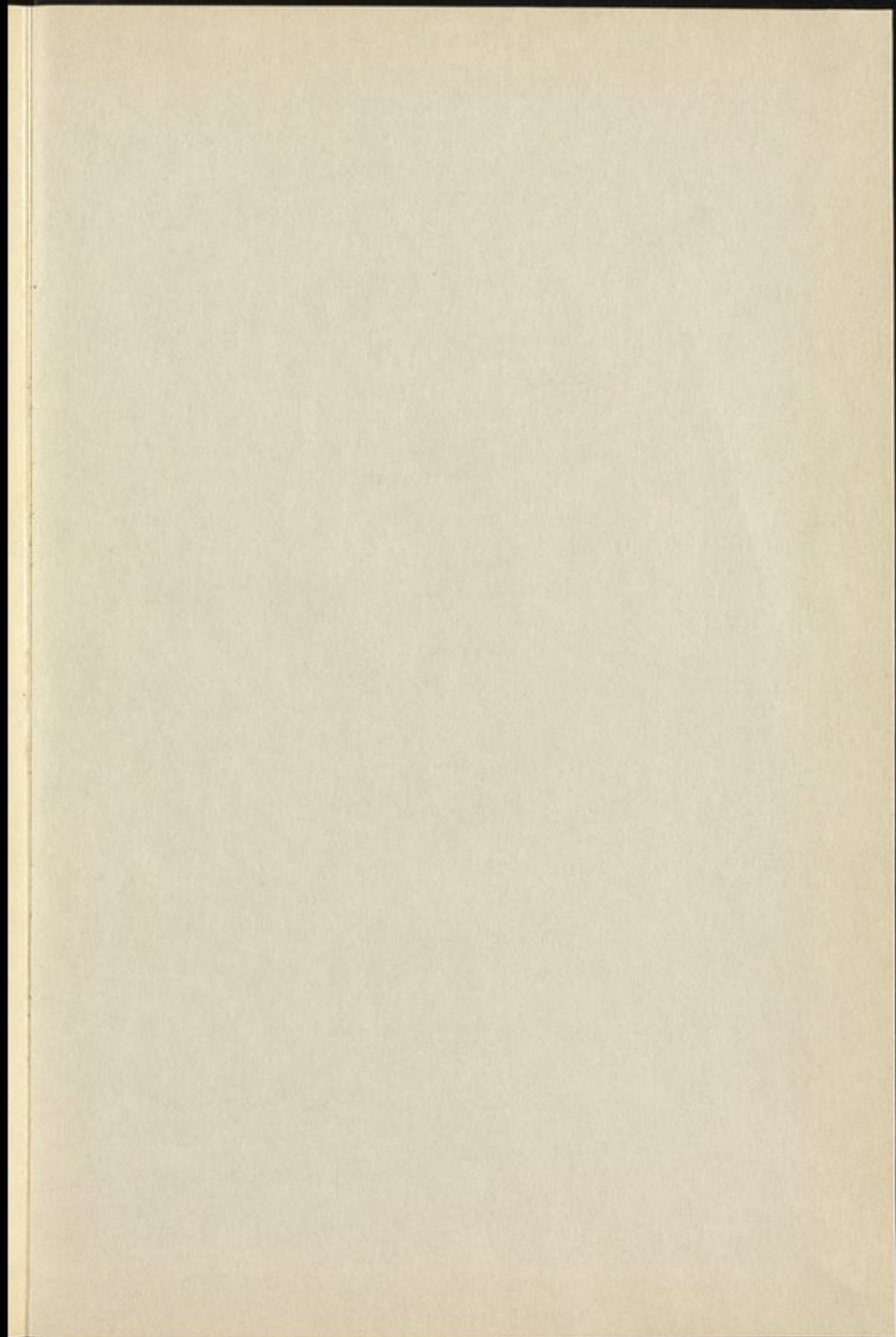


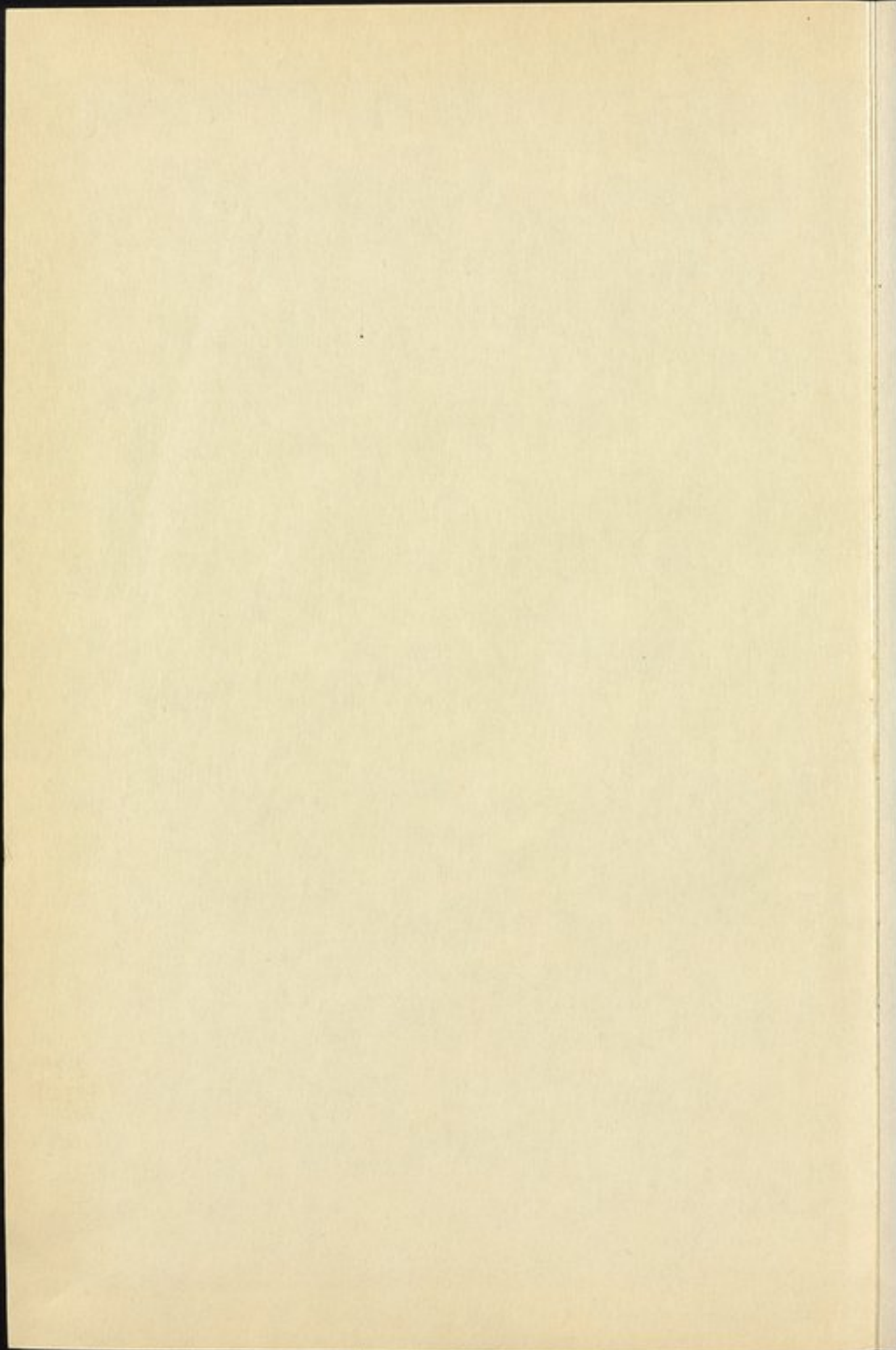
Columbia University
in the City of New York

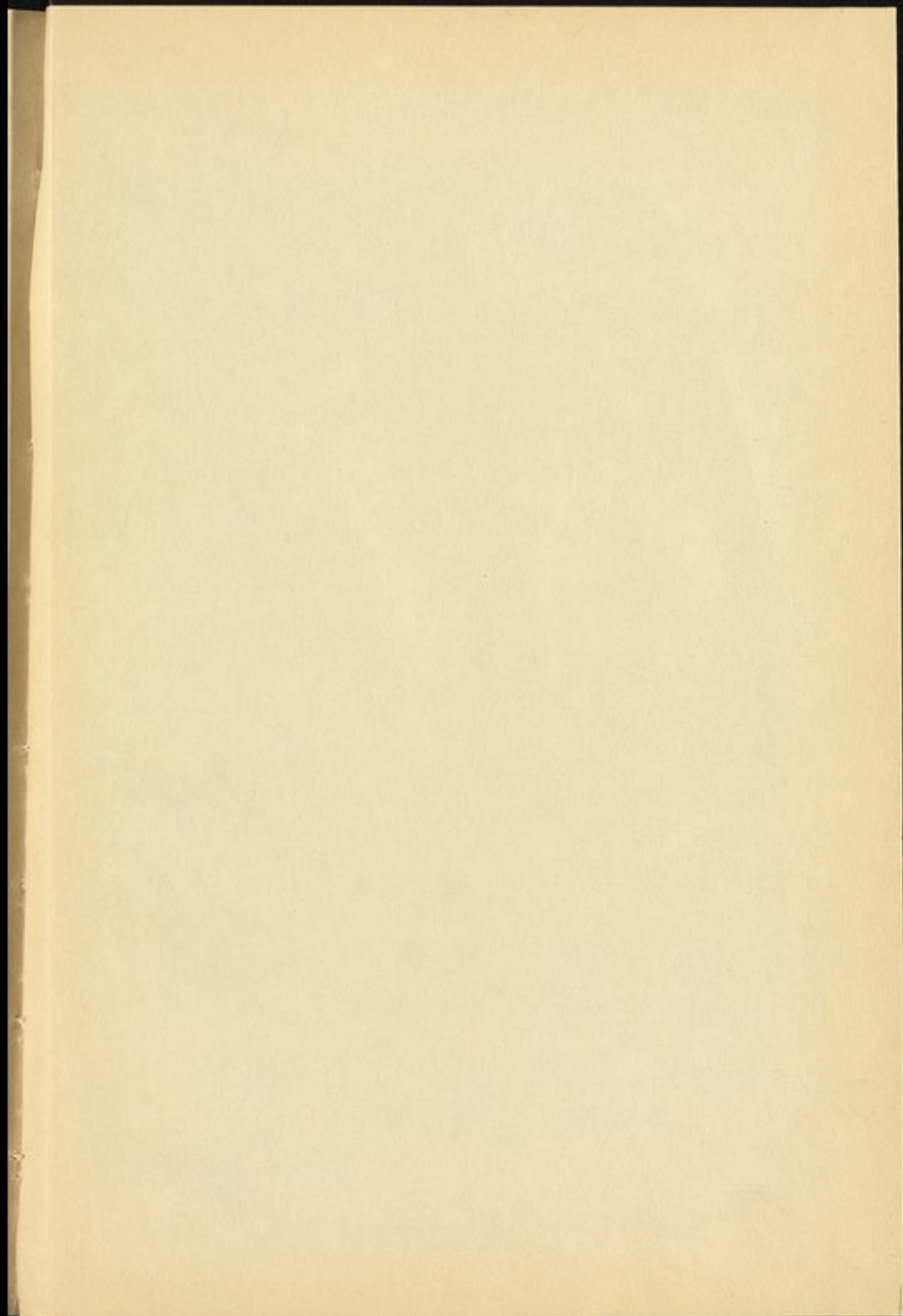
THE LIBRARIES











حاضرة العالم الإسلامي

تأليف لوثرروب ستودارد الامريكى

Lothrop Stoddard

نقله الى العربية

الاستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وخواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الامير شكيب اميرستان

المجلد الأول

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى الباني الجلبني وشركاه بمصر

893.791

St 644

v. 1

v. 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسْرٍ وَأَعْرَفٍ

فهرست

المجلد الاول

من كتاب حاضر العالم الاسلامي

- مقدمة المؤلف في نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه من صفحة ١ — ٢٣
- الفتح العربي للامير شكيب أرسلان من صفحة ٢٤ — ٣٠
- البعثة المحمدية وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين في النبي ﷺ المنصف منهم والمعرض للامير شكيب أرسلان من صفحة ٣١ — ٤٢
- السيرة النبوية وكتاب « حياة محمد » لأميل درمنغهم وتعليقات للامير شكيب أرسلان من صفحة ٤٣ — ١٠٤
- تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس والمملكة الرومانية بيد العرب صفحة ١٠٥
- الحضارة الاسلامية ورفق العرب الفدرى في القرون الوسطى للامير شكيب أرسلان من صفحة ١٠٦ — ١١٧
- لماذا الاسلام راق بذاته والشعوب الاسلامية غير راقية وأقوال البرنس جوفاني الايطالي والفيلسوف كوندوسه الفرنسى في المقارنة بين نظام الاسلام والكنائس من صفحة ١١٧ — ١٢٧
- مدنية الاسلام من صفحة ١١٨ — ١١٩
- الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين من صفحة ١٢٠ — ١٢١ للامير شكيب
- اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها من « ١٢٢ — ١٢٤ »
- سبب تأخر أوربة الماضي ونهضتها الحاضرة من « ١٢٥ — ١٢٧ »
- المدنية العربية وخدمة العرب لعلم الطب للامير شكيب أرسلان من صفحة ١٢٨ — ١٣٦
- الحركة العالمية في الحضارة العربية كما يصفها الفيلسوفان ولز الانكليزي ودابر الأميركي من صفحة ١٣٧ — ١٥٥ للامير شكيب

العصبية الفارسية والاسلام - مهيار الديلمي و بديع الزمان الهمذاني - للامير شكيب ارسلان

صفحة ١٥٦

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية » و « القومية التركية الطورانية » للامير شكيب

ارسلان من صفحة ١٥٧ - ١٦٠

اسلام الفرس ومبدأ التشيع للامير شبيب ارسلان من صفحة ١٦١ - ١٩٣

المتأولة والشيعية للامير شكيب من صفحة ١٩٣ - ١٩٨

التشيع أيهما فيه أقدم الشام أم العجم للامير شكيب من صفحة ١٩٩ - ٢٠٤

ترجمة القرآن الى غير العربية للامير شكيب من صفحة ٢٠٥ - ٢١٣

محاضرات العرب للقسطنطينية للامير شكيب من صفحة ٢١٤ - ٢١٨

فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها للامير شكيب من صفحة ٢١٨ - ٢٣٧

التسامح والنعصب بين الأسلام وأوربة للامير شكيب صفحة ٢٣٨ - ٢٣٩

الفرق بين الخلافة والملك - هدى الخلفاء الراشدين - سيرة عمر بن الخطاب للامير شكيب

من صفحة ٢٤٠ - ٢٥٨

الفصل الأول من الكتاب في اليقظة الاسلامية من صفحة ٢٥٩ - ٢٧٧

المبشر زويمر ومفترياته للامير شكيب من صفحة ٢٧٨ - ٢٨٢

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده للامير شبيب صفحة ٢٨٣

الاستاذ الأ كبر السيد محمد رشيد رضا للامير شكيب من صفحة ٢٨٤ - ٢٨٦

الفصل الثاني من الكتاب في الجامعة الاسلامية من صفحة ٢٨٧ - ٣٢٨

الدول المستعمرة والاسلام للامير شكيب من صفحة ٣٢٩ - ٣٣١

أثر روسيا في الشرق قديماً وحديثاً للامير شكيب من صفحة ٣٣١ - ٣٣٣

الفتوحات الاسلامية في الهند والتقسيمات الجغرافية وعدد مساهمى كل ايلة للامير شكيب

من صفحة ٣٣٤ - ٣٣٧

الاسلام في جاوى - المستشرق هورغرونه وسياسته نحو الاسلام - مسألة الحضارمة

للامير شكيب من صفحة ٣٣٨ - ٣٥٧

مسلمو الفيليبين للامير شكيب من صفحة ٣٥٨ - ٣٦٣

الجزائر الهذبية الشرقية الهولندية - محاضرة السيد اسماعيل العطاس من صفحة ٣٦٤ - ٣٧٥

كرايت

مقدمة

الطبعة الثانية

بقلم الامير شكيب ارسلان

ظهرت ترجمة هذا الكتاب الى العربية مع حواشيتها سنة ١٣٤٣ هجرية وفق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، فانتشرت في جميع العالم العربي انتشاراً عجيبياً ، ولم يمض على طبع الكتاب أربع أو خمس سنوات ، حتى نفذت نسخة بأجمعها ، وصارت تؤدّى على النسخة الواحدة أضعاف قيمتها الأصلية ولا ينزل عنها مالكمها . ولقد نشدوا في مصر ألف نسخة برسم المدارس ، فلم يجدوا ولا عشر نسخ . وعليه تقدم أناس يريدوننا على تجديد طبعه ، وتعميم نفعه ، فبادرنا الى الاجابة ووجدنا في ذلك عين الصواب وبعد الأخذ والرد قسم الله للسادة الأماثل عيسى افندى الببائي الحلبي وشركائه القيام بهذه النفحة الجديدة للعالم الاسلامي والطرفة النفيسة للحقيقة والعلم

ولما كان قد مضى على الطبعة الأولى سبع سنوات تاملت ، جرى خلالها حوادث ومهمات ، ووقائع هامات ، وحصل مايسوء وما يسر ، وطرأ ما هو حلو وما هو مرّ ، وبالاجال تجددت قضاياهم التاريخ العام ، فضلاً عن تاريخ الاسلام ، وذلك لأن الحرب العامة كانت أشبه بزلزال جيولوجي عام ، كاد يأتى الأرض من قواعدها ، فكثرت على أثرها الانقلابات والتحويلات ، وازدادت قابلية الأمم للتأثرات ، وتمّ في هذه السنين السبع بين طبعتي الكتاب الأولى والثانية ما لا يحصل أكثر منه في الحقب الطوال ، كان لا مندوحة لنا عن مراجعة النظر في الحواشي التي علقناها على الكتاب أول مرة ، لنضم اليها ما جدّ من الوقائع التي جرت خلال هذه الأعوام ، الأخيرة ونردف الأول بالآخر ، والأصل بالفرع ، وتكون الحواشي التي توخينا تعليقها على موضوع موضوع من مباحث العلامة ستودارد قد جاءت بتمام البحث ، ووفت بالغرض ، ونفعت الغلّة ، ولم تبق في النفس حاجة ، وأنت بصورة الوقائع منسلسلة من الأول الى هذه الساعة . ثم انه لم ينحصر الأمر في سرد الوقائع ، ولا في تقييد

ما تجد في هذه الاعوام الأخيرة من الحوادث ، بل تعداه الى اكمال مباحث كان ضيق الوقت قد قضى باختصارها، ومطالب ألباً تخرج السكان دون استنزافها الى أضرارها . فاطلقنا هذه المرة فيها للقلم عنانا ، وأرهفنا للتحقيق سناناً ، وأكملنا ما كان قضى ضيق الوقت بابقائه ناقصاً ، أو بردّه عن محله ناكصاً . واسنانا ندعى مع ذلك ، أننا لم نبق في القوس منزعاً ، ولم ندع الى الموضوع مرجعاً ، ولا نقول ان كل مبحث قد استوفى من الاحفاء قسطه الأوفى ، فلا يجد القارئ للزيادة موضعاً . حاشا أن نقول ذلك ونحن ندرى وكل أحد من أرباب العلم يدرى ، أن كتابا يتوخى فيه صاحبه الاحاطة بأخبار العالم الاسلامي على وجهها ، والاتبان بالمسائل الاسلامية كلها من فصّها ، لا مناص من أن يملأ بالأقل ثلاثين مجلداً من قطع الجزئين اللذين ظهر بهما الكتاب في طبعته الأولى ، والأجزاء الأربعة التي يظهر بها في طبعته الحاضرة وعند ذلك يصح أن يقال ان في اللغة العربية انسيكولو بيدا اسلامية أشبه بموسوعات العلوم التي عند كل أمة من الأمم الراقية التي يقتدى بها

وهذا الأمر وهو وضع معاملة اسلامية وافية ضافية ، لا يجوز أن يغيب عن نظر الحكومات الاسلامية ، التي تبغى الفلاح ، وتنشد الرقي والطيران الى النجاح بجناح ، فانه وان كانت كتب التاريخ في الاسلام أكثر من أن يحصيها العدت وكان المسعودي ذكر في مقدمة مروج الذهب نحواً من سبعين مؤرخاً مع أنه لم يكن مضى على الاسلام الا ثلاثة قرون ، وان كانت سعة التأليف في الاسلام أعظم من أن يتصورها العقل^(١) وكان الذين لهم مئات من التأليف في الاسلام يحصون بالعشرات ان لم يكن بالمئات وكان الطبري يعرض التاريخ على تلاميذه في ثمانين ألف ورقة ، وكان ابن عروة الحنبلي يؤلف تفسيراً في ١٤٠ مجلداً كبيراً ، وكان المؤرخ سيديو صاحب الكتاب الافرنسي المشهور عن مدينة العرب يقول : « ان منهم كالسيوطي مثلاً - من صنف من الكتب أكثر مما قدر كثير من الافرنج أن يقرأوا في حياتهم ، وكان صبح الأعشى في عصره كتاباً نادر النظر في باب ، فلا تقدر أن تقول ان للاسلام انسيكولو بيدا متناسبة مع مقامه بين الأمم ، أو مع الدور الذي مثله في التاريخ البشري محشودة فيها جميع الموضوعات المتعلقة بالاسلام والمسامين ، بحيث يستغنى بها الباحث عن مراجعة المئات والألوف من المصنفات » . فهذا الذي ينبغي للمسلمين أن يهتموا بازاحة علته

(١) سبق لنا مقالة منذ ثلاثين سنة في مجلة « المشرق » اليسوعية في بيروت عنوانها « سعة التأليف في

الاسلام » أتينا فيها بأمثال مدهشة في هذا الباب

وسد حاجته ، وان يكون الا بتأليف لجان يكون فيها نخبة من الأفراد المتخصصين كل في فنه والأفناذ المبرزين كل بين أهل قرنه ، ولا تقدر على ذلك في رفعتنا الشرقية اليوم الا الحكومات والدول فأما الأفراد فليسوا له بمقرنين . وكذلك ليس في العالم الاسلامي جمعيات خبرية ولا عامية تستطيع أن تبذل البذل الذي يسد هذه الخلة وان وجد فلا يزال في مهد الطفولية .

أما كتابنا هذا في أجزاءه الأربعة هذه المرة ، فانه الى أن يتاح للاسلام حظ هذا العمل الكبير ، يكون من الكتب التي تفي بجانب من هذا العوز ، ويجوز أن يقال انه معاملة اسلامية صغيرة ، بل هو في المباحث الجغرافية والتاريخية والاحصائية عن أقطار الاسلام النائية وبقاعه المجهولة فذ في بابه ، وكذلك يمتاز هذا الكتاب بالمباحث السياسية التي قبض لمرورها أن يعلمها من عين صافية، وأن يقف على الرواية الوثيقة منها بطول خبرته، وقرب سنده ، واستمرار مزاولته لهذه الأمور من ٤٧ سنة . وفيه بعد تراجم وأخبار ، لم يسجلها كتاب ولا جرى بها قلم ، فلا يجدها الناشد في غيره اذ هي نتيجة مشاهدات الكاتب وما رآه بالعين وما سمعه بالأذن وما كان له فيه أخذ ورد . وعلى كل حال ففي هذا الكتاب من الطريف ما لا يسع انكاره الجاحد ، ولا يضيره مرء الحاسد . ولا شك في أن الأمة الاسلامية الناهضة الى تجديد تاريخها ، النازعة الى النهاء بجميع فروعها وشماليها ، ستتفطن الى كل ما يعوزها من هذه المقاصد الجليلة ، ومن جللتها تأليف المعاملة الكبرى التي هي من ضرورات رقيتها وأشرط نموها . وبالله التوفيق ومنه نستمد الهداية الى أقوم طريق وصلى الله على النبي العربي العريق وعلى آله وصحبه وسلم .

شكيب أرسلان

جنييف في ١٥ ذى القعدة ١٣٥١

مقدمة الطبعة الاولى

للشيخ
مكي

الجد لولاية ، والصلاة على نبيّه ، والسلام على كلّ هادي الى سويّه . وبعد فانّ الاوربيين الذين يغورون في كلّ أمر ، ويختلون كلّ سرّ ، ويوسعون كلّ قضية درسا ، ولا يسامون في أطراف الأرض بحثاً ولا خصاً ، يذهبون الى ان في العالم الاسلامي حركة شديدة ، وغلياناً عظيماً ، وان آسية وإفريقية ماخضتان بحوادث خطيرة يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخرق الاستخفاف بها . ومنهم من يغلو في تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها ، فيرى الاسلام من أقصاه الى أقصاه متحسحساً للقيام ، والشرق من أوله الى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالم القديم كله مستوفزاً يريد ان يقتفي أثر اليابان ، ليستردّ مجداً سالفاً ، ويستجدّ عزاً آفياً ، ويشحط عنه كلّ غريب ، ويكشف كلّ مغير ، وان الشرقيين لا سيما المسلمين منهم ، يأبون الا استرجاع أملاكهم المغصوبة باصبارها ، واحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها ، كما أن نفرأ تراهم بالعكس ، يقولون ان الاسلام جسم متفكك الاجزاء ، متقطع الأوصال ، عاجز عن الصراع ، فاقد لأسباب الدفاع ، ينقصه العلم ، كما يعوزه السلاح ، لا يريش ولا يبرى ، ولا يقدر على ثورة ذات بال ، فمن أحقّ الحق وأسفه السفه أن تقيم أوربا للاسلام وزناً ، وأن تحسب للشرق — حاشا اليابان — حساباً ، وأن تمهل الاسلام في استصفاء مايق له على الاستقلال ، الى ان تكون عصت مقادته على الراكب ، وعست قناته على الغامز ، فالأحزم والأحوط هو مضاء أوربا في سياستها المبنية على الفتح ، غير مبالية بصخب ولا اعتراض ، ولا متحرجة عن تفجير الدماء في قمع ثورة أو منع انتفاض . ولهذا تجد هذه الفئة ممعنة في مطامعها ، مستمرة في غلوائها ، مطيعة في اختلاس الممالك دواعي أهوائها ، لاتنظر الى العواقب ، ولا تنصرف في أمر تصرف محاذير ولا مراقب . وكان الناس يظنون أن الحرب الكونية بما أتت به من المثالات والعبر ، وأجرته من جداول الدماء وسيول لعبر ، ونزفته من أمواه الحياة ، ونسفته من أركان العمران ، وأنفدته من القناطر المقنطرة ،

وطيرته من المجاهيد الموفرة ، ووضعت من الاعباء على كاهل البشرية ؛ وأورثته من الانسراق في كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية ، قد تُنبه رجال الدول الى سير القصد ، ومراعاة الحق وايشار الرفق ، والصدوف عن تُرُهات الحيف ، والتكلم بغير نغية السيف ، لأنه من المقرر أن هذه الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، كانت لها جملة عوامل أهمها التفاهت على الاستعمار ، والنسابق على اقتسام الأقطار ، والظن بأن كل ما هو غير أوربي فأنما هو آلة للاستغلال وموضوع للاستثمار . نخب أيضاً الأمل بالاعتاظ بهذه الحرب التي لم يُر التاريخ لها مثالا ، وأخطأت الفراسة بأن هذه المصائب والأهوال تلهم ساسة الدول الغربية رشداً واعتدالا . بل رانت المطاعم على البصائر ، وغلب الجشع على الحجى ، وطمست الأهواء الاباب . مع أنه كان يكفي هؤلاء مثلة معاهدة « فرساي » التي لو كانت مبنية على قاعدة الانصاف لما احتيج اليوم الى لجنة الخبراء ، ولما وقع ما هو واقع وما سيقع من الخصاص والمرء ، وما سيفضي يوماً الى حرب ثانية ، ومصائب تالية . وكذلك معاهدة « سقر » التي اضطر واضعوها أن يمزقوها ، بعد تلك الدماء التي أراقوها ، والبلدان التي غادروها خرابا وزرعوها أسنة وحراباً . فع أنهم رأوا خطأهم صراحية ، ومع أن زرعهم لم يثمر الا شوكاً ، ومع أن العداوة قد لفتحت من ذى أنف ، وان دواعى الحرب عادت أكثر مما بدأت ، لا يريدون أن ينتهوا عن ضلالمهم القديم ، ولا أن يربعوا على ظلمهم الجديد ؛ ولا أن ينظروا الى ما عليهم من الديون المجهضة الاحمال ، ولا يفكرون فيما على ظهورهم من أمثال الجبال ، وانما يعولون في حماية مطاعمهم على النيران المحرقة ، والقنابر المصعقة ، وعلى الحرب الجوية ، بأعداد الألوف المؤلفة من الطيارات التي يرونها أخصر طريقاً وأخف مؤونة وأوحى قتلا . ولا يلاحظون ما في قتل النساء والأطفال من الفظاعة التي لا تليق الا بالمتوحشين الذين يأكل بعضهم لحم بعض ، وما في تدمير المساكن على رؤوس الأبرياء والوادعين من مخالفة دعوى الانسانية التي يزعمون أنهم جاتها في الأرض .

فالعالم الاسلامى الذى لا يزال محور سياستهم قهره واعنائه ، وتجريده من السلاح بكل وسيلة ، والحيلولة بينه وبين الاتحاد والناسك بكل حيلة ، احتياطاً من وراء رسقانه في قيوده الخاضرة ، وأماناً على ديمومة خنوعه لسلطنتهم القاهرة ، لا يصح أن يقال انه بلغ من النهضة الدرجة التي تكفل له حطم سلاسله الثقيلة ، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة،

واستئناف معاليه الخالية ، ومصيره مع العالم الأوربي الى حالة متساوية . ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفي لتجديد ما أخلق من حاله ، واستشن من شأنه ، بل لا يزال وباللاسف الجهل مخيماً على أكثر آفاه ، وما برحت العصبية الجاهلية عاملة عملها في تفكيك عراه وبعثرة أجزائه ، كما أن الرعب من سطوة الأجانب الا من رحم ربك ملء الجوانح ، واليأس من استطاعة القيام فاش في الأفكار والخواطر . وكأنه الى هذه الحالة بعينها نظر النبي ﷺ حينما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع . قالوا : أو من قلة منا يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهل في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكرهتكم الموت » أو كما قال . نعم صار المسلمون ، الا الأقل منهم الى زمان لا تغني عنهم كثرتهم شيئاً بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم في الفئة الكبيرة منهم ، وتخبطهم بكل عصا ، وهم لا يستطيعون حياة ولا يهتدون سبيلاً ، وراح الأجنبي يفتح بليلانهم بهم ويسلط بعضهم على بعض ، ويقتل هذا بذلك مستفيداً من قتل الاثنين : الذي يقاتله والذي يقاتل معه . واذا سالت أحدهم لماذا اعطاء هذه المقادة كلها واقتحام الموت في سبيل الأجنبي الذي تغلب عليه ، أجابك انه انما يساق الى الموت رغماً . والحال أن الموت الذي يخشاه في عصيان الأجنبي ، هو ملاقيه في طاعته ، فهو من خوف الموت في الموت ، ومن حذر العذاب في أشد العذاب . فلا بد لاستقلال الاسلام من زوال هذه الأوهام ، ومن انتشار المعارف التي لا تجتمع مع الذل في مكان ، ولا تبرح دون تلك الغاية مضاعب وقصم ، ومصائب ونعم ، وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذوائب الأطفال . وانما الذي يخطئ فيه سكارى العز ونشأوى الساعة الحاضرة من الأوربيين ، اعتقادهم أنها حالة سبقي على الدهر ، وان ثلثية وأربعين مليوناً من المسلمين سيلبثون الى الأبد رهن اسارهم وفريسة استعمارهم ، ووفود نارهم ، واعتبارهم الشرقيين محملةً يسمن الغريبيون بهزاهم ، ويسعدون بشقائهم ، ويقوون بضعفهم ، ويحيون بحتفهم ، حقاً لقد تجاوزوا الحد ضلالاً وغروراً ، واستكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، وظنوا أنهم انما كتبت لهم السيادة خالصة من دون الناس وأمنوا جفوات الأيام ، وأخذوا الطريق على القلك الدوار فلا يدور لهم الا بحسب المرام . كلا هذا منهم خيال زائل ، ووهم أرق من شبح باطل ، فلن يبقى الشرقيون أبد الدهر مد نقة

هينة عليهم نفوسهم ولن يصبروا أكثر مما صبروا على أن يلى أمورهم من ليس منهم ، ولا بد أن يأتى الزمن الذى يصبح كلُّ فيه سيداً فى دياره ، مانعاً لذماره ، مساوياً فى الارض لمن ظن سلطانه سرمداً ، ودوره مؤبداً ، وعمل اليوم عمل من لا ينظر ما يكون غداً ، لا سيما المسلم الذى يقرأ كل يوم فى قرآنه ما يجعله بكل جارحة من جوارحه رجلاً ولا يرضى له بالاستقلال بدلاً ، وينفخ فيه من روح الانفة ما يصور الذل كفرةً ، ويلقى فى روعه من حب العلم ما يصير الجهل وزراً ، ويحتم عليه من الأخذ بأسباب القوة ما يخيل الضعف شركاً . كلا لن يلبث الشرق لدى دول الاستعمار هو الشحمة الرقوى ، والامم التى لا تملك لأنفسها حقاً ، ولا تنفض عن أعناقها رقاً ، ولا يمكن أن يظل الاوربي سيد الارض غير مدافع وصاحب الحكم غير مزاحم متسلطاً على ما فى الدنيا من الجهات النفيسة ، مستأثراً بما بين المشرق والمغرب من الجنبات الرئيسة ، فلم يبرح الدهر قلباً ، والدوام محالاً ، والتاريخ يركب الامم طبقاً عن طبق ، ويلحق من تأخر بمن سبق ، وما من بهشة الا وراءها جهشة ، وقد كذب من طمع فى صفو بلا كدر ، وصعود بلا حذر . ومن أعظم الخطا الظن بأن الشرق لا يلمُّ على شعث ، وان آسية وافريقية لن تنهضا من عثار وهما ثلثا العالم ، ولقد سار الشرق فى مدة وجيزة عقبات جياداً ، واجتاز أزمات شداداً ، وهو ماض فى سيره الى الأمام لا سبيل بعد اليوم الى تعويقه ، ولا حاجز يمكن أن يقف فى طريقه بدسائس تلقى ، ومبالغ سرية تنفق ، وأخلاق تُفسد ، وذمم تشرى وأشرار تبت ، وأسياف تُسل . ولا المحلقات فى الجو تقدر على كم الأفواه ، ولا الغازات السامة تقوى على إطفاء نور الله ، وما تزيد هذه الوسائل تلك الأمم المستضعفة الا شوقاً الى الحرية ، ونداء الى الثارات واصراراً على الضعائى ، ومهما يكن من حيل العباد فللكون سنن هو سائرُه والله أمر هو بالغه .

وقد كتب كثير من المؤلفين الأوربيين على الحركة الاسلامية بعد الحرب ، فمنهم مخطئٌ ومنهم مصيب ، ومنهم من خلط قولاً سديداً وآخر بعيداً . ومنهم من تكهن بالشتر وأنذر بالويل . ومنهم من أحسن الظن وهُدِى الى الطيب من القول . ولا شك فى كون خيرة ما أُلْف فى هذا الباب ، ونبلة ما خيض من هذا العباب ، هو الكتاب المسمى « بالعالم

الاسلامى الجديد^(١) « تأليف العلامة الحنيف البليغ المستر ستودارد الأمريكى الذى أخرجه كتابا جامعا وشهابا لامعا ، وحصيلة بحث دقيق ، ونتيجة احفاء عميق ، فهو فى هذا الموضوع أفضل المؤلفات على التحقيق . توخى صاحبه العدل فى الحكم والاعتدال فى الوصف والوقوف عند اعتراض الشك ، وأبى القاء الكلام على رَسَائِلَاتِهِ وازناً الأمور بميزانها غير مقصّر ولا مشطّ ، ولا مفرط ولا مفرط وهو الأمد الذى يكبو دونه جواد غيره من المصنفين ، والغاية التى لا تتاح الا للافذاذ من صيابة المحققين . وضعه محرره باللغة الانكليزية وترجه بعضهم الى الفرنسية وربما ترجم الى غيرها من اللغات الاوربية ، ونقله أحد أدباء الترك الى التركية ، ولكن أكثر من أعجب بهذا الكتاب هم أدباء العرب ، فقد تبارى عدة من أفاضلهم فى تعريبه خدمة لقومهم ونصحاً ، وانبرت أقلامٌ مرهفة لجلاء عرائسه على منصة هذه اللغة الفصحى ، وانما سبق غيره الى الأتمام ، الشاب الأديب الكاتب الناهض عجاج افندى نويهض ، فأبرزه فى حلة من نسيج الضاد تشتد بها نطق النطق ، وتقترن بها حلوة العبارة بلسان الصدق . وكان قد كتب الىّ فى العام الماضى وأنا فى أوروبا يلتمس منى تصدير هذا الكتاب بمقدمة تليق بمقامه الخطير ، وتكون فى أوله مقدمة وهى فى الحقيقة من ورائه ظهير ، وكنت قبل ذلك اطلعت على هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من جلال مناح ، وسداد آراء ، وسمعت حسن الاحدوثة عنه ممن يعرفون الحجر من الخلل من القراء ، فرأيت له لاضطراره الى الاجال ، وعدم تعرضه لكثير من المسائل الاعلى سبيل الايمان ومن قبيل الاستشهاد ، يحتاج فى بعض المظان الى الاكمال أو الايضاح . فعلقت عليه مما أملاه الخاطر الفاتر حواشى رجوت أن تكون طرازاً لخبره ، ونظاماً لدرره ، وأوردت فيه من أخبار العالم الاسلامى ما لا يزال مجهولاً عند أكثر المسلمين ، ومعظم الشرقيين ، بعلة تنأى البلاد وتراخى الأبعاد ، وضرب الدول المستعمرة بالاسداد فكانت طريقتى فى هذه التعليقات ترك ما استفاض العلم به وتواتر الخبر عنه ، ولو كان فى حد ذاته جلالاً الى البحث عما خفى شأنه ، وعمى خبره ولو كان أمره فرطاً ، فاعتذرت بقدر الطاقة

(١) هو بالانكليزية The New World Of Islam وقد رأينا أن ترجمته ب « حاضر العالم الاسلامى » أوفى بالمراد فى العربية وأدل على الغرض من العالم الاسلامى الجديد ، أو العالم الاسلامى الحديث . أو عالم الاسلام الجديد ، أو عالم الاسلام الحديث . (المترجم)

بتحرير المواضيع الغامضة والمسائل الغربية ، وتحرير أنباء الاصقاع النائية ، دون البلدان القريبة . اذا ما من فائدة في البحث عن قضايا تساوى الخاص والعام في فهم معناها وسرد أخبار لم يبق قصري ولا عمي الا رواها أو علم خواها ، فتحاشيت في هذه الخواشي التواريخ المشهورة المسكررة ، والمعلومات التي في كل يوم منها خبر في الصحف المنشرة ، فجاءت بأبكار من المواضيع لم تجلها الاقلام لحدائنه عهدها وأخرى من أخبار زوايا من بلاد الاسلام عميت أحوالها لانقطاعها وبعدها ، وقد اخترت فيها كلها التلخيص اذ لو أرخى فيها الكاتب عنان القلم لما حوتها اجلاد ، ولا وفي بها جلد ولا اجتهاد . هذا وان رأينا الذي نعول عليه أولاً وآخراً ، ونرجع اليه باطنا وظاهراً ، ان الشرق أجمع سيتنبه من رقدته ، وينهض من كبوته ، وانه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرعتها ، وانه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلى الاسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هي مقاصد تدرك بالرقى أو العياقة ، ولكن يعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الاول على الآخر . هذا وان نهوض الشرق هو الشرط الاول في سؤدد السلام ، وراحة الانام ، وحقق الدماء الحرام ، وحفظ موازنة العالم واستواء الاقسام . وما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالا ، والاستعمار لدول أوروبا دليلاً تقفوه يمينا وشمالاً ، فالخروب بين الدول قائمة متتابعة ، الى قيام الساعة ، والاختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة الى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة ، وما دامت جمعية الامم مثل العروض ببحراً بلا ماء ، ما وجدت الا لتلبس الاعداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الاسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز ، فكيف يغطى الحق بالثرثرة والحق أبلج ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان في التماس المنعة ، ومضارعة الدول الغربية في ارتياد العلم واقتباس الصنعة ، حتى اذا قرع النبع بالنبع ، ووقع النصل على النصل اقتنع كل بدياره ، وأمسك الجار عن هضم جاره ، فان المال السائب هو الذي يعلم الناس الحرام . وان الخوان الممدود هو الذي يبعث الاشتهاه الى الطعام . فليحرص الشرقيون من كل فريق أن يكونوا أولى قوة مانعة ، وان يوحدوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة ، فان بقوتهم خلاص الغرب والشرق ، والادالة من الحرب للسلم ومن الباطل للحق ، بحول الله وكرمه .

شكيب أرسلان

٢٥ شعبان سنة ١٣٤٣
مرسين ٢١ مارس سنة ١٩٢٥

مقدمة المترجم

« حاضر العالم الاسلامي » كتاب حديث الوضع ، نُقل الى عدة لغات أوروبية وشرقية ، و بعد إخراجه طُبِعَ غير مرّة في الانجليزية ، فذاع في أمريكا وأوربة ، ذبوعاً عظيماً ما كان مثله لكتاب غيره في بابه ، فأحله كثير من الساسة والمنصفين وأهل البحث والعلم المحل الأرفع ، وأقبلوا عليه ، واهتدوا به في الاحاطة الحقة بكثير من طبائع الاسلام ، والانقلاب الاسلامي على اختلافه في آسية وافريقية قبل الحرب العامة وبعدها ، واتخذوا منه عوناً على تدبر ما بين العالم الاسلامي وبين الدول الغربية المستعمرة من صلات وعلاقات ، حق التدبر . وقد شهد المحققون للعلامة ستودارد الامريكي ، بصحة القول ، وإصابة العدل والحق في الحكم . ومما قالته (مجلة المجالات) الانكليزية عند صدور الكتاب ان صاحبه « ارميا القرن العشرين » لكثرة مؤلفاته .

وقدرأيت في نقل « حاضر العالم الاسلامي » الى العربية خدمة بارّة ، رجوت اذا وفقت الى القيام بها أن يتقبلها كل قارئ كريم بقبول حسن . فاستأذنت المؤلف في الترجمة ، فأجابني الى ذلك طيب الخاطر . وأمدني باذن خاص منه ومن شركتي الطبع الامريكية والانكليزية فأشكر له هذا شكراً كبيراً

و بعد الفراغ من ترجمته طلبت من حضرة العربي الكبير ، والسياسي الشرقي الضليع الثقة في الشؤون الاسلامية ، كاتب العصر صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان ، رعاه الله وأطال بقاءه ، أن يتفضل بكتابة مقدمة يُطرّز بها جسد الكتاب ، فتفضلّ سعادته ، وهو على أسفار متلاحقة بين الشرق الأدنى وأوروبة ، بتلبية الطلب على النحو الذي مر بك في المقدمة السابقة التي وضعها سعادته غير قاصر فضله على وشل ما طلبت ، دون فيوض الفصول الممتعة ، والتعاليق الجامعة ، التي منها ما هو تحت المتن ، ومنها ما هو وارد مستقلاً مع سبق الإشارة اليه . فجاء الكتاب بعد ذلك جامعاً للحسنتين : حسنة الوضع للعلامة ستودارد، الامريكي الغربي ، وقد بلغ من التوفيق في كتابه علماً وتحقيقاً ، مبلغاً عز على غيره من سبق الواضعين . وحسنة المزيد من فرائد الفصول والحواشي والتعاليق ، لصاحب السعادة الأمير شكيب ، الحججة السياسي الشرقي ، جزاه الله عما بذله في هذا السبيل خير جزاء ونفعنا بعلمه الواسع ، واضطلاعاه الجامع . وكان الكتاب مجلداً واحداً فعدا بعد المزيد أربعة مجلدات

عجاج نوبهض

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعاد متغلغل ، وانبثت في عروقه فواعل التبدل أوسع مُنبث ، حتى كمل اختاره وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول ، ثوار القوى الى مالا حد له . فاذا ما سرحت ببصرك نحو العالم الاسلامي رفعة رفعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو رأيت ال ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من المساهمين ، قد نارت نفوسهم مشتدة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستأثر بنتائجها العميمة أمم الارض جمعاء ، والله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشؤه ليراه المستقصى اقدم عهداً وأبعد أصلاً ، اذ ان بذوره قد القيت في تروب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البنود تنمو مزداة الاستعداد والقوة الحيوية ، نمواً مستسماً المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجأة في المعمور الاسلامي ، فطلق يثور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مريد الجو بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما اليهما من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس . وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملاً تاماً فأبتنا على بيان كل صور الانقلاب من دينية ، وتهذيبية ، وسياسية ، واقتصادية واجتماعية وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوينها ، ونشوتها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة السياق وعامل . أضف الى هذا أننا نغفل ايضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف

بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث اتنا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحبٌ لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الاسلامي

ان موضوع الكتاب وان كان مختصاً بالعالم الاسلامي في المقام الاول ، غير أنه تناول الكلام على غير المسلمين ، كالعناصر الهندوية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاءً للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع . لذلك جعل الكلام كافياً وافياً في شأن الشرقين الأدنى والأوسط . أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا الى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في الماخرات العامة اشارة ينبغي للقارئ أن يقيم لها وزناً

لوتروب سنودارد

مَقَدِّمَةٌ

للمؤلف

في نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاصه

يَفْنِي الْبَرَايَا وَيَأْتِي الْوَقْتُ مُخْتَلِفًا

لِيُخْرِجَ الدَّهْرُ تَارِيحًا مِنْ الرَّمَمِ

« شيلر (في وليم تل) تعريب الراجعي »

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الاعجب الذي دوّن في تاريخ الانسان . ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متعضعة الكيان ، و بلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، ممزقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانياً عالماً حديثاً متراص الأركان — هو عالم الاسلام .

كما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الاسلام وتعالیه ، زادنا ذلك العجب العجيب بهراً فارتدنا عنه باطراف حاسرة . عرفنا أن سائر الأديان العظمى انما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقيّة كل صعب ، حتى كان أن قبض الله لسكل دين منها ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر اتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه . بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية (اسوكا) ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم ملك جبار أيد دينه الذي اتحل به استطلاع من القوة والأيد . انما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتوسع رقعة في جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ،

دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المسكاره فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من ﴿ البرانس ﴾ حتى ﴿ جلالياء ﴾ ، ومن صحارى أواسط أسية حتى صحارى أواسط أفريقية .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق ، عوامل ساعدت عليه ؛ أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متطاول في القدام حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليةً الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إغلاً في الشرك والوثنية . وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحات عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حائهم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحالة الكبرى ، والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفي الاسلام . ان محمدٌ وهو عربي من العرب ، الا روح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عارياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، أن يستثير حق الاستنارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهي الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية . واذ هبّ العرب انصرة دعوة ابن عبدالله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمته ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبلُ الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعلمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الاله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جوفاً روحانياً خالياً ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبوزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده ، لانبؤ فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار

ديناً يزرى عليه ويسخر منه . أما في فارس فقد كان دين « المزدكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباساً غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فعدت النصرانية عبثاً وسخرية . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت « المزدكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شراً ممزقاً ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فتمت تلك البذور نمواً هائلاً . ولا يغربن عن البال انه كان على رأس كل من بوزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر ، وملك عاتٍ أرهق الرعية ارهاقاً لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فامت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار ترى أن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع ما في الأمر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية، ومدبرة فارس ، كانت من قبل خوضاً حربية فتناً كمة ، لم تقو الآن على صد جملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حمساً أبطلاً ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحاً وسروراً لانتجاتهم من نير المضطهدين الممقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً ، ايشار له بجدته وسذاجته على ذئبك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدننى . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم . فالعرب لم يكونوا

قط أمة تحب اراقه الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ، أمة موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، توافقه الى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالبيين والمغلو بين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية ، وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدةً ، فنضروا وأزهر ، وألقوا بين عناصره ومواده بالعبقريّة العربية والروح الاسلاميّة ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلاميّة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والخواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلميّة المنظمة ، وفيها مجموع حكمه القدماء ومخترن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته ليلاه السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبنت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربيّة في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر انكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربيّة جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انزاعاً ، وسابقة للغرب النصراني ، حتى حلول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر . وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلاميّة جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديميّة الأصل ، تلك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسية تنخر في جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى قتل دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتتيال وسلب الأرواح قد أفتت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الأول ، مثل أبي بكر وعمر حاملي لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا وأعراضها . وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت الى دمشق في سورية ،

ثم الى بغداد في العراق . أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا الانقياد لأمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ، فقال لهم قولاً مبيناً : (إنما المؤمنون اخوة)^(١) وقد كانت الخلافة في الحجاز شوروية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانها . فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها الى نبيه محمد وهي القرآن الكريم

وأما في دمشق ، ولا سيما في بغداد، فقد تحورت الأحوال وتبدلت الأمور، ولا يعجب من ذلك والعرب الصرحاء الاقحاح، الجارى في عروقهم الدم العربي البحت، الدم المنحدّر اليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما كانت هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت كلها الذلّ من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مضافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالي يسطعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالاً وحاشية ، وبالتالي جنداً لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم ، يتقلص الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى . ولما نقلت الخلافة الى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد^(٢) ، بطل « الف

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — العرب

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكاً للدماء على نمط غيره من ملوك الشرق السبديين . وقد كاد يبطش بالامام الشافعى لتبته أنه يعيل الى أولاد علي . كما ان ولده المعتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل لانكاره القول بخاق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في أيام المنصور لقوله ليس لمكره يمين . فاذا كان هذا هو العمل مع مثل اولئك الأئمة العظام؛ مصايح الاسلام الذين أناروا براهيته وشرعوا قوانينه ، وكانوا من العلم والزهد والتقوى بالمسكان الذى لا يخفى؛ فما ظنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة

ليلة وليلة» (١) إلا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قياكسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر. وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الإسلامية كان الاستبداد مقوضاً لأركان الدولة أيما تقويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين، وألاعيب بين أيدي الحظايا؛ لا يستطيعون القيام بعدد بعبء من أعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الإسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتفقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسُلبت منتهاها، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطيع دوامه لافتقار الدولة إلى قواد محنكين، ولغفاء ذلك المزاج الإسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الأولى. وقبيل ظهور الإسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أكاكسرة الفرس وقياصرة الروم، ينزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية؛ فجاء الفتح الإسلامي طامياً، قاضياً على جميع هذه المنازعات، أما الآن، والمملكة الإسلامية محتضرة في النزاع، فأئى يستطيع المجيء بمثل ما جرى به في صدر الإسلام؟ استطاع الإسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً، ولكنه لم يستطيع أن يحيل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة، فاعترض الازدراد شجراً؛ وساء الهضم فسأت نتيجه. دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقاً، لأنه أتاهاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالانظرية لقبوله أحسن قبول، وناداهم مستغزراً نعتهم وحببتهم، وهم اخوان نخوة سجية وخلقاً، فاستجابوا نداءه طائعين. فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الإسلام، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبي، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقليدية الخاصة، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه، فنتج عن جميع ذلك ان الإسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشأه قد

ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع إلا مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارت ملكاً عضواً «ش»

(١) كتاب «الف ليلة وليلة» الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجم إلى أكثر اللغات الغربية وله عند الغربيين مقام أدبي رفيع لما حواه من وصف المعيشة العريضة وعادات العرب الصرفة أيام العصر الذهبي في بغداد، ورجال الأدب من الفرنجة على الجملة يعدونه ذخراً من علم الأدب الخالد في العالم.

اعوج والتوى . ولنا أجلي دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استتحات الوجدانية التي نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ؛ فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامي واستتحات الوجدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربية الأفرقية وغيرهم الى حال عبت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المساميين في الهند . على ان جميع ذلك لما شدد النبي في تحريمه والنهي عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية، وما أصاب صورة الرسالة النبوية، حتى عمّت البلوى بان مئى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية والانشقاقات الزمنية. فأول ما حدث من هذا النوع كان في أوائل عهد الدولة اذ فرّ أحد المضطهدين من بني أمية الى الاندلس حيث انشأ في قرطبة خلافة^(١) منافسة لتلك التي في بغداد ، فاعترف مسلمو الاندلس قاطبة بهندة الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى في مصر ؛ هي الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحدرين على مازعموا من فاطمة بنت الرسول. أما الخلفاء العباسيون في بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاوعين بين أيدي الترك — العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال الدولة من أيدي العرب الهجناء ، ذوى الدم المزيج ، الى أيدي الترك ، وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الاسلام ؛ نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذي رافقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي.

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجايا ، مقاديرم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزماً شديداً

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الأموي الذي فر من وجه بني العباس الى الغرب ، ولحق بالاندلس وأسس ملكاً ودولة مستقلة بهما عن بني العباس ولقبه المنصور العباسي بصقر قریش ؛ اقتصر في دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين في الخلافة العامة بل كانت تتلى الخطبة في مساجد الاندلس باسم خلفاء بغداد امام الملوك من بني أمية الى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذي استفحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على عدوتي الاندلس وأفريقية؛ واوغلت جيوشه في بلاد الافرنجة ، وصار أعظم ملوك زمانه ؛ فهو أول من تلقب من الأمويين في الاندلس بالخليفة ويايعه مسلمو المغرب بالخلافة « ش »

وغيرة متوقفة . كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية ، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ؛ بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايتة ، و متمسكين تمسكاً شديداً بمعتقدات دينهم وأركانها وأصوله ؛ غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهلاً الاكتناه والمأخذ ؛ واضحاً جلياً ؛ كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة . فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا الله الا الله ؛ وبأن محمداً رسوله ^(١) من لدنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض السنوية المعينة ؛ كالصلاة ، والصوم ، والحج ، انما هذا غسبٌ هو جملة الأركان التي تأت منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصدعوا في الأرض يفتحون العالم الشرقي

فلاسلام، وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقى عليه سجوفاً فوق سجوف . والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده ، واشتعلت غيرته ، فبات تواقفاً الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها ، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها، والخروج بها عما ألفه أزماناً في فيافي الصحراء وكثبانها. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدّوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالمادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش غسبٌ ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة . فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربي سام . فاضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان نغز الحضارة العربية ، وواسطة فلادتها ودرة تاجها . وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس ، يانعة الثمار ، وارقة الظلال . فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والأصول ، واستنبطت الأحكام . بيد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي يدوقون الأمرين ، ويسامون حسفاً شديداً في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البوزنطية والمجوسية الفارسية

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله . وهي غير الالهية إذ لم يقل محمد انه إله نفسه بل كان يتحاشى قولاً مثل هذا ؛ فقال انه آخر الانبياء والمرسلين ؛ أولهم آدم ثم قبي على أثره بموسى ثم عيسى ؛ ثم بمحمد خاتم المرسلين كافة .

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده، ثم عرا شمس كسوف فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها، ثم أنشأت نسود سيادة شديدة ممتدة . وانقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة (١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شيء . وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شيء . وأخذ من هم على هذا المذهب ، وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الاسلام وكانت أمزجتهم ما برحت مشربة روح دينهم البرزنتي القديم ، يفسرون القرآن الكريم ويؤولونه ، ثم يؤولفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا في ذلك ايغالا بعيدا . فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية في الأجيال المظلمة ، من تلييس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو براء منها . فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاوسوا عليهما ، وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسا لكل (٢) شيء . واذ قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا ، فالغلبة الأخيرة انما بانت متوقعة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل . وفي الواقع ان تاريخ السنة والتقاليد (٣) في كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة . كانت قد تلبدت في سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء محقبة من الزمن ، مزقتها وبدتها ، وكيف لا تضحل تلك

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التي نشأت في الاسلام — « العرب »

(٢) لا شك في ان الكثيرين من علماء السنة غلوا في التقليد والمحافظة على النقل ، ولكن مما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل ، وهو مشرق الدين ؛ ومناطق اليقين ؛ وبدونه لا يقوم اسلام ولا يعتد بايمان ، والقرآن العظيم من أوله الى آخره يناشد بالعقل ، ويحاكم الى العقل ؛ ويهيب بالخلق الى التأمل والنظر ؛ وقد رأينا كثيرين من الأئمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تعارض

العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل « ش »

(٣) ان لعقائد السنة والنقل والتقليد عوامل وراثية عنصرية ؛ ومكانية اقليمية ، وللبينة والوراثة تأثير شديد في نشوء الانسان وتحوله في الشرق على الخصوص . وليس هنا موضع الاتيان على بيان هذه العوامل انما يمكن مريد الاطلاع أن يقف على ذلك حق الوقوف في مؤلفات العلامة (ألبورت هنتنغتون)

(Prof. Huntington.

السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه . ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستبداد فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة ، وجاوز أفاقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقائلها أينما وجدت ، سواء كانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر ، يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة ، اجفلوا منها أيما اجفال وأضمروا لها القضاء عليها فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تحطت ذلك فانشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للإمارة انتخاباً ولا يرثها وراثته وهو منقاد لرأي الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون ترأثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولامبالين بهيبة أمير المؤمنين^(١) وذاهبين في السلطة الى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه

(١) أول من خرج على الامام بل على الأمامة من حيث هي؛ فائين لا حكم إلا لله ولا لزوم لنصب الخليفة ثم الفرقة التي قاتلت سيدنا علياً رضي الله عنه ، ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيماً في الاسلام وكانوا فرقة متعددة ، يختلف بعضها عن بعض بمبادئ معلومة ، ولما طال النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قالوا قد تمادت هذه الفتنة التي تجرت جداول من الدماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى علي ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنرح الاسلام منهم . فانتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجبا بكونه يوم أريد قتله لم يأت الى المسجد للصلاة وبعد ذلك جعل نفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المسكيدة ، وأما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خلرجة فقتل خلرجة خطأ بدلا عنه ؛ وأما أمير المؤمنين فاصابه القاتل وفدحت به الصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

وكان قد رسخت روح القوضوية في الخوارج الى أن صاروا يغتالون السلوك وأرباب السلطة مفادن

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستندون اتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ، ويعتقدون بهم، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها التكبر، ويستعينون بالمشايخين لهم من العرب المهجناء ويشددون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقرّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقتيلاً . وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى امحت كل معالم الحضارة العربية ، وقوّضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع . وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامي هجعمته الطويلة ، وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعوراً .

في أوائل القرن الحادي عشر م . تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب المهجناء يرون ملكهم السياسي يذهب من أيديهم الى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربي من الجيل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أواسط آسية وشرقها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم في ابان سلطنتهم ، ويتخضع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ، ما كانوا يرهبوا الترك أو يحسبوا

بأنفسهم متباهين بغيلاتهم مترقبين الأجر على عملهم حتى قال بعضهم في عبد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه :

تة در المرادي الذي اخترمت يدا مهجة شر الخلق انسانا
ياضربة من مرید ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

ولا أحسب هذا القول إلا من شدة ولعهم بمناهضة السلطة ، ولجورد غلوم في انكار الأمامة التي كان على مثالها ، والا فقل ان وجد في التاريخ البشري مثل علي بن أبي طالب في كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو مزاياه ، ومن كان بقدر أن يقول في علي شيئاً ، فأنت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مغالبة السلطة التي نراها في الغرب الاوربي اليوم قد عرفها الشرق أيضاً

(ش)

لم حساباً ، بل رأوا في الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة أمرهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن دمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا يرهبوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولات الحال فآلت غير مال ، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ، ولا سيما في الجيش العربي ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيداً لابناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج وعلى رؤس طوائفهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحراراً أتى شاءوا ، ويقومون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول في الاسلام أيضاً ، بيد أن الاسلام لم يدمت من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجرى في عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبي وبعضه الآخر اسيوي غربي ، ويخالط مزاجهم عنصر غربي ، وعنصر شرقي عربي ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافاً كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آباءهم وأجدادهم الأولين . وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخشنه التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربي آسية

فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ياترى ؟ انما كان في المقام الأول جندياً مجرماً ومقاتلاً باسلاً ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ناقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال غصب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربي الضعضع ، الواهن العظم .

حقاً ، مادهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية

مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقي مستطاباً في ظل دولتها^(١)، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لا ينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد سىء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيهاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م^(٢) . غير أن جانباً من آسية الصغرى مابرح حتى اليوم قسماً من العالم النصرانى . ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فما يزال يظمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس ، فصدمه الروم هناك ، اذ استجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن تقف الفتح العربى عند حد ، عند تلك الجبال ، على عناء وتعب شديدين . أما الآن فاجتاز الترك الحدود البوزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحاً ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية^(٣) . وكانت بيت المقدس فى أيدي المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرمى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيمارعاية^(٤) ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصرى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج

(١) كما أن المؤلف وغيره من كتاب الافرنجة يعملون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يعملون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبى مسلمين وجب أن نزرع من اسلامنا ديباجته العربية . وعلى هذا بدأوا فى هذه الايام بقراءة الخطاب فى صلوات الجمع بالتركية . ولنا الآن فى مقام تنفيذ مزاعم هذا الفئحة .

«ش»

(٢) اكتسح الترك آسية الصغرى بعد انتصارهم على الجيش البوزنطى ، فسحقوه سحقاً فى معركة « متزىكرت » سنة ١٠٧١ م . واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس سنة ١٠٧٦ .

(٣) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات ، واستشهد أبو أيوب الانصارى فى حصارها . ومقامه معروف فيها « سلطان أيوب » وأسس لمهد العرب جامع غلظة

«ش»

(٤) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضى الله عنه وطاف فى معاهدها المقدسة . ولما كان فى كنيسة القيامة جاء وقت الصلاة ، فابغى محلاً ليصلى فدعاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلى فيه داخل الكنيسة فقال له : لا ، يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيدعون بالكنيسة وخرج عمر من الكنيسة وصلى فى مكان بنى فيه جامع فيها بعد .

«ش»

الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فجج من أجاج العالم النصراني ، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد ، لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتنعون حرمة النصراني ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلاً

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً ، إنما نزل نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوربة تميد من أقصاها الى أقصاها مشتعلاً بغضا دينياً ومحمدمة غضبا وحنقاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصراني جنونه الكبير ، والتهبب الغيرة الدينية في كل جراحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة داركاً ، لقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب .

فداهية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كانتا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسبباً دائماً في سوء العلاقات بين الشرق والغرب^(١) . ففي سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبئاً بالكف عن العداة ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الأحقاد ، التي ثارت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشي والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أى الفريقين يطمع بعد في الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذلك قد باتت تعد حداً فاصلاً بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علامات ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة ، وناحية منحي جيداً ، فلو قدر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لسكانت أنت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامي كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقاً لاوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفائقاً عليها علماً ومهذبياً ،

(١) لم تكن أوروبا في وقت من الاوقات أقل تعصباً من الترك وان ظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها ، في الحسين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني تجيش ، ونهمته تشتد ، للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته . فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجي من الود الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشر م . بين الشرق والغرب فيما لو قويض له النمو أمداً بعيداً ؟ بل ياترى أى نفع كان أجل من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل ، لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ، ولما كانت الحضارة العربية الاندلسية ، وفيها علوم اليونان والرومان ، قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولما كانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة ، هبت فتناولت الشرق وتغلغلت في أحشائه متغلغلها في الغرب ، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده .

غير ان القدر جرى بغير ذلك . فقد اختفى العربي الدمث الخلق ، اللين العريكة ، وجاء من بعده التركي المتعصب الخشن القاسي ، فعاد الاسلام يذب ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس ، واهتياجه اليوم ! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما يحرك الترك انما هو روح الطمع والقتك وحافر الاستيلاء والغصب . ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد ، وناره تنقد بين الدولة التركية ، والحضارة الغربية التي كان نشوءها مرجواً لها عهدئذ ، ودام هذا العراك قروناً . وما كانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة ، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العدا ، واستحكمت الشناة ، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية ، مما مارحت جراثيمه حية ، وسموم ثماره نامية حتى الآن . وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين ، وبين اليونان في آسية الصغرى ، انما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الاولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هي هذه الحروب بين الترك واليونان في أغوار الاناضول وانجادها .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبحث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية ، ولكن ما يجب حفظه في البال هو ان تلك الحروب ظلت الى اليوم عداً مزمناً ، وعلية دائمة بين الشرق والغرب

أما الشرق الاسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية ، وحناء عنقه للينير التركي الثقيل، أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً أشد وأفدح ، منهأةً عليه كغيرها من الجيل الطوراني . ففي أواخر القرن الثاني عشر ، هبت العروق الشرقية من الجيل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضاً ، مكونة وحدة دامت مدة ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو جنكيزخان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذي لا يغلب » لقباً له ، وطقق زحف ناهباً العالم نهباً . فاكسح في أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحفاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه مالم ير مثله من عات قبله . هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقشعرت منه الأبدان .

زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لا تحصى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون فكان وفرسانه سيلاً جارفاً وناراً آكلة ، وأعظم بلاء حل بالبشرية . لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى لا الغنم ولا الاستلاب غسب ، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبحوا الشعوب تذبيحاً ودكوا المدن دكاً بحيث لم تنج بلاد حل فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات جنكيزخان بعد بضع سنوات من زحفه هذا ، فقام خلفاؤه من بعده واتهبوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ، اذ حاق بأقطار شرق أوربة مثل ما حاق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسية ما برحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندية قط ، فنجت بذلك أوربة الغربية ، لكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسية

استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارقة كل شيء في سبيلها . وقد كانت فارس ؛ وهي اذ ذلك ما برحت منهج الكتائب التركية ، تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدعمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعف كيائها أيما تضعف ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فدوت نضارتها من بعد هارون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد ، على كل هذا ، كانت ما برحت مدينة عظيمة وعاصمة كبيرة ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقضت عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذييحاً . وكادوا يمحونها محواً من على وجه الأرض . على أن هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق سدود الري العجيبة من فجر التاريخ ^(١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهابة أعاصير الصحراء . فكان العراق على الدوام وفيه هذه السدود الكبرى جنة الأرض وهوى العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكفار في البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد . فلما غشى المغول العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقوياً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر . فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشرى ، ومحيت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية ثمانية آلاف سنة على الأقل ، غوى العراق خواءه هذا المشهود حتى اليوم ، وبات مرتدياً حلة من الجفاف المحرق ومنشأاً لوبثة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراه الحفيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابه رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنازلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما في الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى في الغرب

(١) يوجد في العراق ترعة دارة مذبوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسي الامان الذين زاروا تلك البقاع أيام الحرب أنها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله في العمق والطول والعرض «ش»

وهي نازلة الاندلس العربية. وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية، جاز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها، خفقت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ازدهاراً كاد لا يُرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية. وكانت قرطبة عاصمة الاندلس. وفيها كرسى الخلافة الغربية. فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عينها رقبياً وحضارة. وقد عاش مُلك العرب في الاندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً، والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد. فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويوني، وقوتهم تهين، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستتردين منهم البلاد كورة فكورة. وكانت معركة « تولوز » سنة ١٢١٣ م خضت فيها شوكة العرب، وفت في عضدهم فتاً كبيراً. ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الاندلسية، على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق. فذهبت الاندلس من أيدي المسلمين، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة، التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولب بلاد اماركة، ثم بعيد ذلك طردوا منها، فاختمت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب.

وكان الشرق الاسلامي مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأماننا الآن آخر داهية من دواهيهم، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشرم. ففي هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذبيح الخلائق وتدمير البلاد، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر، وأى هرم أكبر من ذلك الذي شيده تيمورلنك من سبعين الف ججمة بعد تخريبه مدينة أصبهان في بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل في الشرق الاسلامي، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين. الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التي جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البوزنطية. وغاب الفضل في تشييد المجد الذي شيده وعزهم الذي

بنوه إنما هو عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحّدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقاً وغرباً . وفي سنة ١٤٥٣ م . ذك الترك صرح الامبراطورية البوزنطية دكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى مرا كش (١) ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها الى أقصاها ، وتغلغلوا في أحشاء هنغارية (٢) حتى بلغوا أسوار « فينا » . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية وذلك لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدّها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا في ايان مجدهم وسلطانهم كانت خيالهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدها العالم ، فارعبوا بها أوروبا رعباً شديداً .

وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح ، وتنشئ حضارةً متدرجة مدارج الرقي والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يشن من الأهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصراني يشعل مصابيح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ومما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولب وفاسكود وغاما يقومون بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى ، وهي اذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنابك خيول التتر المغول (٣) وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين

(١) استولت الدولة العثمانية علي جميع شمالي أفريقية من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من المغرب الأوسط ولكن المغرب الأقصى بقي في حوزة أصحابه «ش»
(٢) بقيت بلاد المجر في حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات معدنية من بنائهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين «ش»

(٣) كانت روسيا هذه التي صارت فيما بعد أعظم دول الأرض تدفع الجزية للمغول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك المغول لأجل تقليد ملكهم . وقد أوغل المغول بعد اسلامهم في بلاد الروسية

من الجنوب الشرقى مهديين قلب أوروبا شرتهديد^(١). هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسية وشمال أفريقيا وشرقي أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهد تستقبل حكم القضاء النازل فإما لها وأما عليها. وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة، مولية ظهرها السور العظيم - سور الاقيانوس، فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاقيانوس، وشرعوا بمخرون عبا به في تلك الليلة الظلماء والفترة العصبية من الأجيال الوسطى. لا جرم، كانت أوروبا في تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس، وترد عنها غاشية البربرية الاسيوية، وما هي الا ايلة وضحاها، فاذا بليل الخطر الاسيوي وقد انجلى، وبلاقيانوس بات طريقاً آمنة، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار، ثم سيدة العالم بأسره.

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار، سارت تستهزئ بجسارة آسية وعنتاتها، وكانت من قبل بردح من الزمن ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء. ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار، فانتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها. ولا يعجب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا تفاد لها، غذاء طيباً لحياتها وصناعتها، فباتت والشرق شتان ماها. فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم، ازاء أماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل في الحضارة الغربية، فانتفضت وهبت من مرقدها، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبارة، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطياً، وقابضة على طلسم العالوم، جادة نحو العصور الحديثة وعلى كل هذا، فقد ظل الشرق الاسلامي جامداً ساكناً، ملتقاً بتخلفان الحضارة

الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية في ليتوانيا أهلها مسلمون يبلغون بضعة عشر الف نسمة، وأكثر منهم باق في بولونيا، وقد سألت بعض أدبائهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الفارات المغولية

(١) لما نزلت بحرية الترك في طولون ونيس نجدة لفرنسيس الأول ملك فرنسا الذي دخل في ذمة سليمان القانوني، أمسك أهل تلك الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك وبقيت القوة البحرية العثمانية أعظم قوة في البحر المتوسط متصرفة بزمام هذا البحر وأوروبا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت في زمان سليم الثاني، وهي الواقعة التي اجتمعت فيها أساطيل النصرانية على الأسطول العثماني فدمرت. ولم ينج منه إلا القليل مع أنه كان أقوى منها بأجمعها وكان النصر متوقفاً له لا لها

العربية التي طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً في ديجور الظلام ؛ ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضععت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا في انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجارة أوروبا اختراعاً وارتقاءً ، ولا تحسین فن من فنون القتال . وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحجة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م . ردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جند العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكره على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولولم تشب نار الحسد بين الدول الغربية ، فتنقطع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شرمزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توات الأیام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر فتامل في مهجعه مستثقلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ، وتضع لها الأقطار ، في شرق أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامي ومعظمه ، من مرا كش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً في هججته ، مستهزناً « بكفرة » أوروبا ، راضياً مساماً أن شقائه إنما هو بمشيئة من الله ، لا يقم لرق أوروبا وزناً ولا يحسب لمستبظاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فإذا بأوروبية تقف بازائه مجنونة بشورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الفاشمتين الطبيعة مسخرة ، مفضوحة أسرارها ، وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة ، إذ لما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الاسلامي ، أخذت

(١) نعم كانوا يعالون انحطاطهم الذي هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الإدارة (ش)

أقطاره يسقط الواحد منها تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسا شمال أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى فكان شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتم إخضاع العالم الاسلامي - ولكن على القرطاس !!

اجل ، تم ذلك على القرطاس لحسب . والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلهما من قبل . كان الشرق الاسلامي طول هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو جان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الظامى ، قد غالى في ايلام الشرق مغلاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامي حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فاخذت نفسه تبحش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تشور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهب الـ ٢٥٠ ، من اتباع النبي محمد ﷺ (١) من مراکش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب في كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعتة لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاءات جرت منذ عشرات من السنين مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاتناء كثيراً فالعلامة ناسن الالماني كان يحزر مسلمي أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون يحصون مسلمي الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً ما يحصونهم ٢٠ مليوناً وهم جراً . «ش»

قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، اذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر ، وهي دعوة الاصلاح الاسلامي ، ثم كان من أمرها ان ترقى واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالنالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحويلات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه لحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تندفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يث في الشرق الاسلامي روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية، وحقوق العمال ، حتى وأ كثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فتوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضيق الاوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حد ، يزيدان في هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فانشأ الاسلام يئيد و يضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجديد عالم اسلامي حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب .

الفتح العربي

للإمير شكيب

حدث الفتح الاسلامي بهذه السرعة التي اتسق بها ، لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا في ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة . وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن . وقد تحير المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون في تعليل سرعة هذه الفتوحات ، فذهبوا فيها مذاهب شتى وأخطأوا وأصابوا ، وليس من الممكن حصر تعليلاتهم في هذا الشأن نظراً لكثرتها ، وانما يمكننا أن نشير ولو بطريق الايماء الى بعضها . فثابليون الذي كان ينظر الى الحوادث من الوجهة العسكرية التي هو عبقرتها الأكبر ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوي بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجحت^(١) في القتال الى الحد الذي صيرها أمة محاربة من الدرجة الاولى ، كما انه كان يظن ان الامم التي تغلب عليها العرب بهذه السرعة العجيبة ، كانت مصابة بعلل اجتماعية كثيرة ، لم يحققها جميعها المؤرخون ، وان ثمة أسراراً لاتزال خافية عنهم . على ان نابليون كان يوفر القسط الأعظم من الحرمة الشخصية لمحمد ﷺ وعمر رضي الله عنه ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ولقد بلغ من اعجابه بمحمد ﷺ ان نوى وهو في مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه . ولقد سأله عن ذلك المؤرخ « لا كاز » الذي رافقه الى جزيرة « سنت هيلانه » وقيد جميع ماسمعه من أحاديثه ، فاعترف له بأنه كان عزم على الدخول في الاسلام ، وتحمل جيشه عليه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق . ثم ان

(١) جربتها وحسنتها - المترجم

المسيو « اتيان دينه » المسلم الفرنسي الذي له المقامات العالية في النضال عن الاسلام، والذي أدي فريضة الحج رحه الله سنة ١٣٤٧ هو وتلميذه الحاج سليمان بن ابراهيم باعمر ، قد نقل في كتابه الذي ألّفه عن الحج ، ووصف به الحرمين ، وثائق رسمية عن قضية اسلام نابليون ، منها وثيقة مؤرخة في ٩ فروكتيدور سنة ٧ أي ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وهي مكتوب نصه : انى أشكرك على ماقت به من تعظيم نبينا . الامضاء : بونابرت . نقلها دينه عن كريستيان شرفيلد : Bonaparte et l'Islam ونقل عنه خطاباً الى الشيخ الميرى عن المقر العام فى القاهرة تاريخه وفق ٢٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ ونصه : « انى أرجوأن لايطول الوقت حتى أجمع جميع عقلاء البلاد ومهذبىها واقمر معهم نظام حكم مبنياً على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقيقية والتى هى وحدها الكفيلة بسعادة البشر . الامضاء : بونابرت »

وتنقل جلة عن كتاب « جورنال غير مطبوع » Journal inédit . الجزء الاول الصفحة ٣٤٨ وهى « كان المشايخ يقولون لى دائماً انى ان أردت أن أكون اماماً فلا بد من أن يدخل الجيش فى الاسلام وأن يلبسوا العمام . ولقد كانت هذه نيتى . الامضاء : بونابرت »
وتنقل عن نقولا من الصفحة ١٢٢ من كتابه النسخة العربية وذلك قول نابليون : « حقاً قد قلت لكم مراراً وأعلنت مراراً فى خطبى انى أنا مسلم موحداً مجتد النبي محمداً وأحب المسامين . الامضاء : بونابرت »

فالى الذى يعلم تاريخ بونابرت حق العلم يفهم ان رجلاً كهذا أوتى من القدرة العقلية ، ومن العزيمة أقصى ما قدر لابطال العالم ، لا يعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله الا بعد اقتناعه بأن هذه الفتوحات المادية والمعنوية التى قام بها الاسلام فى ذلك الوقت القصير ، كانت حادنا غير مسبوق المثال فى التاريخ العام ، وبأن فضائل الاسلام ونبيه وأصحابه كانت باهرة .
ولتنقل لك الآن بعض ما قيل فى هذا الموضوع فى التآليف التى ظهرت حديثاً لأنها نخلت المسئلة نخلًا دقيقاً فمنها كتاب « مدنيت الشرق » لمسيو غروسه الافرنسي

Les civilisation de l'Orient par René Grousset

جاء فيه فى القسم المتعلق بمدنية العرب ما يلى :

« معركتان فى أجنادين والبرموك فتحتا للعرب سورية وفلسين من مملكة البيزنطيين

ثم تبعتهما مصر . ومعركتان أخريان في القادسية ونهاوند مهدتا لهم فارس بأسرها . فالسلطنة الرومانية بعد أن انتزعت منها سورية ومصر وأفريقية ، بقيت لها لذلك العهد آسية الصغرى (الأناضول) بالأقل ، ولكن السلطنة الفارسية الساسانية سقطت في أيدي الفاتحين بتامها . وهكذا امتد سلطان العرب في بضع سنوات من أفريقية ومن جبال طوروس الى سيحون وجيحون ، ولم يلبث ان قطع بعد قليل الى ماوراء النهر ، وفتح بلاد الدول التركية الإيرانية التي كانت تابعة للصين . وقد كان الخلفاء الأربعة الذين في أيامهم اتسقت هذه الفتوحات المدهشة ، متمسكين بمبدأ محمد وباوابع قومهم . كانوا عرباً وبقوا عرباً شيوياً في الصحراء بدون ترف ، ولا زخرف ، ولا قصور ملوكية ، ولا احتياجات . بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين عائشين في المضارب كسائر القبائل الخ .

وظهر تاريخ في هذه السنة اسمه « تاريخ العالم » Histoire du monde للعلامة غودفروا دموميين Gaudefroy Demombynes الأستاذ بمدرسة اللسان الشرقية بباريز ، والعلامة بلاتونوف من أعضاء أكاديمية العلوم الروسية ، تحرى فيه مؤلفاه الى أقصى آماند التحرى ، وذهبا الى أن تاريخ الفتوحات الإسلامية لم يبدأ بالاشراق على ناشديه الا في هذه السنين الأخيرة ، فقد كان مهتد طريق معرفته المستشرقون الذين سبقوا مثل دساي De Saey وكاترمار Quatremère وكوسين دورسفال Caussin de Perceval ورينو Reinaud ودوسلان De Slane الخ واقتنى أثرهم علماء مشغولون ، وفوا التمهيد حقه منهم من جاء بأراء خاصة وجبهة استقلوا بها ، ومنهم من تقدم كثيراً لكن في الطريق التي كانت مفتوحة أمامه ، وربما أدى جزمه بما اعتقده ، وغلوه فيما ذهب اليه الى مناقشات ممتعة . وقد عدّ المؤلفان المذكوران من هذه الخلبة دوزي Dozy ونولدكه Noldke وفيلهاوزن Wellhausen ودوغويه De Goeje وغولدسيهر Goldziher وسنوك هركرونه Snouck Hurgronje الخ

ومما ذهب اليه أصحاب هذا التأليف الجديد انه يجب العدول عن فكرة كون انتشار الاسلام حصل على أيدي الاعراب أو البدو الدافقين من الصحارى لاجل الغزو . قالوا : ان الاولى بان يقال هو ان الحركة حركة مدر لاحركة وبر . وذلك ان طائفة من الناس اجتمعت حول النبي في المدينة من بعد الهجرة وتشبعت بمبادئه ، وصرفت جميع همها الى الدين ،

وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الاسلام . وهؤلاء هم المسلمون . ثم انضمت اليهم طبقات أخرى في زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصاة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن ، الذين بثبتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذي لم تقرأ عليه المؤثرات الخارجية ، والمجادلات الكلامية ، وهو الاسلام القرآني الصرف »

(انظر صفحة ١٤٠ من الجزء السابع من هذا التاريخ القيم) ثم قالوا :

فهذه العصاة المتدينة التي نشأت في المدينة ، جعلت من المسجد النبوي في المدينة مركز حياة « دينية » ، أخذ ينمو ويتسع الى أن انبثقت منه أنوار المعارف الكلامية والفقهية في القرن الثامن (القرن الثامن للمسيح هو مبدأ القرن الثاني للهجرة) . وظهر اولئك الأئمة في علم الشريعة . فالمدينة كانت في القرن السابع (للمسيح) هي قلب الاسلام ومنها كان مبدأ نموه

ولكن كانت خليفة الاسلام تعسّل أيضاً في أثناء الفتوحات بين الجيوش وفي الحميمات وذلك ان من الجند من كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت منهم في وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، محضت الاسلام خلوصاً لا حد له ، وصرفت معظم حياتها الى العمل لاستحقاق الثواب الاخرى . فكانت هذه العصابات تبث العقيدة ، وتبحث على التقوى وتجاهد في طلب سعادة العقبى . وكانت مواعيد الله تتأييد بالفعل في هذه الدار الدنيا قبل الآخرة ، فكان المسلمون يعلون في الأرض ويعزّون ، وكان غير المؤمنين يسفلون ويذلّون ، وانقلبت غزاة البدوى حرباً مقدسة قد أمر بها الله لاعلاء كلمته . وقد كانت تلك النفوس الممتلئة بالحياة الدينية لا تتبع الاما معتقده ، وما يختلج في صدورهما من فهم القرآن الى حد أن عمر ثم عثمان كانا يخشيان الخلاف بين المؤمنين من أجل القراءة (هذا صحيح فقد روى عن ابن عباس انه نهى عن أن يتسارع الناس في القرآن فساء كلامه هذا الخليفة عمر فسأله : لماذا قلت هذا ؟ فاجابه ابن عباس : يا أمير المؤمنين متى سارعوا اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال له عمر : لله أبوك لقد كنت اكتبها للناس) . فقد كان اذا رأى عمّ ديني يدير حياة المجتمع الاسلامي ، بل سياسة الأمة الاسلامية . ولقد رأينا في وقعة صفين كيف اتفق أناس من جيش على مع آخرين من جيش معاوية على طلب التحكيم . ثم لما هدأت ريح الفتوحات وسكن الناس عادت حلقات قراء القرآن الى مساكنها وعاداتها

الخصرية ، وتألف منها حول الخليفة وحول ولاة الأمصار مجالس الشورى التي يعتمد عليها الامام ، والتي كانت مركز الرأي العام » انتهى

وهذا الرأي هو ما نراه نحن . وهو أن الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارة الصدور به الى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الامم . وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقت أو غلظت ، الا تبع لها ، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح . فكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مراسم العرب للقتال أو حب البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم ، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها ، وغير ذلك ، فهذا تضيق للمعنى الحقيقي ، وزيف عن شاكلة الرمية ، وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس ، خارقة للعادة . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان الا بعد بعثة محمد ؟ ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى فتوحات أمته من بعده ، ورؤى عنه حديث : « زويت لي مشارق الأرض ومغاربها ، وسيلبع ملك أمتي مازوى لي منها » .

وقد قال امام المستشرقين غولد سيهر في كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » في الفصل الأول منه ، قولاً فصلاً في قضية : هل كان النبي نبياً قاصراً دعوته على العرب كما يذهب اليه بعض من يريدون تنقُص الاسلام ، أو كان معتقداً برسائه الى العالمين كافة من الأجر والأسود وأورد الأدلة التي تفحم كل مجادل ، على كون محمد رأى نفسه مبعوثاً الى البشر عامة ، وأنه في آخر حياته جعل يرأسل الملوك الذين خارج الجزيرة مما لا يبقى معه شك في نيته دعوة جميع الخلق الى الاسلام . قال : ولقد لحظ « نولدكه » أن محمداً كان قد رسم خططاً لم يكن يرتاب في أن يجد الرومان على طريقه فيها أعداء محاربين ، فان آخر غزاة أغزاهها كانت الى أراضي الدولة البيزنطية . ثم ان الغزوات التي غزاهها من بعده خلفاؤه وأدرى الناس بمقاصده تنبئ بكونهم عاموا أن بعثته كانت عامة لا محصورة في الجزيرة

ولقد قرأت في تواريح كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين في هذا الحادث العجيب ، الا وهو سرعة نمو الاسلام وتبسطه ، ومنها تأليف حديث العهد اسمه « العالم الاسلامي » لكاتب

اسمه «ماكس مايرهوف» قال فيه :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف ان أعراباً منقسمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة »
والجواب ان هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل اذا نظر الى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في اتباعه .

وقد جاء في الفصل الرابع من الجزء السابع من « تاريخ العالم » المتقدم الذكر للاستاذين « غودفروا دمونيين » و « بلاتونوف » أن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار، لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تعد تدفقت على الشرق المتمدن. فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تمام عددهم ٢٤ الفاً . وأما عدد الروم فقال العرب انه كان مائة الف وقيل ١٢٠ الفاً ، وقيل ٢٠٠ الف مقاتل . ولم يزد مؤرخو بيزنطية على ٤٠ الفاً . وعلى كل حال كان العدد الاكبر لأعداء العرب. وهكذا في حروب فارس . فالسبب في ظفر العرب برغم قلة عدد جيوشهم، بالقياس الى أعدائهم، هو ما جاء في الفصل الثالث من ذلك الجزء. وهو أن قوة الايمان ونهضة التحمس الديني كانتا متصلتين بحب الغنائم الذي يحجب الى هؤلاء القوم الغزوات والغارات . ولكن العرب في هذه الفتوحات التي علمتهم أشياء جديدة لا تحصى ، أثبتوا لأنفسهم مزايا ناشئة عن طبيعة حياتهم الاجتماعية ، من الصبر والقناعة والحنق وحسن التخلص وشدة الحماة في حال النصر الى أن يعاودوا على درجات أنفسهم . ولئن لم يكن زال من بينهم حب المنافسات الشخصية التي هي معروفة بشدتها بينهم ، فقد كان دخل بينهم عنصر وحدة لم يكن معهوداً من قبل، ألا وهو عامل الوحدة الدينية ، وطاعة الرسول ، فأصبح البدو الذين لم يعرفوا الطاعة لمخلوق يمتثلون أوامر قوادهم . وكان العرب بطبيعتهم أهل بأو وخيلاء ، يبذلون النفوس والنفائس لأجل الفخر ، فانضم الى خلقهم هذا اعتقادهم الجديد بانهم شعب الله الخاص الذي بعث الله منه خاتم رسوله

اتتهى

وقال « ولز » الفيلسوف الكاتب الانكليزي الشهير الذي لا يزال حيا وذلك في

الصفحة ٣٠٣ من كتابه « مختصر التاريخ العام » :

« إذا كان القارىء يتخيّل أن موجة الاسلام قد غمرت بهذا الفيض الذى فاضته بعض مديّنات شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً . فإنّ الاسلام قد ساد لانه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخّضت به الأعصر . وأنّ الاسلام قد ساد لانه فى كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلمّا جاءها الاسلام لم يجد الاّ حكومات مستبدّة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها وبين رعاياها . فأدخل الاسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر ، ومدّ الى البشرية يد المعونة . وقد كان لمن ظهور الاسلام نظام رأس المال فى السلطنة الرومانية مبنياً على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوبد الاجتماعية آخذة بالانحلال . ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الا عند ما بدأت البشرية تشكّ فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة »

يريد ولزأن يقول أن الاسلام برى بما عممه المسامون الذين لم يحسنوا تمثيله .

فى هذا القدر مقنع لمن أراد أن يخوض هذا البحث بقطع النظر عن العقيدة الاسلامية ، بل بالوقوف موقفاً متحايداً لا للاسلام ولا عليه . فاذا وقف القارىء هذا الموقف من الحيطة كان لا بدّ له من أن يحكم للاسلام وأن يحكم بتحمّل أعدائه عليه بغضا وعدوانا .

البعثة المحمدية

وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاور بين
في النبي صلى الله عليه وسلم

المنصف منهم والمعرض

للشيخ

منهم : —

Grousset	غروسه
Montet	موتته
Dinet	ايتان دينه الفرنسي المسلم
Dozy	دوزي
Noldeke	نولدهكه
De Goeje	دوغويه
Sprenger	شبرنغر
Snouck- Hurgronje	سنوك هركرونيه
Grimme	غريم
Margoliouth	مارجليوث
Huart	هوار
Goldziher	غولد سيهر
Gaudefroy Demombynes	غودفروا دمومبين
Wells	ولز
Voltaire	فوانير

وسواهم : —

قال غروسه صاحب «مدنيّات الشرق» : «كان محمّدٌ لمّا قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجيّداً ، ملآن حساسةً لكلّ قضية شريفة ، وكان أرفع جداً من الوسط الذين كان يعيش فيه . وقد كان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يفتنون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً ، فاراد أن يؤسس لهم حكومة ديمقراطية موحّدة . وكانت لهم عادات وأوابد وحشية تقرب من الهمجية ، فاراد أن يلطّف أخلاقهم ويهدّب من خشونتهم الخ »

وقال الاستاذ «موتته» Montet استاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في كتابه «محمد والقرآن» مايلي : «أمّا محمّدٌ فكان كريم الاخلاق حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ ، والافتناع التام بما يعمل به ويقوله »

وقال الاستاذ موتته في كتابه المذكور صفحة ١٨ مايلي بالحرف : —

« ان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص . فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم الا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن السكال بهاتيك الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الانسانية في الدين وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني اسرائيل الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم .

ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لانه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها »

وقال في صفحة ٢٢ مايلي :

« ان الديانة الاسلامية كعقيدة توحيد ، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الاخرى الا ان ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً وقد سماها محمد «الاسلام» اشارة الى تمام الانقياد لارادة الباري تعالى وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية الا ان عقيدة هذا الانقياد لارادة الله تتجلى من القرآن بقوة لاتعرفها النصرانية .

وقد بقي في الاسلام من عادات العرب القديمة تعدد الزوجات والرق الا ان الاسلام جعل

للاولى حداً ، ولثانية شروطاً من حسن المعاملة ، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين ان قال : ماخلق الله شيئاً أحب اليه من تحرير الرقيق ولاحلل شيئاً أكره اليه من الطلاق

ولقد منع القرآن الذبائح البشرية ، ووأد البنات والجر والميسر ، وكان هذه الاصلاحات تأثير غير متناهٍ في الخلق بحيث ينبغي أن يُعدَّ محمد في صف أعظم المحسنين للبشرية . ثم ذكر موته أركان الاسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقال ان حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة — ليكون دائماً بعيداً عن الشر — وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الانسان ، وحكمة الحج هي توطيد الاخوان بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية . قال موته : « فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتاً بازاء عواصف الدهور الدهارير »

ولا يزال الاستاذ موته حياً يرزق وهو من علماء جنيف ومن كبار أساتيد جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن .

ومن ألفت الكتب في السيرة النبوية كتاب للمسيو « اتيان دينه » الافرنسي الذي أسلم وحج وألّف كتاباً عن حجته الى البيت الحرام من أبداع ما كتب في هذا العصر كما ان كتابه عن حياة النبي ﷺ لا يقل عن كتابه في الحج في سلاسة عبارته ، ودقة معانيه ، وقوة حجته ، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتي هي أحسن . ومن بدائع تأليف « دينه » Dient كتابه في الرد على لامنس اليسوعي ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الاسلام والرسول عليه السلام وهو المسمى « انك لي واد وانا لي واد »

فالمسيو دينه يبين فساد طريقة هؤلاء الاوربيين الذين حاولوا أن يحلوا السيرة المحمدية ، وتاريخ ظهور الاسلام بحسب العقلية الاوربية ، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً لان هذا غير هذا ولأن المنطق الاوربي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الانبياء الشرقيين قال « دينه » ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الاسلوب الاوربي البحث لبشوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من

هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنى لهم شيء من ذلك ؟
الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شيء جديد .

بل اذا أنعمنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون ، من فرنسيس
وانكليز وألمان وبلجيكين وهولانديين الخ . لانجد الا خلطاً وخبطاً ، وانك لتري كل واحد
منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره .

ثم أخذ « دينه » يورد الأمثال على هذه التناقضات فنها أن المستشرق دوزي
الهولاندي قال ان محمداً لم يكن يشبه قومه ، فقد كان ذا تصور قوى ولم يكن عند العرب
مثل هذا التصور ، وكان ديناً بطبيعته ولم يكن العرب دينيين .

وان لامنس قال بازاء ذلك ان محمداً كان شبيهاً بقومه وان هذه المشابهة هي التي
كانت سر نجاحه بينهم .

وقال دوزي ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام في الأودية
البعيدة ، ويطيل التأمل في الليالي .

وعارض لامنس في هذا الرأي وقال انه لا ينطبق على المعهود من كراهية محمد للعزلة
ومن شهرة نفوره من الناسك .

وقال « نولدكه » ان سبب الوحي النازل على محمد والدعوة التي قام بها هو ما كان
ينتابه من داء الصرع .

وقال الاستاذ « غويه » De Coeje ان هذا الافتراض ليس بصحيح لأن الذاكرة
عند المصابين بالصرع تكون معطلة ، والحال هي بالعكس عند محمد الذي كان يتذكر كل
ما يسمعه في أثناء هذه النوبات .

ويقول الاستاذ « شبرنغر » Sprenger انها نوبات هستيرية . ويرد عليه الاستاذ
سنوك هركرونه Snouck Hurgronje بقوله انها ليست من هذا النوع .

ويقول الاستاذ غريم Grimme ان مبادئ محمد اشتراكية لا دينية . وانما جعل
لها صبغة دينية لأجل تمكينها .

ويرد عليه سنوك هركرونه قائلاً بان مدار نبوة محمد هو البعث واليوم الآخر .
ويزعم « مارغليوث » Margoliouht وهو أخصب المستشرقين وأشدهم بغضا لمحمد وهو

الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في النظرية الساقطة بان شعر الجاهلية موضوع بعد الاسلام - ان محمداً كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية وعلامات يتعارف بها مع أصحابه وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق مناكبهم الخ وقد رد على مرغليوث هذا جون باركنسون Parkinson في المجلة الاسلامية Islamic review سنة ١٩١٥

ونسب لامنس اليسوعي الى محمد الاكثار من الطعام ، والشراه ، والاسترسال في اللذات البدنية وقال انه مات بالبطننة . وزعم « بينه سانغله » Binet Sanglé انه كان سيء الغذاء صابراً على الجوع متقشفاً ومات من الضعف . كتب هذا في كتابه المسمى « بجنون يسوع » في الجزء الثاني من هذا الكتاب (هذا الكتاب أربعة أجزاء) وقال « هوار » Huart انه توفي بذات الجنب . وقال الأب باردو زعيم مبشرى الصحراء انه مات مسموماً سمته امرأة يهودية .

قال « اتيان دينه » وان أردنا استقصاء هذه التناقضات التي نجدتها بين تمحيصات هؤلاء المحصنين بزعمهم يطول بنا الأمر ولا تغدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبقى أمامنا الا أن نرجع الى السير النبوية التي كتبها العرب . نعم انهم كتبوها بأسلوب شري ساذج . وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس الا أن الذي يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة . فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية ، شديدة التدقيق ، فلم يتفقا منها ولا على نقطة مهمة ، وبرغم جميع ما نقبوه ونقروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا ولن يصلوا الا الى تمثيل أشخاص في تلك السيرة ليسوا أعرق في الحقيقة الواقعية من أبطال أفاصيص فالترسكوت واسكندر دوماس . فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدر أن يفهمهم ولم يلحظوا الا اختلاف الأدوار بينهم . أما أولئك المستشرقون فنسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدوا الهوة السحيقة التي تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجونهم وانهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقفوا في الوهم في كل نقطة .

هل يتوقفون عند هذه الملاحظة ويعلمون أن طريقهم هذه لا تنفذ الى حقيقة ؟
الجواب : لا نظن ذلك . وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون الايمان ببدع غير مسبوق .

ثم نقل « دينه » قول « سنوك هركر ونيه » عن كتاب « غريم » في ترجمة الرسول وهو أن غريم أراد الابداع والاطراف فجاء بصورة غير صحيحة .

ثم ذكر « دينه » كيف ان الأب لامنس اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاح متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الانجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب ادخاله في الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر في افريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين . فلذلك زعم الأب لامنس أن يشنها على الاسلام غارة شعواء ويحمل عليه حجة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الاسلام ! الا أن حالة عقلية كهذه يقول « دينه » انها لا تلتئم مع بحث علمي مبني على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض . ثم جاء « دينه » رحمه الله بالأدلة القاطعة على سفسطات لامنس وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذي لا تتوخى فيه الا الإشارة والدلالة محيلين من شاء التوسع في هذا البحث على الكتب نفسها .

ان الكتابات في أوروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ودينه ، وشرعه ، والملة الاسلامية بحر لا ساحل له وفيها الغث والتمين ، والحالي والعاطل ، والحق والباطل ، ومن مؤلفيها المحب والقالى ، والمنصف والمتعسف ، والناصح والكاشح كما هو الشأن في كل أمر . ولكن العصر الأخير في أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس الى الأعصر التي سبقت كما يظهر من الشواهد التي أتينا بها من قبيل انموذجات . ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الاوربيين روح « التضحية » كما يقال ونشروا للاسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة لا مكنهم أن يصححوا أباطيل كثيرة وبددوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم وبيديهم وبنبيهم ، ولاهتدى في أوربة الى الاسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً في مجرى السياسة العامة

ولكننا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الاسلام يناصبونه القتال في كل سهل وجبل وفي كل بر وبحر ولا تبرح مكافئة الاسلام لهم هي في نسبة الخردل الى الجنادل . فمتى ينشط الاسلام من عقاله ويستأنف همته الأولى ؟ هذا مالا يجابوب عليه غير المستقبل . انتهى

وقال المؤرخ الفرنسي الشهير « لافيس » « انه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين الخ » .

وقال « غولد سيهر » سيد المدققين ، وحجة المستشرقين ، في كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » في الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلي :

« ان دعوة النبي العربي كان فيها نخبه مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ، ورآها جذيرة باحياء الشعور الديني بين قومه . ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى في نظره ضرورية لتثبيت سير الانسان بحسب الارادة الالهية ، فتلقيها هو بصدق وأمانة ، وبمقتضى الهام أيده فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحياً الهياً كان هو مقتنعاً بكونه وحياً الهياً نازلاً على لسانه »

اننا ننبه قراء هذا الكتاب الى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم في حق محمد ﷺ ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك اننا لانرى حاجة الى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . وانما نريد أن نقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيهم انهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التي نشأوا عليها ، وانما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، وبعوا التحري جهد طاقتهم . وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقولهم أن محمداً كان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان معتقداً بان الله ابتعثه لهداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين القيم ، وكان مقتنعاً بان الله تعالى يوحى اليه ، وأنه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به . وهذا هو الرأي السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التي كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الاسلامي منهم يوجهونها الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطبعون بها ناشئتهم ويجعلونها مداراً لدعايتهم .

وأما قول « غولد سيهر » ان الاسلام فيه نخبه مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شيء يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن الا مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى .

وقال « ماكس مايرهوف » في كتابه « العالم الاسلامي » الصفحة العاشرة : « ان محمداً في سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكير ، والانفراد ، وكان يقصد الى البادية ويخلو بنفسه في

جبل حراء بقرب مكة . فرأى ذات يوم رؤيا ، هي أن الملك جبريل تجلى له وناولته كتاباً ، وقرأ عليه هذه الآيات التي هي السورة السادسة والتسعون من القرآن : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له . ثم جاءه وحى آخر فيما بعد ، فلما شعر به تغطى بثوب وسمع هذه الكلمات : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَيْبَأُتْكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ومذ ذاك الوقت اقتنع بان الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة ، وتسمى برسول الله ، ايدعو الى الله بلسان عربي مبين . الى أن يقول : « أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي ، أو بدء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله الى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا ، كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول »

وأما « غودفروا دمبومبين » و« بلاتونوف » في « تاريخ العالم » فقد وصلا من التدقيق والتمحيص الى حد لا أعرفه لمؤرخ وبلغ منهما ذلك أن قالوا : « ان النصرانية لا يزال أصلها مجهولاً » كما اني رأيتهما في كثير من الأمور المجمع عليها في الاسلام لا يرحمان متوقفين في الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان : « انه غير ممكن الجزم بصورة حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم . وكل ما هناك انما هو الروح التي تتجلى لهم في تواريخهم التقليدية وفي كيفية تمثيل الخلف اصورهم . ولا شك في أنه يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا عاجزين عن ذلك هنا . وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرته محمد من الكذب ومن المرض . وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب اهلية عليا ، ساد بها أبناء عصره ، وهي رباطة الجأش ، وطهارة القلب ، وجاذبية السمائل ، ونفوذ الكلمة . وأنه كان عبداً عظيماً ، وأنه نظير جميع العباد العظام كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التي هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، وبين ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة »

وجميع هؤلاء - تقريباً ، وولز الانكليزي أيضاً ، وهو ممن تناول النبي ﷺ بشيء

من النقد ، قد أجمعوا على أن من أنصح الأدلة على صدقه كون أهله وأقرب الناس اليه هم أول من آمنوا به . فقد كانوا مطلعين على جميع سرأثره ، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا .
وبرغم انتقادات « ولز » التي حادفيها عن الصواب ، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله : « ان ديانه محمد كان فيها روح حقيقية من العطف ، والكرم ، والاخاء ، وكانت بسيطة ، مفهومة ، سائغة ، وكانت ملائمة بكارم الأخلاق ، وعلاو النفس ، والمعالي التي يشغف بها أهل البادية »

وقال العلامة هوار « Huort » أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب « تاريخ العرب » المتداول بين الأيدي وذلك في الصفحة ٩٤ من الجزء الأول:
« كيف تعرف محمد الى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على ثقته ويتزوج بها ؟ الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا . وأما على الثاني فقد اتفقت الأخبار على أن محمداً كان في الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أي بالرجل الثقة المعتمد عليه الى أقصى درجة ، أي كان المثل الأعلى في الاستقامة » ثم انك لا تجد في « تاريخ العرب » للاستاذ « هوار » كلمة واحدة تدل على أن محمداً كان مرآنياً أو مداجياً ، أو كان يقول مالا يعتقد أو يعتقد مالا يقول .



وقد ذكر « كارادوفو » المستشرق الافرنسي الفاضل صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » les penseurs de l'islam في الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ وتحرى فيها مزيد التحري ، ودقق أشد التدقيق ، واتهى الى القول « بان محمداً من سن الخامسة والعشرين الى الأربعين كان كثير التفكير ، هادئاً ، ساكناً ، وكان حليماً ، تقياً ، حسن الأخلاق ، وأنه عند ما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية الى جهة التأمل في جوهر الألوهية ، والبحث عن الحقيقة الدينية ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه في غار بقرب مكة اسمه حراء . وكان محمداً أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن فيلسوفاً ولكنه لم يزل يفكر في هذا الأمر الى أن تكونت في نفسه بطريق الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالفضاء على الوثنية »
فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالاسلام ، ولم يعتقدوا بالوحى

المتنزل على محمد ﷺ لكنه ذهب الى أنه عرف الحق بطريق التأمل ، والقذف في الروع ، مما لا يبعد كثيراً عن العقيدة التي عليها المسلمون .
 ولقد تعرض « كارادوفو » الى خرافة الراهب بحيرا التي يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذي كان علم محمداً العقيدة وهو الذي ألف القرآن ، وقال ان هذه الأسطورة موجودة ، وأنها مكتوبة بالعربي ، وأنه كان نشر عنها فصلاً في مجلة « الشرق المسيحي » ولم ير فيها شيئاً يستحق الاعتبار ، ولكنه لا يزال في سورية قيسون من الفئة التابعة لرومة يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد ، وأنه هو الذي لقنه القرآن وقد ذكر « كارادوفو » ما قيل عن بحيرا انه كان راهباً من انطاكية ، ذهب سائحاً الى جنوبي سورية ، وتوغل في صحراء سيناء ، ثم ذهب الى بلاد العرب يعلمهم دين جددهم اسماعيل الخ الا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله « خرافة » .

وكيف لا تكون خرافة القصة التي تجعل مثل بحيرا الراهب الاعجمي ينطق بمثل القرآن الذي عجزت عنه مصافح خطباء العرب ، وغول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا ، ولعل أصل هذه الخرافة التي لا يخجل بعض الناس من روايتها أو الإشارة اليها، ما يرويه المؤرخون من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب مع عمه أبي طالب الى الشام في قافلة ، وكان في الثانية عشرة من العمر ، وأنه لما مر أبو طالب والقافلة ببصرى دعاهم الى الطعام راهب اسمه بحيرا . فلما صاروا حول الخوان قال الراهب انه معكم صبي لا يزال غائباً فلماذا لا يحضر؟ فاستدعوه فحضر . وطفق الراهب يساله أسئلة ويستحلفه بالللات والعزى أن يجابو عليها فأجابه الصبي بما يشعر اقتشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى ، ووجد الراهب من أجوابه ومن سيماه أنه هو النبي الذي رأى صفته في الكتب ، والذي سيكون خاتم الرسل . وأوصى الراهب أبا طالب بان يحضر علي ابن أخيه من اليهود .

قد نقل هذا الخبر ابن هشام في السيرة النبوية . ونقلها أصحاب « الانسيكلو بديا » الاسلامية عن ابن هشام . وقالوا ان بعضهم يزعم أن أبا بكر كان في هذه الواقعة . ثم قالوا ان المسعودي ذكر ان اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس . وذكر الحلبي أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس .

وقرأت في تاريخ أبي الفرج الملقب "الأسقف المسيحي" ان الراهب لما رأى محمداً ﷺ مع عمه تفرس فيه وقال : سيكون لهذا الصبي شأن عظيم ويذيع شكره في المشارق والمغرب

وجاء في « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أن اسم « بحيرا » الذي كان الراهب يعرف به هو اسم آرمي معناه « المنتخب » وقد تواردت هذه القصة في السير الاسلامية لاثبات ان رهبان النصرى كانت عندهم علامات على ظهور النبي ﷺ قال أصحاب « الانسيكلو بيديا » المذكورة في ترجمة الراهب بحيراً ان مؤرخى بيزنطية قد ذكروا هذا الراهب من قديم وقالوا ان بحيراً كان اسمه سرجيوس وفقاً لما ورد في كتب المسلمين .

الا ان هناك اختلافاً في سرد الخبر :

وذلك ان تيوفانس وجيورجيوس فرانتس ، يقولان في تاريخيهما انه لما خيل لمحمد ظهور الملك جبريل لأول مرة ، وأصابته تلك الرعدة ، خافت عليه زوجته خديجة ، وذهبت الى راهب مبتدع كانت قد طردته الكنيسة اسمه سرجيوس ، فروت له ما حصل لزوجها ، فقال لها انه لا يظهر الملك جبريل الا للانبيا .

وأما قصة بحيرا التي نعتها « كارادوفو » وجميع المحققين بلفظة « خرافة » ويقول أصحاب « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أنفسهم — وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الاسلام — ان مقصد من كتبوها هو اثبات عدم صحة النبوة المحمدية لاغير فهي قد ظهرت في القرن الحادى عشر أو الثانى عشر للمسيح ، ولها نسخة بالعربى ونسخة بالسريانى ، وقد ذكر أصحاب « الانسيكلو بيديا » ان اسم مؤلفها « ايشوياب » وانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول ذكر الدول الممالكة الاسلامية التي كوشف بها الراهب بحيرا وهو على جبل سيناء . الثانى ملاقة سرجيوس مع محمد في بادية يثرب وتعليمه اياه العقائد والشريعة ، والقسم الذى ألفه له من القرآن . الثالث كهانات سرجيوس وما حكاه من أمور الغيب التي تحققت على نحو ما جاء في القسم الأول .

وبالاختصار اخترعوا هذه الاكاذيب اختراعاً على أمل ادخال الريب والشبهات فى نبوة محمد ﷺ ، وفى نزول الوحي عليه ، وفى كيفية دعوته الى الاسلام ، وفى نشوء ملته وشريعته ، ولكنه لم يخف افتراؤهم هذا على قومهم ، فردّوه بالاجماع تقريباً ، وسلّموا ان أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التي قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صبيّاً مع عمه الى الشام ، ورآهما الراهب فى بصرى . وهى كلمة تزيد الدلالة على صحة رسالته ﷺ

(وَيَأْتِيُ اللَّهُ الْأَنبِيَاءَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

ولو أردنا أن نورد كل ما جاء في كتب المحققين من الاوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننتهي ، وانما أوردنا بعض هذه الاموذجات مثلاً نكتفي به عن غيره . ويقال ان « كارليك » الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الاوربيين الأوائل الذين شدوا التكبير على المطاعن الاثيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد ألقوها بأذهان الاوربيين في حق الرسول العربي الكريم .

وسأختم هذه الحاشية بنقل مقاله « فولتير » رأى ملاحدة اوربة بحق محمد ﷺ وذلك ان « البرنس تسينسندروف » النمسوي الذي تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه كان في أيام شبابه جاء الى سويسرة ، وزار كلاً من « فولتير » و « جان جاك روسو » ، وذلك في شهرى سبتمبر و اكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة ، محفوظة في دار الآثار الوطنية في فيينا ، قد اطلع عليها المسيو « لوفال » الافرنسي ، وأرسل عنها مقالة الى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ اكتوبر ١٩٢٤ . وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة « الزهراء » عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها ان فولتير في أحد مجالسه مع البرنس « تسينسندروف Zinzendorf » أجرى ذكر « لوتير » و « كلفين » فقال للبرنس : « انهما لا يستحقان أن يكونا صانعي أهدية عند محمد » ومن المعلوم ان الاوربيين لاسيا الامم البروتستانتية منهم ، يعتقدون انه لولا الاصلاح الديني الذي قام به « لوتير » و « كلفين » لما انبثق فجر الحرية في اوربة ، ولما كانت القرون الوسطى قد امتدت الى عصرنا هذا . فأمّا « فولتير » فقد رأهم مقصرين رجعيين ناكسين على الاعقاب ، لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي أعلنها محمد ، مع انه قد تقدمهما في الزمن . وهذه شهادة ملحد لم يقرن به أحد في ملاحدة الدهر ، ولا تمارى أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الافرنسية .

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في « الزهراء » أسباب اهتمامي لهذه الجلة التي قالها « فولتير » عن مقايضة « لوتير » و « كلفين » الى محمد وهي : ان بعض النشء الجديد لا يعتقدون بشيء ولا يحفلون بأمر مالم ترو لهم فيه كلاماً عن فيلسوف اوربي عظيم ، لاسيا اذا كان من كبار الملاحدة .

وأى فيلسوف لعمرى أعظم الحداً ، وأى ملحد أشهر فلسفة ، من « فولتير » الذي لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله ، ولغد انطقه الحق بما نطق به كما رأيت .

السيرة النبوية

وكتاب

« حياة محمد » لاميل درمنغهم

Emile Dermenghem

للأمير شكيب

— ◊ —

- الحديث والتحديث .
- تفاوت الأئمة المجتهدين في الاكثار والاقلال منهما .
- درمنغهم يصف أول ما أنزل على النبي ﷺ من الوحي .
- قضية صلب المسيح واختلاف الاسلام والنصرانية في كفيتهما .
- مقارنات بين عقائد اسلامية ومسيحية في عيسى عليه السلام .
- جمع القرآن وكيفية ثبوت مصحف عثمان .

حياة محمد لاميل درمنغهم .

قد أثار الانتباه لهذا الكتاب المؤلف بالفرنسية ما نشره الدكتور حسين بك هيكل تحت عنوان « حياة محمد لدرمنجم نقد وتعليق » في ملاحق جريدة السياسة الغراء الذي يوالى نشر مقالاته في أعدادها الأدبية ورده على درمنغهم مما جعل كل من يقرأ مقالات الدكتور هيكل في اشتياق الى معرفة ما كتبه درمنغهم لأنه لم يأتي بشيء مما قال درمنغهم بل علق ونقد بدون أن يترجم مقاله بخلاف الأمير أبقاه الله (الناشر)

وَمِنْ كُتُبِ فِي هَذِهِ السَّنِينَ الْآخِرَةِ فِي مَوْضُوعِ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَحْمُودِيَّةِ الْمَسِيوَامِيلِ دِرْمَنْغِيهِم Émile Dermenghem مِنْ كُتَابِ الْفَرَنْسِيِّسِ وَمِنْ أَقَامِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَمَا ظَلَمَ الْمَسَالِمِينَ وَهُوَ وَانْ كَانَ مَسِيحِيًّا كَاتُولِيكِيًّا ، فَمِنْ الْمَسِيحِيِّينَ ذَوِي الْوُجْدَانِ وَالْمِيلِ إِلَى الْإِنصَافِ . وَلَمَّا أَقْدَمَتِ الْحُكُومَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى الْغِيَاءِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، مِنْ بَيْنِ الْبُرْبَرِ ، وَأَخَذَتِ تَنْشُبَتْ بِالْوَسَائِلِ الْمُتَعَدَّةِ لِأَجْلِ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَتَرِيَّتِهِمْ فِي النَّصْرَانِيَّةِ ، كَانَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ أَقَامُوا النُّكْبَرِ عَلَى هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَرَأَاهَا مَخَالِفَةً لِمَصْلَحَةِ فَرَنْسَا وَمَاسَةِ بَكْرَامَتِهَا فِي الْعَالَمِ ، وَقَدْ نَشَرَ رَأْيَهُ هَذَا بِدُونِ مَحَابَاةٍ فِي الْجِرَائِدِ .

فَأَمَّا كِتَابُهُ فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فَقَدْ أُسْمِيَ « حَيَاةُ مُحَمَّدٍ » وَهُوَ مِنْ أَهْمِ الْكُتُبِ وَقَدْ صَدَرَهُ بِمَقْدَمَةٍ يَقُولُ فِيهَا : « إِنَّهُ لَا يُوجَدُ وَاحِدٌ فِي الدُّنْيَا أَمَكَّنَهُ أَنْ يَنْكُرَ وَجُودَ مُحَمَّدٍ ، وَلَكِنْ وَجُدَ مِنْ يَنْكُرُونَ بَعْضَ مَا جَاءَ فِي تَرْجُمَةِ مُحَمَّدٍ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي النُّقْدِ وَالْإِعْتِرَاضِ حَتَّى يَقَعَ فِي الظُّلْمِ ، أَمَا أَنَا فَقَدْ جَعَلْتُ كِتَابِي سِيرَةً حَقِيقِيَّةً مَبْنِيَّةً عَلَى الْمَنَابِعِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ بِدُونِ إِهْمَالِ جَمِيعِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ تَدْقِيقَاتُ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْآخِرَةِ . وَقَدْ أُرِدْتُ أَنْ أُمَثِلَ لِمُحَمَّدٍ صُورَةَ مَطَابَقَةٍ لَهُ بِقَدْرِ الْإِسْتِطَاعَةِ كَمَا فَهَمْتُهُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي قَرَأْتُهَا وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ فِيهَا وَمِنْ مَشَافَهَةِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ . فَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَيَاةٍ بَشَرِيَّةٍ تَنْطَوِي عَلَى تَعْلِيمٍ ، وَكَانَتْ كُلُّ حَادِثَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى مَشْهَدٍ يُمَثِّلُ حَقِيقَةً مِنَ الْحَقَائِقِ ، فَكَمْ يَكُونُ مُؤَثِّرًا وَمُفِيدًا لِتَلَاقِي مَعَ رَجُلٍ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمْ جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ » . وَقَالَ : « إِنَّ مِنَ الْمَنَابِعِ الْأُولَى لِسِيرَةِ مُحَمَّدٍ الْقُرْآنَ وَالسَّنَةَ . فَالْقُرْآنُ هُوَ أَوْثَقُهَا سِنْدًا ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ شَامِلٍ الشُّمُولِ الْكَافِي فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَبِرَغْمِ جَمِيعِ مَا تَحَرَّاهُ الْمُحَدِّثُونَ ، لِأَسِيَا الْبُخَارِيِّ ، فِي جَمْعِ أَقْوَالِ الرَّسُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِأَقْلِ إِشَارَةٍ مِنْ شَارَاتِهِ وَتَرْجُمَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَوَى عَنْهُمْ الْحَدِيثَ مُسَلَّسًا وَمُعْتَمَدًا ، لَا يَزَالُ فِيهِ كَثِيرٌ مِمَّا هُوَ مَحَلٌّ لِلشُّبُهَةِ ، وَمَا هُوَ مَوْضُوعٌ ، وَمِنْ الْجَمَلَةِ أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى النَّبِيِّ مَعْجَزَاتٍ كَانَتْ نَسَبَتْهَا إِلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَالْحَالُ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ كَوْنُ النَّبِيِّ نَفْسَهُ مَا دَعَى الْمَعْجَزَاتِ . وَلَيْسَ بِالسَّهْلِ تَمْحِيفِ جَمِيعِ الْأَحَادِيثِ وَمَعْرِفَةِ الصَّحِيحِ فِيهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ قَدْ وَقَفَ عَلَى عِلَلِ التَّحْرِيفِ وَالْوَضْعِ . وَمَا لَشُكِّ فِيهِ أَنَّهُ بَعْدَ الْغَرَبَةِ التَّامَةِ يَبْقَى عِدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ مُحَقَّقًا تَحْقِيقًا رِيَاضِيًّا وَذَلِكَ بِمُقَارَاتِهِ بِشَوَاهِدٍ أُخْرَى

و بتطبيقه على المكان والزمان والبيئة والاضاع التي كانت . كما ان منها ما يترجع صحته . وقدقال المستشرق سنوك هرثرونيه Snouck Hurgronje انه ليس من السداد في شيء انكار حديث لايمكن تبين السبب الذي يقال انه وضع لاجله ولا توجد علة تاريخية تنفضه . أمّا السير النبوية كسيرة ابن هشام عن ابن اسحاق وهي أهمها ، وكتاب الواقدي ، وطبقات ابن سعد ، والسيرة الخلبية ، وتاريخ أبي الفداء ، والطبري ، والمسعودي الخ ففيها بأجمعها أحاديث ضعيفة . الا انه لاينكر أصلاً وجود روايات فيها هي غاية في الصراحة والثقة . وانما كثرت المبالغت في الأعصر الأخيرة . ثم جاء اناس مثل ابن خلدون فأثروا بأراء خاصة بهم . ثم جاء المحدثون مثل الشيخ عبده في مصر ، وتلاميذه والسيد أمير على الهندي ، وأصحاب مجلة « اسلاميك ريفيو » فجعلوا للنبي صورة اجتهدوا في تقريبها من ذوق هذا العصر . وربما تكلموا عن عيسى بما لايرضاه محمد نفسه . أما من الجهة الاوربية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيق عامي لفضية منشأ الاسلام الي أن نبغ في القرن التاسع عشر رجال أراحوا هذه العلة مثل كوسين دو برسيفال Coussin de Perceval ومويرير Muir وقايل Weil ومرجوليرث Margoliouth ونولديك Noldeke وشبرنجر Sprenger وسنوك هرثرونيه Snouch Hurgronje ودوزي Dozy ومن بعدهم كاتاني Catani ولامنس Lamens وماسينيون Massignon ومونتيه Montel وكازانوفيا Casanova وبييل Bell وهوارت Huart وهوداس Houdas ومارسييه Marçais وارنولد Arnold وغريم Grimme وغولديزهر Goldziher وغودفروا دمومبين Gaudefroy Demombynes وغيرهم .

الا أن بعضهم تجاوز الحد في التمحيص الي أن سقط في النقي المطلق ، فانقلب الأمر الي ضده وصار هدماً بدلاً من أن يكون بناء . أما أنا فقد جئت وسطاً بين الروايات العربية المأثورة التي يمثلها المسيو دينيه Dinet وسليمان بن ابراهيم ، والطريقة العصرية التي جرى عليها بعض المستشرقين المحدثين ، فكنت دائماً أنظر الي هذه الجهة والى هذه الجهة . وقد وجدت مع الأسف نتائج تدقيقات المحدثين ناقصة الي الآن . وكثيراً ماوجدتها سلبية محضة ومتناقضة بعضها مع بعض . فالمستشرق الفلاني يحكم بأن محمداً كان أعلى من أبناء عصره ، والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه . وهذا يقول انه توفي على أثر تخمة ، وآخر

يقول انه أصابته حمى منشؤها كثرة الصوم ، وقال « لامارتين » انه لم يكن الها ولكنه كان أكثر من رجل أى كان نبياً . وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكى » هدم هذه النظرية تماماً . و « ماسينيون » نفسه صرح بأن مجداً كان على تمام الاعتدال فى مزاجه . وأما الاب لامنس وهو وان كان من أحدث المستشرقين العصريين وأكثرهم اطلاعاً فلا ينكر أنه من أشدهم تعصباً وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الاسلام ونبية . وقد استعمل لامنس فى تاريخه للاسلام عين التعنت والطرق الانتقادية التى استعملها كثير من النقاد العصريين للنصرانية . فلامنس اذا مرَّ بحديث مطابق لما فى القرآن . يزعم انه انما هو نسخة عن الآية التى فى القرآن ، ومن الغريب أن يكون تطابق شهادتين ، موجباً لتساوقهما بدلا من أن يكون موجباً لزيادة الثقة فيهما ، وانضرب مثالا على ذلك : يقولون ان الحديث المنسوب للنبي فى فضل العسل انما وضعه المحدثون تأييداً للقرآن الذى فيه كلام على فوائد العسل فنجيب لماذا ياليت شعرى لا يجوز أن يكون القرآن قد نوه بفوائد العسل وأن يكون محمد أيضاً أحب العسل ووجده صحياً وأوصى به ؟ وهو فى الحقيقة شراب صحى لاشبهة فيه ومما يجب أن يوصى به . فهل تكون رواية شىء كهذا عن النبي ، مع عدم وجود أى شىء منطقي أو تاريخي أو مختص بالموضوع نفسه يمنع صدوره عنه ، من الروايات التى تتضمن ما يوجب الشبهة ؟ اتنا لانفهم هذا وان كنا لاننكر الفوائد الكثيرة التى فى كتب لامنس لاسيما كتابه « مهد الاسلام » الذى فيه معلومات كثيرة عن حالة مكة زمان البعثة . فلذلك قد حذفت كل ما رأيت غير ثابت من الروايات وكذلك المعجزات التى وُضعت أخبارها بعد الرسول بقرنين . و بقيت أشياء لم أستطع الجزم بصحتها ولا بعدمها فأشرت الى ما فيها من احتمال أحد الامرين « انتهى

قد نقلنا كلام هذا الكاتب الكاثوليكي على غلاته ، حتى لا ينسب الينا الاستشهاد باقوال رجل ذى ضلع مع الاسلام ، فها نحن أولاء ننقل عنه ما ذكره فى الصفحة ٥٢ عن النبي ﷺ من أنه كان بعد أن تزوج بخديجة ، قد أصبح معروفاً فى قومه وكان الناس يجلبون أوصافه ، ويحمدون سيرته ، ويلقبونه بالأمين أى الصادق الذى يُعتمد عليه ، وننقل فى صفحة ٥٦ أنه لما اختلفت قريش فى قضية بناء الكعبة وأى نخذ منها يجب أن يعهد اليه

يوضع الحجر الاسود في مكانه وكادوا يقتتلون . اتفق الجميع على أن يعهدوا بذلك الى محمد ابن عبد الله الهاشمي قائلين : هذا هو الأمين . ثم ذكر مبدأ البعثة ولم يقل شيئاً يشتم منه أدنى شبهة في صدق محمد ﷺ . ففي صفحة ٦٢ يقول هكذا : « كان محمد في حالة بحران فكان ينشد السكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملاً في السماء ذات الكواكب مُنصتاً الى ما كان يسمعه من أعماق قلبه وهو الرجل الامي الفطري الصادق وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها . انه كان يرى تلك الأشياء الجارية في عصره على غير استقامة وقد كان هو لا يطبق غير الحق والحق الذي لا جدال فيه . وكان لا يقدر أن يعيش الا في علم الحقيقة وكان يرى أن كل ما حوله من الأحوال لم يكن بحق . فالحياة التي عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متمولون يبعثون بقوافل للتجارة ويربحون أرباحاً فاحشة ، وبوادي يشنون الغارات ولا يعرفون الا الفوضى ، وأفاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصفوفة في الكعبة ليست الا معبودات باطلة وان الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلا » .

ثم قال في صفحة ٨٠ : « لم يكن محمد ممن لا يعرف العالم الباطني نعم لم يكن متصوفا بالمعنى المعروف ، الا أنه كان ممن يرى أن الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحس وان المشهود أدنى درجة من المحجوب . فالنظام الروحي في نظره هو الأهم وهو الوجود الحقيقي ، فمحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الخلق ليتمسكوا بها . جاء بقلب خالٍ من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل نفضة فارغة وأمسك بكأنا يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنه كان عملياً تام المعرفة بأحوال العالم المادي بل كان ذلك التجرد الروحي أعون له على ادارة أمور الدنيا وهكذا كان كبار الروحيين في العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود . » اهـ

فأنت ترى أن هذا الرجل الكاثل لكي لم يتهم محمداً بريية ، ولا جل دعايته الى الله على مارب دنيوى ، ولا رماه بشيء من الأكاذيب التي طلما رماها بها كثير من الاوربيين عن بغض وعماية قلب أو جهل ونقص اطلاع . نعم هو غير معتقد بصحة كثير من الأحاديث حتى الوارد منها في الصحيحين . وهذا مشرب من المشارب الفكرية لا نقدر أن نؤاخذه

عليه لا سيما ان كثيرين من المسامحين ومن ذوى الحجة الاسلامية ومن لا ينقصهم شئ من الايمان والايقان يشاركون المسيو « درمنغهم » في هذا الرأى ، ولا يجعلون المعجزات شرطاً في التصديق بنسبة محمد ﷺ الذى معجزته الكبرى القرآن . وكذلك لا يرون من الواجب الدينى الايمان بكل ما جاء فى الصحيحين وغيرهما من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرق اليها التبديل والتغيير أو دخلها الزيادة والنقصان ، اذ من المعلوم أنهم كانوا يروون الأحاديث بالمعنى . واذا روى الحديث بالمعنى لم يخلُ الأمر من أن تتطرق اليه زيادات كثيرة قد يتغير بها المعنى أو يبعد عن أصله . واذا قلنا ان رجال الحديث الذى يروى عنهم البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، كانوا ممن يوثق بروايتهم ومن لا يتخالج الناس الشك فى صدقهم وان المحدثين غرّبوا الأحاديث كلها وليّنوا منها ما رأوه ضعيفاً ، وقوّوا ما رأوا أسانيد مستوفية لشروط الصحة ، وعوّكوا على هذا الضرب من الحديث ، وجاء الفقهاء فأخذوا منه الشريعة ، وجعلوه مرجعاً للاجتهد ، وانهم كانوا أبصر بأحاديث الرسول من أن يبنوا على غير أساس متين . فالجواب على ذلك أنه ليس كلام هذه الفئة هو اطلاق القول على جميع الأحاديث ولا مقصدهم الاشتباه فيها بأسرها بل هناك أحاديث متواترة يستحيل التواطؤ على وضعها وأحاديث مشهورة وصلت من توثيق الرواة وتصحيح العلماء وقيام الأدلة والقرائن من الأحاديث الأخرى والأحوال الجارية يومئذ على صحة وقوعها الى حد أن أصبحت كالحقائق الرياضية مما لا خلاف فيه . ولكن الأدلة التى تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر الأحاديث ولزوم التوقف فى كثير مما يسارع الناس فيه ، هى ما يلى :

أولاً — عدم امكان رواية الأحاديث الا النادر الأندر بدون زيادة أو نقصان مما يعرفه كل انسان من نفسه وذلك أنه ان أراد أن يعيد كلاماً سمعه ولو بعد سماعه اياه بساعة من الزمن تعذر عليه سرده بحرفه .

ثانياً — كونهم يقولون ان ما لا يكاد يحصى من الأحاديث مروى بالمعنى . فيتغير فيه كثير من اللفظ .

ثالثاً — جواز السهو والنسيان مما لا يخلو منه انسان ولا يمكن الجدل فيه أصلاً .

رابعاً — كون النبي ﷺ نفسه أشار الى وضع الأحاديث عليه فى أيامه وانه من أوثق

الأحاديث قوله : لقد كثرت عليّ الكذابة ، فمن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار .
 خامساً — مما رواه عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير مالك لا تحدث عن
 رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : اما انى لم أفارقه منذ أسلمت ولكنى سمعت
 رسول الله ﷺ يقول : من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار . والقرينة قائمة على صحة
 رواية عبد الله بن الزبير هذه لأن الزبير كان من أكبر الصحابة ومن العشرة ولم يحدث .
 وعن السائب بن يزيد أنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة الى مكة قال : فاسمعت يحدث
 عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجعت . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : أنهم دخلوا على
 سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال : انى أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا
 عليه المائة . وسعد أيضاً من العشرة ومن أكبر الصحابة ولم يحدث . فالقرينة اذاً تؤيد
 هذه الرواية عنه . وروى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنة
 ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . الا أنه
 حدث ذات يوم بحديث جفري على لسانه : قال رسول الله ﷺ فعلاه الكرب حتى رأيت
 العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذلك واما قريب من ذلك واما دون
 ذلك . وعن علقمة بن قيس : أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشيّة خيس فما
 سمعته فى عشيّة منها يقول : قال رسول الله غير مرة واحدة قال : فنظرت اليه وهو معتمد
 على عصا فنظرت الى العصا تززع . وجاء فى طبقات ابن سعد رواية عن مسروق : أنه
 حدث يوماً حديثاً فقال سمعت رسول الله ﷺ ثم أرعد وأرعدت ثيابه ثم قال : أو نحوذا
 أو شبه ذا . قلت وكل هذا ناشئ عما يعامونه من كثرة تطرق التغيير الى الأحاديث وعن
 تورعهم عن الزيادة فيها أو النقصان منها مهما كان الزائد أو الناقص قليلاً .

سادساً — جاء فى طبقات ابن سعد عن معمر عن الزهري : أراد عمر أن يكتب السنن
 فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال : ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه
 وتركوا كتاب الله . وورد فى الطبقات خبر آخر : سئل عمر عن شيء فقال : لو لا أنى
 أكره أن أزيد فى الحديث أو أتقص منه لحدثتكم به .

ورى الامام السيوطى فى تاريخ الخلفاء نقلاً عن الامام النووى أن كل ما رواه أبو بكر

الصديق عن رسول الله ﷺ من الأحاديث مائة حديث واثنتان وأربعون حديثاً . قال وقد روى عن أبي بكر أكبر الصحابة عمر وعثمان وعلي وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمرو وابن عباس وأنس وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وعبد الرحمن ابنه وزيد بن أرقم وعبد الله بن مغفل وعقبة ابن عامر الجهني وعمران بن حصين وأبو برزة الأسلمي وأبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري الخ

قلت وهو شيخ أصحاب رسول الله وأكثريهم له ملازمة وليس فيهم من يفوته في الثقة والأمانة وكان رضى الله عنه نسبة عصره وأخبر الناس بأمر القبائل وكل هذا يقتضى قوة الحفظ . فان كان الصديق لم يحدث كثيراً فلا شك في أن ذلك لم يكن إلا من خوفه من الزيادة والنقصان . ثم نقل السيوطي في تاريخ الخلفاء الأحاديث المائة والاثنتين والأربعين التي رواها أبو بكر بعينها .

وقال ابن خلدون في المقدمة ان الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار والاقلال من الحديث فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده نحوون ألف حديث ولكل ما أداه اليه اجتهاده في ذلك . قال : وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين أن منهم كان قليل البضاعة في الحديث فلهذا قلت روايته . قال : ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترض فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح بمقدم في الأكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته (الى أن قال) : والامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحامل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسى وقلت من أجلها روايته فقل حديثه لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً غفلاً من ذلك وبدل على أنه

من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً
وقبولاً. اهـ

وبعض الجهلاء أو المتعنتين من غير الجهلاء يعيبون على علماء الاسلام كثرة الاعتناء
بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء في العنونة والعزو الى فلان عن فلان والمبالغة
في البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه
القارئ بزعمهم وكان بعضه يجزى عن كله . وهذا القول مردود بتأمله لما في الحديث من
الأهمية من حيث انه منسوب الى النبي ﷺ أو الى أصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو مناط
التشريع والمرجع بعد القرآن في الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فهما بالغ العلماء في
التحرى للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام
فلا يكون كثيراً . بل قد رأينا أن العلماء قالوا في الحديث انه « علم انطبخ ، حتى احترق »
وانه لم يشتغل طلبة العلم في الاسلام بشيء أكثر من اشتغالهم بالحديث وان التحرى
واستيفاء شروط الثقة قد بلغا فيه الدرجة التي ليس وراءها مطمع لمزيد ، ولا يزال مع ذلك
الشك يحوم حول أحاديث كثيرة واردة في الصحاح . وهذا الشك ليس من جهة عدم الأمانة
في النقل . وقد احتاط لها أصحاب هذه الكتب لا سيما البخارى ومسلم ، بما ينفي كل شبهة ،
وانما من جهة عدم استطاعة البشر الا ما ندر من رواية كل يسمعون بحرفه أو من وصف
كل حادثة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان . وقد يكون اثنان في حادثة من الحوادث
ويرويها كل واحد منهما بشكل يختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .

ولما كان التحرى معروفاً أيضاً عند الاوربيين ، وكانوا مولعين بما يسمونه
« التمهيص » critique وكانوا يذهبون من هذا التمهيص كل مذهب حتى في المسائل التي
لا تتعلق بها عقائد ولا أحكام ولا معرفة حلال ولا حرام كان من العجب أن يعترض
المعترضون وأكثرتهم من المتفرنجة على مبالغة المسلمين في نخل الأحاديث .

ولقد اطلعنا منذ سنتين على مبحث لعالم أوربي في جريدة « جورنال دو جنيف » يذكر
فيه كتاباً اسمه « شهود » Témoins من تأليف عالم افرنسي اسمه المسيو « جان نورتون كرو »
Jean Norton Cru ألفه على وقائع الحرب العامة وتحرى فيه الى أقصى درجات التحرى

واتمهي بعد التنقيب الطويل الى تقسيم الروايات الى ما قسمها علماء المساميين من ثابت وحسن وضعيف وساقط وكان تأليف هذا الرجل نقيبة نخلة ثلاثمائة مجلد لمائتين وخسين مؤلفاً من أمم وطبقات مختلفة . وفي هذه المؤلفات جرائد وكتب تذكارية وكتب ملاحظات ورسائل وأقاصيص وكلها من أقلام أناس شهدوا بالعيان من جنود وضباط وقواد

فالمسيو « كرو » لم يحكم على هذه التأليف بمجرد الاطلاع عليها بل تراجع تراجم أصحابها وسيرهم الشخصية واجتهد أن يعرف مقدار مدة اقامتهم بساحة الحرب وأن يعلم صفتهم المدنية أو العسكرية . وهذا فيه شبه من علم الرجال الذي هو من العلوم اللازمة للحديث في الاسلام . ثم لم يقتصر على هذا بل قارن بين الروايات وتحريفي في معرفة المواقع ابرى هل تنطبق عليها أم لا ؟ وما درجة انطباقها ؟ وهل هذه المقارنات والمعارضات بكل ما فيها من التدقيق تنتهي الى القول بنفي الحوادث المستثناة التي جاءت على خلاف القاعدة . وعد كل ما لم ينخل بهذا المنخل غير واقع ؟ فالجواب على ذلك ان هذا أيضاً محل للسؤال

ولقد عني المسيو « كرو » في مقدمة كتابه بنفي الأخبار الواهية والتصورات الباطلة التي انتشرت عن حوادث كثيرة من الحرب

وبعد ان نخل جميع الروايات نخلاً دقيقاً استخلص قواعد مقررة طبقتها على الحوادث تطبيقاً جازماً — أشبه بالشروط التي يضعها رجال الحديث للحديث فاذا استكملت فيه جزموا بصحته — وكانت خلاصة تدقيقه أن قسم المائتين والخمسين مؤلفاً الى ست درجات . فالدرجة السادسة هي التي ليست لها أدنى قيمة تاريخية — أشبه بدرجة الحديث الموضوع — والدرجة الخامسة هي التي لها قيمة ضئيلة جداً — أشبه بالحديث الواهي المتناهي في اللين والدرجة الرابعة هي الضعيفة . ومن هذه الدرجة أكثر الواصفين لحوادث الحرب وهم نحو ٢٦ في المائة من اولئك الذين غر بل المسيو كرو كتاباتهم . أما الدرجة الثالثة فهي التي يقال انها حسنة — كالحديث الحسن — وأما الدرجة الثانية فهي التي تضاهي درجة الصحيح في علم الحديث . وأما الدرجة الأولى فهي التي تقابل الحديث المشهور . والثانية منها ١٩ في المائة والأولى ١٢ في المائة . وهو يعبر بالفرنسية عن الدرجة السادسة بقوله aucune valeur documentaire وعن الدرجة الخامسة Très faible وعن الدرجة الرابعة Médiocre وعن الدرجة الثالثة Assez bon وعن الدرجة الثانية bon وعن الدرجة الأولى excellent

ولا يوجد مانع من أن يكون أطلع « كرو » على تقسيم المسامير للحديث فنسج على منوالهم وان كان هو لم يذكر ذلك .

قال « كرو » ان رواج الكتاب وشهرته وبراعة كتابته لمدخل لها في درجة صحته . ولهذا عنده كتاب مشاهير كتبوا عن الحرب مثل « رينه بنيامين » في الدرجة السادسة لانه ليس المقصود هو سحر البيان بل صحة الرواية . وقد وضع « باربوس » و « دو هاميل » و « دورجليس » في الدرجة الرابعة . وبعكس ذلك عنده من الدرجة الأولى ٢٩ مؤلفاً أسماؤهم مجهولة عند الجمهور بل مجهولة عند المتخصصين . وكلام كرو هذا صحيح لا غبار عليه

قال صاحب مقالة « جورنال دو جنيف » على هذا الكتاب : انه وان كان المسيو كرو قد استخلص من تدقيقاته وجوب الحذر ومزيد التثبت في نقل الأخبار فقد دلنا على الطريقة الوحيدة الموثوق بها في الأخبار

قلت : وهذه الطريقة هي الطريقة الاسلامية ليس في أحاديث الرسول والصحابة فقط بل في جميع أحاديثهم ، وأخبارهم ، وتواريخهم وانما أتقنها المسلمون الى حد أن أصبح الناس يملونها ملهم من العمليات الحسابية ولم يبلغ منها الا فرنج شيئاً من درجة الاتقان التي عند المسلمين فيها .

وربما كان تأليف المسيو كرو هذا فذناً في بابه .

فمن هذا لا يكون عجباً أن لا يتلقى رجله أجنبي عن الاسلام جميع ماورد في الصحاح بالقبول . ولتعد الى سيرة الرسول عليه السلام حسبا وصفها هذا المفكر المسيحي الذي مذهبه التقريب بين الاسلام والنصرانية ، واثبات ما بينهما من الصلات الكثيرة . وهو مذهب حسن ومشرب محمود ، وان كان هو فيه يركب بعض الأوقات مركباً صعباً . قال في صفحة ٦٥ ماملخصه : —

« في نواحي سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البحران النفسى بمحمد أشده ، فكان لا يقدر أن يتصور بدون أن يتألم حالة قومه وكان يرى ان أمراً ضرورياً جداً ينقصه وينقص قومه . وكان يرى العرب كل قبيلة منهم عاكفة على صنمها وكانوا يقولون بالجن ، والاشباح ، والغيلان ، ولكنهم يتعامون عن الحقيقة الواحدة وهي الحقيقة الالهية . ربما لم يكونوا ينكرون هذه الحقيقة ولكنهم كانوا في غفلة عنها ، وكانت هذه الغفلة هي الموت الروحي .

فكان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر في الله . وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة . وكان قد نفض جميع الكائنات التي ليست في نظره بظل للواجب الوجود الأحد الصمد . وكان هو قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية أو مكة ، وعرف ان هناك كتباً سهاوية وأن رسلاً موجيَّ اليهم كانوا يكلمون أقوامهم بلسان الحق تعالى ، وانه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتي رسل فتهدى بهم اليه وتذكرهم بالحقيقة السرمديّة . فالديانة التي كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة وانما كان البشر يحرفونها عن مواضعها فيعود المرسلون ويردونها الى أصلها . فالأمة العربية كانت لذلك العهد في ابّان ضلالها أفلم يكن هذا هو الوقت الذي حانت فيه رحمة البارئ تعالى أن تتدارك هذه الأمة ؟

وأحبَّ محمد في تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر في خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً فيوماً ، فكان يقضى هناك الأسابيع وليس معه الا قليل من الغذاء لأن نفسه كانت تلتذ باصوم والتهجد ، وترتاح الى التأمل والتبحر ، وأصبح سوءاً عندة الليل والنهار والحلم واليقظة . وكان يقضى ساعاتٍ طويلاً جانياً على رُكبه في جوف الليل أو مضطجعا في عين الشمس ، وأحياناً يمشي في شعاب تلك الجبال وبينما كان يسير كان يسمع أصواتاً خارجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يا رسول الله »

وعندما كان يعود الى بيته كانت خديجة تغتم لما تراه عليه من حالة الاضطراب والصمت . وكان يغيب أحياناً عن حسه ويصيبه سكات وينقطع نفسه ولا يزال حتى يأخذه الوسن فيهبجع ثم يعود وقد تصاعدت أنفاسه فيرى فيما يرى النائم شخصاً ملاً الأفق فوق رأسه ، ودنا منه وفتح له ذراعيه يريد أن يسكه فيستيقظ محمد مذعوراً والعرق يتصب منه . فتأخذ خديجة مسح جبينه وتساله عن حاله بصوت هادي لئلا تدعره فلا يجيبها أو يجيبها بكلمات لا تفهمها

وبقي نحواً من ستة أشهر على هذه الحالة الى أن ضنى جسمه ، وصار يتخلج في مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظره ومنظره ، فاستولى عليه الجزع . وخشى أن يكون أصابه مس ، وصارت تجرى على لسانه كلمات بدون اختيار كان يخشى أن تكون من الشعر الذي يوسوس به الجن وكان هو بفطرته يكره الشعراء الذين في كل واد يهيمون

ويقولون مالا يفعلون. وأخيراً قال خديجة: انى أخاف أن يكون بي مَس، وقد صرت لا أقدر أن أحل هذا العبء، وانى أرى نفسى كأنى بي لهماً ومن كان يظن انى سأصبح شاعراً أو يستولى على الجن. لا تقولى هذا لأحد أصلاً.

وكانت خديجة تنتظر هذه النجوى بأمل وبوجل. وما كانت تقدر أن تطمئن قلبه وهى نفسها فى قلق عليه. ولكن هذه المرأة كانت كأنها قد خلقت لتؤيده، ولتسررى عنه من همومه، وكانت فيها متانة الحلائل الفاضلات والأمهات الملامى بالأحنان، فقد كان هذا الرجل أفتى منها سناً فعطفت عليه بكل مافى قلبها من الحب والرحمة، وازداد حنوُّها عليه لأنها رأتَه بهذه الحالة من الضعف والهزال، بعد أن كان ذلك الرجل القوى وذلك الزوج الحبيب. فكيف يمكنها أن تتأخر عن تثبيت فؤاده بكل مايمكنها فقالت له:

يا أبا القاسم! أأنت أنت الأمين كما سماك الناس؟ أأنت بالرجل الصادق المخلص المعتمد عليه. انك أنت الذى لم تغش أحداً فلا يمكن ان الله يتخلى عنك. أفلم تكن أنت الرجل الصالح الصابر البرّ الكريم. أفلم تكن رءوفاً بأهلك؟ أفلم تطعم المسكين وتكس العريان وتؤمن ابن السبيل وتحم الضعيف؟ انه لن يدعك الله عرضة لوساوس الشياطين الكاذبين ولا للجن اللاعبين. فقال لها: اذن من هذا المخلوق الذى جاءنى ولا يزال يظهر لى، من ذا الذى لا يقول لى اسمه ولا أقدر أن أتوارى منه؟

وينا كان يقول لها هذه الكلمات اشتد به البحران وارتجف، وعلت وجهه الحجرة، ثم عقبتهما الصفرة وسمع بأذانه دويًا واتسعت أحداقُه وقال: هذا هو قد جاء وكان حينئذ مستيقظاً ولم يكن نائماً ليقال ان ذلك حلم من الأحلام. فجاءت خديجة وغطته بكساءها وضمت اليها وسألتَه أفلا تزال ترى؟ فقال لها: لم أعد أرى اذن هو ليس هذا من الجن الخبيث ولا من الشياطين. أفلا تراه احتشم طهارة النساء وذهب. اذن ليس الا ملكاً من ملائكة الله

ثم جاء شهر رمضان وتكامل الهلال وتألقت ثم أخذ يتراجع. فى احدى الليالى بينا كان محمد نائماً فى أحد كهوف حراء، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح وفى يده قطعة من الحرير عليها كتابة، وقال له ذلك الشخص: اقرأ. فأجابته: لست بقارىء فالتقى الشبح نفسه عليه ووضع له قطعة الحرير حول عنقه ثم أعاد عليه القول: اقرأ. فأجابته لست بقارىء، فأعادها

عليه نالته اقرأ : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم وعلمه ما لم يعلم »

فردد محمد هذه الكلمات وأحس بالنور قد أشرق على قلبه ورأى قطعة الحرير المغطاء بالاشارات أمام عينيه ، وبرغم أنه كان أمياً رأى نفسه يفهم تلك الكتابة وقذف في روعه مجموع كتاب ملائكة بالأسرار الالهية . وكان هذا الملك قد نبت كل ما كان يجول في أفكاره منذ أشهر فأنه تعالى قد خلق الانسان وأوحى اليه حقائق تجتاز مسافة عقله الطبيعي . لذلك الله قد علم الانسان بالقلم وعلمه ما لم يعلم . هذا هو سر الوحي وهذا هو سر الكلمة المكتوبة الذي كان شديد التأثير في الرجل الأعمى ، لا سيما وقد كانت الكلمة المكتوبة وحياً الالهياً اذن العرب سيكون لهم بعد اليهود والنصارى كتاب مقدس يقرأونه ، ترتيباً وشريعة الالهية تهديهم الى طريق النجاح

ثم ذهب ذلك الشبح الذي تجلى على محمد فاستيقظ وهو موقن بان كتابا قد كتب في قلبه نخرج من الغار يجرى بين الشعب ، ووصل الى ذروة الجبل فسمع صوتاً من السماء يقول له : « أنت رسول الله » فرفع محمد عينيه فاذا الملك في الأفق بصورة بشرية وهو يتلأأ نوراً خول وجهه فيبقى يرى المنظر نفسه وكان كيف توجه يرى الملك أمامه مائلاً مائلاً لئلا الى حد أنه أصبح يرى الملك أمامه دائماً ينظر اليه ويحدث في بصره . فوق العقب في قلب محمد وجنا على الأرض ووضع يديه على رأسه وغاب عن حواسه . وكانت خديجة قد استبطأت رجوع زوجها الذي كان ذهب وما معه الا زاد قليل فأرسلت في أثره أحد عبيدها فبحث في الجبل ونادى هنا وهناك ولم يجد أحداً وعاد فأخبرها فازدادت قلقاً . وبينما هي على تلك الحالة اذ دخل محمد وعلى وجهه علامة الاعياء ، ونظرة غريب وأثوابه متشعبة ، وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة رمى نفسه في حجر خديجة واضطجع على ركبتيها أشبه بالولد الذي يمسه الجهد فسألته خديجة : أين كنت يا أبا القاسم فقد أرسلت في أثرك ووصلوا الى الجبل فلم يجدوك . فأخبرها بكل ما وقع معه وأفضى اليها برأيه واضطرابه وشكوكه . فقالت له : قسماً بمن نفس خديجة بيده اني لأرجو ان تكون أنت رسول الله . فأنه لا يسمح بان تكون أنت على ضلال . أفلم تكن برأ وفيأ صادقاً تقياً واصلاً للرحم ، مؤثلاً للضعفاء ، محسناً للفقراء ، قارياً للضيوف ؟ كلا ان الله لن يخذلك . فأصابت محمداً رعدة وعأوده

الربع . وقال لها : بادري بتغطيتي وكرري عليها القول فألقت عليه كساء من الصوف غطيتي جميع جسمه . وما زالت بجانبه الى أن أخذته النوم . فعند ذلك ذهبت خديجة الى ابن عمها ورقة ، وكان يعرف كتب اليهود والنصارى ويعلم الحكمة ويمكنه أن يزِيل من حيرتها . وكانت خديجة تحب بعلمها حباً جتاً وتؤمن به . ولكنها شاهدت هذه المرة شيئاً عجيباً حير عقلها . فلما أخبرت ورقة هتف قائلاً : ان كان ما قلته صدقاً فمحمد سيكون نبي هذه الأمة . وهو لا شك الرسول المنتظر ، وان الملك الذي تجلي عليه هو الناموس الأكبر ، وهو الذي كان يبعثه الله الى موسى وهو الذي بواسطته يوحى الله الى الأنبياء . ثم قال ورقة لخديجة : ثم ماذا قال الملك لمحمد ؟ أمره بان يبلغ دعوته ، وأشار اليه بتبليغ رسالة مبيّنة ؟ ألقى اليه أن يدعوا الناس الى الله ؟ فانتى أود أن أعرف ذلك حتى أكون أول من آمن بمحمد . اذهبي الى زوجك وسكّني فؤاده وأزيلي مخاوفه

فرجعت خديجة الى بيتها فرأت محمداً لا يزال هاجعاً فتركته على حاله واذا به يرتجف عوداً على بدء والعرق يتصبب منه ثم جلس وهو يضطرب ، وكان الملك قد جاءه ثانية فقال له : قم . فقال محمد : قمت فأصنع ماذا ؟ قال الملك : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَّبِعْ لَدُنَّكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

فقال له خديجة لماذا لا تظطجع وتسترخ ؟ فقال لها محمد : قد ذهب النوم وذهبت الراحة وقد عاد الملك وهو يأمرني أن أدعو البشر الى الله وأن أعبده . فمن أدعو يأتري ومن يؤمن بي ؟ ثم حتى رأسه حزينا وسكت . فقالت له خديجة : ان لم يؤمن بك أحد آمنت بك وحدي

وبعد ذلك بمدة ذهب محمد الى الكعبة فصادف ورقة يطوف فسأله ورقة عما جرى معه فأخبره بالقصة كلها فما أتمها حتى هتف ورقة قائلاً : « والذي نفسى بيده أنت رسول هذه الأمة وما جاءك الا الناموس الذي جاء من قبل الى موسى ، انتى سأكون معك وأخذ بيدك فيما سيحل بك من النوائب وسأنصرك على قومك »

فقال له محمد : وماذا تريد أن تقول بهذا ؟ فقال له ورقة : نعم لم يأت أحد بما أتيت به الا عؤدي ، فسيقاتلونك قتالاً شديداً ، وسيغرّبونك ، وسيقولون انك مجنون وانك

كذاب . آه لو كنت في ذلك الوقت شاباً أو لو كنت أحياناً في ذلك الحين ! ثم أخذ برأس محمد وقبّله وسكّن من روعه .

وكان محمد محتاجاً الى جمع قواه ، وكان يجاهد نفسه قبل أن يحتاج الى مجاهدة الناس . وكان الوحي قد انقطع ولم تتجدّد معه تلك الرؤية التي رآها فوق في حيرة عظيمة ، وصار يحدث نفسه : أفتراني كنت في حلم ! وثقلت عليه هذه الحالة جداً فرجع الى جبل حراء يريد أن يعلم هل تعاوده تلك الرؤية التي رآها قبلاً أم لا ! واشتد عليه الأمر جداً وصار يرى نفسه خلاء بعد أن كانت ملاء . فأخذ يهيم في الجبال وجعلت تتقاذفه أمواج الريب وهو لا يرى منفذاً مما كان فيه الى أن تمى الموت . ولكن بينما هو في أقصى درجات الشدة يكاد يقذف بنفسه في مهاوى الجبل ، اذ سمع صوتاً يقول له : أنت رسول الله حقاً ، فأنفت فاذا بالملك يمسكه أن يقع وقد تكرر عليه هذا الصوت مراراً فعاد الى بيته فأخبر خديجة بما رآه وسمعه . فأخذت خديجة تثبت فؤاده . ثم بعد ذلك بمدة جاءه الملك فتلاً عليه « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » فما كان أعظم تلك البشرية لتلك النفس التي لم تكن تستطيع أن تعيش الا في اليقين . فلم تكن حلاوة تلك التعزية بما نزل عليه من لطف الوحي هي المؤثر الأكبر فيه وإنما كان زوال الحيرة وتحقيق المصير . لقد أمر بأن يحدث بالنعمة فهو سيحدث بها . ولقد أوحى اليه الملك الصلاة والعبادة وأفهمه أن الانسان لأجل أن يصلى لله تعالى يجب أن يكون طاهراً الخ

وأكمل « درمنغهم » قصة مبدأ الاسلام على الوجه الذي يعلم منه القارئ أنه لم يشك في أن محمداً كان صادقاً وأنه لم يخالجه عارض من شك في آخر الأمر . بزول الملك عليه والوحي اليه .

وانقابل مقاله بروايات أصحاب السير ، فنجد ابن سعد في الطبقات الكبرى يذكر أنه نزل الملك على رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين سابع عشرة خلت من شهر رمضان

ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة . وكان أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . فكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى يجاه الحق وهو في غار حراء . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان باجساد اذ رأى ملكاً واضعاً احدى رجله على الأخرى في أفق السماء يصيح يا محمد أنا جبريل يا محمد أنا جبريل . فدعوا رسول الله من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فرجع الى خديجة فأخبرها خبره وقال : يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيء قط ولا الكهان ، واني لأخشى أن أكون كاهناً . قالت : كلا يا ابن عم لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وان خلقك لكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهي أول مرة أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة : والله ان ابن عمك لصادق وان هذا ابدء نبوة وانه ليأتيه الناموس الأكبر فرأيه أن لا يجعل في نفسه الا خيراً . وقالوا ان رسول الله قال : يا خديجة اني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً . فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم . وبسند آخر عن ابن عباس : يا خديجة اني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً واني أخشى أن يكون في جنن . فقالت : لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله . ثم أنت ورقة بن نوفل فدكرت له ذلك فقال : ان يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى . فان يبعث وأنا حي فسا عززه وأنصره وأومن به .

وقالوا ان أول ما أنزل على النبي عليه السلام : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . قالوا : وانه لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل فخرن حزناً شديداً حتى كان يغدو الى ثبير مرة وإلى حراء أخرى ، يريد أن يلتقي نفسه منه ، فبينما رسول الله كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء فوقه صعقاً للصوت ، ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متر بعاً عليه يقول : يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل . فانصرف رسول الله وقد أقر الله عينه وربط جاشه ثم تتابع الوحي وحى . وقالوا انه سمع :

يا محمد لتتم عينك ولنسمع أذنك وليع قلبك . قال النبي ﷺ : فنامت عيني ووعى قلبي
وسمعت أذني . وكان النبي إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربد وجهه . وقيل : كان إذا
أوحى إليه وقد لذلك ساعة كهيئة السكران وروى عن رسول الله ﷺ : كان الوحي يأتيني
على نحوين يأتيني به جبريل فيلقيه عليّ كما يلقى الرجل على الرجل فذلك يتفلسفت مني
ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخاطب قلبي فذلك الذي لا يتفلسفت مني . وسأله الخارث
ابن هشام : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس
وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي
ما يقول . قالت عائشة : لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان
جبينه ليتفصد عرقاً . وقال ابن الأثير : قالت عائشة رضي الله عنها كان أول ما ابتدئ به
رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء
فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى يجاه
الحق فاتاه جبريل فقال : يا محمد أنت رسول الله فقال رسول الله ﷺ : جئوت لركبتي ثم
رجعت ترجف بوادري فدخلت على خديجة فقلت : زملوني زملوني . ثم ذهب عني الروع .
ثم أتاني فقال : يا محمد أنت رسول الله فلقد هممت أن أطرح نفسي من حلق فتبدى لي حين
عمت بذلك فقال : يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله . قال : اقرأ . قلت : وما اقرأ . قال :
فأخذني فغطني^(١) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق .
فقرأت فأنبت خديجة فقلت : لقد أشفقت على نفسي وأخبرت ما خبري فقالت : أبشر
فو الله لا يخزيك الله أبداً فوالله أنك لنصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة
وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بي إلى ورقة بن
نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل
فقال : اسمع من ابن أخيك . فسألني فأخبرته خبري فقال : هذا الناموس الذي أنزل على
موسى ابن عمران ليتنى كنت حياً حين يخرجك قومك قلت : أخرجني هم ؟ قال : نعم انه
لم يجيء أحد بمثل ما جئت به الاعودى ولئن أدركنى يومك لأنصرتك نصراً مؤزراً . ثم
ان أول ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ ، ن والقلم وما يسطرون ، ويا أيها المدثر ، والضحى .
وقالت خديجة لرسول الله فيما أكرمه الله به من نبوته : يا ابن عم أستطيع أن تخبرني

(١) غنه ضمه شديداً حتى يكاد يخنقه

بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جاءك؟ قال: نعم. فجاءه جبريل فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على نخدي اليسرى فقام ﷺ فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل فاقعد على نخدي اليمنى. فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحسرت فالتفت خايراً ورسول الله ﷺ في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا ابن عم ائبت وأبشر فوالله انه ملك وما هو بشيطان اه

ليتأمل القارىء في شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكارم الأخلاق وتواتر ذلك عنها وهي أعلم الناس به وأقربهم اليه وطلما اعترف مؤرخوا الافرنج المنصفون بأن هذا من أوضح الدلائل على صدق محمد وأمانته.



ثم نعود الى كلام « درمنغهم » فهو يقول ان محمداً لم يعتمد في نبوته على المعجزات وكانوا يقولون له: ان كنت نبياً فاعمل لنا من خوارق العادات ما هو كذا وكذا، فكان يجيبهم ان رسلا كثيرين جاءوا بالمعجزات وكذبهم البشر، وأنامهما جنتكم بالمعجزات فلن تؤمنوا مادامت قلوبكم قاسية، وما معجزتي الا القرآن الذي هو موسى الى رجل أمي وما تقدر الانس ولا الجن أن تأتي بمثله.

ثم هاجم محمد الأصنام التي كان يعبدها العرب كاهليل، ومناة، واللوات والعزى، وهزأ بها وبمن يعتقد بها وبصنم العجين التي كانت تعبده بنو حنيفة وتأكله اذا جاعت، وبالأنصاب والأزلام، ونهى عنها وعن الفسق والفجور والقسوة والطمع والربا وأحدث انقلاباً في المجتمع الجاهلي الى آخر ما ذكره عن مبادئ الاسلام.

وانا لذا كرون بعض ما جاء به هذا الكاتب المسيحي الكاثوليكي من الملاحظات التي تستحق الاعتبار وتدل على انصاف صاحبه للاسلام. فقد ذكر ما جاء في القرآن من وصف النعيم وما في الجنة من الأشجار والمياه الصافية والفاكهة، وأنهار العسل واللبن، والخور العين قاصرات الطرف اللاتي لم يطمسهن انس ولا جان الى غير ذلك فعقب على هذا بقوله: ان الناس يأخذون هذه الأوصاف على ظاهرها وعلماء الاسلام، عدا بعض المتصوفة، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التي وعد الله بها الأبرار. ولا يزال هذا الأمر أيضاً غير موضح في المسيحية نفسها. ولا يجب أن يؤخذ من هذا أنه لا يوجد في الاسلام من يعتقد بكون هذه

الأوصاف انما هي اشارات ورموز ، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هي حسية فقد جاء في القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لأنام البشر ثم سلام الله وصلواته على المتقين والوجود في الحضرة الالهية . وقد قال محمد كما قال القديس بولس : ان الله قد أعد لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء في القرآن :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا)

ذكرنا هذه الملاحظة من ملاحظات هذا الرجل المسيحي لأن كثيراً من قومه يعيرون القرآن في الوعد الذي فيه للمتقين باللذات الحسية ، وينسون أن الخلق لا يفهمون غيرها وان أمور الآخرة مع ذلك ليست من أمور هذه الدنيا . وينسون ما في القرآن من الآيات الدالة على أن أعظم النعيم هو رضا الله (ورضوان من الله أكبر) وان رؤية الحق تعالى هي مما وعد به أهل الجنة .

وقد ذكر ملاحظة أخرى وهي أن القرآن أذن المسلمين في الزواج بالمسيحيات وان هذا كما قال الشيخ عبده من علامات الاخاء ، وان في الاسلام مبادئ كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية منها خروج آدم من الجنة لسكونه عصي أمر ربه في الأكل من الثمرة الممنوعة . وكذلك قضية سقوط ابليس الذي استكبر أن يسجد لآدم في عقيدة الاسلام يمانها في النصرانية سقوط الشيطان الذي أتي أن يعتقد بالكلمة المتجسدة . ومما انفقت فيه العقيدتان رسالة نوح و ابراهيم وموسى والأنبياء والكتب المقدسة والملائكة والمسيح والدجال واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب . وترى الاسلام في هذه كلها أقرب الى النصرانية منه الى اليهودية .

قال وبين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين مشابهة شديدة في تحمل الاضطهاد وفي حب الموت لاجل الدين أي الاستشهاد .

قال : أما القول بأن الاسلام يتضمن كائناتية عقيدة التجسد والفداء والحبل بلا دنس الخ . فهذا فيه نظر . الا أنه مما لامشاحة فيه أن القرآن يقول بمسيحية عيسى وولادته من بطن عنراء بدون أب ورسائله ومعجزاته وصعوده الى السماء والانفراستيا أي سر القران المقدس اذ فيه سورة المائة .

فلنا ليس التشابه واقعاً بين ما يقوله النصارى — الا البروتستانت — في سر القران

المقدس واستحالة الخبز بمجرد التقديس الذي يقدهه القسيس الى جسد الرب ، واستحالة
 الخمر الى دمه فعلاً لا رمزاً ، وبين قول القرآن في المائدة . والذي قاله تعالى في المائدة هو
 هذا : « إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
 مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ
 قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ
 رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا
 وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ
 عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » فانت ترى أن استحالة الخبز والخمر الى جسد الرب
 ودمه ليس لها أثر هنا . وان كان المقام مقام مائدة . ولعل بعض الصوفية ينظرون الى هذه
 المائدة لا بمعناها الظاهر بل بالمعنى المجازي .

ثم يقول « درمنغهم » ان القرآن يطهر مريم تطهيراً عظيماً من كل دنس . قلت : نعم قال
 الله تعالى « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) .
 ويقول ان لعيسى عليه السلام مكاناً مشتمى في القرآن ذلك بأنه مولود على غير الأحوال
 البشرية المعتادة ، وانه رسول الله الوحيد الذي في القرآن يخاطب الحق ويجاوبه ، وانه
 كلمة الله الحية وليس بمجرد واسطة للرسالة . قلنا : ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام
 في القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل ، وهو أنه خلقه الله مباشرة على غير المعتاد من ولادة
 البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبيد الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحا من
 الله غير ناف عبوديته لله الواحد الذي لا اله غيره قال الله تعالى « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
 لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
 اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا
 حَيْرَاتٍ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يُسْتَنَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
 الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا »

ثم يقول « در منغهم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تأييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالانجيليات العليا والعلوم المدنية كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزّه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدع لنفسه العصمة

والذى نعلمه ان الاسلام يعصم الأنبياء جميعاً عن الكبائر وهذا لا يمنعهم من ان يستغفروا الله بكرة وأصيلاً . وقد كان محمد ﷺ من أكثرهم عبادة واستغفاراً وكان يصلى حتى ترم رجلاه .

ثم يقول « در منغهم » ان القرآن يقول في المسيح ما تقول الكنيسة ، أى انه كلمة الله وروح الله نزل في بطن مريم كما أنه بشر تام البشرية . وانما يفتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذٍ بهما ! وبحسبنا كان يقول المبتدعة — وفي الأصل الهراطقة — ولا يستطيع المسيحي الا أن يوافق على ما يقول القرآن من أنه كبير مقتاً عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله ، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله) فلقد كانت في الشرق نحلّ تعبد مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ايفانوس ان الكولور يديين Collyridiennes كانوا يقدمون خبزاً لمريم على سبيل العبادة ثم يأكلونه

اتنا ذكرنا قول « در منغهم » هذا لا لنوافق فيه جميعه بل لنبين ان القرآن لم يخطئ فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن في ذلك مخطلون . فقد وجدت نحلّ تعبدها في القديم ولا تزال في أيامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية . فقوله تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين) معناه : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي معبودين

ثم يزعم « در منغهم » أن قول المسلمين بان القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الأزل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقي يقول : اذا قلتم ان الكامة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلتم انهما مخلوقان أفتريدان أن تقولوا انه كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟ وهنا بدون أن ندخل في هذا البحث الطويل العريض الذى ربما لا ينتهى وبدون

أن نذكر قول المساميين ما خلا المعتزلة بعدم خلق القرآن ، وقول النصارى بكون الكلمة هي من الأزل وأنها هي المسيح ، نكتفي بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وان الله أوجده رأساً بلا أب وان قوله « كلمة الله » معناه انه وجد بكلمة التكوين « كن » وفي هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من أزلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح ^(١) وكيف نطبق أزلية المسيح على قوله تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » وقوله تعالى : « إِنْ مَثَلَّ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقد حاول « در منغهم » أن يوفق بين الدياتين في عقائد كثيرة الى أن وصل الى قضية الصلب فقال انها أشدّها اشكالا ، وذلك أن الاسلام التاريخي لا يعرف سر الفداء . وربما لم يجد حاجة للكلام على الفداء لانه موجود في الانجيل والانجيل مصدق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كمنخلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهي خلقه الى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم فان الاسلام يريد أن ينزه الالهية تزيها عظيماً ويجعل الله بائناً عن خلقه الا أنه بهذا وقع في التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم في النصرانية وهو « ان الله محبة »

فالمسلمون لا يقدرّون أن يعتقدوا ان الله الذي يحب المسيح يتركه يصلب ، كما ان اليهود لا يقدرّون ان يفهموا المسيح الاملكاً أرضياً فاتحاً . على ان القرآن يقول ان من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً وهذا فيه ما يشير الى قول بولس الرسول وهو « انه بخطيئة واحد قد عمّ الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التي هي مصدر الحياة »

نقول ان كل هذه المباحث اذا أخذ بها الانسان لا تنتهي وكتابتنا هذا كتاب تاريخ لا مشار جدل وحبسنا أن نسرّد أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَتَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » الدليل

(١) راجع في هذا المبحث كتب المتكلمين والمفسرين ولا سيما تفسير المنار لحجة الاسلام وأستاذ العصر السيد رشيد رضا

الذي حاول «درمنغهم» استخراجهم . بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق . وهذا امرٌ بديهي لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الانساني . وكذلك من أحيأ نفساً فكأنما أحيأ الناس جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع ، وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم في القصاص حياة) وليست هذه المسئلة في شئ مما قاله بولس الرسول الذي يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أي معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائه ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الأرض وصلبه فداءً لأبناء آدم ، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبتها أبوهم . نعم هذا ركن العقيدة المسيحية ، لكنه لا يلتزم أصلاً مع عقيدة الاسلام التي لا يؤاخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسرى وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا تزوروا زرةً وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين

ثم يقول «درمنغهم» ان الاسلام ينفي موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول ان الله قد رفعه اليه ولم يبق في أيدي اليهود الا شبحاً أو شخصاً آخر شبهةً بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التي هي مستغربة عقلاً وتاريخاً ، وهدامة لأجل قصة معروفة في العالم ، والتي بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام ، مستفادة من آية قرآنية متشابهة هي هذه :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »

قال : فالمعنى الحقيقي الوحيد لهذه الآية التي تثبت قيامة المسيح أكثر مما تنكر موته ، وتعني برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلّل كيد اليهود وان عيسى لم يقع في أيديهم بل خرج منها مؤبداً منصوراً . وهذا هو عين ما تقوله النصرانية فان اليهود بحسب قول النصارى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، و بينما يظنون أنفسهم قضوا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذاً لمشيئة الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا نجاة العالم .

قال «درمنغهم» : فقول القرآن « ولكن شبهة لهم » يذكّرنا بأقوال العهد الجديد

وبولس الرسول عن حمل الله المكفّر عن سيّات البشر وعن آدم الجديد الذي جاء بدل القديم . فاذا فكرنا في أن المصحف الخالي تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد أبطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على وجهين أمكننا أن نساءل هل هذه الآية القرآنية المنقوضة بآيات أخرى والتي تؤكد موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هي كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شيء ما عدا هذه العقيدة جامع موحد بينهما ؟ ان « درمنغهم » لا يراها كافية

ثم قال : بل اتنا لو فرضنا وجوب أخذ هذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه ليس ابن الله هو الذي صلبه اليهود وأماتوه على الصليب ، وانما الطبيعة البشرية التي في المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ، ولكن يكونون قتلوا الرجل الذي يشبهها واللحم والدم المتجسدين في بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيداً لعقيدة الكنيسة الكبرى ، وهي أن في المسيح طبيعتين اهيّة وبشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الاعلى أقوال الطرافة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى في جزيرة العرب ، الى (أن يقول) : ان أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت بجمعاً للبدع المسيحية فكان فيها السابليون Sabellians والدوسيتيون Docètes الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية في المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شبحاً محضاً ، والاريوسيون الذين كانوا ينكرون ألوهيته ، والايثوخيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه ، والنساطرة الذين كانوا يرون فيه شخصين ، والمريميون والكوليريديون Collyridians الذين كانوا يعبدون مريم العذراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق في نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشي : « لم يتفق النصارى على شيء الا على ولادة المسيح » .

ولا نريد أن نفرغ من هذه المسئلة بدون أن نعلق بعض الملاحظات على ما قاله « درمنغهم » فيها فأمماً ذهابه الى أن مراد القرآن بالآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) إنما هو وقوع القتل على الجسد فقط ، وان الله بعد ذلك رفعه اليه ، فان له وجهاً وجيباً لا سيما وان آية أخرى (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى مطهرتك من الذين كفروا) تعزز هذا الرأى وان كان جمهور أهل الاسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وان الذى قتل إنما هو رجل آخر وان قوله تعالى (انى متوفيك) هو من توفاه الله أى استوفى مدة أجله فى الدنيا .

ومن الناس من يرى أن الصلب وقع ، ولكن الموت على الصليب لم يقع ، وان المسيح قد أُنزل عن الصليب وهو حى ودفن فى المغارة ، على أنه مات وهو لم يكن مات ، فلذلك عند ما جن الليل خرج من المغارة وذهب ، ثم بعد أيام جاء وتلقى مع الحواريين . ولكن الذين يرون هذا الرأى يخالفون الاسلام والنصرانية معاً . أما الاسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب أيضاً ، ولأن الاسلام يثبت أن الله رفع المسيح اليه ونجّاه من اليهود . وأما النصرانية فلائن مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداءً عن البشر . فان لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدة المسيحية كلها . وجواب من يرى هذا الرأى أن آية (وما قتلوه وما صلبوه) لا تنفى الصلب نفسه بل تنفى الموت على الصليب ، وان قوله تعالى (وما صلبوه) أشبه بأن تكون توكيداً لقوله تعالى (وما قتلوه) لأن المقصود ليس نفي رفعه على الخشبة وانما نفي موته عليها ، وان الأظهر أن يكون رفع على الخشبة ساعات ، ثم أُنزل عنها وهو حى ، وأخذ الى المغارة ووضع فيها ، وذلك على هيئة أنه مات وانه دفن . والحقيقة أنه لما أُنزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج فى جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعمشى معهم العشاء السرى .

والذين يرجحون هذا الرأى يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الأناجيل لكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للاسلام . وذلك لأنهم يقولون ان قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) معناه وما قتلوه مصلوباً . وليس بنافٍ أن يكون رفع على الصليب موقتاً تشبيهاً على اليهود

الذين كانوا يطلبون جزماً قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلاً واختفاؤه عن العيان لئلا مما يتنى رفعه الى السماء بعد ذلك .

وأدلة هؤلاء على هذا الرأي هي :

أولاً ان بيلاطس البنطى كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامراته وانه أخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر أن يأمر بصلبه وهو مكره ، فيجوز أن يكون أوصى قائد المساة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب الى أن يكون أظلم الوقت فينزله ويجعله في المغارة على أنه ميت ويشير اليه بأن يفر من المغارة ليلاً ، ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون أنقذه من الموت ولكن مع ايهام اليهود أنه قتله .

ثانياً — ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه في مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر اليهود في بيوتهم فيسهل على الذى تولى قضية الصلب أن يوارى عيسى في المغارة ويسهل له النجاة بدون أن يشعر اليهود .

ثالثاً — ان من العادة فى المصاوى بين أن تكسّر أرجلهم تعجيلاً لموتهم اذا طال نزعهم وقد ثبت أن القائد الذى عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجله مع أنه كسر أرجل المصاوى بين الآخرين اللذين صلب عيسى عليه السلام بينهما . فعدم تكسير رجلى عيسى عليه السلام دليل على نية استحياؤه .

رابعاً — ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفتنونها بكل ممكن ولذلك جاء أناس من محبي عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى بيلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحاييم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم أمل فى انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامساً — انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدحرجاً ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد أن صلب ومات ودفن وهذه هي العقيدة المسيحية وعند ما قام فى اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج

الحجر ، فيرد على هذا أن الذي يقوم من الموت بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر ، ولا سيما إذا كان قد صعد الى السماء ، والصعود هنا بالروح لا بالجسد .

سادساً — ان وجود الثياب في القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التي كانت عليه عند الصلب ، وانه جرى اليه بثياب نظيفة وخرج بها عند ما خرج ، والا فما معنى وجود الثياب المطلخة بالدم في القبر بعد فقد الجثة ، فان قيل يصعد بها الى السماء فيجذب بأن الصعود الى السماء انما هو بالروح فليس يحتاج الى تبديل ثياب وما وجود الثياب الا علامة على تبديلها ، وما تبديلها الا علامة على أن المسيح خرج من القبر ليلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود ، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات

سابعاً — ان وضع المسيح عليه السلام في مغارة ، بدلاً من دفنه في ضريح تحت الأرض ، وهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على ارادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه في لحد تحت الأرض لما أمكن بقاؤه في الحياة ، وأما دفنه في غار فليس الا تحجته الى أن يكون أظلم الليل

ثامناً — ان اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن مات وان قيل انه مات ثم عاش كما هي العقيدة المسيحية فنحن انما نتكلم الآن عن رأى فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وانما تنظر في الحادثة الى المعقول والطبيعي بدون معجزات ولا خوارق عادات . فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثه الصلب وانه أكل معهم وان توما اشقه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذي صلب ولما كان يعلم أنه كانت في صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها اصبعه حتى تحققها . وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وان « التشبيه » الذي في القرآن في آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وانما هو تشبيه الصلب الذي جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروحاني على عيسى بالقتل صلباً وكانوا يابون الا انفاذ هذا الحكم . فخيّل لهم الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها وأدخلوه المغارة حياً . وكان اليهود دخلوا في السبت فلم يعلموا بشيء

و بعد أن بدّل المسيح في المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً و يوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقوداً ، والحجر متدحرجاً ، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى بيلاطس وشكوا اليه الاعمال الذي وقع في هذا الأمر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ليلاً ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أنزل عن الصليب حياً^(١) ووضع في القبر على صورة مدفون ، ثم في جوف الليل فرّ من المغارة . ومن جهة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة فعلاً لا تشبيهاً ومن فلسطين ذهب الى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد واتمته حياته في الهند ودفن في شمال الهند حيث له الآن هناك قبر يزار . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هي مجرد حدس وتخمين يعززه قرآن وأدلة في نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت بجرى طبيعياً لا معجزة فيه . فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدره الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدرة مقررة منذ الأزل وان النصرانية مبنية عليها .

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل « رنان » وأمثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرّر الفداء من الأزل فقد ذهبوا الى أن الصلب والموت على الصليب وقعا فعلاً ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء في القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وانما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيلهم وهيامهم في حب المسيح الى حد أنهم ظنوه نزل عليهم . وأكل معهم ، وان كل ما ورد من ذلك في الأناجيل لم يقع وانما هو خيال في خيال حلمهم عليه الحب . وبالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوباً ودفن في المغارة وفي اليوم الثالث قام وصعد الى السماء ، وانه بعد قيامه . تجلى للتلاميذ وتعمشى معهم وأمرهم بنشر دينه وودّعهم والمسلمون يقولون انه لم يكن هو المصلوب وانما صلب شخص آخر عوضاً عنه ، وان الله رفعه اليه . وهناك رأي من الآراء هو أنه في قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) لا يقصد نفي القتل والصلب عن الجسد وانما يقصد انهم

(١) اقرأ عن هذه المسئلة كتاب اميل لودفيغ الألماني المشهور في علم تراجم الرجال وذلك في آخر كتابه عن المسيح

كانوا قتلوا الجسد فلم يقدرُوا أن يقتلوا الروح وان الله رفع تلك الروح اليه . ورأى آخر انه رُفِع . على الصليب الى أن أقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . وبعد أن أدخل المغارة جىء اليه بثياب فلبسها وترك الثياب المطلخة بالدم . وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدالية وبعض نساء وبعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى أن خرج من المغارة فالأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب لئبدها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وأبعد في الأرض خوفاً من الوقوع في يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك . وهذا الرأي الأخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معاً كما أن الرأي الذي قبله وهو الذي معناه أن قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفي موت جسد المسيح على الصليب وإنما يعنى روحه ويعنى عمله في الأرض هو الرأي الوحيد الذي يمكن به التوفيق بين عقيدتي الاسلام والمسيحية . وهو الرأي الذي يحاول تأييده « درمنغهم » لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين في أهم ما اختلفتا فيه . وأحسن ما كتبه المسامون في مسألة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فمن شاء فليرجع اليها .



وقد ظهر في السنة الماضية كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » وفيه بحث تحليلي لانجيل مرقس ألّفه الاستاذ بروسبرالفاريك Prosper Alfarié المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الاستاذ المذكور مذهب من يرى ان أكثر ماورد في الانجيل المذكور مطبّق عمداً على نبوءات سابقة في العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يظهر كل ما هناك من التناقضات تارةً ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً وذلك مثل ان الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب . وانه انشق حجاب الهيكل وغير ذلك من الاخبار . ولكن هذا المؤلف هو ممن لا يشتهون في موت المسيح على الصليب

وفي هذه السنة ظهر كتاب جديد اسمه « حياة يسوع » للمسيو موريس غوغويل Goguel من علماء فرنسا توخى فيه الرد على الدكتور كوشو Couchoud الافرنيسي

وغيره من العلماء الالمان والانكليز والهولانديين الذين لم يجدوا في الأناجيل حقائق تاريخية قابلة للتمحيص ، بل وجدوا فيها دعاية دينية محضه ، واتفوا الى القول بان المسيح لم يوجد أصلاً وإنما كان رمزاً . فالمسيو غوغويل يبين في كتابه مافي هذه الاقويل من المبالغات ، ويذهب الى أن وجود عيسى محقق ، وان الأخبار الواردة في الاناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها . وهو يرى ان ادعاء ان المسيح رمز فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم المسيو موريس غوغويل يعتقد ان كثيراً من روايات الاناجيل غير واقعية بل هي مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد وان هذا في واد والتاريخ في واد . ورنان في كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات عمداً على النبوات السابقة الا أنه يعتقد موت المسيح على الصليب كما يموت سائر الناس .



ثم لنا ملاحظة أخرى على قول « درمنهم » بشأن المصحف . وظننته ان هناك مصاحف غير المصحف العثماني قد أطلت ! فان كلاماً كهذا يدور كثيراً في كتب الأور بين ومنهم من يزعم ان المصحف تعاوره الحذف والتبديل ، وأن الخلفاء الراشدين زادوا فيه ونقصوا كما أرادوا . وهم مطلقون العنان لخيالاتهم في هذا الموضوع بحسب عاداتهم ويخبطون خبطاً كثيراً كما هو دأبهم اذا تكلموا عن الشرق والاسلام . ولس بشيء مما يظنونه بصحيح . وكل هذا امّا جهلٌ بتاريخ القرآن واما تجاهل مقصود منهم فالقرآن كان محفوظاً في صدور ألوف من الرجال وفي صدور عددٍ كبيرٍ جداً من الصحابة ممن يستحيل تواطؤهم على الكذب . ولما جرت حرب الردة في اليمامة استحرّ القتل في الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فجا عمر الى أبي بكر وقال له ، ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني لأخشى أن يستحر بالفراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه واني لأرى ان يجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير . قال أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ، فرأيت الذي رأى عمر . قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولا تتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجعه ، قال

زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتبعت القرآن اجمعه من الرقاع ، والاكتاف ، والعُسبُ وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمه بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها ، نقل هذا جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ثم أردف ذلك بقوله : واخرج أبو يعلى عن عليّ قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ان أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين وذكر أبو الفداء هذه القصة كما يأتي :

« ثم دخلت سنة ثلاثين وفيها بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق ، فانهم يقولون قرآنا أصح من قرآن أهل الشام ، لانا قرأنا على أبي موسى الأشعري وأهل الشام يقولون قرآنا أصح لانا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأنصار . فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ﷺ ، وتحرق ماسواه من المصاحف التي بأيدي الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الأمصار ، وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام الخزومي ، وقال عثمان : ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم »

ولقد رأينا أجمع ما كتب في هذا المقام كلام الاستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة الأواخر على الأوائل في علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعي في كتابه « اعجاز القرآن » فانه جمع فأوعى وأصاب المحز وطبق المفضل وهاهوذا مقالاً بجاحظيّ بيانه نأثره بحرفه قال :

« وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم أو بأمر من النبي ﷺ ، فيخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من العسب (١) والكرانيف (٢) واللخاف (٣)

(١) جمع عسب جريدة النخل كانوا يكشطون الحوص عنه ويكتبون في الطرف العريض

(٢) جمع كرانفة بالكسر وبالضم وهي أصول السمف الغلاظ (٣) جمع لحفة وهي صفائح الحجارة

والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الاكتاف والاضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم يكتب كل منهم ما يستر له أو يسترته أحواله . ولكن مما ليس فيه ريب ان منهم قوماً جمعوا القرآن كله لذلك العهد، وقد اختلفوا في تعيينهم بيد انهم أجمعوا على نفر : منهم علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود . وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد . فان المصاحف التي اختلفت بالثقة كانت ثلاثة : مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبي ، ومصحف زيد ، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبي ﷺ . فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك . وأما أبي فانه قرأ بعد الهجرة وعرض في ذلك الوقت . وأما زيد فقرأه بعدهما وكان عرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر العرض اذا كان في سنة وفاته ﷺ ، وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصلى الى أن لحق بربه . ولذلك اختار المسلمون ما كان آخراً كما ستعرفه .

وأما علي بن أبي طالب ، فقد ذكروا ان له مصحفاً جمعه لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ . وفي الفهرست لابن النديم انه رأى عند أبي يعلى حزة الحسيني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن . ونحن نحسب ذلك خبراً شيعياً لأنه غير شائع . . .

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن في الصدور وفيما كتبوه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الاسلام وكانت في مدته حروب أهل الردة ، ومنها غزوة أهل اليمامة ، والمخاربون أكثرهم من الصحابة ومن القرءاء . فقتل في هذه الغزوة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (ويقال سبعمائة) وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد بيتر معونة (موضع قرب المدينة) في عهد النبي ﷺ فهال ذلك عمر بن الخطاب ، فدخل على أبي بكر رجهما الله فقال : ان أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش في النار ، واني أخشى أن لا يشهدوا موطناً الا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُدنى ولو جمعته وكتبته . فنفر منها أبو بكر ، وقال أفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ . فتراجعا في ذلك . ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت . قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسر بل فقال لي أبو بكر : ان هذا قد دعاني الى أمر فأيت عليه وأنت كاتب الوحي فان تكن معه اتبعكما وان توافقني لا أفعل . فافتص أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت يفعل

مالم يفعل رسول الله ﷺ الى أن قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فذهبنا ننظر فقلنا : لاشئ* والله ما علمينا في ذلك شئ* . قال زيد : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُسْب .

وهذا الذي فعله أبو بكر كأنما استحميا به طائفة من القراء الذين استحروا بهم القتل بعد ذلك في المواطن التي شهدوها لم يعد به ما وصفنا . ولذا بقي ما اكتبه زيد نسخة واحدة وهو قد تتبع ما فيها من الرقاع والعسب واللتخاف ومن صدور الرجال وانما ائتمنه أبو بكر لأنه حافظ ، ولأنه من كتبة الوحي ، ثم لأنه صاحب العرضة الأخيرة ، وربما كان قد أعانه بغيره في الجمع والتنسيق ، فإن في بعض الروايات أن سالم مولى أبي حذيفة كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر . أما الكتابة فهي لزيد بالاجماع .

وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر ينتظر بها وقتها أن يحين حتى اذا توفي سنة ١٣ صارت بعده الى عمر فكانت عنده حتى مات ، ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان . ويومئذ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر فأخذ أهل مصر عن رجل من بقية القراء

فأهل دمشق وحص أخذوا عن المقداد بن الاسود . وأهل الكوفة عن ابن مسعود . وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري — وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبي بن كعب ، وكانت وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التي نزل عليها كما سيمر بك ، فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجامع أو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحد . فاذا علم ان جميع القرآت مستندة الى رسول الله ﷺ وانه أجازها ، لا يمتنع أن يحيك في صدره بعض الشك ، وان ينطوى منها على شئ* اذا هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة وبعد أن اجتمع العرب على كلمة واحدة ، فلا يلبث أن يجرى ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى بعضه خيراً من بعضه ويظن منه الصريح ، والمدخول ، والعالى ، والنازل ، والافصح

والفصيح ، وأشبهه ذلك ويعتد ما يراه في القرآن من القرآن . وهذا أمر ان هو استفاض فيهم ثم مردوا عليه خرجوا منه ولا ريب الى المناقضة والملاحاة والى أن يرد بعضهم على بعض هذا يقول : قراءتي وما أخذت به . وذلك يقول : بل قراءتي وما أنا عليه . وليس من وراء هذا اللجاج الاالتفكير والتأثير ولا جرم انها الفتنة لا تفتأ بعد ذلك من دم .

وافند نجمت هذه الناشئة يومئذ فلما كانت غزوة ارمينية وغزوة أذر بيجان ، كان فيمن غزاهما مع أهل العراق حذيفة بن اليمان فرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة وانهم لا يجرون من ذلك على أصل في الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرأون بلحونهم ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتي كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره اذ يتبارون فيه حتى يكفر بعضهم بعضاً ، ولم ير عندهم تكبيراً لذلك ولا اكباراً له بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم . ففرغ الى عثمان (بن عفان رضي الله عنه) فأخبره بالشيء رأى . وكان عثمان قد رفع اليه ان شيئاً من ذلك يكون بين المسلمين الذين يقرءون الصبئية ويأخذونهم بحفظ القرآن ، فينشأون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض . فأعظم رجاء الله ، أمر هذه الفتنة وأكبره الصحابة جميعاً ، لأن الاختلاف في كتاب الله مدرجة الى مخالفة ما فيه ، ومتى اعملوا بعض معانيه لم يكن بد أن يتصرفوا ببعض ألفاظه ، وانما هو اجترأ واحد فيوشك أن يكون من ذلك مساع للتحريف والتبديل . فاجعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الاولى التي كانت عند أبي بكر وان يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها حذار تلك الردة المشبهة ، واشفاقاً على الناس أن يصيروا كالمارءوا الى الفتنة أركسوا فيها . فأرسل عثمان الى حفصة فبعثت اليه بتلك الصحف ، ثم ارسل الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم .

وفي رواية أخرى عن زيد بن ثابت ان عثمان أمره أن يكتب له مصحفاً بعد أن رفع اليه أمر الاختلاف وقال : اني مدخل معك رجلاً ليبياً فصيحاً فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الى جعل معه ابان بن سعيد بن العاص . فلما بلغا في الكتابة قوله تعالى : (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) قال زيد : فقلت : التابوت . وقال ابان بن سعيد : التابوت .

فرفعنا ذلك الى عثمان فكتب : التابوت .

وفي رواية ثالثة لابن عساكر ان عثمان خطب في الناس يومئذٍ وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت . قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال : فليمل سعيد . وليكتب زيد .

ونحسب أن اختلاف هذه الرواية وما جاء بمعناها من وجوه أخرى إنما بعث عليه تصور الرواة لا يبلغ ما يكون من صور الثقة في هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فانك لا ترى منها رواية الا وفيها مبالغة في التحري ليست في الاخرى . والذي يخبر بمثل ذلك الخبر عن القرآن إنما يخبر بأمر شديد اذا هو لم يمكن فيه لموضع الثقة ولم يحصنه أشد التحصين حتى لا تجد الشبهة اليه سبيلاً . وظاهر انه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هي الواقع قال زيد (في بعض الروايات عنه) : فلما فرغت عرضته عرضة فلم أجد فيه هذه الآية « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » قال فاستعرضت المهاجرين أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتُها عند خزيمه يعني ابن ثابت فكتبتها . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) الى آخر السورة فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحدٍ منهم ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتُها مع رجل آخر يدعى خزيمه أيضاً فأثبتها في آخر « براءة » . ولو تمت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً . ثم أرسل عثمان الى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة وحلف لها إيرادها اليها فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف في شيء فردها اليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف فاما ماتت حفصة أرسل الى عبد الله بن عمر في الصحيفة بعزمة فأعطاهم اياها فغسلت غسلًا .

قلنا وكلام زيد نص قاطع في أنه كان يحفظ القرآن كله لم يذهب عنه شيء منه إذ كان يعرض ما في المصحف على ما ربط في صدره وثبت في حفظه ، ثم هو نص كذلك على أن زيدا كان لا يكتفي في نفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدي اليه كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنة وان كان الصحابة رضی الله عنهم قد اجتمعوا على الثقة به فلم يثبت ما أثبتته الا بشاهدين أحدهما من حفظ غيره والآخر من حفظه

ثم بعث عثمان في كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة في قول مشهور ، فأرسل منها الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً وهو مصحفه الذي يسمى الأمام — الأصل في هذه التسمية ما جاء في بعض الروايات من أن عثمان لما بلغه اختلاف المعلمين في القرآن كما أوردناه آنفاً قال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه فن نأى عنى كان أشد تكديباً وأكثر لحناً . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماماً — ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق ولم يجعل في عزمته تلك رخصة سائغة لأحد وكان جمع عثمان في سنة ٢٥ للهجرة ، وانما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف لأنه أمرٌ يمد مع الزمن وتنشعب الأيام به وهو ان أمن في عصره لم يدر ما يكون بعد عصره . وقد أدرك ان العرب لا يستمرون عربا على الاختلاط والفتوح وان الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هو رأى ما وقع في الشعر وروايته وان الاختلاف كان باباً الى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق اليه بشيء وجعله بذلك فوق الزمن .

ولم تكن المصاحف التي كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف في السور الى اليوم فانما هو ترتيب عثمان — وكان تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً زمن الحجاج — أما في ما وراء ذلك فقد رووا أن رسول الله ﷺ كان اذا نزلت سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين ، فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعته في أيدي الناس باضطراب القطع التي كتب فيها تقديماً وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالي السور وذلك ان الواحد منهم اذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج في سريته — هي عندهم من خمسة أنفس الى ثلاثمائة — أو أربعمائة — فنزلت سورة أخرى فانه كان اذا رجع ياخذ في حفظ ما ينزل بعد

رجوعه وكتابه ويتبع ما فاتته على حسب ما تسهل له أ كثره أو أقله فن ثم يقع في ما يكتبه تأخير المقدم وتقديم المؤخر . فاما جمعه أبو بكر برأى عمر كتبوه على ما وقفهم عليه رسول الله ﷺ ثم كانوا في أيام عمر يكتبون بعض المصاحف منتسقة السور على ترتيب ابن مسعود وترتيب أبي بن كعب وكلاهما قد سرده ابن النديم في كتابه الفهرست . وقال ابن فارس ان السور في مصحف علي كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك ثم المدثر ثم نون ثم المتذمر ثم تبت ثم التكوير وهكذا الى آخر المسكى والمدنى ولا حاجة بنا أن نوسع في استقصاء هذا الخلاف

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت وهو صاحب العرصة الأخيرة ولعله كان ترتيب مصحف أبي بكر أيضاً لما مر في الرواية عن زيد من أنه قابل بين الاثنين معارضته والله أعلم . ويرجح أن ترتيب زيد الذي نقرأ به اليوم هو ما راضيه رسول الله ﷺ ما روى عن عوف بن مالك وعن حذيفة من أنه عليه الصلاة والسلام تهجد ذات ليلة فاستفتح فقرأ في نافذته البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أربع ركعات سورة سورة على هذا النسق وهو الذي عليه ترتيب زيد . وهذا الخبر يظهر ما ورد في معناه وانعقد به التصديق من أن ترتيب الآي إنما كان توفيقاً منه صلى الله عليه وسلم ومن قصص زيد عن نفسه في تلك الرواية تعلم انه كان يحفظ القرآن على ترتيبه آية فآية وسورة فسورة — ولم يكن بعد انتشار المصاحف العثمانية وانتساخها على هيئتها الا أن استوثقت الأمة على ذلك بالطاعة وأحرق كل امرئ ما كان عنده مما يخالفها ترتيباً أو قراءة وأطبق المسلمون على ذلك النسق وذلك الحرف ثم أقبلوا يجددون في اخراجها وانتساخها . ولقد روى المسعودي انه رفع من عسكر معاوية في واقعة صفين نحو من خمسمائة مصحف وهي الخدعة المشهورة التي أشار بها عمرو بن العاص في تلك الواقعة ولم يكن بين جمع عثمان الى يوم صفين الا سبع سنوات

وهنا أمر لا مذهب لنا دون التنبيه عليه وذلك أن جمع القرآن كان استقصاء لما كتب واستيعاباً لما في الصدور فكانوا لا يقبلون الا بشهادة قد امتحنوها أو حلف قد وثقوا من صاحبه والا بعد العرض على من جمعوا وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الصحابة كانوا لا يحسنون التهجي ، وقد يكتبون غير ما يقرأون على وجه من وجوه الكتابة أو يكتبون بحرف من القراءات كالذي رواه ابن فارس بسنده عن هاني قال : كنت عند

عثمان رضى الله تعالى عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة الى أبى بن كعب فيها « لم يتثن » و « أمهل الكافرين » و « لا تبديل فى الخلق » قال فدعى بالدواة فمحي احدى اللامين وكتب « خلق الله » ومحي فأمهل وكتب « فهل » وكتب « لم يتسنه » أخلق فيها هاء والقراءة على هذا الرسم

فذهب بعض أهل الكلام ممن لا صناعة لهم الا الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شئ حملاً على ماوصفوا من كيفية جمعه وهو باطل من الظن لما عامته من أنباء حفظته الذين جمعوه وعرضوه ثم لما رأيت من تثبتهم فى ذلك حتى جعلت لهم الصحة من أطرافها ثم لاجماع الجهم الغفير من الصحابة على أن ما بين دفتى المصحف هو الذى تلقوه عن رسول الله ﷺ لم يأت به الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا اقتطع منه الباطل شيئاً

ونحن لما رأينا روايات تختلف فى شئ من الأشياء فضل اختلاف وتنقسم فى الرد والتأويل كل طريق وعركا رأينا من أمرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن فان هذه الألفاظ متواترة اجماعاً لا يتدارأ فيها الرواة من علا منهم ومن نزل وانما كان ذلك لأن القرآن أصل هذا الدين وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن وتألب الأحداث وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى وراغ أ كثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترأوا على حدود الله وضررتهم الفتن والشبهات مقبلاً بمدبر ومدبراً بمقبل فصار كل من تزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ما يختلف معه أو يختلف به وهيهات ذلك الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل والا أن يفتح الكلمة السيئة ويبالغ فى الجمل على ذمته والعنف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . ونحسب ان أ كثر ذلك مما افترته الملحدة وتزيدت به الفئة الغالية وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ويرى فيه حجته على مذهبه وينتبه على دعواه . ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم فى الحق والباطل . ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وقد وردت روايات قليلة فى أشياء زعموا أنها كانت قرآناً ورفعت على أن رسول الله ﷺ كان

يقرر الأحكام عن ربه اذا لم ينزل بها قرآن لأن السنة كانت تأتي مأتاه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعني السنن وعلى هذا الحديث يخرج في رأينا كل ما رووه مما حسبه كان قرآناً فرفع وبطلت تلاوته على قلة ذلك ان صح لانه يكون وحياً وليس كل وحى بقرآن . على أن ما ورد من ذلك ورد معه اضطرابهم فيه وضعف وزنه في الرواية وأكبر ظننا أنها روايات متأخرة من محدثات الأمور وان في هذه المحدثات لما هو أشد منها وأجدى بشأنه . ولو كان من تلك شيء في العهد الأول لرويت معها أقوال أخرى للأئمة الأثبات الذين كان اليهم المفزع من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا يومئذ متوافرين وكلهم مُقرن لذلك قوى عليه وكانوا يعلمون أن المرء في القرآن كفر وردة وانكار بعضه انكاره بالجملة . وقد أجمعوا على ما في مصحف عثمان وأعطوه بذل سنتهم في الشهادة أي قوتها وما استطاعت من تصديق . ونحن من جهتنا نمنع كل المنع ولا نعبأ أن يقال انه ذهب من القرآن شيء وان تأولوا لذلك وتمحلوا وان أسندوا الرواية الى جبريل وميكائيل ونعتد ذلك من السوء الصلعاء التي لا يرحضها من جاء بها ولا يغسلها عن رأسه بعد قول الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولا يتوهم أحد أن نسبة بعض القول الى الصحابة نص في أن ذلك المقول صحيح البتة فان الصحابة غير معصومين وقد جاءت روايات صحيحة بما اخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء من القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذلك العهد هو ما هو ثم بما وهل عنه بعضهم مما تحدثوه من أحاديثه الشريفة فاخطأوا في فهم ما سمعوا ونقلنا في باب الرواية من تاريخ آداب العرب^(١) أن بعضهم كان يرد على بعض فيما يشبه لهم انه الصواب خوف أن يكونوا قد وهموا . وثبت أن عمر رضي الله عنه شك في حديث فاطمة بنت قيس بل شك في حديث عمار بن ياسر في التيمم لخوف الوهم مع أن عماراً ممن لا يتهم بتعمد الكذب ولا بالكذب وهابة اصحبته وسابقته مع رسول الله ﷺ ولذلك أذن له عمر في رواية هذا الحديث مع شكه هو في صحته .

على أن تلك الروايات القليلة في ما زعموه كان قرآناً وبطلت تلاوته ان صحت أسانيدها

(١) هو كتاب لم يصنف في باب نظيره من تأليف الاستاذ الراجعي الذي نقل عنه هذا الفصل

أولم تصح فهي على ضعفها وقتها مما لاحفل به مادام الى جانبها اجماع الأمة وتظاهر الروايات الصحيحة وتواتر النقل والأداء على التوثيق . انتهى

وخلاصة القول انهم جمعوا القرآن من الادم والعسب والكرانيف واللخاف وعرضوه على مافي صدور الرجال لا عرضة واحدة بل عرضات متعددة وكان ذلك بين مئات وألوف يستحيل توأطهم على الكذب أو على زيادة أو على نقصان ولذلك اطمأنت النفوس ونلجت القلوب واقتنعت العقول بان هذا هو القرآن كما أنزل وأصبح ما يروى خلاف ذلك لا يعبا به وأما الاختلاف في وجوه القراءات فهو شيء آخر لا يتعلق بالكلام الالهي نفسه بل بكيفية قراءته وقد كانت لهجات العرب تختلف بعض الشيء كما لا يخفى

ثم نعود الى «درمنغهم» الذي يحاول في جميع كتابه التألف بين الاسلام والمسيحية فهو يقول في صفحة ١٣٤ : « ان نفساً قويمة طاهرة نظير نفس محمد في اتصال مع الحقائق التي وجدها هذا الرجل في نفسه في أثناء خلواته العظيمة في الصحراء والجبال كانت تشعر بأن الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة بل هي حقيقة يراها الانسان من نفسه وكل من البشر يتمثل الله تعالى كما يقدر ولكن المهم أن يكون ملائ شعوراً بالحقيقة الالهية وأن يسلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ثم قال : ان الهوة التي قد احتفرها المسيحيون والمسامون فيما بينهم لم تكن في الحقيقة بين الاسلام والنصرانية وانما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم . فأهل الكتاب كانوا باديء ذي بدء أنصاراً لمحمد ثم لم يفتشوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هذا هو الله كما أن المساميين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية . مفسرى القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا في اثبات ما بينهما من المفارقات . فالقرآن اقرب كثيراً الى النصرانية من السنة المروية وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة الى الرسول هي التي حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفي هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنغهم)

ثم قال : ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المساميين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من

جهة المسيحيين فقد كان البيزنطيون يحتقرون الاسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا
يوحنا الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الاسلام وانما حملوا عليه بالظعن والقذف
بلا غص وأخذوا يصورون محمداً بصور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم.
(وذكر هنا المطاعن التي كانوا يوجهونها الى النبي ﷺ مما أئبنا نقله نظراً لسخفه وسفاهته
وسقوطه من نفسه حتى ان درمنغهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه
مسيحياً معتقداً) فالتناقض الذي بين الملتين كانت قواعده الأساسية أخباراً واهية مثل أن
محمداً كان صنم من ذهب وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملامى بالنمائل ! وقد ورد في
أغنية اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى في تلك الهياكل
محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من
الفُسَيْفُسياء ، ثم ان الأغنية المسماة بأغنية « رولان » والتي تمثل فرسان شرملان وهم
يخطمون أصنام المسلمين فيها ان المسلمين يعبدون ثلوثاً مؤلفاً من ترفاغانت Tervagant
ومحمد وأبولون (كل شيء خطر في البال الا نسبة عبادة الثلوث الى المسلمين) ثم ان
قصصاً يسمى قصص محمد Roman du Mohamet ورد فيه ما يفيد أن الاسلام يجيز اشتراك
جملة رجال في زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام « رودلف دولودهم »
Rudolph de Ludheim الى أيامنا هذه أيام « نيقولا دوكوز Nicolas de Cuse
و « فيفيس Vives و « مراشي Maracci و « هوتنجر Hottinger و « بيبليندر
Bibliander و « پريدو Prideaux فقد مثل هؤلاء محمداً كرجل كاذب ، والاسلام
كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوج من أوله
الى آخره بالمخالات . وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة الى الأخذ والرد في هراء كهذا . ثم ان
« بيير لوفنيرابل Pierre Le Vénérable مؤلف أول كتاب في أوروبا ضد الاسلام ترجم
مع ذلك في القرن الثاني عشر القرآن الى اللاتينية . ثم في القرن الرابع عشر ظهر
« بيير باسكال » فعلم عن الاسلام أكثر من غيره . ثم ان « البابا اينوشانيوس الثالث »
قال عن محمد انه المسيح الدجال . ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون اليه كرجل مبتدع
من يقال لهم الهرطقة . ثم ظهر « ريموند لول Raymond Lulle في القرن الرابع عشر

و«غليوم بوستل» Postel في القرن السادس عشر و«رولان» و«غانبيه» Roland & Ganié في القرن الثامن عشر والأب «دوبروغلي» de Brogli و«رنان» Renan في القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة . أما فوانير فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد وبنها على غير تحقيق . ثم عاد فصحح قسماً كبيراً مما وهن فيه ، وقد ارتكب «مونتسكيو» Montesquieu بعد «باسكال» و«مالبرانش» أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالاسلام نفسه الا أنه كانت له آراء سديدة وأحياناً عادلة فيما يتعلق بعبادات المسلمين ثم ظهر الكونت «دوبالانفيليه» De Boulainvilliers و«شول» Scholl و«كوسين دوبرسفال» Caussin de Perceval و«دوزي» Dozy و«سبرنجر» Sprenger و«بارتلمي سانتيلير» Barthelemy Saint-Hilaire^(١) و«دوكاستري» de Castries و«كارليل» Carlyle وهؤلاء كانوا على وجه الاجمال موافقين للاسلام ونبى الاسلام ، وربما أثنوا عليهما غير أن «دروتي» Droughty في سنة ١٨٧٦ و«فوستر» Foster سنة ١٨٢٢ قد أخشا في الطعن في الاسلام وفي محمد . ولا يزال للاسلام الى يومنا هذا أعداء شديدو العصبية

أما المسلمون فانهم وان كانوا من جهتهم قد درسوا في دور ازدهار المعارف عندهم الديانة النصرانية درساً أشبه بدرس فواتير معتمداً على الأدلة السطحية فقد كانوا هم أيضاً يرمون الى التباعداً الى التقارب . وكانوا لا يريدون أن يبحثوا في النصرانية من شدة ازدرائهم بها . وقد صاروا يلقبون «بالكافرين» أهل الكتاب وتلاميذ عيسى الذين جاء في القرآن أنهم أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا . وحتى هذه الساعة يفضل المسلمون أن يروا أولادهم أمواتاً على أن يروهم مسيحيين

فهذه الحواجز الصنعية غير الطبيعية كان علينا نحن أن نهدمها بأيدينا بازالة الأوهام لأن النور يكفي لازالة الأشباح . ويجب علينا أن نفهم أن العبرة انما هي بروح الموضوع فقط . فالعلاقات النسبية لا تزال الحقيقة المطلقة ، والوحى الالهى يخرج من الأفواه البشرية على حسب الأمكنة والأزمنة . فلا يمكن أن تأتينا الحقيقة دفعة واحدة أو أن تهبط علينا كلها كاملة وانما يحبيها ويكملها فينا استعدادنا النفسى . قال : ولكل من الديانات المنزلة

(١) هذا الرجل قال ان محمداً من أعظم العبقريين الذين أنجبتهم البشرية

خاصة تمتاز بها . فالاسلام مظهره التوحيد وهيمنة الخالق ، وجبروته ورحمته ، والمسيحية خاصتها المحبة ، والوثنية نفسها لا تنكر الالهية ولكنها تراها تحت أشكال أخرى مُبعثرة مشوهة ، منحرفة عن الصراط المستقيم ، وبالجملة فالنصرانية تتضمن الاسلام وتزيد عليه بعض أشياء ولكن كلتا الديانتين غير منافضة الاخرى كما يُظن . وكان يجب على أتباعهما بدلاً من أن يتصارعوا ويتقاتلوا أن يتنافسوا في العبادة والفضيلة ونحن نراهم على العكس من ذلك ، لا يشتغلون بتمجيد البارئ تعالى ، كما يشتغلون بمعادة بعضهم بعضاً

وقد جاء في القرآن شيء من التساؤل عما اذا كان الله نفسه لم يشأ تقسيم البشر مللاً ونحلاً الى حد محدود لكن بدون تعصب وشنآن . فقد قال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ) ثم يقول : (إلى الله مرجعكم فينبئكم جميعاً بما كنتم فيه تختلفون) . وقال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهِمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

ثم أخذ درمنغهم يذكروا في الاختلاف أحياناً من الفائدة وقال ان المبادئ قد تختلف بالضرورة بحسب الزمان والمكان فيكون اختلافها موافقاً للرقى البشرى . وقد كان الأنبياء بحسب التوراة يتزوجون بزوجات متعدداً . وكان المسيحيون الأولون يقاتلون الوثنية والأوثان أشد قتال الا أنهم بعد أن زال خطر الوثنية رجعوا يقدمون للقديسين شيئاً من العبادة وهذا ان بقى ضمن حدود الاعتدال ، لا يخلو مما يفيد الحياة الروحية . ولقد منع الاسلام التماثيل والتصاویر فامتدت صناعة الاسلام في النقش الى ما لا نهاية له في تمثيل المخلوقات غير الحية كما أن النصرانية أخذت بالصناعة اليونانية في تمثيل الأجسام البشرية . وكل من الفريقيين أتقن الصناعة التي اعتمد عليها ، فكان من ذلك نتيجة سعيدة جداً في باب المدنية ولم تكن كذلك لو بقيت الصناعة منحصرة في طرز واحد

ثم قال درمنغهم ان الفتوحات الاسلامية كانت جزاءً وفاقاً للمسيحية الشرقية التي استرسلت الى المجادلات الدينية وضائناً كان في العقاب فوائدها ، فان ظهور المسلمين في الشرق أهدب بالمسيحيين في أوروبا الى الاتحاد لأنهم وجدوا أنفسهم تحت الخطر ان لم يصلحوا أنفسهم وان لم ينهضوا عن المستوى الذي كانوا فيه

ثم قال ان القرآن يؤيد دائماً التوراة والانجيل فلا يمكنه أن يناقضهما وقد جاء فيه

خطاباً للنبي: (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) ثم ذكر درمنغهم قول القرآن في ابراهيم: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وعلل ذلك بقوله ، ان ملة ابراهيم هي ملة جميع المؤمنين بالله

وانغد آثرنا تلخيص هذا الفصل من كلام درمنغهم وان كنا لا نوافق على كل ما فيه بتامه وذلك لأن فيه معلومات كثيرة جلية يجدر بالمسلمين أن يطلعوا عليها ومن جلتها الأ كاذيب التي بقى الافرنج قروناً متطاولة يروجونها في حق محمد ﷺ ليصرفوا أنظار شعوبهم عن الاسلام ومن جلتها اعتراف المؤلف المذكور برغم كونه مسيحياً كاثوليكياً مؤمناً بدينه ان أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين انما جاء من قبل المسيحيين . وكأنه يرى ذلك غريباً جداً من قوم ، يأمرهم متبوعهم الديني بأن يحبوا أعداءهم . ولم يكن درمنغهم الفرنسي هو الأوربي الوحيد الذي اعترف بأن المسيحيين هم أشد الفريقين عداوةً وشنائاً وان المسلمين أقرب الى التسامح . فقد قرأت هذا في مواضع كثيرة من تأليف الاوربيين ومن جلتها تأليف اسمه « مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ » للمسيو « دجوفارا » Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913) Djuvara من وزراء دولة رومانيا مصدر بمقدمة بقلم المسيولويس رينولت Renault من علماء الحقوق بفرنسة . وقد جاءت في المقدمة وفي الكتاب معلومات هي في الدرجة القصوى من الأهمية قد نلم ببعضها في المظان اللازمة . وانما نذكر الآن قول « دجوفارا » في الصفحة الثالثة من كتابه وهو : « ان أردنا أن نعدل ونقول الحق وجب علينا أن نعترف بأن هناك عداوة قد نزل بها القضاء بين المسيحيين والمسلمين وأثقلت دائماً العلاقات التي بين الفريقين وانه برغم روح التسامح الديني في العصر الحديث لا يزال خير هذه العداوة بين هذه الأمم ولا سيما من جهة المسيحيين » وهذا يخالف ما لا يزال يردده بعضهم من ذكر « التعصب الاسلامي » وضرهم به المثل .

ومن أحسن ما في كلام درمنغهم حسن النية وخلص الطوية وكون هذا الرجل

عمل بكل ما في قدرته لازالة شدة هذا التنافر الذي بين المسلمين والمسيحيين . ومن يقدر أن لا يحمده عملاً كهذا لأن عداوات الأديان بما خالطها من مفساد السياسة ومن مطامع الرئاسة كانت من أعظم المصائب على البشرية . وقد نقل درمنغهم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابرة ولا محاولة تعمية أو تغطية للحقائق وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب ما يؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث وفي صفحة ١٨٣ ذكر أنه وان كان بعضهم يعيب محمداً بشدة ميله الى النساء فانه مما لا مشاحة فيه ان محمداً لم يكن شرهاً ولا نفوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للطامع ، بل كان حليماً رفيق القلب عظيم الانسانية وأحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقده وحيماً الهياً اليه . وكان بشوشاً دمث الأخلاق حسن المعشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخفف نعله ، ويحلب شياهه ويضطجع في أرض المسجد وينهض ويفتح الباب لأجل هرّه تريد أن تدخل ، ويعالج ديكاً مريضاً ، ويمسح ببردته عرق جواده ويوزع الصدقات بمجرد ما يدخل في يده شيء من المال ويتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دنوي ، وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيداً ولم يكن عنده لا بلاط ولا وزراء ولا شيء من أهمة الملوك وإنما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله

وقال أيضاً ان محمداً كان يقضى أكثر أوقاته في الصلاة سواء في الخلوات أو الجلوات وفي الوعظ وفي الشغل ويقضى نصيباً من وقته مع نسائه ولم يكن يكره التسلى والتفريح عن القلب ، وفي ذات يوم عرض على عائشة أن تذهب وتشهد أناساً من السودان يلعبون بالسيف والترس فذهبت عائشة بجانبه ونسلت بهذا المشهد وكان عمر أراد أن يطرد هؤلاء اللاعبين فاتهره محمد وقال له : دعهم فلكل أمة أعياد وملاهي وهذا هو عيدنا اليوم . وكان أبو بكر أراد منع جاريتين من جواري المدينة من الغناء أمام عائشة لقصائد فيها ذكر الحروب الماضية الا أن محمداً خالفه في ذلك وسمح بالغناء . وكان محمد يحب الأطفال كثيراً ويلعب معهم ويترك أولاد بنته يركبون على ظهره حتى في الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب . وكانت مرة فتاة صغيرة لابسة قميصاً أصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فمدت اصبعها الى ما بين منكميه ولمست الشامة

التي يقال لها خاتم النبوة فانتهرتها والدتها فقال لها محمد دعيتها . وكذلك كان يحب أن يضع الخلى للبنات الصغار وقد وضع مرة عقوداً وأسورة ايتيمتين من المدينة وتأسف أن لا يكون أسامة بن زيد الحب فتاة فكان يغطيه في الخلى من رأسه الى قدمه وكان يعجب من كون أهل البادية لا يقبلون أولادهم وكان يقول ان البنات يقين والدهن من نيران جهنم . وكان أنس خادم محمد مدة عشر سنوت ملازماً له وكان يذكر عجب صبره ويقول انه ما وبخه ولا مرة وكان حسن العشرة مع الجميع حتى مع الذين لم يكن رأيه فيهم حسناً ولم يكن ينطق بكلمة غليظة أصلاً . وكان بابيه مفتوحاً للجميع الا أنه كان يحب أن يحافظ على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن وعن مناداته من وراء الجدران . (يشير

درمنغهم الى ماورد في سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِيَتَّقُوا لَهُمْ مَعْرِفَةً وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَسَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومما قاله وهو بحث جليل أشار اليه ابن خلدون في مقدمته وهو ان سلطة النبي برغم علو منزلته عند العرب لم يكن من السهل اجراؤها دائماً على تلك الأقوام التي هي بفطرتها صعبة القيادة . قال انه قل أن يوجد في البشر رجل مطاع كما كان مطاعاً محمد . ولكن العرب المعتادين الفوضى لم يكونوا يعلمون شيئاً من النظام وكان يصعب عليهم جداً الاتقياد فكان من معجزات محمد أن جمعهم جميعاً في دائرة الاسلام . وكان في المدينة المنافقون الذين كانوا في الباطن أعداء للرسول وكان الأنصار الذين لم يكونوا يتفقون دائماً مع المهاجرين وسواء كان الأنصار أو المهاجرون فكان الجميع لا يأتلفون مع الأعراب أهل الوبر وكانت المناقشات والمفاخرات والنخوة سبباً للمخاصمات المستمرة وكذلك كانت تقع المخاصمات من أجل الدعاوى المالية ومن أجل تقسيم الغنائم وكان محمد يصلح جميع هذه الأمور اما بالوحى واما بحسن السياسة . وكانت نزاهته الشخصية مثلاً يقتدون به . وكان محمد شديد الاهتمام بالأعراب وكثيراً ما عنى بايظانهم المدينة وكان يطالبهم بأن يسكنوا في المدينة ولا يعودوا للبادية واقتنى أثره في ذلك الخلفاء الراشدون فكانوا يشددون على البوادي واذا سكن

أحدهم في المدينة لم يسمحوا له أن يبرحها حتى قيل ان بدوياً انتحر من شدة حنينه الى نبعه . وكان النبي يخشى على امته مايقال له « اللبن » أى عيشة الرعاة وبعبارة أخرى البداوة . فأنت ترى كم ظلم بعضهم الاسلام في اتهامهم اياه بالميل الى البداوة . وطالما أطرى الرسول معيشة المدينة برغم الحلى التي كانت فيها والتي اشتكى منها المهاجرون كثيراً . وطالما تحمل النبي من غلظة البدوى وصبر عليها وقيل ان أحد البدو بال في المسجد فأرادوا أن يضربوه فنهاهم الرسول وقال لهم دعوه وصبوا سطل ماء حيث بال . وجذبته مرة اعرابي^١ جذبة شديدة آذاه بها قائلاً له قل لهم يعطوني نصيباً من مال الله الذى بيدك فالنفت نحوه الرسول باسماء وقال لهم ليعطوه نصيباً . ولا شك في أن البوادي من أبعد الناس عن الديانة وقد ورد هذا المعنى في القرآن كثيراً ولذلك سكان الحواضر أقرب الى الاسلام من سكان البوادي .

ومما قاله درمنغهم : قال محمد ان الشهيد هو الذى يبذل نفسه في غير امور الدنيا وقال أيضاً : الجنة تحت ظلال السيوف . وقال بولس ان الموت هو العدو الأخير الذى سيهدم ولا شك ان الأديان انما تزكو وتنمو بدماء الشهداء فلاسلام في آخر الأمر اختار الجهاد بالسيف لأجل نشر دعوة الحق ولم يكن محمد من الكويكر^(١) بل كان يرى ان من الأشياء مالا مناص فيه عن الجهاد والقتال وانه في هذه الدنيا الملامى بالشرور لا يكون استعمال القوة القاهرة غير جائز الا اذا كان مبنياً على الظلم والبغضاء وليس من الممكن أن يقف الانسان مكتوف الأيدي أمام الشر الصائل . وقد بقى المسلمون مدة عشر سنوات يتحملون ألوان الانتقام في مكة وأخيراً اضطروا الى هجرة وطنهم وسكنوا المدينة . وكانت قريش تأتمر بمحمد لتقتله وتحديث بمهاجة المدينة للقضاء عليه وعلى الاسلام فمن ذلك الوقت وجب على المسلمين أن يقتلوا ويقتلوا وصار القتال في سبيل الله من أفضل القربات ومن طرق الشهادة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ولا يخلو الأمر من مشابهة بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين في الاستباق الى الشهادة ولا شك في ان الشهيد المسيحى الأول القديس اتيانوس الذى كان يدعو لفاتاليه يستحق من الاعجاب أكثر من الشهيد المسلم الأول خديب

(١) طائفة انكليزية تريد الوصول الى الحق بسلام

الذي كان يدعو على أعدائه (ان الرسول طلما دعا أيضاً لأعدائه أن يهديهم ويردهم الى الصواب) ولكن الفريقين كانوا يموتون في سبيل ايمانهم معتقدين بأنهم سيكونون شهداء فالمبدأ واحد ولكن الأحوال مختلفة . ففي السلطنة الرومانية كان المسيحيون الأوائل في بلاد متمدنة ذات ادارة منتظمة رعايا لقيصر الذي أوصاهم المسيح بأن يعطوه ماله فكان لابد لهم من أن يتقادوا لأحكام الدولة كما اتقاد سقراط نفسه لحكم دولته . فلما في بلاد العرب التي كانت فوضى وكانت كلها قبائل في قتال دائم ولم يكن الواحد يخرج الامتقداً سيفه أو متنكباً قوسه فكان لابد بضرورة الحال من أن يلجأ المسلمون الى القتال اذ لم يكن أمامهم غير الأسته مركباً . وهنا نقل درمنغهم كلاماً عن الميسو ماريتين Maritain في كتابه « أولية التأثير الروحي » وهو ان المسيحيين في القرون الأولى من النصرانية لم يكونوا يفكرون في هدم السلطنة الرومانية لأنهم كانوا عاجزين عن اقامة سلطنة مسيحية مكانها . فلذلك لم يكونوا يفكرون الا في الحياة الأبدية وفي مصالح الآخرة فكانت ثورتهم عقيمة لاثمرة لها الا مجرد الاضطراب الداخلي فلم يبق أمامهم الا نبيل الشهادة وهو في الواقع أحسن حل للمسألة في مثل تلك الحال التي كانوا فيها .

وكان محمد يقول يجب أن يتم هذا الأمر حتى يقدر الفارس أن يسير من صنعاء الى حضرموت بدون أن يخشى شيئاً سوى الله على نفسه والذئب على غنمه . ولم تكن قضية الجهاد ترمي الى هداية البشر تحت التهديد بالسيف كالا بل جاء في القرآن : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . وجاء في القرآن النهي عن الاعتداء . وكل ماورد فيه مما يتعلق بالجهاد في آيات متعددة متفرقة هو موقوف على حوادث خاصة معينة وقعت مع النبي وأصحابه . ولا يكون موافقاً للواقع أن يتخذ منها قاعدة عامة يجب تطبيق أحكامها على جميع الأحوال . ومما لا ينكر أن الجهاد قد دخل فيه مطامع في غير الجهة الروحية واتخذ بعض المسلمين وسيلة لكسب حظوظ الدنيا ولكن القرآن يقيم التنكير على هذه الأمور وان كان يسمح بمقابلة الشدة بمثلها . وكثيراً ما حلم محمد وعطف وتجاوز عن السيئات . وفي ظفرفه الأخير قد أظهر من علو النفس ما ينذر نظيره في التاريخ وكان يأمر جنده بأن يتجنبوا الضعفاء والأطفال والشيوخ والنساء ويحظر عليهم أن يهدموا البيوت أو أن ينتهبوا الغلات أو ان يقطعوا الأشجار انثمرة وكان يأمرهم بأن لا يساوا السيوف الا عند الضرورة المطلقة

وكثيراً ما أنكر أعمال بعض أتباعه وجبر مما كسروه وكان يقول لأن يهدي الله نفساً واحداً خير من جميع مكاسب الدنيا (لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً أحب إلي من حمر النعم). وكانت الغنائم في ذلك الوقت هي نتيجة الحرب الطبيعية وكانت هي والتجارة ورعاية المواشي جميع منابع رزق العرب فبديهي أن يكون محمد أباح الغنائم للمسلمين في حال ضعفهم ولسكنه قد جعل للغنائم قواعد وخصص جانباً عظيماً منها بالصدقات وبميرة الجيش وحظر في تقسيم السبي فضل الاولاد عن امهاتهم ولم يكن في وسعه أن ينقل العرب عن طباعهم التي فطروا عليها دفعة واحدة وإنما كان يهذب منها بقدر امكانه وكثيراً ما كان يحض على العفو عند المقدرة وقد روى عنه حديث ان الذي يغفر السيئات يقرب من درجة النبوة . ولا ينكر أن كثيراً من الصحابة أصبحوا أغنياء وافرين مما غنموه من كنوز الالكسة وفتح مصر وغيرها وكان أناس من البدو قد أصبحوا بتلك الفتوحات يلعبون بحلى الملوك الساسانيين وقيل ان الزبير بن العوام مات عن تركة تبلغ نحواً من خمسين مليوناً^(١) وكان الرسول يقول لأصحابه وهو يفكر في المستقبل ما أخشى عليكم من شيء مثل مكاسب الدنيا الفانية . ولما قتل مصعب بن عمير في وقعة أحد كان من الفقير بحيث لم يجدوا ما يكفونونه به الا خرقة قصيرة لم تكن لتواري من بدنه الا القسم الأعلى فغطوا سائر بدنه بالعشب . وذكر عند عبد الرحمن بن عوف فقال ، كان خيراً منا نحن الذين أفاض الله علينا من خيرات هذه الدنيا افتراه تعالى اكتفى لنا بها عن الآخرة ؟ وأخذ يبكي

ثم ذكر درمنغهم في صفحة ٢٧٣ قول « غوته » أكبر شعراء الالمان وهو « ان كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين ؟ »

(١) الصحيح أن الزبير رضى الله عنه لم يترك الا أراضى أمر ولده عبد الله بأن يطرحها للبيع لإيفاء ديونه وكان عبد الله ابن الزبير يظن أن ثمن هذه الأراضى لا يكفي لإيفاء الديون التي كانت على أبيه الا أنه عند بيع الأراضى كانت أمانها قد ارتفعت كثيراً فتمكنوا من ايفاء جميع الديون وبقي شيء من الأراضى لورثة الزبير . وكان عثمان ابن عفان ومطاعة وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من الصحابة أصحاب يسار تام وكانت لهم عقارات وأموال ومواش تجعلهم في صف الأغنياء حتى في هذا العصر ولسكنهم برغم هذه الثروة كلها لم يكونوا يعيشون معيشة التمتع المعروفة للمتفرجين بل كانوا ينفقون أموالهم في الدين والبروة والرصد وقضاء مغارم الضعفاء

ثم قال : لا جرم ان محمداً قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانباً من آسية وافريقية وليحطم قيود التقليد وليذبته فارس التي كانت نائمة ونصرانية الشرق التي كانت ممزقة بالمجادلات الدينية . ولا جدال في ان الانبياء في العالم هم أشبه بالقوى الطبيعية العظيمة المحسنة الهائلة التي هي من قبيل الشمس والمطر والزوابع التي تهز الأرض ثم تغطيها خضرة ونضرة . فيجب على الناس أن يعرفوهم بشمات أعمالهم وأصدق الشهود عليها هي الصدور الناجحة باليقين والقلوب المطمئنة والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الأدبية الزائلة والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السماء .

وهؤلاء الانبياء منفردين بدون قوة مادة وبدون أيدٍ — سوى الأيد الإلهي — وبرغم مقاومة الكبر البشري لم تجددهم يأتون بكشف سر الحرية في أسمى معانيها يقولون بطاعة الخالق لا المخلوق وبالمساواة التامة امام الخالق تعالى وبتقديم المعنى على اللفظ . وهكذا ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الأعلى أمياً طاهراً ساذج الطبيعة طليقاً من قيود الأوهام ، فدعا العلماء أن يفهموا ما يقولون ونبه الذين يقال انهم حكماء الى سلوك السبل المستقيمة وكان الناس اذا سمعوا ما ينطق به مثل : (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا**) يعودون فيامسون سر الحياة الذي يحيط بهم متواضعين لله تعالى متوجهين اليه ويعلمون هناك قاعدة تفرق بين الطاعة والمعصية مما يعجز عن الأتيان بمثله الفلاسفة ومدبرو الممالك .

قال درمنغهم : ان محمداً جاء في أشد الأعصر ظلمات حينما كانت المدنيات باجعتها قد تداعت الى الخراب من بلادالغال المير وفتنجية الى بلاد الهند وكان الاضطراب شاملاً فسمي محمداً ^(١) وتلقب بالنبي الأمي . وكان يرى نفسه أداة للوحى ومبلغاً واعياً يسمع ما يلقي اليه من فم الشخص النوراني الذي يشاهده ومن الصوت الذي يسمعه فيلقيه الى الناس (ما على الرسول الا البلاغ) وهذا الوحى هو الكلمة الالهية القديمة التي هي « أم الكتاب » المحفوظة في السماء السابعة تحرسها الملائكة المسبحون وانما اتخذت بالقرآن قالباً أرضياً — الى أن يقول : اتنا نرى القرآن نازلًا بحسب الوقائع موسى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئاً وفقاً

(١) اشارة الى ما ورد في التوراة من مجيء البارقليط الذي اسمه أحمد

للضرورات المتجددة ولصلحة الأمة وكثيراً ما نسخ منه الآخر الأول بحسب ضعف البشر واجابة لرغائبهم وعلى كل حال فكانت الرسالة في نظر محمد أسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله أفضل من النبي وعترته . ولما كان لكل نبي معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

ومما لا يقبل المراء ان في القرآن من سحر البيان مالا يوجد في كلام غيره على الاطلاق وان فيه من قوة التأثير والعمل في القلوب مالا يبرح الى اليوم سرّاً مغلقاً حتى انه يقذف بالخشوع في قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى . وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورة من مثله . ولم يكن اعجاز القرآن في مزيمه اللغوية من جهة ما يسمى اليوم بالأدب بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد وكان يكره الشعراء ويبرأ أن يكون منهم وانما كان اعجاز القرآن في شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

قال درمنغهم : انه لم يبق أدنى شك في صدق محمد . فان جميع حياته برغم بعض أغلاط قد اعترف هو بها تدل على كونه معتقداً بكليته بالرسالة التي عهد بها اليه وأنه وجد من الواجب عليه أن يقوم بهذه الرسالة مهما آده من جملها . وأن جميع مآظهم من هذا الرجل من قوة ايجاد وتناهي عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط نفس وشدة ارادة وحسن تدبير واتقان عمل وبالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظر الى هذا الملهم الصافي الذهن كرجل مصاب بصرع . اهـ

يشير درمنغهم بهذا الى مايزعمه أعداء الاسلام من كون حركة الوحي التي كانت تحصل للنبي ﷺ انما هي من علة جسمية فيه قال بعضهم انها مرض الصرع . ولكن أكثر الاوربيين اليوم رجعوا عن هذه الفكرة وعاموا أن ﷺ لم يكن مصاباً بمرض الصرع ولا بمرض عصبي آخر وأنه كان معتدل المزاج كامل الخلقة لاشائبة فيه ومن جملة من صرح بهذا القول المستشرق ماسينيون الافرسي الذي هو كاثوليكي النزعة مثل درمنغهم . أما ما ذكره درمنغهم من أن للنبي أغلاطاً كان هو يعترف بها فالسالمون يقررون العصمة للنبي وجميع الانبياء صلوات الله عليهم وذلك في الامور الدينية وهم ينزهونهم عن الكبائر . فوجب ايضاح العقيدة الاسلامية في هذا الشأن . وأما الكاثوليك فيجعلون العصمة للبابا في الامور الدينية شرطاً من شروط دياتهم

ثم قال درمنغهم : ان محمداً لم يكن يلتزم أن يجذب قومه الى عقيدته بجميع الطرق ولم يكن همه أن يسهل عليهم الامور ليتبعوا دعوته وانما كان يبلغهم رسالته لامعة كالسيف القاطع وكان يفرق بينها وبين آرائه الشخصية . ويقول بعضهم انه لم يكن في المدينة النبي الخاشع الصابر الذي كان بمكة . وجواب هذا ان الاحوال قد تتغير وانه كان حتماً عليه أن يغير من خطته لاجل تثبيت دعوته . وربما يكون أخطأ في بعض أعماله لأن العمل غير النظر ولكنه على كل حال بقى صادقاً في دعوته ثابتاً متيناً وان كان قد أخطأ فانه لم يكذب قط . وكيف يكون قد كذب ورسالته كانت تتأيد كل يوم وتثمر ثمرات لا تكون الا للحقائق .

قال وكانت عظمة محمد الحقيقية هي العظمة الآتية له من الله بالالهام الالهي الذي كان يقذف في روعه . وأما فيما عدا ذلك فكان يشعر بضعفه وعجزه . وكان يتهجّد الليل ويستغيث بالله ويسأله تعالى دائماً أن لا يخذله . وقالت له زوجته أم سلمة مرة : لماذا لا تفتأ تقول هذا والله قد غفر لك ماتقدم وما تأخر من ذنبك . فاجابها : كيف لا أخشى الله وقد تخلى مرة عن يونس . وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لي ذنوبي الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة وطهرني من آثامي تطهير الثلج واغسل فابي كما يغسل الثوب واجعل بيني وبين الأمم مسافة ما بين المشرق والمغرب .

وكان يلقى الى الناس ما يوحى اليه من القرآ من التوبيخ في مثل قصة الاعمي (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ اللَّهُ كَرِي أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) وفي مواضع أخرى مثل حديثه في خطاب أعدائه وغير ذلك .

واقدم تفنّن بعض علماء النفس من الاوربيين في تفسير حالة محمد والوحى الذي كان يلقى اليه فذهب بعضهم الى أنه صرع وذهب آخرون الى أنه شدة تخيل وكلهم غفلوا عن الوسط الذي كان فيه وعن معيشة الخيم في البادية ونسوا مقتضى البيئة التي كان فيها وما من شك في أن محمداً كان الى وقت بعثته كسائر الناس ليس فيه شذوذ في شيء وكان مزاجه بغاية الاعتدال وكذلك كان بعد البعثة في غاية التوازن الا ما كان يحصل له من التغير عند نزول الوحى .

وهذا شيء غير خاص به بل معهود في جميع الالاهيين الحقيقيين وفي أنبياء بني
 اسرآئيل . وقد كان ازميما يقول : أرى قلبي قد تدسّر وجميع عظامي مضطربة وأرأني
 كالسكران وذلك بسبب الاله والكلمات المقدسة. وكذلك كان عمّوس وهو مدبّر كما كان محمد
 مدبّراً يقول الكلمات نفسها . ولم يكن يرى محمد تلك المرأى لأنه كان مريضاً بل كانت
 تحصل له تلك الحالة العصبية من بعد تلك المرأى. ولا شك أنه يوجد تشابه بين المرضى بالامراض
 العصبية وبين أصحاب المكاشفات من الالاهيين الحقيقيين . ويمكن أن يقال ان البنية
 الضعيفة هي أكثر استعداداً للأحوال الروحية كما أن هذه الأحوال تزيدها ضعفاً . ولكن
 لم يكن يوجد أثر من هذا الضعف في محمد وبقى الى أن بلغ الكهولة من أكمل الناس صحة
 وأقواهم جسماً . فلم يكن يشعر بشيء الا ما كان يحصل له من التغير في حالة نزول الوحي ،
 نعم حصل له مرتين أو ثلاثاً شيء من ضربة الشمس على أثر السفر في الضحى وكان هذا
 يزول بالحجامة أو بالعلق . أما الوحي فكان يحدث له ألماً شديداً كثيراً ما كان يتجلّد له
 ويخفيه عن الناس بقدر امكانه فلحظ أبو بكر مرة الشيب قد بدأ في لحيته فقال له محمد :
 انما هي هود والحاقة والقارعة وأخواتها هي التي شيدتني . وكان يحصل له بعد الوحي نقل
 في رأسه يعالجه باللنقات والمرآهم ، وكان اذا أحسّ بدنو الوحي يغطّي نفسه ويتنفس تنفساً
 شديداً ويسمع له غطيظ وتحصل له شدة . واذا كان حتى في الشتاء يتصبّب منه العرق . وطلب
 يعلى بن أمية من عمر أن يريه النبي في حال نزول الوحي فجاءه الوحي وهو في الطريق الى مكة
 وكان أحدهم ألقى سؤالاً عن مناسك الحج فلم يجهر محمد جواباً ثم لم يلبث أن جاءه الوحي
 وتغطى بغطاء فدعا عمر يعلى بن أمية ورفع الغطاء عن النبي فاذا به يتنفس تنفساً شديداً
 ووجهه شديد الحرارة . ولما قسم عنه نهض وقال : أين الرجل الذي ألقى عليّ السؤال ؟ ثم
 أخذ يتلو الآيات النازلة عليه حينئذ وكان نزول الوحي عليه يختلف في الشكل فكان يسمع
 أحياناً كصلصلة الجرس أو كحفيف الأجنحة أو كدوى غير مفهوم تماماً ولم يكن يعي كل
 ما يسمع الا بعد انقطاع تلك الجلمبة وكان هذا أشده عليه وأغربه مظهرأ ، وأحياناً كان
 الملك يأتيه بصورة بشرية ، كصورة دحية الحلبي وكان من أجل أهل زمانه أو كصورته هو ،
 وكان يلقي عليه القول فيفهمه بدون عناء ، فكان الوحي بالاجال على شكلين وقد نهى
 محمد في القرآن عن أن يُحرّك به لسانه ويُجهد نفسه ليعي تماماً الآي التي كانت تلقى عليه

ولم يكن محمد هو الذي صنع القرآن ، ولا كان مُختاراً في تنزيل الوحي بل كان يظول عنده به ولا يرى شيئاً . وطلما تمنى أن يأتيه الملك فلم يأتيه

الا أن درمنغهم يعتقد ما يعتقد غيره من الاوروبيين من أن القرآن كسائر الكتب المنزلة لم يحرر الا بعد نزوله بكثير وانهم حملوا الناس على نسخة واحدة من المصحف وأحرقوا ما عداها وان كثيرا من الآيات لم يقع فيها الترتيب اللازم وانه لا يعلم بالتمام هل أدخل في القرآن شيء من الحديث النبوي الذي قاله الرسول من نفسه لا على أنه وحى . وكروى أن جعفر قال : انه كان في القرآن أسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها الا اسم أبي لهب . ثم ان الشيعة يتهمون أهل السنة بأنهم حذفوا من القرآن كل ما كان فيه من الآيات الموافقة لعلي ثم أنهى درمنغهم كلامه في هذا الموضوع قائلاً انه لا يقدر أن يجزم في هذه المسئلة وانه على وجه الاجال يرى المصحف الحاضر صحيحاً لا شائبة فيه الا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور . ولكن لا يرى الأحاديث النبوية كلها صحيحة ويجزم بأن قسماً كبيراً منها موضوع وهذا يوافق فيه كثير من المسلمين

ثم انه يقول ما يلي : ان محمداً لم يكن يقول في الصفات الالهية ما يقوله المتكلمون أو اللاهوتيون من التعليقات الطويلة بل كان محمداً تماماً بالاله لا يرى حقيقة غير الله فانه عنده هو الحقيقة وهو واجب الوجود . ولم يكن العرب ينكرون وجود الله وانما كانوا يتخيلونه بعيداً عنهم ويتخذون له وسائل من هؤلاء الأصنام فجاء محمد وقلب ذلك الاسلوب في العبادة وجعل الله حاضراً أمام العقول بدون واسطة وردت تلك الوسائل من أصنام وجنّة وملائكة الى الورا وعلم الناس أن الله أقرب الى المرء من جبل الوريد . وكانت عقيدته أنه لا بد من وجود ثابت في وسط تقلبات الحوادث وكان خالد يهيم على جميع ما يقع في هذا العالم ولا حول ولا قوة الا بالله وانا لله وانا اليه راجعون والله أكبر والله الأول والآخر والباطن والظاهر والأحد والحي القيوم ، القادر الخالق ، العلي الكبير ، المالك المجيد ، ذو الجلال والاكرام ، العظيم القوي الصمد ، الحكيم القدوس ، أحكم الحاكمين ، المنعم ، الأبدى ، الوارث ، الشاهد ، المدبر ، الهادي ، الأمين ، الحافظ ، الناصر ، المعطي ، الرازق ، سميع الدعاء الحاسب ، القابض ، الباسط ، العفو ، الغفار ، الرحمن الرحيم . وكان من عقيدة محمد أن الانسان عاجز عجزاً تاماً أمام الله تعالى وانه لا عذر له بين يديه ولكن الله تعالى يعفو

عن كثير وقد كتب على عرشه أن رحمة غلبت نقمته وهو يغفر لمن يغفر له ويسر برجوع
 أمّ واحد الى الهدى كسرور اعرابي فقد بعيره في الفلاة وما زال في أثره الى أن وجده
 أمامه . ومن عقيدة محمد أن الانسان لا يوجد في هذه الدنيا الا لعبادة الله تعالى وأن الله
 غني عنه وأنه يجب عليه أن يطلب وجه الله تعالى في كل شيء وان كل شيء هالك الا
 وجهه تعالى وان في اشراق النور الالهي على الانسان سلام النفس الداخلي ورضاها ورضي
 الله تعالى وأن أصل ذلك كله الايمان وان الوصول الى هذه الحالة يكون بالصلاة وبالايتار أي
 باعطاء ما يعز على الانسان ولو كان به خصاصة

والن لم يكن القرآن يقول ما قال يوحنا : ان الله كاه محبة فلم يكن محمد يهمل قاعدة
 أن الله تعالى يحب مخلوقاته كما تحب الأم ولدها . وكان يقول ان الله يضاعف الحسنات مائة
 مرة وقد جاء في القرآن : « اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ
 كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وكان عنده أن الايمان بدون المحبة وبدون الأعمال يكون ايماناً ميتاً .
 وكان ينهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وكان يقول ان أحسن الناس
 أ كظمهم لغيظه « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » وكان يقول ان المسلم من
 سلم الناس من لسانه ويده . وكان يقول ان المهاجر هو من يفر مما حرم الله ؛ وكان يقول
 احبوا بعضكم بعضاً في ذات الله ؛ وكان يقول ان العبد ينال رضا الله بالمحبة وانه تعالى قريب
 من الداعي اذا دعاه وانه رءوف رحيم . وكان يدعو ربه ويقول في دعائه : انتي أجبني اليك
 من ضعفي وعجزتي أنت يا أرحم الراحمين وملجأ الضعفاء الى من تكلمني ان أنت خذتني .
 وكان عنده أن الدين الحق هو العبادة بالعقل وأن الأعمال انما هي بالنيات وان الذي لا يريد
 أن يترك الكذب ولا يطهر نفسه فالله في غنى عن صيامه وجاء في القرآن : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ
 تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
 بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وجاء في القرآن بشأن الضحايا والقرايين « ان ينال الله لحومها ولا
 دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . وكان محمد يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل له

يارسول الله فكيف تنصره اذا كان ظالماً . قال : ترُدَّعُهُ عن ظلمه . وكان مرة عائداً من غزاة جاهد فيها المشركين فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر في أنفسنا . وقال : يجب أن يحب الانسان جميع الناس وجميع المخلوقات فان أصغر الطير يسبح باري السماوات والأرض يبسط جناحيه

وقد أثرت مواعظ محمد هذه في العرب تأثيراً عظيماً وأحدثت انقلاباً كبيراً في المجتمع العربي وفي البيئة الصحبية وارتفع شأن المرأة عما كانوا عليه وأبطل البغاء وأبطل الخدانة ولم يبطل الرق ولكن وضعت له شروط . وجعل محمد عتق الرقاب من أعظم الفضائل وقال من أعتق رقبة فان الله يعتق من النار جميع أعضائه . وكان يقول عبيدكم اخوانكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تحمّلوهم فوق طاقتهم . وكان ينهى عن أن يقال عبيدي وكان يقول لا مؤلى غير الله . وسأله سائل : هل عند الله ثواب على الرافة بالحيوانات ؟ فقال له : نعم ، يثيب الله كل من يرؤى ظمأ مخلوق ذى قلب ومن حفر بئراً فله ثواب لكل يعير يشرب منها . وطالما نهى محمد عن العنف في سوق الدواب وعن قتل الحيوانات الا لموجب . وذكر ابن عمر من أقواله أن الحيوانات يحضرن يوم القيامة للشكوى من ظلمهن وان امرأة تخدشها هرة في النار بلا انقطاع لأنها أغلقت عليها الباب حتى ماتت جوعاً وان مومساً تدخل الجنة لكونها سقت على حافة بئر كلباً كان سيموت عطشاً .

وقد أقبل المتكلمون والأخلاقون والمتصوفة والفقهاء على أقوال الرسول ومواعظه فأخذوا منها أسس تعاليمهم كل فريق في الجهة التي سار فيها ولكنهم بقوا واضعين القواعد العامة نصب أعينهم . واذا كان وقع بينهم اختلافات فلأنهم قد اعتمدوا على أحاديث مختلفة وكل فريق صحح الحديث الذي يرويه . مثال ذلك القدرية والجبرية في اختلافهم كل فريق يجتهد أن يتوكأ على شيء من القرآن والسنة . وهذا بعينه قد حصل بين المسيحيين فتجد في هذه المسئلة الاختلاف بين اللاهوتيين مثل توما الاكوييني وبوسويت والجانسينيين والمولانيين (١)

(١) الجانسينيون Jansinistes نسبة الى جاندين رجل هولاندى كان أستاذاً لدم اللاهوت في باريز في أوائل القرن السابع عشر وله كتاب اسمه « اوغسطينوس » اشغل في تأليفه نحواً من ٢٠ سنة وشرح فيه مذهب القديس اوغسطينوس في النعمة (اللطف المحزون) والاختيار وعقيدة القضاء والقدر وكان

فالفرآن يقول ان كل شئ من الله ولكنن ينسب الشر الى ضلال الانسان وقد تجد فيه ما يقوى حرية الانسان وتجد فيه ما يخالفها . فهنا طرفا السلسلة التي لم يقدر الناس الى اليوم أن يعرفوا الحلقات المتوسطة بينهما . ولئن كان المسلمون لا سيما في عصر الانحطاط أخذوا يميلون الى القول بأنه لا خيرة للانسان في أعماله فالحقيقة أن القرآن لا يقول بالجبرية وسأل اعرابي محمداً هل يعقل ناقته أم يفلتها متوكلاً على الله فقال له : اعقل وتوكل وكان اذا قيل له : اذا كان كل شئ مقدراً عند الله من الأزل فما فائدة السعي ؟ يكون جوابه : اسمعوا فيسهل الله لكم الأمور . وبعبارة أخرى : أعن نفسك يعنك خالقك

ومن المأثور عن النبي ﷺ اعمل للآخرة كأنك تموت غداً واعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً . فهذه في الحقيقة هي الحكمة وهي جماع الفضائل كلها . ومن أقوال النبي ما معناه ان أفتن المسلمين هو من فكر في أمر الآخرة واستعد لها لما وراءها .

ومن الناس من يقابل الآداب الاسلامية بالآداب المسيحية ويجد هذه أروع من تلك ولا شك أن الاسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بميول الجسد . وهو لا يطالب الانسان بالمبالغة في قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً الى الله اذا صدرت عن رجل متمتع ببلذاته المشروعة . الا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الاسلامية ينسون تقدم زهاد المسلمين في الطهارة وانهم لا يقاومون في هذا الأمر عن أحد من نساك الملل الاخرى . وكذلك ينسون تحريم الاسلام للخمر وفرضه صياماً أشد من كل صيام آخر وتشديده على النساء في صيانة عفتهم وفي ملابسهن ما لا يشدده دين غيره . وفي هذه المقاييس بين الأديان لا يجوز الاكتفاء بالنظر الى المبادئ نفسها بل يجب النظر أيضاً الى أحوال الزمان والمكان . فلما كان المسيحيون في أواخر الدولة الرومانية المنغمسة في الترف كانوا يتجنبون الشهوات التي ابتلى بها غيرهم . ولما ظهر الاسلام على يد أولئك الأعراب البداءة الذين كانوا في شدة من العيش أسرعوا في اللذات بقدر سذاجتهم الا أنه

مذهبه هذا موافقاً لمذهب المصلح البروتستانتي كلفين وغير مطابق لحرية المرء في الاختيار وقد تبعه في ذلك علماء مشاهير منهم باسكال من أعظم العبقرين الذين ظهوروا في فرنسا . وكان مولين اليسوعي يقول بخلاف قول جانسين فانقسم اللاهوتيون الى قسمين واشتد الخلاف وطال ودخل في أدوار مختلفة ولكن الكنيسة قضت على العقيدة الجانسينية)

لما تكوّن المجتمع الاسلامي وتأطدّ مست الحاجة الى كبح عنان الشهوات البدنية وظهرت النزعة الصوفية وعلا مقام الزهد

ثم قال درمنغهم : ان القرآن ردد كثيراً معنى كون الدنيا زائلة ومتاعاً قليلاً وانها لم تكن الا ممرّاً للآخرة . وكان سلمان الفارسي يقول ما قاله باسكال وهو أن المؤمن أشبه بالمرضى الذي يمنعه الطبيب من أن يأكل ما يلذه لأنه يضرّه . وكان النبي يقول : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . وعاد النبي اعريباً مريضاً فقال له : هذا تطهيرٌ لك . فقال له الاعرابي : بل هذه حتى ستأخذني الى القبر . فقال له النبي : هذا الذي أردته . وكان النبي يتعهد كثيراً ويقنت ويجمع نساءه ويعظهن . وكان أصحابه كثيراً ما يتعبدون ويتقشفون وقد بالغ بعضهم في العبادة والزهادة والصوم الى أن نهاهم النبي عن هذا الغلو في العبادة وفي قهر الأنفس .

ولم يكن محمد يرى خيرات هذه الدنيا علامة على المحبة الالهية وكان يقول لأصحابه : ما أخشى عليكم شيئاً أ أكثر من خيرات الحياة العاجلة (وما عند الله خيرٌ وأبقى) . فقال له أحد أصحابه أيمكن أن يأتي من الخير شر فتوقف محمد في الجواب وكأنيما جاءه الوحي وأخذ العرق يتصبب منه ثم سأل قائلاً : أين السائل ؟ ثم قال له : أترى شيئاً من خيرات هذا العالم يستحق هذا الاسم . وكان يقول ان خيرات هذا العالم ليست بخيرات ان لم تكن آتية بطريق حلال ولم تكن تُنفق في سبيل البرّ فان لم تكن كذلك فهي باب للشر وان أغناكم في هذه الدنيا سيكونون أفقركم في الآخرة ان لم يكونوا أنفقوا أموالهم في سبيل الله . وكان يقول : ان جهنم تقول بملء فيها : انتي أنا أضم المتكبرين والأغنياء والجبارين . وكثيراً ما كان محمد ينهى أصحابه عن الطمع في الدنيا ويدمر على الذين يجمعون الأموال ويحرصون عليها وعلى المرابين وعلى التجار الذين لا يراعون وجه الله في مكاسبهم وعلى الحكام الذين يميلون مع الأغنياء في أحكامهم . وكانوا في صدر الاسلام يكرهون الترف والتنعم في الدنيا وربما وصلوا الى تحريم كل ثروة تزيد على اللازم الضروري في حياة الانسان . نعم انهم فيما بعد لم يتقيدوا بهذه القاعدة ولكن روح الاسلام الأصلية كانت هي هذه وكانت عظمت محمد شديدة التأثير في أصحابه حتى انه وصف عذاب القبر مرة فكاد الحاضرون يصعقون من هول الوصف . وكان يجرد أيضاً في وصفه صوراً في غاية الرقة تدخل الى أعماق القلوب اذا

وصف رحمة الله التي لا تتناهى وما أعد من النعم للمتقين

وقد أشار درمنغهم في آخر كتابه عن النبي ﷺ الى تعدد أزواجه وأورد هنا ما يعترضه المعترضون ليتنقصوا من قدره ﷺ فقال انه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوج ببعضهن عن مجرد عاطفة ، وتزوج ببعضهن ليتألف بزواجه قلوب القبائل وتكلم عن زواجه بزینب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي كان النبي قد نبأه وكان مراده بذلك أن لا يجعل من يتبناه الانسان في حكم ابنه الحقيقي ولا يحرم عليه الزواج بمطلقته . وقال درمنغهم ان محمداً وان كان وسع دائرة الحلال فقد ضيق دائرة الحرام . ثم استوفى درمنغهم سيرة النبي ﷺ بدون أدنى تحامل وان كنا لا نتفق معه في جميع الأفكار . ولم نكن الآن لنستوفي ترجمة كتابه كله وانما نريد أن نختار منه بعض مواضع على سبيل الاستشهاد لأن الكاتب المذكور لم يكن مسلماً لنقول انه كان ينتصر للإسلام حية على دينه ولم يكن من الكتاب الاوربيين المعروفين بيبغض النصرانية ايقل انه انما امتدح الاسلام بسائق بغضائه للدين المسيحي . وانما كان درمنغهم هو من الكتاب المسيحيين المعتقدين بدينهم ولذلك نقلنا كلماته على ما هي عليه ، بدون أن نجتهد في تحقيق ما أخذها من السنة ورواية الأحاديث الواردة في المواضيع التي تكلم عليها . فانظر كيف يقول عن قضية النساء في الاسلام : ان الاسلام قد رفع شأن المرأة في بلاد العرب وهذه قضية لا تقبل المراء وكان عمر يقول اننا لم نكن نعدّ نساءنا شيئاً في الجاهلية ولم نزل كذلك حتى نزل كلام الله في حقهن . وكان الرسول يقول ان أفضلكم أحسنكم معاملة لزوجته . وكان يوصي النساء بأن يكن طوع ارادة أزواجهن ولكنّه كان يشدد جداً على من يغلف في معاملتهن وينهى عن تزويج البنات بدون ارادتهن وكان يقول : ان أجر الانسان في الانفاق على زوجته أكثر من أجره في التصدق على الفقراء أو الجهاد في سبيل الله . وكان يقول : اذا وضع الزوج يده في يد زوجته تساقطت الذنوب من بين أصابعهما . وكان يقول الجنة تحت أقدام الأمهات . وكان النسوة في الجاهلية لا يرثن شيئاً فجعل محمد للمرأة نصف حظ الرجل في الارث ، ومنع القرآن وأد البنات . وكان لا يمل من التوصية بالنساء والأيتام وتكلم عما يعدّه الله من الثواب لمن ربّى أمة وحرّرها وتزوجها وقد أجاز محمد تعدد الأزواج ولم يكن يمكنه غير ذلك في بلاد ابراهيم ولكن محمداً لم يأمر بالتزوج بأكثر من واحدة

واشترط القرآن العدل التام بين النساء حتى لو أعطى الزوج لاحدى نسائه ابرة وجب أن يعطى مثلها للآخرى وأجاز الطلاق ولكنه قال انه ما من حلال أكره الى الله تعالى منه (أبغض الحلال الى الله الطلاق) ولا يجوز أن ننسى أن الشريعة الموسوية في العهد القديم لم تكن تمنع تعدد الزوجات فان كان الاكتفاء بزوجة واحدة قد صار هو القاعدة في النصرانية فما ذلك الا لأن الاكتفاء بالزوجة الواحدة كان هو المألوف في البلاد الغربية التي انتشر فيها الدين المسيحي

ونقل درمنغهم على «دوكا ستري» في كتابه الاسلام صفحة ١٠٩ قال: مما لاشك فيه بحسب قول ريفيل Réville اتنا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وُجد فيهما محمد لم نجد اصلاحاً أشرف ولا أجراً من الاصلاح الذي قام به محمد بحق النساء فالمرأة في الشرق مديونة كثيراً لمحمد. وأما مونتسكيو في روح الشرائع فقد قال: ان تعدد الزوجات في الشرق واحتجاب النساء والبلوغ قبل الوقت ودخول النساء في الهرم قبل الوقت، كل ذلك من الأمور التي نشأت عن تأثير الاقليم.

ثم قال درمنغهم انه هناك محل نظر في الاعتراض على تعدد الزوجات في الاسلام فهل هذا التعدد الرسمي هو أسوأ من التعدد غير الرسمي^(١) ومن محاسن تعدد الزوجات منع البغاء وتيسير الزواج لجميع النسوة بحيث تصان الأعراض يقول درمنغهم هذا، ولكن يغلب عليه مشر به الغربي فيقول: كنا نود لو ان محمداً لم يجز تعدد الزوجات أصلاً. وينكر درمنغهم أشد الانكار قول بعض الناس بأن المرأة ليس لها مقام في الاسلام ويقول ان هذه التهمة أشبه باتهام النصرانية أنها جعلت المرأة ملعونة وأصلاً ومنبعاً للشرور. قال: ويكفي أن يذهب الانسان الى بلاد الاسلام ليعلم ما هناك من محبة عائلية وحرمة للنساء خلافاً لما يتقوّل به بعض الاوربيين. ثم ذكر درمنغهم في آخر كتابه حجة الوداع وقال ان النبي شعر بدنو أجله فخطب المسلمين في ذلك اليوم خطبة وداع وقال لهم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَدِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» وكأنه علم ان امته ستنتشر عقيدته في الخافقين

وقد وقع ذلك بالفعل وخرج العرب ففتحوا الأقطار واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك

(١) يشير الى ما عليه القوم في أوروبا من المخادنة

الفرس والروم المحتضرة ولم يكونوا كالفاندال والجرمان في الميل الى العبث والتدمير فتناولوا مصايح العلم من أيدي الروم والفرس وساروا بها في فتوحاتهم فكان الاسلام في احدى يديهم والمدنية اليونانية والفارسية في الأخرى. وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أمجد أدوار التاريخ. وقد نجح الاسلام في دعوته لأنه كان مستحقاً للنجاح فانه قد أتى الشرق بالعلاج الذي كان هذا يحتاج اليه . وقد تحمل المسلمون قبل الهجرة ما حملوه من الانتقام حتى اذا ظفروا عاملوا أعداءهم بالتسامح

نعم ان الشرك لم يكن ليعفو الاسلام عنه . ولكن أهل الكتاب أى اليهود والنصارى كانوا أحراراً أن يعيشوا في بلاد الاسلام متمتعين بحقوقهم . وكان محمد يقول من آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة . واننا نرى القرآن والأحاديث ملاءمى بالنهي عن الاكراه في الدين . وقد عمل الفاتحون المسلمون بهذه القاعدة وما دخل الناس في الاسلام أفواجاً الا لما رأوا فيه من التسامح ولما دخل عمر الى القدس لم يسمح بالحق أدنى أذى بالمسيحيين وترك لهم كنائسهم بأيديهم وأحسن معاملة بطريقهم وأبى أن يصلى داخل كنيسة القيامة لسلاً بأذى المسلمون فيدعوها قال : فلنقابل بين هذه المعاملة وعمل الصليبيين عندما دخلوا الى القدس وذبخوا المسلمين وغاصت الخيل في الدماء الى صدورها . قال روبرتسون : ان أتباع محمد هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التحمس في الدين والتسامح فيه أى أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف اكراه غيرها على قبوله . وقال الأب ميشون Michon في كتابه « رحلة دينية الى الشرق » : انه من المبحزن للأمم المسيحية أن يتعلموا التسامح الديني من المسلمين . قال درمنغهم ان في هذا الكلام مبالغت لان النصرانية أيضاً تأمر بالتسامح الديني وأحياناً تفوق الاسلام في ذلك . ولكن المبالغة أيضاً واقعة في اتهام الاسلام بالتعصب . وقال الشيخ محمد عبده ان التوراة والانجيل والقرآن كتب متطابقة وبها يتم التعليم الالهي وتشرق الديانة الحق . وقال مونتس Montaigne : اتنا نشط كل النشاط ونفعل العجائب عندما تكون أنفسنا متزعجة الى الشرور من البغضاء والقسوة والطمع والشح وحب التدمير وبعكس ذلك تفتقر هممتنا في الخير وحب الاعتدال وقد وجدت دياتنا لمنع الرذائل فكانت النتيجة أن صارت هي التي تحميها وتغذيها

وقد تكلم درمنغهم عما كان يفهمه من رسالته الى الخلق فقال انه خلُق امرأ ناهياً لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لأوامره الا بواسطة يبلغهم أوامر الله تعالى . وكان يقول

ان الأمر لله وحده وكان ينهى الناس أن يعاملوه معاملة الملوك . وقد ظن بعض من كانوا من أعدائه في البداية انه لما فتح مكة ستقلب المسئلة من النبوة الى الملك لكنهم أخطئوا في هذا الزعم وبقى محمد على مشربه الأول من سداجة الخال . وكان يقول : لست ملكاً ولكننى رجل من قريش . ولم يسكره الظفر ، بل عفاً عند ما قدر ، ولم يكن المال ولا شئ من غنائم هذه الدنيا ذا قيمة في نظره وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى الاسلام . ولم يكن يؤمله الا شئ واحد كان يجده في أعماق نفسه وهو عدم فهم الكثيرين للمقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لاحقاً بها بل التحاقاً بالحزب الغالب . وختم درمنهم كتابه بقول الأب دو بروغلي De Broglie في كتابه « أسرار تاريخ الديانات » وهو : « جاء في التوراة أنه من اسماعيل يخرج شعب عظيم هكذا في سفر التكوين » . فانتشار الاسلام هو من جلة ما أنجز الله به وعده لأبي المؤمنين

تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس

والمملكة الرومانية بيد العرب

أكثر المؤرخين الاوربيين يعلون سقوط مملكة فارس وجانب عظيم من السلطنة الرومانية في أيدي العرب بهذه الأسباب التي ذكرها ستودارد . ثم يذكرون لنجاح العرب السريع أسباباً من شهامة العرب وميلهم الى مكارم الأخلاق ، وسرعة قبولهم للمدنية ، وحسن جمعهم بين السيف والقلم وبين الخشونة والرفقة . وبعضهم يعترف بتأثير العقيدة الاسلامية في هذا النجاح ، ويقدر قدر سواغها في العقول السليمة وخلوها من الأسرار غير المفهومة ، الا أن أعداء الاسلام يعيبون عليها هذه المزية ويجعلون خلوها من غير المفهوم « سداجة » ويعبرون عن ذلك بلفظة « Simplisme » وكثيراً ما نقرأ هذا الوصف في انتقادهم للاسلام ويكررونه كثيراً وهم يزعمون ان انتشار الاسلام بين الأقوام الذين لا يزالون على الفطرة الأصلية ، انما سببه هذه السداجة في تعاليمه . وبالجملة أعطوا المنطق السيد اسم « سداجة » وجعلوا السائق في العقل السليم نازلاً عن درجة الاسرار التي تعلى شأن الأديان بكونها غير مفهومة بزعمهم وركبوا بهذا مركباً صعباً أصبح مركزهم فيها حرجاً ، لاسيما في هذا العصر الذي بدأ فيه أتباع الأسرار غير المفهومة يقولون شيئاً فشيئاً ، وصار المطالبون بالدليل والنازعون الى الجلاء هم امة المستقبل

الحضارة الإسلامية ورفق العرب الفكرى فى القرون الوسطى

دكتور شبيب

- العواصم الإسلامية وعمرائها فى آسيا وأفريقية والأندلس
- العلوم والفنون والصناعات
- أقوال المستشرق ما كس مايرهوف الألماني فى كتابه « العالم الإسلامى »
- فن العمارة الإسلامية

اتفق المؤرخون العصريون من أهل أوربة ، على أن بغداد فى القرن الثالث للهجرة كانت أرقى مدن ذلك العصر حضارةً ، وأزخر عمراً ، وأعظم ثروة ورفاهية ، وأن هارون الرشيد كان أكبر سلاطين ذلك الدهر ، وأن عبد الرحمن الناصر فى القرن الرابع كان أرقى ملوك العرب من مسلمين وأفريق ، وكانت الأندلس فى أيامه أرقى الممالك كلها .
ويحسن أن أنقل هنا جملة مختصرة حررتها فى رسالتى : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وهى هذه :

« قد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال الحضارة ، واستبحار العمارة وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان^(١) وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها وكان أهلها نحواً من نصف مليون .

وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب ، وسمرقند ، واصفهان ، وحواضر أخرى كثيرة

(١) وهو عدد يندر اليوم فى سكان كبريات العواصم

من بلاد الاسلام ، أمثلة تامة وأقيسة بعيدة في استبحار العمران .

وكانت القيروان ، وفاس ، وتامسان ، ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكأثرها مكأثر في أوربة حتى هذه القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة . وكان فيها نحو من ألف وسبعمائة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبيل الحكومة الاسبانية ، انه يسع بحسب القياس المضبوط خمسين ألف مصل في الداخل ، وثلاثين ألفاً في الصحن ، بخمسة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين !

ولما ذهبنا الى قصر الزهراء ، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً ، في ثمانمائة متر عرضاً . والاسبانيول يقولون لها : مدينة الزهراء . وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر في آثارها ، انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة ، في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الاسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذ في أوربة عاصمة تحتوي نصف هذا العدد . وجراء غرناطة لا تزال يتبعه الدهر الى اليوم . هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه . والافلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق .

وأنا أضيف الى ذلك هنا أن المهندسين الاسبانيول الذين أشرت اليهم ، ذكروا لي أنهم كانوا قد ألقوا لجنة مهندسين طافت في جميع أسبانية للتثقيب عن آثارها القديمة ومبانيها ، فأحصت عدد القلاع التي فيها سبعة آلاف قلعة وحصن ، ثلاثة أرباعها من بناء العرب ، وأنهم لحظوا حصون العرب كلها مبنية على خطوط واحدة يحمي بعضها ظهر بعض يمتد كل خط من الحاضرة من احدى جهاتها ويليه خط آخر من جهة أخرى ، وخط آخر من جهة أخرى وهلم جرا وكل خط تجد الحصن فيه على مساواة الحصن سلسلة متصلة الى ثغور الافرنجة .

وتأمل فيما قاله « كلود فارير » الكاتب الافرنسي المعروف في مقدمة مجموعة اسمها « افريقية الشمالية » جمعت فيها صور أبدع مباني العرب في تونس والمغربين الأوسط والأقصى وهو هذا :

« قصور وجوامع وأبراج وحواضر مائة جميع هذه الأرض التي انتزعها نبيّ الاسلام من ذرية سيبليون الروماني . لعمرى ان المسلم هو خلافاً لما يزعمه كثير من الجاهلين ليس بالرجل المدمر . بل انك تجد من تونس الى طنجة وفي فاس وفي مكناس ومراكش ، كما في القاهرة والقيروان ، بدائع آثار عربية مائة في كل محل بجانب بدائع آثار رومانية تزيدها ولا تنقصها » .

ثم وصف من جملة ما وصف من آثار العرب في المغرب ، مدرسة دخلها من مدارس فاس ، فقال انها كأجل ما وجد من هياكل يونان القديمة ، لأن جميع قوانين منطق البناء مرعية فيها أشد الرعاية . وقال الكاتبان الافرنسيان المعروفان جبروم وجان تارو : « من لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين في مراكش لم يدرك الى أي أمد وصلت مدنية الاسلام من البداعة » .

واقراً في « الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى » عن آثار الموحدين ثم آثار المنصور السعدي في مراكش تجد فيه ما تقرُّ به الأعين .

وأهمُّ من هذا في هذا الباب « كتاب اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » تأليف المؤرخ العلامة الغطريف الشريف ابن الشريف أمير العلماء وعالم الأمراء مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية في المغرب الذي فيه أوسع وصف لمباني جده مولاي اسماعيل الكبير ، سلطان المغرب الذي استمرت سلطنته نحواً من خمس وستين سنة ، وبني في مكناس وغيرها من القصور والابراج والحصون ، ونسق من الجنان والحدائق ، ما ندر أن سمت الى مثله عمه ملك من ملوك العالم .

ومن أجادوا في وصف العمارة الاسلامية الفيلسوف الافرنسي « غستاف لويون » المشهور في تأليفه المتعددة وفي الأيام الأخيرة « رينه غروسه » الذي اشتهر في علم المدنية الشرقية .

وقد ظهر حديثاً عن المدينة الإسلامية في المغرب كتاب تمتع اسمه « مراكش ومدن الفن » Le Maroc et les villes d'art طنجة ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، مؤلفه « بيير شامبيون » Pierre Champion قد حوى من هذا الباب خلاصة ما يلزم وتضمن ٢٢٧ صورة من صور المباني الممتازة برونقها ، وبداعة انشائها في بلاد المغرب الأقصى ويظهر ان المؤلف اطلعاً على العربية نقله كثيراً من الفصول عن تواريخ المغرب ، « كالاستقصا » و « روض القرطاس » وغيرهما ، فضلاً عما نقله عن ابن خلدون الذي لقبه بارسطو القرن الرابع عشر . ولقد كان أكثر ما حدث عنه مباني المرينيين في فاس ، والموحدين والسعديين في مراكش ، والانديسيين في الرباط

«ومما ذهب اليه أن صناعة البناء في المغرب ترجع الى أصول غربية بيزنطية ، وقوطية وسورية ، جاءت من الشرق الى القيروان ، فتلمسان ، فالاندلس ، ثم عادت أدراجها من الاندلس الى افريقية . قال وان ما عليه الناس اليوم في المغرب هو أن صناعة البناء وزخرف المساكن انما هي صناعة أندلسية في أصلها وان أحسن قصور المغرب وأبهائه هو ما بناه الصناع الاندلسيون . قال وقد كان هذا هو الرأي من زمان ابن خلدون الذي ذكر من جملة كلامه أن فن البناء انما يبقى محفوظاً في الحواضر الكبيرة ، التي يزخر عمرانها ، وأنه في زمانه انما هو محفوظ في الاندلس . فالصناع الاندلسيون لا يعملون في بلادهم فقط بل تجدهم يعملون في تونس ، والقاهرة ، وغيرهما وانك لتعرفهم من سائر أهالي البلدان الأخرى»
ولعل الفقرة التي لخصها « شامبيون » هذا عن ابن خلدون هي ما يلي نقلاً عن المقدمة :

« وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدواتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً ، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها ، فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة الخ »

أو هو قد استخلصها من هذه الفقرة الثانية من كلام سيد فلاسفة الاجتماع وهي :
« وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد ، ، فاننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها
مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني ، والطبخ ، وأصناف الغناء
واللهو ، ومن الآلات ، والأوتار ، والرقص ، وتنضيد الفرش ، في القصور ، وحسن الترتيب
والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن ، والخزف ، وجميع المواعين ، واقامة الولائم ،
والأعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر
بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع
الأمصار وما ذلك الا لرسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ،
وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جراً . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر الا ما ينقل
عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماة الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت
جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق ، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران ، لا تفارقه ،
وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم
وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال ، وان كان ذلك دون الاندلس ، الا
انه متضاعف برسوم منها تُنقل اليها من مصر ، لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من
قطرها الى قطر مصر في كل سنة ، فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر
لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس ، لما ان أكثر ساكنيها من شرق الاندلس حين الجلاء
لعهد المائة السابعة الخ »

وبعد أن نقل المسيو شامبيون ما نقله عن ابن خلدون في هذا الباب قال ان الصناعة
المغربية والصناعة الاندلسية هما من أصل واحد ، وان كثيراً من القصور والبنائيات في العدوتين
هي شقائق وأخوات مثل مدارس فاس ، وقصر اشبيلية ، وجرآء غرناطة ، لكنه عاد فقال
ماملخصه : ان مباني فاس تمتاز بالصلابة عن مباني اسبانية ، فان قصور اسبانية يكثر فيها
الجنب والجبصين والقرميد ، وانك تجد جدرانها مغطاة بهذه الأشكال ، وانه يكثر فيها تقليد
تعاريج الكهوف ، وتضاريس الفيران ، وخلايا النحل ، وما أشبه ذلك وكله مصنوع في المادة
الرخوة التي تجمد فتصير كالحجر ، وليس الأمر كذلك في المغرب ، فان الطريق فيه هي النحت
في الحجر رأساً ، وتمتاز صناعة البناء في المغرب بكثرة الخشب الذي يتفننون في تزيينه

وترصيعه وتوشيعه الى النهاية ، ويساعدهم على ذلك وجود خشب الأرز الكثير في جبال الأطلس ، وهو الخشب الذي لا يقنى . وأنهى المسيو شامبيون كلامه في هذا الموضوع بعدما ذكر بدائع المغرب لاسيما آثار بني مرين قائلاً ، ان آثار المغرب قد بقيت محفوظة أكثر جدا من آثار الأندلس .

قال ونحن في المغرب بازاء صناعة مدنية قديمة قد تداعت الى السقوط ، الا أنها لا تزال ماثلة وهي الصناعة الأندلسية . ولقد كانت تمتاز بالصلابة والمتانة في عصر الجهاد الاسلامي السابق ثم ازدادت ميلاً الى النحافة في القرن الرابع عشر ، ثم كسبت روتقاً لامعاً في القرن السادس عشر ، ثم كسبت عظمة وقوة تأثير في القرن السابع عشر ، ولكنها عادت فأنحدت في أواخر القرن الماضي . وهذا التقسيم يؤيده المسيو برسيير ريكار Prosper Ricarb الذي هو من المتخصصين في معرفة الصناعات الوطنية في المغرب . ثم ذكر في محل آخر أن المغرب القديم لا يزال حياً ، وأن من جال فيه يجد أحيانا من طرائقه القديمة ما يجذبه بل ما يدهشه ، فانه قطر طويل عريض ، تنكسر على سواحله الغربية أمواج الاطلنطيك المتلاطمة وفيه السهول الواسعة الممتدة بحذاء جبال من أعلى جبال الأرض ، تشرق عليه شمس شديدة اللمعان الا أنها لطيفة الوقع ، وهناك أمة ذات جمال قديم كما وصفها بهذا الوصف أوجين دولاكروا Eugène de La Croi تلبس أطهاراً بالية الا أنها أطهار شريفة ، وأينا ذهبت في قراها وأر يافها تجد من المناظر ما يؤثر في النفس ، ويعيد لك ذكرى التوراة . وتجد في المدن جوعاً وأعياداً ومواسم مستمرة ، تخيل لك تلك البلاد متحفاً دائماً مفتوحاً . وأهم من كل شيء هذه الحواضر الكبيرة المعمورة التي هي كلها تقريباً مدن صناعة وفن ، وكان المدن كلها أسواق مضت عليها القرون تلو القرون ، وهي مدخر للأرزاق ، والمؤونات والمواعين والأدوات ، تصونها صيانة الكنوز جدران عالية وأسوار شاهقة فكل هذا يؤثر في النفس ويعلق في القلب ويجعل هذه الحواضر المغربية شخصية خاصة بها . (انتهى ملخصاً)

ولم يقسم لي الحظ أن أزور بلاد المغرب وأرى آثار الموحدين والسعديين في مراكش وبني مرين في فاس والاندلسيين في الرباط ومولاي اسماعيل في مكناسة وهو الذي آثاره تحاكي آثار رومة العظمى ، كما قال بعض الأفرنج ، وانما بعد السياحة الى الأندلس تمكنت من زيارة طنجة وتطوان ، ومكثت فيهما أيام قلائل برغم انقباض الفرنسيين من وجودي .

هناك ، فشاهدت في طنجة من المباني السلطانية ما يستحق التنويه ، ولكن قصر الوزير المنبهي في جبل مرشان من تلك البلدة الفريدة في نحر البحر ، التي هي طنجة ، هو قصر نادر المثال في دقة الصناعة ، ونيقة الزخرف ، وتمثيل المدنية العربية بأبهى مظاهرها ، وقد شاهدت في تطاون أيضاً من منازل سراة البلدة كآل بنونه ، وآل الطوريس ، وغيرهم ما خيل لي انني لم أزل في الأندلس بين أهواء غرناطة أو مقاصر اشبيلية ، وراقني جداً أن الحكومة الأسبانيولية شادت داراً للعجزة ومدرسة للصنائع وغير ذلك على النسق الأندلسي المغربي المستفيض في أبنية أكابر المغرب ، ومما لا ينكر في هذا الباب أن المارشال ليوتي الذي هو أعقل مستعمر افرنسي ولربما كان أعقل مستعمر أوربي على الإطلاق ، قد بذل جهده أيام تمثيله الحكومة الفرنسية في المغرب في المحافظة على الآثار العربية القديمة وفي احياء صناعة البناء العربي الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة ووضعت فيها الكتب وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر ، لأنه من قبيل الأوصاف الذي طبعت الجبهة البشرية على استحسانه وبأيت الأوربيين اطردوا الأوصاف في سائر الأمور

ويجدر بمن أراد أخذ صورة مجملة في موضوع العمران الاسلامي أن يقرأ « تاريخ التمدن الاسلامي » لزيدان و « حضارة الاسلام في دار السلام » لجليل المدور ، وغيرهما من الكتب الملخصة . وقد أوردت أنا بعض أمثلة في هذا الموضوع في رحلتي الحجازية المسماة « بالارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف »

ولما كان أعداء الاسلام يريدون أن ينتقصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا انكار أن يكون له مدينة خاصة به وزعموا أنه مازاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل . ولقد رأيت أن أنقل أيضاً الى هذه الحواشي جملة أوردتها في رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وهي هذه :

« وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدينة الاسلام » كتباً قيمة وبجميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخي الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، بانكار كونه هو أبا عنترتها . فقصارى هذه الفئة أن يجحدوا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن

يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا ، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول على اطلاقه مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما وشوا طرازه ودبجوه ، وما نشروه من قبره وما نقلوه . ولنفرض انهم أخذوا عن غيرهم فن استرق شيئاً ، وقد استرقه ، فقد استحقه .

و بعد فلا يعلم الخلق مدينة واحدة من مدنيت الامم الا وهي رشح مدنيت سابقة ، وتراث أقوام درجوا ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، وبمجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات الباب متباينة الأجناس .

وانى لناقل هنا بعض ماقاله المستشرق المحقق « ماكس مايرهوف » الألماني الذي أنقن هذا الباب في كتابه « العالم الاسلامي » Le Monde Islamique وهو من نظار المؤرخين ومن كبار الأطباء . فالاستاذ « مايرهوف » يقول ماملخصه : ان العرب لم يحملوا معهم الى العالم لسن الفتوح الا اللسان العربي الذي كان اذ ذلك ، برغم ثروته ، وتعدد مناحي التعبير فيه ، محتاجاً الى الألفاظ العلمية . فبدأ العرب أولاً بخدمة اللغة ، ومن أجل فهم القرآن وضعوا علم النحو . ثم اتقنوا علم الرواية لأجل حفظ أشعارهم من الجاهلية فما بعد . ونبغ منهم بعد الاسلام شعراء كبار مثل عمر بن أبي ربيعة ، والأخطل ، وجريز ، والفرزدق ، ثم أبو العتاهية ، وابن المعتز ، وأبو تمام ، والمتنبي وغيرهم . قال : وعلى وجه الاجمال ، فشعر العرب لا يلائم ذوق أهل الغرب ، فان مبالغات شعرائهم في أوصاف محاسن الغواني ، واغراق أبطال البادية في المفاخرة ، ليس مما تستعذبه أذواقنا . وبعكس ذلك الوزن ، وحسن النسق ، وملكة التعبير التي عند العرب فهي عذبة الى الغاية وانه من الممكن للشاعر العربي أن يقول ماشاء من طوال القصائد على روى واحد ، ثم ذكر « مايرهوف » فن التصوير ونحت النماثيل ، وقال : انه لا يوجد في القرآن منع صريح لهذه الفنون ، الا أنه يوجد في الأحاديث النبوية ما يمنع تمثيل المخلوقات الحية ، وهو لا يجزم بصحة اسناد هذه الأحاديث ، ويعتقد أن هذا التحريم راسخ الى الاسلام عن شريعة موسى . وعلى كل حال ، فقد تأبى المسلمون أن يمثّلوا البشر بالحجر ، وحضروا صناعة التصوير في المخلوقات غير الحية وفي

النباتات . قال : وقد وجدت أبنية من صدر الاسلام مثل قُصَيْرِ عَمْرَةَ ، الذي يرجع تاريخه الى بنى أمية ، وفيها تماثيل يدل وجودها على أنهم لم يكونوا يتشدّدون في منع التمثيل الى الحد الذي وصلوا اليه فيما بعد . فأما الشيعة ، فقد ذكر « مايرهوف » أنهم لا يتخرجون من قضية التصوير ، واستدل على ذلك بالدول الشيعية التي لم تكن تمنعه أصلاً . قال وقد أفضى منع صناعة التصوير والتمثيل الى حصر جهود مهندسي الاسلام في اتقان صناعة البناء وذكر في هذا الباب أمثلة ، منها قببة الصخرة في المسجد الأقصى ، وبين ما أخذ أسلوب البناء في الاسلام ، وتبع تاريخ هندسة البناء الاسلامية ، والأطوار التي مرت بها ، وأورد أمثلة من آثار سامراء ، والرقة ، وجامع ابن طولون بمصر وجامع القيروان بافريقية ، وجامع قرطبة بالأندلس ، وجامع تلمسان في الجزائر ، وذكر صناعة البناء الاسلامية في بلاد العجم ثم في بلاد الترك ، وأورد أمثلة بارزة كجامع الفاتح في القسطنطينية ، ثم جامع السلطان سليم في أدرة الذي هو من هندسة سنان المشهور ، وقال : ان لسان هذا ثلاثمائة وثمانية عشر أثراً من أجل الآثار . ولم ينس « مايرهوف » ذكر حراء غرناطة ، وقال : انها من أشهر مباني الدنيا ، وشهد أيضاً بقناهي الذوق في صنعة بناء المساجد الاسلامية الحديثة في شمال افريقيا

قال : وبالرغم من حرمة التصوير في الاسلام فقد ازدهرت هذه الصناعة في القرن الثامن للمسيح في العراق وفي فارس ، وكانوا يخرجون كثيراً من الكتب المصوّرة ، وهذا ناشئ من عدم تشديد الشيعة في منع التصوير . ولكن اعتماد المسلمين في النقش والتزيين كان على تمثيل الخلائق غير الحية ، وقد أتقنوا هذا الفن الى الغاية ، سواء في الحجر أو في الخشب أو في النسيج ، وأورد في هذا الموضوع فوائد قلماً توجد في الكتب ، وكنا نود لو فسح المقام لايرادها ، ولكن هذه الحواشي لا تسع كل ما يجب الاطلاع عليه ، الا أننا نتقل عنه ما ذكره بشأن ترصيع النحاس والفولاذ ، وتخريم الذهب والفضة ، فقد قال ان أسواق اصفهان ودمشق والقاهرة آنت في هذا الموضوع ببدايع تفوق الوصف ، ومثلها حفر العاج وتقطيع البلور ، وزخرفة الآنية ، وتطريز جلود الكتب ، فانها بأجمعها صناعات امتاز بها المسلمون وقلدهم فيها أهل ايطالية وهكذا دخلت الى أوربة .

قال : ومن الصناعات التي أتى بها الاسلام الى الغرب صنعة الورق ، وقد أخذها

المسلمون عن الصين . وفي سنة ٧٩٤ مسيحية أنشئ في بغداد أول معمل للكاغذ ، وانقطع استعمال الرقي والبردي . وقد كانت صنعة تجهيز الطيوب والعقاقير والتجارة بها من خصائص العرب . وأظهر « مايرهوف » اعجاباً شديداً بمهارة العرب في الأخذ والعطاء وبعدهم همتهم في التجارة ، وقال انهم كانوا يستجلبون الجلد والفرو من أقصى البلاد الشمالية كالروسية وبلاد السكندناف ، يستدل على ذلك بكثرة ما وُجد من النقود العربية في تلك البلاد . قال : وانهم كانوا يركبون البحار ويبلغون أقاصيها . فقد وصلوا الى أقصى جنوبي افريقيا جنوباً ، والى جزائر الخالدات غرباً ، والى الهند والصين شرقاً .

قال : وان العرب وسائر الشعوب الاسلامية من غير العرب بلغوا شأواً بعيداً في علم التاريخ . نعم انه يوصف مؤرخو الاسلام بعدم طلاوة الروايات ، وبضعف ملكة النقد ، ولكنهم حرصون جد الحرص على تقييد جميع ما يسمعون ، وضبط شوارد التاريخ وهم بالاجال ثقات فيما يروونه لا سيما عما شاهدوه في زمانهم ، فتواريخهم عمدة لا يستغنى عنها لأجل معرفة تاريخ القرون الوسطى ، وقد ذكر من مشاهير مؤرخيهم الطبري ، والمسعودي ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وأبا الفداء ، والمقرزي ، والسيوطي ، ثم ابن خلدون ، وقال عن هذا انه فيلسوف واجتماعي أكثر مما هو مؤرخ .

ثم ذكر « مايرهوف » تاريخ الفلسفة العربية ، وهو لا يخرج عما رواه سائر المؤرخين من أنهم نقلوا فلسفة يونان ، وترجموا كتب هذه الأمة ، وقال : ان أول فيلسوف عربي هو الكندي وجاء بعده الفارابي وهو تركي الأصل ثم جاء بعدهما ابن سينا وهو فارسي ثم اشتهر من فلاسفة العرب ابن رشد من أسبانيا ، وقد ألف هذا كتباً كثيرة لم يبق أصلها العربي ولكن بقيت تراجمها اللاتينية . قال : وكان لكتب فلاسفة العرب أعمق تأثير في اللاهوت المسيحي ، وقد كان فلاسفة العرب يرمون الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الاسلامي

ثم ذكر علم الطب فقال ان العرب قلدوا فيه اليونانيين أيضاً ، وذكر مشاهير أطباء العرب كالرازي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن زهر ، وأبي القاسم الزهراوي ، وقال : ان طب العرب كان يعمل به أهل أوربة في القرون الوسطى ، وأشار الى كتاب طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة الذي ترجم فيه أربعمائة طبيب منهم كثير من اليهود والنصارى .

قال : وان فضل العرب في الكيمياء قد فاق فضلهم في الطب مع بلوغهم في هذا غاية بعيدة : وان معرفة الخوامض المعدنية ، والأمونياك السائل ، وغير ذلك من المواد الكيماوية انما بدأت عندهم . فالعرب في علم الكيمياء كما في علم الطبيعيات كانوا معتمدين على التجارب وهكذا تمكنوا من كشف حقائق كثيرة

قال : وأما في الرياضات فان العرب فاقوا أساتيدهم اليونانيين ، وناهيك ان علم الجبر اسمه عربي ، وان محمد بن موسى هو الذي وضع هذا العلم سنة ٨٢٠ ميلادية ، كما ان البيروني الفارسي وضع علم المثلثات سنة ١٠٠٠ وقد كان للعرب الفضل في وضع ما يسمى : « بالجيب والسهم » و « الخط المماس للدائرة » ، وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب ، ووقفوا به الى أقيسة فلكية وأرضية في غاية القيمة . وقد عرفوا أيضاً دائرة الأرض بحسب ما هدتهم اليه تحقيقاتهم هذه ، وهم الذين أدخلوا الأرقام الهندية الى أوربة ولذلك تسمى بالأرقام العربية . ثم ذكر طول باعهم في علم الفلك ومن اشتهر من الفلكيين منهم والامراء والملوك الذين كانوا يعنون بهذا العلم وبينون المرصد الفلكية وتكتب لهم الأزياج . قال : وقد عرف فلكيو العرب حركة الأرض حول الشمس ولكنهم لم يوقفوا لتبنيها لعدم اطلاعهم على قانون جاذبية مركز الأرض الذي انكشف لعاليه فيما بعد . قال . وقد الف ابن الهيثم المتوفى في القاهرة سنة ١٠٣٩ ميلادية كتابا في علم المناظر مفصلاً ، لم يبق منه الا ترجمته اللاتينية ، ولهذا العالم الكبير مؤلفات في المراى الكروية والعدسية وغيرها ، ثم ذكر اختراعات كثيرة لهم في الميكانيكيات وقال ان كتبهم في هذا الفن كانت مشهورة في القرون الوسطى . قال : وان اتساع العالم الاسلامي قد أوسع معارف العرب الجغرافية فخذوا العروض والاطوال ، واتخذوا ابرة المغناطيس ، وذكر منهم مشاهير الجغرافيين كالادريسي وأبي الفداء ، والقزويني ، والدمشقي ، ثم ذكر أصحاب الرحلات المشهورة كابن جبير وابن بطوطة وأثنى كثيراً على كتاب « معجم البلدان » لياقوت . قال : وكانت للعرب اليد الطولى في زمانهم في علوم المعادن والنباتات والحيوان ، وكانوا يعتمدون في جميعها على التجارب ، وقد تلقى الغرب عنهم معارف وعلوماً كثيرة ، وعرف مالم يكن يعرفه في ذلك الوقت الى آخر ما قرره الدكتور « مايرهوف » المذكور وهو الماني الجنس ، مشهور بطب العيون ، وله اليد الطولى في الاستشراق ، وقد أثنى لي عليه وعلى معارفه كثيراً المستشرق الاشهر « سنوك هيركرونييه »

الهولاندى ، وعامت ان الدكتور مايرهوف مقيم اليوم بالقاهرة . وأكثر ما أعجبني من كلامه في وصف علوم العرب قوله انهم كانوا يعتمدون في العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوب المتنطعين الذين لا يفتأون يقولون ان العرب كانوا يعتمدون في علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة .

لماذا الاسلام راق بذاته

والشعوب الاسلامية غير راقية ؟

وأقوال البرنس جيوفانى بورغيزي Giovanni Borghese الايطالى والفيلسوف كوندوسه Condocet الفرنسى في المقارنة بين نظام الاسلام والكنيسة

للأمير شكيب

نشر البرنس « جيوفانى بورغيزي من مشاهير رجالات ايطاليا منذ بضع عشرة سنة كتاباً جليلاً أسماه « ايطاليا الحديثة » أحاط فيه بجميع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والأدبية المتعلقة بايطاليا وذكركل ما يهم ايطالياً معرفته وعند ما وصل الى المثل الأعلى الادبي صفحة ٢٧٥ نقل فقرة من كتاب « تقدم العقل البشرى » للفيلسوف الديموقراطى الافرنسى « كوندوسه » جاء فيها ما يلى مترجماً بالحرف :

« سأذكر كيف أن ديانة محمد التي هي أبسط الديانات في قواعدها وأقربها استحالة في شعائرها وأكثرها تسامحاً في مبادئها تظهر كأنها هي السبب فيما عم قطعة كبيرة من الكرة الأرضية من عبودية دائمة وبلادة ملازمة على حين أننا سنرى نألق أنوار العلم وأشعة الحرية تحت ظل أشد الخرافات استحالة وفي محيط التعصب الدينى البربرى » انتهى
قال البرنس بورغيزي : ان مراد الفيلسوف كوندوسه بالخرافات المستحيلة والتعصب الدينى البربرى هو الكنيسة . ولترك الآن الخوض في أفكاره هذه الشخصية بحق الكنيسة وهو المعروف بمبادئه الثورية الشديدة ولنكتفِ باقراره بالدور الاجتماعى

العظيم الذي ادارته الديانة الكاثوليكية . قال بورغيز : « ان هذا الدور كان من العظمة الى ما لا نهاية له فبينما قواعد الكشلكة تفي بحاجة الخلق الى النظام العام فبإيديها الأديبة قد حررت المدنية الاوربية من الرق ووطدت كرامة العائلة ومقام المرأة بالاكتفاء بالزوجة الواحدة وألجت الاثرة البشرية بدعوة البشر الى مشاطرة المتألمين في آلامهم » اه
 ونحن نترك أيضاً للبرنس بورغيز تقديراته هذه بشأن الكشلكة ولا نعترضه فيما ليس من بحثنا ولكننا نتكلم على هذا اللغز الذي أعيا كثيراً من علماء الاجتماع حله وهو تأخر المسلمين في الأعصر الأخيرة برغم الوسائل الكثيرة التي يقيضها الدين الاسلامي للترقي .
 وحقيقة الحال أن لجميع الأمم عثرات ونهضات ان تصفحت التاريخ لا تجد أمة قد خلت منها وقد كانت دياتتها في دورى التأخر والتقدم واحدة . ولما كنا قد حررنا في هذا البحث رسالة نشرناها في العام الماضي تحت عنوان « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ^(١) »
 فإنا نحيل من شاء معرفة جوابنا في هذا الموضوع عليها . ولا نرى بأساً في أن ننقل الى « حاضر العالم الاسلامي » فصلاً منها عنوانه « مدينة الاسلام » فان كثيراً من الناس يوردون ذلك الاعتراض على الاسلام ويقولون ان الشجرة تعرف من ثمارها :

مدينة الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدينة خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الأول فلاجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثاني فلاجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الاخلاق ، ونحن لا ننكر تأثير الدين في المدينة ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتتفلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول : وكثيراً ما نظراً عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من جوانبها ،

(١) « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » وهو جواب اقتراح كتب مجلة المنار خاصة وطبع في رسالة خاصة سنة ١٣٤٩ وأعيد طبعه للمرة الثانية في ١٣٥١ وهو من خير ما كتب في هذا الباب « الناشر »

ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم اجراء أحكامها كما ينبغي . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيماً عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المباحكة اذ ليس من أمة في أوربة سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الطليان الخ الا وعندهم تأليف لا تخصي في « مدينة الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالنحامل على الاسلام يكثر من ذكر المدينة الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها .

فلمدينة الاسلام هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاتها الخالدة بأثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهي الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان وانتشار العلم والعرفان ، وتناثر الفنون المتهدلة الأفنان ،

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر ، أو أن يكثرها مكثر في بلدان أوربة حتى هذه القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و ٣٠ ألف مصل في الصحن ، فجملته من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها

تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً، والاسبانيول يقولون: مدينة الزهراء وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: انهم يرجون الاثيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها وكان فيها عندما سقطت في أيدي الأاسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وجرء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجاود الكثيرة ، المرصوفة طبقاتاً فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدينة الاسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تاخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخي الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدينته ، وأن ينكر كونه أبا عنزتها . فقصارى هذه الفته أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدينة واحدة من مدينيات الارض الا وهي رشح مدينيات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات أبواب متباينة الاجناس



الرد على حساد المدينة الاسلامية المكابرين

أينسى حساد الاسلام والمكابرون في عظمة فضله ، الزاعمون أنه انما نقل وتعلم وقد واقتدى وانه انما صلى وراء غيره : أن المدينة الشرفية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذي أخنى على لبد . وأنه هو الذي جدها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد ان كانت

قد احدثت ولحقت بالغابرين، أبرزها من اصداقها، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها بالخافقين، وبلغها كفلق الصبح لكل ذى عينين، وأضفى عليها لباس الاسلام الخاص، ودبجها بديباجة القرآن، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب، ولا سهل ولا وعير، حتى حل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى، ولم يحد في التحقيق عن مهيع الهدى، على أن اعترفوا بان مدينة الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً وانما هي قد نبعت من القرآن، وتفجرت من عقيدة التوحيد؟

فأما ما رجته حضارة الاسلام من كتب، وما أخذته عن غيرها من علوم، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جبيلة، وطرائق سديدة، فلا يقدح ذلك في بكارتها الاسلامية، ومسحتها العربية، لان هذا شأن الحضارات البشرية باجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض، ويكمل بعضها بعضاً، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف: « الحكمة ضالة المؤمن يندسها ولو في الصين »^(١) وهذه من أقدم قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية، وان هذه الفتوحات قد انست له في دور لا يزيد على ثمانين سنة، مما أجمع الناس على أنه لم يتسق لأمة قبله أصلاً. وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول في جزيرة سنتيها لانه: ان العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لاغيره

وتأمل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو يونانبرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة:

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظام

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ، وقد بق دور العرب هو الأول في وقته، ولبثوا وهم المسيطرون في الأرض، لا يضارعهم مضارع، ولا يغالبيهم مغالب، مدة ثلاثة قرون أو أربعة. ثم أخذوا بالانحطاط، وجعلت ظلالهم تنقلص

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن غيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبي هريرة، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف في اللفظ. والثاني « اطلبوا العلم ولو بالصين. فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدى والبيهقي وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق بقوى بعضها بعضاً

عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، وديب الفساد الى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس ، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، — ولا سيما بين القيسية واليبانية — مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التي حلت بالمسلمين انما هي مما صنعتهم أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن الذي لما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرأونه بدون عمل ، وانقادوا الى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم ، واتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى أوساطها .
ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم اذ كانت بضدها تتبين الأشياء

— اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها —

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة ، وحاملى ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .
وكان الاسكندر المكدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليوناني ، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلمها وفلسفتها الا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فذاتت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط ، وفقدت مزايها القديمة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتدهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جلة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شيء من النهوض والرقى الا في القرن الماضي ، وأين هي مع ذلك الآن بما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟
ان القائلين بان الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بان النصرانية قد أدت أيضاً الى انحطاط يونان التي كانت من قلبها عنوان الرقى

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه في جانب صولتها لصولة ، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين . فبدأ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى أن انقرضت أولاً من الغرب ، وثانياً من الشرق . ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكاتبتها الأولى ، وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر . وما هي الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام ، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الأخلاق والاباحة ، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذي كان لا بد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه ، وانه في هيعة هذا التحول لا بد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعرمان من النصرانية (١)

(١) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعرمان المدنى الذي تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دينوي ، والعرمان لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والفتى ، ومن قواعد الانجيل أن الجمل اذا دخل في ثقب الابرة فالغنى لا يدخل ملكوت السموات ،

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان رانعا في بحاج العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ! ! لولا أن الحقيقة هي كما قدمنا ان المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدينة الشرق الدارسة ، واستأنف صواته الذاهبة الطامسة ، وبعث تلك الخواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيت قديمة فان الاسلام هو الذى وطد بوانيها، وطرز حواشيتها ، وحل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ما تصور العقل من حدود الاقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه فإذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول اولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبروا ماعلا الاسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الخواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعائهم في الضلالات ، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمية ، وفقدهم مايزرعه في الصدور من الاخلاق ، العظيمة ، قد قضت في الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب في هذا التقاص ذنب الاسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وانما الذنب هو ذنب الحمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وانما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلا ، الا النادر منهم

وأیضا فقد تنصرت الامم الاوربية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقیت امم في شرق أوربة الى القرن العاشر حتى تنصرت . ولم تنهض اوربة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن الا من نحو أر بعائة سنة . أى من بعد أن دانت بالانجيل بالف سنة . ومنها بعد أن دانت به

ونعتقد أيضا أن جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في أشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وأن هذا كان تمهيدا للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتى أن أبين هذا في حاشية مقال كتب للعمار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان

بسبعمائة سنة . ومنها بثمانمائة سنة الخ وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالفرون الوسطى . ولا نقول ان الاوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض ، بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران واضرايه . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيسات الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها ولن يظهر ، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيد الاوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء اذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه .

— سبب تأخر اوربة الماضي ونهضتها الحاضرة —

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الاوربيون في القرون الوسطى مدة أتم سنة ناشئا عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالتواجذ ؟
نعم ، ان الأمم البروتستانية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ الا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عاتقة عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ما ذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لا يصلح أن يكون حذاءً لمحمد » يريد أن محمداً ﷺ بلغ من الاصلاح ما لم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان جراً أوار أوربة (١)

(١) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام وأذكيا مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبى وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتهييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سرى الى اوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشره المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية « الناصر »

والحق الذي لا يرتاب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برايرة اوربة وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني كنفوشيوس ، ولقد مضى عليهم نحو النى سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا الى ماصاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية اذاً سبب تأخرهم الماضي ، ولا هي سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تفاوت اليابان والروسية وتجاربتا فتغلبت اليابان على الروسية . مع ان اليابانيين في العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان الروسية عريقة في النصرانية واليابان عريقة في الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخر والتقدم (١)

أفنفقول من أجل هذا المثال : ان الانجيل هو الذي أخر الروسية عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضيق اليابان حتى سبقت الروسية ؟

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى . فاذا تراكت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معاييب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبني على ماركب في فطرتهم من الجنسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لاتكاد تحصى في هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن

(١) هذا صحيح في جملة الأديان الا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان انه هو سبب تقدم أهله حين اهدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب في رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخرهم « الناشر »

لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الاوربيين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر ؛ وانه رمز الجود ، وتحديثهم بذلك في الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها ، وان حالة العالم الاسلامي الحاضرة هي نتيجة جود الاسلام ، وتحجر القرآن ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »

وحسبك أن المسيو « سان المقيم الافرنسي السامي » في المغرب ينشر في العدد الأخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن يقظة المغرب بعد « ليل الاسلام » ! هكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فكم كان ليل النصرانية طويلا عند ما بقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية

لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هي براءة منه؟ ولماذا تقحمونها في موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأماثيله الجمة

ان ادخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي معيار الترقى والتردى ليس من النصفة

في شيء

المدنية العربية

خدمة العرب لعلم الطب

د. رشيد شبيب

جاء في مجلة المستشفيات الفرنسية Gazette des Hopitaux بعددها المؤرخ بـ ١٩ مارس ١٩٣٢ أي العدد الصادر منذ شهر لتحرير هذه الاسطر نص "محاضرة ألقاها الاستاذ الكبير والجراح الشهير البروفسور فورغ Fougue الذي يُعد من أشهر جراحى فرنسا ان لم يكن أشهرهم وذلك في تاريخ الطب عند الاسبانيول وما للامة الاسبانيولية من المعارج العلمية في هذا العلم . وقد بدأ الاستاذ محاضرته بقوله : ان المستشفيات والمستوصفات ومراكز التعليم الطبي في اسبانية قد أصبحت كلها عصرية بتمام المعنى وملكت من الأدوات والأدوية جميع ما يملكه غيرُها في سائر أوربة وليس في برشلونه مثلاً معمل أو مُعتمَل يفترق في شيء عن المعامل والمُعتملات التي في فرنسة . ولكن هنا معترك الرأى ولا المقام الذى يمكننا فيه أن نقدر مزية الامة الاسبانيولية قدرها في الطب والجراحة ، بل يجب علينا أن نرجع الى الوراء فنصفح الكتب القديمة ونزور المستشفيات على ما كانت عليه في شكلها السابق ونقرأ تاريخ الجامعات الاسبانيولية القديمة ونستقصى الحركة العلمية عند جيراننا هؤلاء ونخالط نفوسهم ونُدخل أوساطهم فاذا اطلعنا على ذلك الماضى ازددنا معرفة بهذا الحاضر وعلمنا أن اسبانية هي في غربى اوربة أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها وانها تمتاز بميزات لا يشاركها فيها غيرُها وأن فيها قوةً حيويةً قوميةً غير معهودة لكثير من الأمم وان لتلك الأدمغة الحارة من سُرعة الفكر والاستعداد للنضال ما يجعل هذه الامة فريدة في بابها ، ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الاسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهي استيلاء العرب على اسبانية وسلسلة الوقائع التي لا تحصى بينهم وبين الاسبانيول الى أن تمكن هؤلاء من استرداد بلادهم . فكما أن بلاد الغال بقيت

نحو من خمسة قرون تحت حكم الرومان فقد بقيت اسبانية أيضا زهاء ثمانية قرون الى أن تخلصت من حكم العرب ، وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الامة الاسبانية بالمدينة الاسلامية هذه المدنية التي كانت حلقة الاتصال بين العالم الاسيوى وأوربا الغربية .

قال ليبرى Libri : احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوربا عدة قرون الى الوراء . في سنة ٧١١ شن العرب الغارة بقوة ضئيلة (سبعة آلاف مقاتل) على اسبانية فنزلوا بها وفتحوها بسرعة الصاعقة واستصفوا تلك البلاد في سبع سنوات وابشوا فيها ثمانية قرون وما زالوا الى ١٤ يوليو سنة ١٢١٢ حتى بدأ في التاريخ دور تراجعهم أى ان الجزر لم يبدأ الا بعد خمسة قرون من المدد وذلك في واقعة لاس نافاس دوتولوزا^(١) Las Navas de Tolosa وقد رأيت بعيني في دير هولغاس Houlgas بقرب برغاش Bergas إحدى الولايات التي وقعت في يد الاسبانيول في تلك المعركة وشعرت بما عند الاسبانيول من الاحترام لتلك الذكري والنخوة بها . وكانت طليطلة قد عادت للاسبانيول سنة ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدينتين الاسلامية والمسيحية وسرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادل للبضائع العقلية وكتب للترجمة يحجج اليه طلاب العلوم من كل فج . ثم في القرنين الأخيرين انكسفاً العرب من اشبيلية وقرطبة الى غرناطة فصارت معقلاً للانكماش واجتمع فيها فلول العرب . فأصبحت عاصمة ولمعت فيها أنوار شعلة المدنية الاسلامية للمرة الأخيرة . وفي ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجملاء العرب الأخير فتركوا كما قال « كلود فرير » من قصر الجراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون والحقب دهرأ طويلا كما ان طليطلة بقيت خزانه كتب تغنت بترجمتها الفكرة البشرية أعصرأ مديدة . لا جرم أن هناك تاريخا نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة . ولنتأمل الآن كيف أن هذا العمل المدني أو الحرث الفكرى قد تم وبأية الوسائل قد تم وماذا كان من تأثيره في ترقية المعارف الطبية

لقد كانت هذه المدنية في بدأ نشأتها كما قال الأخوان « طارو » Tarroud مدينة يونانية لاتينية ، اقتبسها العرب سريعا وطبعوها بطابعهم الخاص . وبهذا المبدأ الشريف

(١) هذه واقعة العقاب التي ظهر بها ملوك اسبانية المتحدون جميعاً على جيش الموحدين ، ولم تتم بعدها المسلمين في الأندلس قائمة محمد

الذي بدأ به العرب باقتباس تلك المدنية ، تظهر جميع المعالي الأدبية التي في المدنية الاسلامية فانك ترى شعباً من القبائل الرُّحَل رُعاة الابل ، بسائق دعوة دينية يحملون على الأمم فيفتحون نصف العالم في مدة قرن واحد ثم يكون أعظم مهمهم ، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض ، أن يضموا الى عظمة الفتوح عظمة العلم وكما قال لوكلرك Leclerc (١) الذي تأليفه مثال في النقد الدقيق والاطلاع الواسع : لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا وتعددت فيها مكاتب الترجمة ، ثم صارت طليطلة في القرن الثاني عشر ما كانت عليه بغداد في القرن التاسع فهما اذاً أهم مراكز الترجمة وانتقال الآراء العلمية . وقد كان في بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب يونان الى العربية والسريانية فنقلوا تأليف ابقراط وليئوس قوريدوس وجالينوس ورووفوس وأوريباس وبولوس الأجيبي وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في أسبانية هي مرز الترجمة ، وصارت المدنية الاسلامية تُعيد للغرب الديون العقلية التي كانت افترضتها من مسيحي الشرق فعادت الافكار اليونانية الى أوربة بواسطة العرب على يد مترجمي طليطلة لاسيما جرار دوكريمون Gérard de Cremona . أما كيفية هذا النفوذ العلمي الذي اخترق الاقطار الاسلامية واستضاءت به مراكز المدنية الاسلامية في أسبانية بالأشعة الآتية من بغداد فان الاقرب الى العقل في أسبابها أن هذه المملكة كانت متصلة من الهند الى المحيط الاطلانطيكي وكان لها نصف سواحل البحر المتوسط فكان الاتصال دائماً بين افريقية وأسبانية من جهة والشرق و بغداد من جهة أخرى . ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد في نقل الافكار والآثار ولم تكن الرحلة الى الحج فقط . بل كانوا يُعملون الرحلة في طلب العلم انفسه . وقد عيّن لركرك حوادث من هذا القبيل فقال : ان محمد ابن عبدون ذهب من الأندلس الى مصر وكان يمارس التطيب في مستشفى القسطنطين وان ولدئى يونس الحرّاني ذهباً يُحصّلان الطب في بغداد وبقيا عشر سنوات وعمرو بن حفص ذهب الى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب أطباء من الغرب الى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق الى الغرب وتقصد سلاطين الاسلام في أسبانية فكانت الكتب نظير الطنافس الحريرية والحلى والجواهر يؤتى بها من الشرق الى الأندلس حتى اجتمع في

(١) طبيب شهير نشأ في جنيف في القرن السابع عشر وله تأليف كثيرة منها تاريخ الغاب

خزانة قرطبة زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً . وكان القرن العاشر هو القرن الذي بلغت فيه المدينة الاسلامية في الاندلس أوجها فأقبل الناس على العلم في جميع أنحاء المملكة العربية وتعددت مصادر الأشعة ولما انفصلت قرطبة عن بغداد كان ذلك سبباً لزيادة معانها باستقلالها وأخذ العرب بالتقدم الى الأمام فلم يكونوا يكتفون بمعرفة علوم يونان فحسب ، بل حثروا هذه العلوم وكشفوا طرقاً جديدة وازداد عدد علمائهم كثيراً كما ان عدد علماء المسيحيين عاد قليلاً . وظهر علماء من اليهود وأخذ عددهم يتزايد وانتقل المسلمون من دور الترجمة الى دور التوليد ، ومنهم ظهرت نوابغ لذلك العهد مثل الجراح الشهير أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوى فان هذا الرجل كان فذاً من الطبقة الأولى به بدى تاريخ الطب الاسلامى في أسبانية وكان فذاً منقطع النظر في الجراحة العربية واليه انتهت الرياسة في علم الجراحة في القرون الوسطى (١) وكان مولده سنة ٩٣٦ مسيحية في الزهراء المدينة التي شادها عبد الرحمن الناصر وكانت لقرطبة أشبه بفرساي لباريس . وقد بالغ مؤرخو العرب في وصفها وأصاب لويس برتران بقوله انها مبالغت خيالية فقالوا ان قصر الزهراء كان يحوى نحواً من ثلاثة آلاف من الحصيان ونحواً من ستة آلاف من الجوارى وانه وُضع في بنائها أربعة آلاف عمود من المرمر وانه كان فيها حوض ماء مزين باني عشر تمثالا من الذهب مرصعة باللازلي* اه .

اتهى كلام الاستاذ فورغ هنا وقبل أن نكمل ترجمة محاضراته هذه ، نحب أن نذكر ملاحظة على ما كتبه بشأن قصر الزهراء أو مدينة الزهراء كما هو الاخرى فنقول ان لمؤرخى العرب ولغيرهم مبالغت في الوصف لا سيما اذا كان الموصوف خارقاً للعادة مثل قصر

(١) من الغريب أن ترجمة خلف بن عباس الزهراوى قد وردت في طبقات الاطباء لكن بصورة مختصرة جداً فهو يقول : خلف بن عباس الزهراوى كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى وخلف بن عباس الزهراوى من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام في معناه . اه ولكن قد ترجم ابن أبى أصيبعة صاحب هذا الكلام من أطباء الاندلس عدداً كبيراً جداً يستدل به على درجة رقي الطب في الاندلس لذلك العهد كما قال لوكلارك والأستاذ فورغ

الزهراء . ولكن لويس برتران المشهور بعداوته للاسلام كاذب فيما يزعم من ان قصر الزهراء لم يكن كما وصفه العرب . نعم ان قضية حوض الماء الذي عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب مرصعة باللؤلؤ لم نجدها فيما قرأناه من أوصاف مؤرخي العرب للزهراء ولكن مما انفق عليه المؤرخون ان بناء الزهراء استغرق أربعين سنة من خلافة الناصر وانه كان يشتغل فيها كل يوم عشرة آلاف من العملة وكان يُحْمَل اليها كل يوم الف وخمسة مئة حِمْل من مواد البناء وأنه كان في الزهراء عدة آلاف من الخصيان وعدة آلاف من الجوارى وكانت فيها أجناد ووُصَفَاء لا يأخذهم الاحصاء . وبالاجمال كان قصر الزهراء مدينة ومن شاء مراجعة ماجاء عن الزهراء في الكتب فعليه بنفح الطيب وبغيره من الكتب المؤلفة على الاندلس وان أقل المؤرخين مبالغة وأكثرهم تدقيقاً في الأخبار ابن خلدون قد وصف الزهراء وصفاً مدهشاً لم يكن ليكتبه لولا تيقنه أن الزهراء كانت كما وصفها . ولقد شاهدت أنا بعيني خرائب الزهراء سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الاندلس وكان معي يومئذ المهندس الأسباني هيرنانديس الموكَّل بعمليات الحفر في الزهراء والدكتور رفائيل كاستيجون من أعضاء أكاديمية قرطبة فشاهدنا مكان الزهراء والآثار التي انكشفت منها بالحفر وعلمنا مانق منها محجوباً فقال لنا العالمان الاسبانيان ان الذي انكشف من الزهراء في مدة عشرين سنة أي منذ باثروا الحفر هو جزء من عشرين من مجموعها وقالوا انهم يُحْمَمُونَ بخمسين سنة الوقت اللازم لكشف جميع أنقاضها على نسبة العمل الذي عملوه الى الآن . وليس بمستغرب أن يكون ذلك كذلك لأن طول مكان الزهراء يبلغ تسعمائة متر وعرضه يبلغ سبعمائة وكنه مغطى بالأنقاض كما أنه ليس بمستغرب أن يقال انه كان فيها أربعة آلاف عمود من المرمر وذلك بالنسبة الى سعة المكان مما يشاهده الانسان بعينه فضلا عن مقابلة ما يشاهده بما يقرأه . وفي أعلى الزهراء متحف مؤقت مجموع فيه كثير من قطع الحجارة المحرَّمة والآثار النفيسة وقد شاهدنا بين الأنقاض، وهي القسم القليل الذي انكشف كثيراً من الرُخام ومن القرميد الأحمر وقال لنا الاسبانيون ان أكثر البلاط النفيس والاساطين الثمينة قد نُقِلت من الزهراء الى أمكنة أخرى فالدير الذي في سفح الجبل مبنى أكثره من حجارة الزهراء وعند مارموا جسر قرطبة أخذوا كثيراً من حجارتها ولا تكاد يوجد كنيسة مبنية في قرطبة الا وفيها من حجارة الزهراء وقد كانوا أخذوا من أنقاض الزهراء الى اشبيلية والى غرناطة . بل كان

الموحدون في أثناء استيلائهم على الاندلس أخذوا من أعمدة الزهراء الى مراكنس .
 وبالاجمال فان الزهراء كانت من أعظم مباني العالم وهي أعظم من الأسكوريال وأجمل ،
 على حين أن الاسكوريال هو أيضاً من أعظم مباني الدنيا . ولا يجوز أن يوصف بالمبالغة
 ماورد من وصف قصر الزهراء الذي يسميه الاسبانيول بمدينة الزهراء والذي أجمع المؤرخون
 على أنه كان يحتوي على بضعة عشر ألف نسمة من رجال ونساء . ثم نعود الى ترجمة الاستاذ
 فورغ للجراح العربي الشهير المسمى بأبي القاسم . قال : انه كان بحاته مشابراً على الشغل ،
 كتب في حياته مايقع في ثلاثين مجلداً ، وكتابه في الجراحة هو أهم تأليفه وهو يستحق
 أن يكون في تاريخ الطب المظهر الأول من مظاهر الجراحة كعلم مستقل مبني على أساس
 من الحقائق التشريحية . قال أبو القاسم : اذا كان الطبيب يجهل التشريح يقع في الخطأ
 ويقتل المريض فقد رأيت طبيباً جاهلاً يشرط خراجاً في عنق مريض ففتح له شرايين
 العنق وما زال الدم يفيض حتى مات لساعته . ومما امتاز به أبو القاسم أنه أول من اخترع
 الجراحة المصورة فقد جاء في كتابه نحو مائتي صورة عملية . ومن هذا أصبح هو العلم
 المشار اليه بالبنان في هذا الفن . وفي القرن الثاني عشر عند ما ترجم جيرار دوكريمون
 كتاب أبي القاسم الى اللاتينية صار هو الكتاب المتداول في أيدي الجميع . ومما يدل على
 قيمته العظمى ان أستاذنا القديم غوي دوشولياك Guy de Chauliac من مدينة مونبيليه
 استشهد بكتاب أبي القاسم أكثر من مائتي مرة . فلا شك اذن ان الجراحة العربية التي
 تنمى الى أصل يوناني قد كانت نمت نمواً عظيماً في الغرب وحسبك شاهداً على رقي الجراحة
 العربية كلمات الازدراء التي قالها « لانفرانك » Lanfranc في أواخر القرن الثالث عشر
 فانه كان ذهب الى ايطاليا واطلع فيها على ترجمة تأليف أبي القاسم ورجع الى باريس فقال
 عن جراحى باريس : انهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعتهم .

عند ما نصل الى طليطلة يستولى علينا تأثير المنظر الطبيعي بمكان طليطلة العجيب
 المشرف على نهر « تاجه » مضافا الى منظر الأبنية الباهرة . ولكننا ننسى طليطلة القرن
 الثاني عشر والثالث عشر مدينة العلم الغاضلة ، مستودع الكتب العربية ، مقر الترجمة الذي
 منذ بدأ الاحتلال الاسلامي يتقلص من هناك أصبح مقصداً لحجاج العلم ووراد المنايع
 العقلية التي كانت لذلك العهد غير معروفة عند المسيحيين . فقد صارت طليطلة في الطرف

الغربي من المملكة العربية نظيرة لبغداد مركزاً للترجمة والتأليف بعد ثلاثة قرون من عهد ازدهار بغداد

قال لوكلرك مؤرخ الطب : انه في ذلك الوقت كان حصل حادثان عظيمان في قطبي العالم الاسلامي أحدهما الحرب الصليبية التي سافت الى الشرق نحواً من مليون مسيحي والثاني زحف الافكار الاسلامية على الغرب بواسطة الاندلس . فقد كان قصداً مكاتب المسلمين في أسبانية كثير من طلاب العلم من جميع أنحاء النصرانية عطاشا الى تلك المناهل فوجدوا في خزائن المسلمين في الاندلس من التأليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمة التي كانوا جهلواها . وكان للفرنسيس يد في نشر هذه المعارف البشرية لأن اسقفاً افرنسياً هو ريموند داجن Raymond d'agen صار سنة ١١٣٠ رئيساً لأساقفة طليطلة فحق له الفخر بترجمة رسالة الروح لابن سينا اذ بعث في الناس همه الترجمة لكتب العرب فخرج منها ثلاثمائة ترجمة من العربي الى اللاتيني . وهكذا انتشرت بين الأيدي الكتب الحاوية لفلسفة يونان وفلسفة أعظم حكماء العرب . وهكذا انسدت النقص المظلم الذي كان واقعاً في الفكر البشري في القرون الوسطى وتقدمت مدارس الغرب الى الأمام . ولقد ذكر لوكلرك ان من هذه التراجم الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مترجماً من العربية الى اللاتينية في الطب منها أربعة تأليف لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقي لحكماء الاسلام كلارازي وأبي القاسم وابن سينا وابن زهر . وكان جيرار دوكريمون وهو أعظم المترجمين همه ومن أذكي رجال القرون الوسطى قد أكمل في مدة خمسين سنة ثلاثة وسبعين ترجمة أكثرها لكتب طبية ومن جهة هذه الكتب قانون ابن سينا الذي كان كافياً أن يشغل وحده حياة انسان . ومنها كتب أبي القاسم في الجراحة التي عملت في سير هذا الفن في أوربة الى الأمام العمل الاكبر فقد بقيت طليطلة اذن مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجمة من اللغة العربية واشترك في ذلك اليهود الذين كانوا يحسنون العربية ومن هذا المرز كوالعالمى الذى هو طليطلة توزع مجموع تأليف وأفكار عامة للمعارف البشرية ، وكان لعلم الطب منه الحصة الكبرى

فاذا ألقينا بنظرنا بصورة مجمل على هذه المدنية الاسلامية في أسبانية يأخذنا العجب كما قال لوكلرك وكما ورد في بحث جرى مؤخراً من أن بعض الكتاب المعاصرين أخذوا

يشكرون على العرب العبقريّة العلميّة . والحقيقة أن هذه الملكة العامية وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماءها من ذلك الوقت تقريراً صريحاً المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم الى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة . اذن منذ القرن الحادى عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلميّة الصحيحة ، وليس بصحيح القول أنهم ما أتوا بشيء جديد ، ولا أضافوا شيئاً يُذكر على التراث اليونانى اللاتينى ، ولا جرم أنهم بالبداية كان أساس عملهم الترجمة من الكتب القديمة ولكن ليس من العدل أن نقول أنهم لم يكونوا الا وسطاء وأنهم لم يكونوا يعلمون ما يترجون ولم يكن عندهم رُوح التوليد . وعلى هذا أجاب الفيلسوف الألماني « هومبولد » Homboldt بقوله : « ان العرب لم يقتصرُوا على حراسة كنز المعارف الذى عثروا عليه بل أضافوا اليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث فى أسرار الطبيعة »

وكان أطباء العرب أكثرهم من كبار الفلاسفة ومما لا جدال فيه أن أبا القاسم وابن رشد كانا من المرجحة الاولى فى رجال العالم وكانا من العلماء الواضعين وأبو القاسم هو الذى سبق الى سدّ الشرايين عند العمليات واخترع طريقة تفتيت الحصى فى المثانة وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء . وأشار عند حصول الفساد المسمى بالتهنغرينة بالقطع العاجل . وأما ابن رشد الفيلسوف القرطبيّ الذى كان يشتغل ليلاً ونهاراً وقيل انه لم يخلُ من الشغل بالعلم الا ليلة زواجه وليلة وفاة والده ، فقد كان مفسر فلسفة أرسطو . وفى كتابه الكليات فى الطب أشار الى الدورة الدموية . واذا شاء الانسان أن يزن بحق وعدل مقدار تأثير البضائع العربية فى معاهد الطب فى أوربة فما عليه الا بمراجعة برنامج مدرستنا الطبيّة فى مونبيليه . فانا نجد فى أواخر القرن الثالث عشر من جملة الكتب التدريسية جدول تراجم لاتينية لكتب عربية جاء بها الأطباء اليهود الذين هاجروا أسبانية الى جنوبيّ فرنسا وكان فى ذلك الجدول لحكام اليونانيين كتب من تأليف أبقرات وجالينوس وحكام العرب كتب من تأليف ابن سينا والرازى وقسطنطا واسحاق وحسين . وفى سنة ١٣٤٠ قرر المجمع الطبى الأولىّ لجالينوس وابن سينا وفى سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من أصل عشر لجالينوس فى أربع ، ولابقراط فى واحدة وفى سنة ١٥٣٤

كانت تأليف العرب الطبية هي المعتمد عليها في مدارسنا ولم تزل الحالة هي هذه الى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجمون ابقراط من اليونانية رأساً ولم تُحذف تأليف العرب من برامج التدريس عندنا الا في أواخر القرن السادس عشر. قال المؤرخ الكبير جرمان German من مونيخ اننا نشهد لكتّاب العرب الذين كتبوا في المواضيع العلمية بمزية الايضاح التام والطريقة التعليمية. نعم ان هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نصاب قديم من مدينة اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية

اتمهي كلام الاستاذ فورغ فيما يتعلق بالعرب وبعد ذلك أنهى محاضراته بما يتعلق بحركة علم الطب عند الاسبانيول وقد رأينا مناسباً نشر شهادة هذا الجراح الافرسي الكبير للعرب في خدمة العلم عموماً والطب والجراحة خصوصاً وفضلهم في ذلك على العالم وقوله ان العلم العربي كان مبنياً على التجربة والاختبار ونظن في شهادات مثل هؤلاء الفحول « لوكلرك » و « همبولد » و « جرمان » و « فورغ » وعدد لا يحصى من أمثالهم مقنعاً لمن يريد أن يتحقق قضية فضل العرب على أوربة ويعرف هذان أولئك الثرائين الذين يحاولون انكار هذه الحقيقة أو يزعمون أن العرب بنوا معارفهم على « الاسلوب الغيبي » وانهم لم يكن للتجربة نصيب من علومهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا

الحركة العلمية في الحضارة العربية

كما يصفها الفيلسوفان

ولز الانجليزى و درابر الاميركى

للامير شكيب

ومن رأى رأياً عظيماً في الحضارة العربية الفيلسوف الانكليزى الكاتب المشهور ولز الذى يعد في طليعة مفكرى هذا العصر . وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض كلامه في شأن البعثة النبوية ، وقولنا انه اصاب في بعض الآراء لافي جميعها. وهما نحن أولاء نذكر خلاصة رأيه في حضارة العرب . قال في كتابه « تجربة في التاريخ العام » في مبحث الاسلام ما تلى ترجمته :

« قبل أن نأتى على ذكر الأتراك وعلى ذكر الحروب الصليبية الكبرى التى جعلت النصرانية تقف وجهاً لوجه بازاء الاسلام ، والتى جعلت كلاً من هاتين الملتين تعادى الاخرى الى هذه الساعة عداوة غير معقولة ، يجب علينا أن نلاحظ جيداً الحياة الفكرية التى كانت عليها الأمم الناطقة بالعربية ، والتى كانت قد بدأت تنتشر فى الاصقاع التى كانت الثقافة اليونانية مدت عليها رواقها . فنقول : انه فى القرون التى سبقت ظهور محمد كان الفكر العربى أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى ، لمع لمعاناً لم يعهد أن فاقه فيه الا الفكر اليونانى . وهذا فى أسنى أدواره . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، و بقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحل محله فى هذه الابوة . وكانت طريقة العربى هى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة ، وبكل بساطة ، وان يجايبها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً فى ظل الإبهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين

وهي نشدان النور إنما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط الى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين .

فانه لما فتح العرب فتوحاتهم اتصلا بفلسفة يونان ، لا مباشرة بل بواسطة النصارى النسطوريين الذين كانوا في شرقي النصرانية ، وكانوا أرقى فكراً من نصارى يزنطية المشغولين بعلم اللاهوت ، وكان سوى تثقيفهم أعلى جداً من النصارى اللاتينيين في الغرب فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانيين أحراراً في ثقافتهم ، وجاء الاسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية . وكانوا قد أخذوا جانباً عظيماً من طب يونان ، ثم عززوه بتجاربههم . ولما ظهر الاسلام ، صاروا هم الأطباء في قصور الخلفاء . وبما لا شك فيه أن منهم من كانوا يمارسون الشعائر الاسلامية ، ولا يرون فيها حرجاً على أفكارهم . وكانوا قد حفظوا جانباً من مقالات ارسطو مترجمة الى السريانية ، وكانت عندهم معلومات قيمة في الرياضيات . فإذا كانت بجانب علومهم معلومات القديس بنديكتوس مثلاً ؟ فالعرب القادمون من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع ، اعتمدوا على هؤلاء النساطرة وتعلموا منهم وأضافوا الى ما تعلموه علوماً جديدة .

ولم يكن النساطرة هم المعلمين الذين انفرد العرب بالأخذ عنهم . بل كان اليهود في جميع حواضر الشرق منتشرين . وكانت لهم ثقافة خاصة بهم ، وملكية راسخة في العلوم ، فكان كل من الفكر اليهودي والفكر العربي يؤثر في الآخر تأثيراً عائداً للخير العام . ومن المعلوم أن اليهود هم ممتازون بسهولة تعلم اللغات ، فقد كانوا قبل الاسلام بألف سنة يتعلمون اليونانية في الاسكندرية ، ويؤلفون بها الكتب . وهامهم الآن بعد ظهور الاسلام يتقنون العربية ويؤلفون بها . ولقد اختلط العرب باليهود بحيث لا تقدر أن نعرف في الثقافة العربية أين ينتهي اليهودي وأين يبدأ العربي .

وكان للعرب منبع آخر للعلم ، لا سيما ما تعلق منه بالرياضيات وهو الهند ، فمما لا شبهة فيه ان الفكر العربي استفاد كثيراً من تلك الجهة .

ولقد بدأت مظاهر الحركة الفكرية العربية في دور بني أمية ، الا أنها في دور بني العباس آتت أشهى ثمارها . ولما كان التاريخ هو مبدأ كل فلسفة صحيحة وكبدها ، وكان الرأس والقلب لكل أدب كبير ، كان أكبر كتاب العرب مؤرخين ، ومحرري تراجم ،

وشعراء مشتغلين بالتاريخ . ولما صار التعليم عاما ولم يعد خاصاً بطبقة دون طبقة ، ظهرت للعرب مؤلفات في النحو والصرف واللغة لا تحصى .

فكان العالم الاسلامي سابقاً للعالم الاوربي بنحو قرن في المدنية . وكانت المدارس الجامعة في البصرة ، والكوفة ، و بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وانبثت أنوارها في العالم كله ، وقصدها الطلاب من المشرق والمغرب . وقد كان كثير من طلبة العلم في قرطبة من المسيحيين . ودخلت فلسفة العرب الى أوربة من طريق أسبانية ، وظهرت في جامعات باريز وأكسفورد ، وشمالى ايطالية ، وأثرت كثيراً في مجرى الفكر الأوربي ولا سيما فلسفة ابن رشد القرطبي (١١٢٦ — ١١٩٨) التي بلغت الذروة العليا من هذا الموضوع . وكانت فلسفة العرب مبنية على مذهب أرسطو وعلى وضع حد فاصل بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية مما حرر المباحث العامة من رق التحريجات الدينية اللاهوتية التي كانت تعوقها سواء في النصرانية أو في الاسلام . ونبغ في الاسلام فيلسوف آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧)

وكانت الوراقة والصحافة من أزهر الصناعات في حواضر الاسلام ، مثل دمشق ، و بغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية . وفي سنة ٩٧٠ (مسيحية) بلغ عدد المدارس الحرّة التي تأسست لتعليم الفقراء مجاناً في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة .

قال « تاتشر » Tatcher و « شفيل » Schwil في تاريخ أوربة العام : ان العرب انما بنوا في العلوم الرياضية على أساس اليونانيين ، وأما أصل الأرقام التي يقال لها الأرقام العربية فلا يزال غامضاً . وقد كان « بويتيموس » في زمان تيودوريك الكبير (ملك القوط الشرقيين الذي كان في ايطالية) يستعمل بعض اشارات تشبه الأرقام التسعة التي نحن نستعملها الآن . وكان أحد تلاميذ « جربرت » يستعمل أيضاً اشارات أشد مضاهاة لأرقامنا الحاضرة . وأما الصفر فبقي مجهولاً الى القرن الثاني عشر (المسيحي) اذ اخترعه عربي اسمه محمد بن موسى كان أيضاً هو أول من استعمل الاشارات للكسور ، وجعل للأرقام قيمة متعلقة بمواضعها . ولم يزد العرب شيئاً في الهندسة على ما قرره اقليدس الا أن الجبر علم هم الذين انفردوا بوضعه . وكذلك أوسعوا علم مساحة المثلثات الكروية ، واخترعوا « الجيب » و « الخط المماس للدائرة » وكان لهم في الطبيعيات اختراع رفاض

الساعة ، وكتبوا في علم المرآئي ، وتقدموا كثيراً في علم الفلك ، وبنوا المراصد الفلكية ، وأحدثوا الآلات اللازمة لهذا العلم ، والتي لا تزال معتمد الناس الى اليوم . وهم الذين حسبوا زاوية سمت الشمس ومبادرة نقطة اعتدال الليل والنهار . فكانت معارفهم الفلكية واسعة فعلاً .

وأما في الطب فقد بلغوا شأواً فأتوا فيه اليونانيين بكثير . وقد درسوا الفسيولوجيا وعلم الصحة ، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرفنا الحاضرة . ولا تزال نحن الى يوم الناس هذا نستعمل كثيراً من أدويتهم . وكان جراحوهم يعرفون التخدير ويعملون العمليات الجراحية الصعبة ، وبينما كانت الكنيسة في أوربة تمنع ممارسة الطب وتعتمد في شفاء الاسقام على الطقوس الدينية لا غير ، كان العرب ذوي ملكة حقيقية في الطب . وكان لهم نصيب وافر من علم الكيمياء ، فقد كشفوا كثيراً من المواد التي لم تكن معروفة كالكحول ، والبوتاس ، ونيترات الفضة ، والسليمان ، وكثيراً من الخوامض . وأما من جهة الصناعة فكانوا أرقى من وجد الى ذلك الوقت يتفنون في صنع ما يريدونه في الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والفولاذ . وكانوا يصنعون الزجاج والخزف الفاخر ويعلمون جميع أسرار الألوان ويتقنون الصباغة ، ويعملون الكاغد للكتابة ويهيئون الجلود بصور متنوعة ، وكانوا يصنعون أنواع الأشربة ، ويستخرجون السكر من القصب . ثم انه كانت لهم القدم الراسخة في الزراعة يجرون فيها على طريقة علمية ، وكانت لهم أساليب راقية في الري^(١) ومعرفة بخواص الأسمدة ، وكانوا يلائمون بين الحبوب وطبيعة الأراضي ، ويعلمون من أصناف التطعيم في الفواكه والأزهار ما لا يعلمه سواهم ، وهم الذين أدخلوا الى أوربة أشجاراً ونباتات لم تكن تعرفها ، وحرروا في علم الزراعة كتباً قيّمة .

ومن أهم ما أتقنه العرب ، وكان له أعظم تأثير في الحركة الفكرية البشرية ، صناعة الكاغد . والذي يظهر أن العرب أخذوها عن الصين وألقوا بها الى الأوربيين . وقد كانت الكتابة الى ذلك الوقت على الرق والبردى . ثم لما فتح العرب مصرأ انقطع ورود البردى

(١) ولا تزال طرق الري العربية هي الجارية في أسبانية الى اليوم لم يزيدوا عليها شيئاً

الى أوربة ولهذا تأخرت المدنية الاوربية قرونا عن سائر المدنيات فانه بدون ورق للكتابة يستحيل أن تنتشر المعارف انتشاراً مذكوراً »

وختم ولز فصله عن حضارة الاسلام بجملة نستجلب اليها أنظار القراء ولو كانت الحقيقة التي فيها مؤلمة
قال :

« ان كل هذا النشاط الفكري حصل في العالم الاسلامي في وسط الاضطراب السياسي والقلق فان العرب لم يوفقوا في وقت من الأوقات الى نظام حكومي ثابت آمن غوائل الاضطراب والانتقال ، بل جميع الحكومات التي أسسوها كانت مطلقة عرضة للزلازل والمكابد والغيلة والعوارض التي هي من لوازم كل حكومة مطلقة التصرف »
قال :

« الا أنه برغم هذه الهزاهز المستمرة ، وهذا القتل الذي يكاد يكون متصلاً ، وهذه الفتن الطويلة العريضة بين الأحزاب ، كان لروح الاسلام نظام خاص ، مطرد بادي التأثير في حياة الأمة ، ماسك بحجزاتها عن التهور . ولقد عجزت السلطنة البيزنطية عن زعزعة أركان المدنية الاسلامية . وطول ما كان التركي غير متصرف بأزمة الاسلام ، كانت حياة الاسلام الفكرية غضة . ولعل الاسلام كان في ذات نفسه مغتبطاً بأن تكون حياته العقلية مستمرة مطردة برغم ما كانت عليه حياته السياسية من التخبط والتهور »
ولقد ذهب ولز الى أن الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقي سائراً سيرته الأولى ، ولو لم تنشب في وسطه من أول الأمر الحرب الداخلية . فقد كان هم عائشة أن تقهر علياً قبل كل شيء . وقد كان هم كل من الفريقين العلوي والأموي أن يستولي على الخلافة قبل همه في بسطة الاسلام في الأرض ، الى غير ذلك من الآراء التي نجدتها في أكثر كتب المحققين من علماء التاريخ والتي لا تقدر مع الأسف أن نقول انها غير صحيحة .

ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا في موضوع اسلام العلامة « درابر » الأميركي المشهور صاحب كتاب « اختلاف العلم والدين » فقد كتب كتاباً نادر المثال في تاريخ الحركة الفكرية العلمية في العالم ، وما كان بازاؤها من العقائد والأديان وما وقع من

المصارعة بين المبدأ العلمي والمبدأ الديني .

وكننت اطلعت على هذا الكتاب اذ كنت في الثامنة عشرة من العلم وأجعت ترجمته الى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلاً عن نسخته الافرنسية التي كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من النسخة الانكليزية . ثم اتى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيد العصر الدكتور فاندريك ، الذي كان لي عليه تردد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد وكننت ممن يستضيء بآرائه . فالدكتور فاندريك والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمي على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك وصرت آتى من الترجمة الى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ويصحح ما يراه محتاجاً الى التصحيح . وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التي لم أكن لذلك العهد أركن الى نفسى فيها . ولا تزال تصحيحات الدكتور فاندريك بخط يده على حواشى المخطوط . وان يسر الله طبع هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو أى منذ ٤٣ سنة . ولقد شهد لي الدكتور يومئذ بصحة الترجمة وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : « جاء بالصنعة »

وانى لناقل الآن بالحرف قول العلامة « درابر » من كتابه المذكور تحت عنوان : « الفصل الرابع : فى تجديد العلوم فى الجنوب » مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فاندريك الاميركانى عفا الله عنه وجزاه خيراً : —

« قال الامام على : لاحظت كثيراً فى مدة حياتى الطويلة أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ولعمري ان هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التى أتى بها صهر محمد ، لهى عين الصواب . فانه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دالة على نسبه فان البيئه التى يوجد فيها لهى منشأ طبيعته الفكرية وحد وجهته العقلية . ولما فتح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمها الى المملكة العربية ، وجد فى الاسكندرية نحوياً يونانياً اسمه يوحنا فيلوبونوس ، ومعناه « محب الشغل » فحصلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل الى عمرو أن يتخلنى له عن بقية المكتبة الكبرى ، مما لم يكن أخنى عليه الدهر ، ولا ذهب به التعصب ولا أفنته الحروب . فاستأذن عمرو الخليفة فى ذلك فأجابته :

« هذه الكتب اما أن تكون موافقة للقرآن ، أو مخالفة له ، فان كانت موافقة فنحن

في غنى عنها ، وان مخالفة فهي ضارة وواجب احراقها » فوُزعت على حمامات الاسكندرية
وبعد ستة أشهر لم يبق شيء منها (١)

ومهما وقع من المراء في هذه المسئلة فما لا شك فيه صدور هذا الأمر عن الخليفة ،
لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بالعلوم ، ولم تكن الجماعة التي حوله الا من الرجال
المتحمسين في الدين الذين ليس لهم هوس بشيء آخر . فعمل عمر قد حقق ملاحظة على .
ولا ينبغي أن يظن أن الكتب التي كان طمع فيها « محب الشغل » كانت كتب الخزانة
الكبرى المنسوبة الى البطالسة ، والى أومانوس ملك برغام ، بل كان قد مضى الف سنة على
العهد الذي ابتدأ فيه فيلادلفيوس بجمع كتبه . وكان يوليوس قيصر قد أحرق أكثر من
نصفها . وكان بطارقة الاسكندرية قد سعوا سعياً حثيثاً في احراقها . وقد روى أوراسيوس
أنه كان قد شاهد قطرات المكتبة فارغة ، قبل ان صدر أمر الامبراطور لتاوفيولوس عم
القديس كيرلس ، باحراق الكتب بمدة عشرين سنة . وعلى فرض عدم جريان هذه
الأحوال . على هذه المكتبة ، فان طول الاستعمال ، وكثرة الممارسة ، وما هناك من العوارض
والحوادث اليومية ، والسرقا على طول مدة عشرة قرون متوالية ، لمن الأسباب التي تخنى
على كثير من موجود المكتبة . ولا جرم أن يوحنا النحوى لم يكن له طاقة بنصف مليون
مجلد . ولم يكن ليقدر أن ينفق عليها انفاق البطالسة والقياصرة . هذا وان المدة التي زعموا
استغراق الحريق اياها لا ينبغي أن تكون قاعداً للحساب ، فان ورق البردى سهل الوقد ،
ولكن الرق لا يتقد بسهولة ، ولهذا لم يكن الجاميون يؤثرونه ما وجدوا غيره . وقد كان
القسم الاكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور .

وأصح وأوثق من احراق عمر لمكتبة الاسكندرية ، احراق الصليبيين لمكتبة
طرابلس الشام التي قيل انهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلد . فقد كانت المسئلة
دينية من الجانيين . ويقال ان الصليبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية ، لم
يجدوا الا المصاحف ، فظنوا الأمر كذلك في سائر القاعات فاضرموا النار في الجميع . وليعلم
ان خبر هاتين الواقعتين لا بد أن يكون وقع فيه شيء من المبالغة . ولكن لا بد أن

(١) كتب الدكتور فاندك على حاشية هذه الجملة : هذه القصة حكاهها غريغوريوس أبو الفرج وعليها

رد ، وعلى كل يشك بها

يكون له أصل من الصحة . وهكذا لا يزال النحوس الدينى له هذه الأمثال . أفلم يحرق
الأسبانيول فى المكسيك قطع الكتابات البروغليفية تلك الخسارة التى لاتعوض . أفلم يحرق
الكردينال كسيمينس فى ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربى ، قسم كبير منها تراجم
للعلماء والمؤلفين^(١)

ولقد رأينا تأثير الحروب فى انتشار العلوم لعهد البطالسة وما أيقظته غزوات الاسكندر
للقرس من الهمم فى طلبها ، وقد كانت النتيجة نفسها لغزوات المسامين .
ومن الصداقة التى انعقدت بين عمرو بن العاص ، ويوحنا النحوى ، يظهر لك
مقدار ميل العرب بطبيعتهم الى حرية الفكر . فانهم ماخرجوا من وثنية الجاهلية الى
التوحيد المحمدى حتى استعدت قرائح جيعهم للعلوم الفلسفية ، والفنون الأدبية ، وكان
نساطرة سورية ، ويهود مصر ، هم الذين ينهجون لهم السبيل لذلك . ولقد كنا أشرنا
الى ما أصاب نسطور وأصحابه من الانتقام بسبب قولهم بوحدانية الخالق ، تبارك وتعالى ،
وانكارهم وجود سماء ذات آلهة واهلات ، وقولهم نعوذ بالله من الاعتقاد بملئكة السموات
مريم العنراء .



فهذه العقائد التى كان عليها النساطرة ، سهلت جداً علائقهم مع المسامين . ولم
يكتفِ هؤلاء من مودتهم بمجرد المجاملة ، بل قلّدوهم المناصب فى المملكة . وكان النبى
نفسه يوصى بهم خيراً . وكذلك الخليفة عمر . وكانت لها عهود بحسن معاملتهم . ثم فى دور
العباسيين وضع هرون الرشيد دور العلم العامة تحت نظارة يوحنا بن ماسويه^(٢) وزد على

(١) الذى قرأته فى بعض كتب الاسبانيول ان الذى أحرقوه فى غرناطة من الكتب العربية أكثر من
هذا العدد بكثير قبل مائة الف كتاب وقيل أكثر وانهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء ، سوى
كتب الطب والطبيعة والحساب

(٢) قال فى طبقات الاطباء : كان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب ، سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة
الكتب القديمة مما وجد باخرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سبها المسلمون ووضعها أميناً على الترجمة
وخدم هرون والأمين والمأمون وبقى على ذلك الى أيام المتوكل . وكانت بنو هاشم لا يتناولون شيئاً من
أطعمتهم الا بحضوره

الناشطة اليهود ، فان هؤلاء عند ما مالت النصرانية الى الأخذ عن الوثنية ثم دخلت فيها عقيدة التثليث ، ازداد نفورهم من النصرانية ، ولم تزد هم القرون الطويلة التي مضت عليهم بالمصائب والنكبات الا استمساكاً بعقيدتهم التوحيدية ، ومقتناً للبدى الوثنية التي أشرىوا كراهيتها أيام أسرههم في بابل . فترجواهم والناشطة مؤلفات كثيرة يونانية ولاينية الى السرياني ، ثم نقلت هذه الكتب الى العربي وسار الناشطة يعلمون أولاد أمراء الاسلام واليهود أطباء لهم .

وهذا الائتلاف كسر من سورة التعصب الاسلامي ، ودهت من أخلاق المسامين ، وأعلى من مستواهم الفكرى ، فجاؤا بالملك الفلسفة والعلم بأسرع مما جاؤوا ولايات المملكة الرومانية ، وعدلوا عن الافكار العامية الى الحقائق العلمية

والحاصل أنه في ذلك العالم التي أغارت عليه الوثنية ، لم يقم آخذاً بثأر الوحدانية الالهية الا سيف المسامين . ومما أعان كثيراً على حصول هذه النتيجة عقيدة القضاء والقدر التي في القرآن « أينا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة »

وقد قال على : لا ريب في أن جميع أعمال العباد هي بيد الله وحده . فالمسامون الحقيقيون هم الذين يخضعون لمشيئة الله فيوقفون بين الاختيار المطلق ، وسبق قضاء الله قائلين : « قدّر علينا القضاء وعلينا وضع أوائه » ويقولون : « اذا شئنا التسلط على قوى الطبيعة لم يلزمنا أن نحاول مقاومتها رأساً ، ولكن تعديل القوة الواحدة بالآخرى » . فهذه العقيدة هيأت ذويها للقيام باكبر الأعمال فتبدلت باليأس الاتكال ، واحتقرت الآمال « اليأس حرّ والأمل عبد »

على أن خوض الغمرات أظهر للمسامين أن في الطب مع ذلك تخفيفاً للآلام . وفي الجراحة ضمداً للجروح . وان الذين أشفقوا على الهلاك يمكنهم بواسطة العلم أن يعودوا (باذن الله) الى الحياة . وتقرر أن للاختيار المطلق مدخلاً عظيماً في الحياة الشخصية ، وان الانسان يمكنه الى درجة معلومة أن يصور بأعماله الاختيارية اقدار نفسه ، أما الجماعات فليس لها ضمان شامل ، وانما تحيي في ضمن مملكة التواميس الثابتة

وكان الخلاف بين المسيحية والمحمدية في هذا المقام عظيماً . لأن المسيحي كان مؤمناً بدوام التدخل الالهى ولم يكن يعتقد بناموس أزلى أبدى يدور عليه الكون ، وكان يرجو

بصلواته تغيير سير الأشياء ، وإن لم تكن صلواته مما يستجاب فبصلوات مریم العذراء والقديسين ، وبحرمة الذخائر المقدسة . وكان إذا رأى صوته ضعيفاً التمس ذلك من الكهنة والاشخاص المشهورين بالتقوى ، وأضاف الى صلواتهم الهدايا والندور والصدقات . وكانت النصرانية بأسرها تعتقد بإمكان انقلاب العالم بحذافيره بواسطة الخوارق والمعجزات . فلما الاسلام فكان بالعكس ، معتمداً على التسليم الطاهر للإرادة الالهية . فكانت صلاة المسلم عبارة عن الشكر لله تعالى على ما قدره للعبد وصلاة المسيحي تضرعاً لأجل الانعام بالخيرات المرجاة وكلاهما اعتاض بالصلاة عن رياضات الهنود واستغرافاتهم في التأمل . فليس الوجود عند المسيحي الا سلسلة حركات بخائية وحوادث قد تجيء متناقضة بتأثير الصلوات والقداست التي تتجاذبها . وليس الوجود عند المسلم الا سلسلة مفاعيل وعلل آخذ بعضها برقاب بعض . فما حركة جسم من الاجسام عند المسلم الا نتيجة حركة سابقة ، وما الفكر عنده الا وليد فكر آخر . ولكل حادث تاريخي عنده منبع في حادث قبله ولكل عمل بشري أصل في عمل آخر . ولم يحدث في العالم الانساني شيء الا وقد أُعِدَّ من قبل . فهناك تسلسل منطقي مطرد . وإن القضاء هو أشبه بسلسلة من حديد كل حادث فيه بمثابة حلقة منها . وهذه الحلقة قد وضعت موضعها منذ الأزل ونحن جئنا الى الدنيا ولا علم لنا ونخرج من الدنيا رغم ارادتنا فلم يبق علينا الا أن نكون منتظرين

وبنا عدا هذا الرأي بشأن سير الحياة البشرية ، جداً عند المسلمين رأى آخر بشأن تكوين العالم العضوي . فقد كانوا في الاول يفهمون من ظاهر القرآن ان الارض رقعة مسطحة مربعة الزوايا ، محاطة بجبال عالية ، وهذه الجبال هي التي تنوط الارض بقبة السماء وتحمل الفلك أيضاً ^(١) فيجب أن تتأمل تأمل الزهاد في هذه القدرة الالهية التي بسطت هذه الرقعة الفسيحة المتلاثة التي لا نجد فيها خللاً ولا سقطاً وفوقها السبع الطباق ، وفوق السبع الطباق الله تعالى مستور على عرشه ، تحت صورة رجل عظيم القامة الى النهاية ، عند رجليه ثيران ذات أجنحة نظير ملوك أنور الاقدمين ^(٢)

(١) انما يصدق كلام درابر هذا على أفكار العوام من المسلمين ومن المعلوم ان أفكار العوام لا يعبا بها .

(٢) وهذا أيضاً كلام عوام بل أكثر العوام لا يقبلونه وقد وجد في الاسلام فرق قليلة مجسمة الا أن تجسيمها مقرون بعدم تشبيه صفات الباري تعالى بصفات البشر وبأن الكيف مجهول

وهذه الافكار لم تكن خاصة بالمسلمين بل وجدت عند غيرهم . وهي مما ينشأ عند الانسان في بعض أطوار نموه . ولم يطل أجلها في الاسلام ، بل تبدل بها المسلمون أفكاراً عامية صحيحة . وكما جرى في البلدان المسيحية لم يتم هذا الأمر بدون مقاومة حادة المبادئ الدينية . فان المأمون لما عرف كروية الارض أصدر أمره لمن كان عنده من الرياضيين بقياس درجة من الدائرة الارضية ، فقام بعض علماء الدين وعدوا ذلك فسقاً وخروجاً عن الدين ، وأرادوا أن يثيروا العامة عليه ، لكن المأمون لم يبال ماقلوه وثبت في عمله وأمر بجرى القياس على شواطئ البحر الاحمر وفي سهول سنجار بواسطة الاسطرلاب . وتقرر ارتفاع القطب فوق الافق بمنزلتين مسافتهم درجة على دائرة نصف النهار ، ثم قاسوا بعد المسافة بين المنزلتين فوجدوها مائتي الف ذراع هاشمي فحصل من ذلك لدائرة الارض أربعة وعشرون الف ميل انكليزي . وهو حساب لم يكن بعيداً كثيراً عن الحقيقة

وأمر الخليفة ، استزادة من العلم واستقصاء في التحقيق ، باجراء قياس آخر بقرب الكوفة فانقسم الفلكيون المأمورون بهذا الامر الى فرقتين ، كل منهما سارت من نقطة معينة فقاست قوس درجة واحدة ، احدهما في نحو الشمال والاخرى في نحو اليمين ، ومن ثمة اتصلا الى نتيجة معلومة . فان كان الذراع الذي جعلوه مقياساً هو الذراع السلطاني فيكون طول الدرجة ثلث ميل . ومن هنا استدل الخليفة على كروية الارض



ومما ينبغي التنبيه عليه ان التعصب الديني في الاسلام لم يلبث أن أذعن لحرارة البحث العلمي ، و بعد ان كان القرآن في ظاهر الحال حاجزاً دون تقدم العلوم صار هو الكتاب الكفيل بأعظم الاعمال الممكنة ، وأصبح دليلاً على صحة الدعوة المحمدية (١)

(١) أنه مما تقضى به أمانة النقل ان أثبت هنا ما كتبه الدكتور فاندك بغطه في حاشية هذه العبارة فقد قال : ان القرآن يوافق الترفض مع المترفين وفيه مهرب أو مهارب لمن طالب العلوم . ولا تقدر أن نوافق الدكتور فاندك مع جلالة قدره علي كون القرآن وافق في شيء من الأشياء علي رفض العلم ، كما اتنا لا تقدر أن نوافق علي كون الأما كن الكبيرة الصريحة التي حث فيها القرآن علي طالب العلم وعظم فيها الحكمة هي مما يقال له مهرب أو مهارب يتفقد منها طالب العلم . اتنا لا تقدر أن نؤول هذا القول من العلامة فاندك الا اذا تذكرنا أنه كان قسماً بروتستانتياً ، وان الشهادة الصريحة للقرآن لا تسهل علي ذي مقام رسمي في الكنيسة الا انه مما يجب التنبيه عليه أيضاً ان العلامة فاندك مر بجميع ماقاله درابر بحق الكنيسة بدون أن يعلق أدنى اعتراض

انه بعد انتقال النبي الى ربه بنحو من عشرين سنة . تنبّهت الأفكار واتسعت الاختبارات بما جرى من فتح سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وشرع الخليفة علىّ ينشط العلوم ، ويروج سوق المعارف الأدبية ، كما ان معاوية رأس الأمويين قلب صورة الحكم ، فصيّره ارثياً بعد أن كان انتخابياً . ونقل كرسى الخلافة من المدينة الى دمشق وهو موقع أحسن توسطاً وأمكن مركزاً وأدخل في موكبه الزينة والابتهة وكسر قيود التعصب الشديد وأحب العلم وأهله . وكان أحد مرازبة الفرس قد جاء لينظر عمر بن الخطاب في المدينة فبصر به مضطجعاً أمام جامع المدينة ، بين المساكين ، ولو دخل على معاوية كما كان يدخل سفراء الملوك لآه في قصر فاخر باهر الرياش مزخرف النقوش العربية بين الحياض والأزاهر ولم يمض نصف قرن على وفاة محمد حتى نقلت الكتب اليونانية المشهورة الى اللسان العربي ، كما انها ترجمت المنظومات الشعرية كالإلياذة ، والأوديسا الى اللغة السريانية وخُصت هذه باستعمال العلماء دون غيرهم لما كان فيها من الأخبار الميتولوجية المنافية للعقائد الاسلامية . ثم نقل الخليفة المنصور (٧٥٣ - ٧٧٥) قاعدة ملكه الى بغداد وصيّرها عاصمة زاهية زاهرة ، وقضى كثيراً من أوقاته في درس علم الفلك ، وشاد مدارس طبية وفقهية . واحتذى على مثاله حفيده هارون الرشيد (٧٨٦) فأصدر أمره بإضافة المدارس الى المساجد في كل أقطار المملكة ، لكن عصر العلم السعيد انما كان في خلافة المأمون الذي جعل دار السلام حاضرة العلم الكبرى وجمع خزائن كثيرة للكتب وعكف على مدارس العلماء ومثافنة الحكماء . وقد بقي هذا الذوق المكتسب عند خلفاء العرب الى ما بعد انقسام المملكة العربية الى أقسامها الثلاثة فكان العباسية في آسية والفاطمية في مصر والأموية في اسبانية لا يتنازعون الرياسة الدنيوية فقط ، بل يتناظرون في العلوم والمعارف والآداب ويتسابقون في ميدانها .

وكان العرب في الأدب عارفين بجميع الفنون التي تشحن الفكر وتهذب العقل ، وتروض الخاطر : وحق لهم الفخر فيما بعد بأنه نبغ فيهم من الشعراء والأدباء أكثر مما نبغ في جميع الأمم معاً . وأما تفوقهم في العلوم فقد كان بالطريقة التي تلقوها عن يونان الاسكندرية ، وليس عن يونان اوربة ، وذلك انهم أدركوا ان مجرد التأمل بعيد عن أن

يبلغ بالانسان الغاية المقصودة ، وأن هذه الغاية لانثال الابمراقبة الأمور واختبار الأشياء أى الطريقة التجريدية . وكانوا يرون الجبر والرياضيات آلات للمنطق ، ويلاحظ من تأليفهم الكثيرة فى جر الأثقال (الميكانيك) وعلم موازين السوائل (الهيدروستاتيك) وعلم البصريات ، أن حلهم للمسائل العلمية كان دائماً بطريقة الاختبار المباشر أو بالمراقبة الآلية . وهذا هو السبب فى وضع العرب لعلم الكيمياء ، واختراعهم عدة آلات للتقطير والتصعيد والتدوير والتصفية . وكذلك هو السبب فى استعمالهم فى مراقبة الفلك الآلات المدرجة كالربوع المجيئة والأسطرلابات . وقد استخدموا فى الكيمياء الميزان الذى أتقنوا معرفة قاعدته وأنشأوا جداول للثقل النوعى . ولهم الزيجات الفلكية الشهيرة مثل زيجات بغداد ، وقرطبة ، وسمرقند ، وكان ذلك من أعظم وسائل نجاحهم فى الهندسة والمثلثات ، وتوصلهم الى ابتكار علم الجبر ، واتخاذ طريقة الرقم الهندى (١) وذلك كله نتيجة اتساع العرب مذهب ارسطو فى الفلسفة دون مذهب أفلاطون لأن الأول تفصيلى والثانى اجمالى .

واعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب وبنوا لها الخزائن العظيمة ، وقيل ان المأمون استجلب الى بغداد مقدار مائة جل جمل من الكتب . وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن احدى مكاتب القسطنطينية . وكانت وُجِدت فى بعض الخزائن رسالة بطليموس فى الرياضيات السماوية فأمر المأمون بنقلها الى العربية باسم المجسطى . ومازال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد . وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى فنى الطب والفلك لاغير . وكان قانون هذه الخزانة لا يمنع اعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة . وكان فيها كرتان احدهما من الفضة الصلبة ، والأخرى من النوع المسمى بسكب الرمل ، يقال ان الاولى من صنع بطليموس وبلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ثم مكتبة خلفاء اسبانية وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد وكان برنامجها وحده فى أربعة

(١) قد كتب الدكتور قانديك بخطه فى حاشية هذه العبارة مايلى : هذا خطأ لأن العرب لم يخترعوا الجبر بل أخذوه عن الهنود كما أخذوا منهم الأرقام الهندية . والحقيقة ان هذا رأى من الآراء وقد تقدم لنا نقل كلام عدة من علماء الاوربيين الذين يذهبون الى كون الجبر من اختراع العرب

وأر بعين مجلداً ، وكان ماعداها في الأندلس سبعون خزنة عامة للسكتب وكثير من الخزائن الخاصة . ويقال ان أحد العلماء رفض يوماً دعوة سلطان بخارى للإقامة ببلاطه ، معتدراً بأنه يلزمه لنقل كتبه لأقل من أر بعائة جل (١)

وكان في جميع هذه المكاتب الكبيرة أماكن للنسخة والترجمة بل كان مثل ذلك في المكاتب الخصوصية فان حنين بن اسحاق الطيب النسطوري كان اتخذ لنفسه في بغداد مقاما من هذا النوع (٨٥٠) وترجم ارسطو وأفلاطون وبقراط وجالينوس . وأما في التأليف الأصلية فكانت عادة الأساتيد القاء المواضيع على الطلبة ، ثم جمعها رسائل . وكان عند كل خليفة من الخلفاء رواة وقصاصون ، وناهيك بقصصهم التي منها الف ليلة وليلة ، دليلاً على ما أوتى العرب من قوة التصور . وعمّ التصنيف جميع الفنون والمواضيع كالتاريخ والفقه ، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وأوصاف الخيل والجمال ، وكانت جميعها تنتشر بدون معارضة الدولة . ولم يحدث الأمر بشأن كتب العقائد ومنع بعضها الا بعد ذلك بكثير . وكان العرب يتأفقون الى الغاية في الورق وألوانه ، والحبر وأنواعه ، ويزينون فواتح الكتب ، ويموهون منها بالذهب على أنواع وأشكال لا تحصى .

فامتلات المملكة الاسلامية في مدة قصيرة بالمدارس والمكاتب من بلاد المغول شرقاً الى مراكش واسبانيا غرباً ، وارتفع في الطرف الشرقي من هذه المملكة التي كانت تفوق المملكة الرومانية في مساحتها مرصد سمرقند ، وفي الطرف الغربي منها مرصد الخالدة في اسبانية (٢)

قال جيبون في كلامه على ما كان من تنشيط العرب للمعارف : ان امراء المقاطعات كانوا يناظرون الخلفاء في محبة العلم ، وبسعيهم انتشر العلم من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . وقد أنفق أحد الوزراء مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد ، أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنوياً ، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب ،

(١) هذا هو صاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولاخيه نضر الدولة بعد مؤيد الدولة . وكتب اليه الملك نوح بن منصور الساماني يعرض عليه الوزارة في مملكته فأجابته معتدراً وكان من جملة أعذاره استلزام نقل كتبه لاربعمائة جل

(٢) هو الذي يسميه الاوريون بالجيرالده في اشبيلية

يُدرسون معامن ولد السيد الرفيع الى ولد الصانع الوضيع وكانوا يُجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ، ويؤدون الرواتب الجمة للعلمين ^(١) وكنت ترى العلوم والآداب رائجة الأسواق في جميع المدن والأمصار ، وكانوا كثيراً ما يعهدون بإدارة المدارس الى النساطرة واليهود مما يدل على روح التسامح لذلك العهد فلم يكونوا ينظرون الى وطن العالم ، ولا الى دينه بل الى جهة فضله . وكان الخليفة المأمون يقول عن العلماء : انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبته من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصاييح الديجي وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

واقترنت جميع المدارس الطبية العربية بمدرسة القاهرة في تشديد الامتحان على المخرجين منها ، فلم يكونوا يأذنون بممارسة الطب الا لمن أتقن التحصيل ، وامتحان امتحانا تاما ، وأول مدرسة طبية في اوربا اقترنت بمدارس المسامين مدرسة ساليرنا . ولعلنا نخرج عن حدود هذا التأليف لو شئنا تفصيل هذه الحركة العلمية التي وُجدت عند العرب . فانهم وسعوا نطاق العلوم القديمة ووضعوا علوماً جديدة ، وأدخلوا طريقة الهند الحسابية ، وهي من الاختراعات العقلية البديعة لاشارتها الى الأعداد بأرقام عشرة ذات قيمتين ، المستقلة والنسبية ، ولتيسيرها قواعد بسيطة لجميع الحسابات . وأما الجبر أو الحساب المعمم الذي موضوعه الكميات غير المعروفة ، والبحث عن علائق الكميات من أى نوع كان حسابياً كان أو هندسياً فقد أخرجوه من ضمن الحدود التي كان حصره فيها ديوفانتوس . وبسط محمد بن موسى حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعمر بن ابراهيم حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة . والمسامون هم الذين أوصلوا علم المثلثات الى صورته الحالية ، واعتاضوا بالجيب عن الأوتار وجعلوه علماً مستقلاً . ومحمد بن موسى الذي ذكرناه هو بعينه مؤلف رسالة المثلثات الكروية . وللبغدادي رسالة في مساحة الأراضي في غاية الابداع حتى ظن كثيرون انها نسخة من بعض تأليف اقليدس . وأما في الفلك فلم ينشئ العرب ازياجاً فقط ، بل رسموا صفايح للنجوم المنظورة وسموا النجوم الكبرى التي في الكرة السماوية بالاسماء التي تعرف بها اليوم ، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة كما تقدم الكلام

(١) يشير درابر هنا الى المدرسة النظامية التي شادها الوزير نظام الملك في بغداد وشهرتها غنية عن التعريف

عليه ، وفصلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء ونشروا صفاً مرسومة عليها حركة القمر والشمس وهي صحيحة . وقرروا مدة السنة الشمسية وحققوا حركة مبادرة الاعتدال .

وقد أطنب « لابلاس » في ذكر رسالة علم النجوم تأليف البتاني وذكر رسالة أخرى جلية لأبن يونس - الذي كان فلكي الحاكم في مصر سنة ألب للمسيح تحتوي على سلسلة اختبارات من زمن المنصور في الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران السيارات واحتجاب الكواكب . وهي مراقبات فلكية جلية أضاءت الأسباب في مسائل تغييرات الكرة السماوية . وعكف الفلكيون العرب على اتقان الآلات الفلكية وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها المائة ومنها الشمسية وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص

وأما في العلوم التجريبية ، فهم الذين وضعوا علم الكيمياء وكشفوا خواص الجواهر التي يتوصل بها الى معرفة طبائع الأجسام ، والحامض الكبريتيك ، والحامض النيتريك ، والكحول ، وجعلوها في الطب . وهم أول من استعملوا الأقرباذين ، وافتتحوا الصيدليات المجانية وجعلوا فيها المستحضرات المعدنية . وأما في الميكانيك ، فعرفوا قاعدة سقوط الأجسام وقليلاً من الجاذبية . وكان لهم علم بالديناميك أي حركة الأجسام وأنشأوا في علم السوائل جداول لبيان الأثقال النوعية . وكتبوا رسائل في الاجرام الطافية والراسبة . وعدلوا في العلم البصري عن القول اليوناني القديم بذهاب النور من العين الى الجسم المنظور ، الى القول بانعكاس الأشعة وانحرافها ، وكشف الخازن انحاء الشعاع المار بالكوة الهوائية ، محققاً اننا نرى الشمس والقمر قبل وجودهما حقيقة فوق الأفق وبعد غيابهما تحته ، وظهرت نتائج هذه الحركة العلمية الكبيرة في الصناعات فاستفادت منها الزراعة في رى الأراضى وتدميلها وتربية المواشى وانتشرت للفلاحة قواعد مضبوطة فنية ، وأدخلت زراعة الارز والسكر والبن ، واتسعت أعمال المعامل فيما يتعلق بنساجة الصوف والحرير والقطن وصنع الورق والجلد في قرطبة ومراكش ، وأسيلت الجوامد واستخرجت المناجم وتسلطت الأيدي على أنواع المعادن وكان لمعمل السلاح في طليطلة شهرة طائفة .

ولما كان للعرب ولوع خاص بالغناء وقرض الشعر ، قضوا كثيراً من أوقاتهم بمباشرة هذه الملاذ العقلية ، وهم الذين عرفوا الاور بيبين بالشطرنج والهبوا فيهم حب الافاصيص . وكانت للعرب قدم راسخة في آداب أسمى من هذه كعلم الاخلاق ، والزهد ، والنسك ، وطم التواليف النفيسة في زوال العظمت الدنيوية ، واضمحلال المجد الباطل ، وعواقب الكفر وأصل الكون ، وبقائه ، واتبائه . وانا لنعجب غاية العجب مما نجده أحياناً في كتبهم من التصورات والافكار التي كنا نظنها عصرية محدثة فاذا بهم قد سبقوا اليها . وذلك كذهب النشوء والارتقاء في الكائنات العضوية ، فقد كان هذا المذهب يعلم في مدارسهم وكانوا يذهبون فيه الى أبعد مما نذهب اليوم باطلاقه على الجواهر غير العضوية (١) وكان عندهم مبدأ الكيمياء الأساسي هو التركيب التدريجي في الاجسام المعدنية قال الخازن : « ان الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الاجسام بطريق التكامل الى ذهب يفهمون انه مرة بصور الاجسام المعدنية الاخرى أي أنه كان رصاصاً ، ثم صار قصديراً ، ثم صار من نوع سكب الرمل ، ثم فضة ، الى أن انتهى ذهباً . ولا يدركون ان الفلاسفة يريدون بما يقولونه الانسان أيضاً . اذ لم يصل الى الحالة التي هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مرة بصورة العجل ، فالجار ، فالفرس ، فالقرد ، الى أن انتهى انساناً » . انتهى .

وقد جاء ذكر مدينة العرب أيضاً في كتاب درابر في الفصل السادس المتعلق بطبيعة العالم والمقايضة بين ما كان عليه الاور بيون في القرون الوسطى وما كان عليه العرب قال : « وقد مضى القسم الاكبر من هذه القرون على النصرانية بالمنازعات على الطبيعة الالهية والاختلاف على السلطة الكنسية » . وهذه كانت تجد كل حقيقة داخل الاسفار المقدسة فتثبط الناس عن كل بحث . واذا اتفق لزوم النظر في مسألة فلكية مثلاً كان يرجع فيها الى فصل للقديس اغسطينوس أو لاكتانسيوس ، ولم يكونوا يجدون حاجة الى مراقبة الاحداث الجوية . وعلى هذه الحال استمر ترجيح العلم الديني على العلم الدنيوي مدة خمس عشرة مائة سنة اذ في كل هذه المدة لم يولد في النصرانية فلكي واحد أما المسلمون فقد كان عملهم في هذا المقام أحسن جداً ، فقد بدأوا يعتنون بالعلوم

(١) راجع مقدمة ابن خلدون

منذ افتحوا الاسكندرية (٦٣٨) فلم يمض على ذلك قرنان حتى درسوا جميع علوم يونان وترجوا كتبهم ، وكان المأمون أمر بترجمة كتاب بطليموس الى العربية ومن بعدها قاس العرب قطر الارض ، ووضعوا جدولاً للنجوم المرئية ، وسموا الكبرى منها بالاسماء التي تعرف بها الى الآن . وقرروا مدة السنة الشمسية ، واخترعوا الساعة بالرقاص ، وكشفوا انكسار النور ، وفعله برؤية الاجرام السماوية ، وقاسوا ارتفاع الهواء الكروي ، وقرروا انه يبلغ ثمانية وخمسين ميلاً . وكذلك عرفوا مسألة النور الشفقي وتألق الكواكب . وهم الذين بنوا أول مرصد فلكي في أوربة . وقد صح كثير من رصدهم واعتمد عليه أبرع علماء الرياضة المحدثين . ذكر لابلاس في كتابه « نظام العالم » ان ارساد البتاني تقيم الأدلة الساطعة على اهليجية فلك الارض ، وان تحقيقات ابن يونس تثبت تغير ميل دائرة البروج على خط الاستواء وانحراف سير المشتري وزحل

كل هذا الذي نذكره ليس الاجزاء أيسيراً من الخدمة الجزيلة التي قدمها فلكيو العرب للعلم ، والعناء الذي عانوه لحل المسائل الطبيعية . هذا بينما ظلمات الجهالة مطبقة على النصرانية وأهلها لا يفكر منهم أحد بهذه الأمور ، وانما عنايتهم منصرفة كلها الى المشاجرات الدينية وعبادة الصور وتحول الخبز جسداً ، والخر دماً ، واستحقاقات القديسين والمعجزات والاعاجيب وشفاء الامراض بالذخائر المقدسة . وبقى هذا الجهل مخبياً على أوربة الى غاية القرن الخامس عشر ، ولم يقع التقدم بعد ذلك الى طلب العلم من جهة حب العلم لنفسه والولوع بكشف الحقائق . ولكنه بدأ بمنافسات تجارية وظهر الرحلات الثلاثة كريستوف كولمبوس ، وفاسكو دوغاما ، وفرديناند ماجلان ، وبأسفارهم تقرر كروية الارض .

وقد حدث كولمبوس عن نفسه بأنه انبعث الى السفر قاصداً الهند من طريق الاطلانتيك وذلك بمطالعة كتب ابن رشد . ووجد بين أصحابه رجل فلورنتي اسمه « توسكانلي » درس الفلك وجاهر بالقول بكروية الارض . ولما ظهر مشروع كولمبوس قام الاكليسوس الاسبانيولي وقعد وحكم عليه بجمع طامنكة Talamanque بالكفر وانما عرضوا مذهبه عند المحاكمة على مقالات القديسين يوحنا فم الذهب ، وأغسطينوس ، وأيرونيوموس ، وغريغور يوس ، وباسيليوس ، وامبروسيوس ، ورسائل الرسل والانجيل والنبوءات والمزامير والتوراة الخ .

هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر « اختلاف العلم والدين » وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد اذا انتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات العلامة الدكتور فاندريك الذي طالع الترجمة كلها

ومن تكلم على مدينة العرب وأجاد واشتهر كتابه في كل ناد ، الفيلسوف الافرنسي الدكتور غستاف لوبون الذي توفي منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة جزاه الله عن العرب وعن الاسلام خيراً . ولقد لخصت كتابه في رسالة وجيزة تذكيرة لنفسى ، ثم بلغنى ان الكاتب المصرى المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب الى العربية ترجمة تامة ، فلماذا فضلت طي رسالى هذه على غيرها ، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة . ولقد كان غستاف لوبون من الافرنج المنصفين الذين لم يدافعوا عن حضارة الاسلام فحسب ، بل دافعوا عن حقوق المسلمين وانتقدوا سياسة القهر والخصم التى تعسفهم بها الدول الاوربية المستعمرة . وقد كتب كتابات شافية في انتقاد قومه الفرنسيس بما يعاملون به مسامى الجزائر من الظلم ، والارهاق ، ونزع الاراضى ، والنشر يد الى الصحراء وغير ذلك . ولقد عرفت هذا الرجل بنفسى منذ أربعين سنة ، وذلك فى باريز اذ ذهبت اليه لاشكره على كتابه الذى كان أخرجه حديثاً عن حضارة العرب ، فقال لى وقتئذ انى كنت ثانى رجل مسلم جاءه وحدته فى هذا الموضوع ، وشكره على صنيعه . ولم تساعدنى الاقدار على ملاقاته أكثر من تلك المرة ولكنى كنت أتبع كتاباته وأتمتع بتصانيفه الكثيرة المفيدة وهو من الفلاسفة الاجتماعيين المعدودين فى هذا العصر

العصبية الفارسية والاسلام

مهيار الديلمي وبديع الزمان الهمداني

على ذكر المؤلف استيلاء العرب على فارس

للهمداني

يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس وابادتهم ملك كسرى ، مع ما كان سابقا من العداوة بين هاتين الامتين منذ أحقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايعار صدور العجم على العرب و تربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثأرهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى أمام الدين العربي المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس أول فرصة شقاق وقعت في الاسلام نفسه ونصروا الفتنة التي وجدوا أ كثر العرب ضدها وهي الشيعة ، ولعبوا دوراً عظيماً في توسيع هذه الفتنة بين العرب من طريق الدين فشفوا احنتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانتهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذي رأوا برهانه أسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فئتيه التي هي السنة والجماعة والتي كان منها جمهور العرب . لهذا تجد الفارسي يكره العرب ويحتقر كل شئ لهم الا الدين . وترى مهيار الديلمي يقول (قد جعلت المجد من أطرافه : نسب الفرس ودين العرب) ومع كون الدين الاسلامي يمنع العصبية للأجناس ويضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لا تزال ترى آثار العصبية الفارسية في بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للأجناس حتى قال صاحب بن عباد ، وهو فارسي الأصل خالص العقيدة الاسلامية عندما جاء أحد الفرس وتلا الأبيات التي يفتخر بها على العرب وجاوبه عليها بديع الزمان الهمداني : ما رأيت رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام في العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى أن كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شئ . وما ينسب الى الفيلسوف الفرنسي رنان : ان الفرس هم شيعة أولاً ومسلمون ثانياً . ولا شك أن في هذا القول مبالغة وانما

يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الأيام الأخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الأمم الإسلامية فئة تدين بالقومية وتحارب الجامعة الإسلامية ، ولكنها لا تزال ضعيفة بالقياس إلى السواد الأعظم الذي عمدته الإسلام ، بل قد زال من بينهم أ كثر النفرة التي كانت عندهم لاهل السنة بما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الإسلامية بأجعتها وشعور العجم بالحاجة إلى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله في المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلاً

نظرية « القومية العثمانية الإسلامية »

و « القومية التركية الطورانية »

على ذكر المؤلف الترك العثمانيين والطورانيين

الأمير شكيب

هذه نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من أدباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالأديب الأعظم ، وسليمان نظيف بك وأخيه فائق على ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نوري بك ، والشاعر محمد عاكف ، وأنور باشا المؤرخ^(١) واسماعيل حقي بك الديار بكري ، واسماعيل حقي بك الازميري، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم على كمال الذي قتله الكمايون في أزمد لخياتته وجم غفير من كتابهم ومفكرهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهي أن الأتراك العثمانيين وإن كانوا من الترك أصلاً ومحتدأ فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التي ساكنوها من قرون في غربي آسية وجنوبي أوربا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وأرمن وبلغار وأرناووط وبنشاق الخ ، أمة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج، والذين قد اشتهروا بقبح المنظر وغلاظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على أنه دأبهم، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ودماثة الطبع وحب المدنية والجمع بين شدة البأس ورقة الشمائل ، ويزيدون

(١) هو غير أنور باشا ناظر الحرية وهذا أيضاً ممن يقول بهذه النظرية

على ذلك أن الثقافة التركية العثمانية والأدب التركي العثماني (١) هما خاصان بترك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتي العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربي آسية ، فلذلك قيل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك أواسط آسية ، ولكونها لا تشبه في شيء لغة المغول فهذه الفئة وان كانت لا تبرا من الترك المسلمين سكان التركستان الروسي والتركستان الصيني وشمالى فارس ، فهى تبرا من المغول وتلعن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبلاد العربية ، فأهلكوا الملايين ودمروا العواصم الكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى أن الترك هم أصلا من الجنس الابيض الآرى ، وانما اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الأصفر المغولى ، وقد وصف بعض مؤرخى الترك أعمال جنكيز وهولا كو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل ألف لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوى كتابا خاصاً بفظائع جنكيز وهولا كو وخطائهما ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الارض العائين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، وأعظم بلاء وقع على الانسان ، واذا أراد الاتراك المسلمون أن يراجعوا صحيفة احسابهم فيراجعو تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكى الاتابكي والدولة العثمانية . وقال جلال نورى صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانياً

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تخالف الفئة الاولى فى كل هذه النظريات وأشهر دعائها ضيا كوك الب ، وأجد أغايف ، ويوسف آقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحى كمال ، وجد الله صبحى رئيس وجاتى « ترك يوردى » ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الادباء والمفكرين وأكثرت الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرفها مجداً وأسبقها الى الحضارة ، وانهم هم والجنس المغولى واحد فى الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ،

(١) وهم يسمون ذلك بالمرت

ولم يقتصروا فيها على الترك الذين في سيبيريا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والروملى ، بل مبدأوهم مد هذه الرابطة الى المغول في الصين والى المجر والفنلانديين في أوربا وكل من يقال انه ينمى الى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً . وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا : نحن أترك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الاناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية لطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقي ورفيقي في مجلس الامة محمد أمين بك الشاعر الملى ، وهو من أحسنهم أخلاقاً ومن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطورانى أن يشأا العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل ممن سبقت لهم خطب في المجلس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شئ فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغي لسلك أمة أن تتمسك بجامعتها القومية وتحييها في صدور أبنائها وان ذلك لا ينافى الاسلام لأن الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوى الاسلام ولا توهنه ولكن الذى لم أفهمه الى اليوم هو افتخارهم دائماً بجنكيز مع عيته وتدميره وما جرى من قومه من نسف العمران واكتساح البساط . فقال لى : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت في غاية الانتظام » تشكيلات عسكرية سى مكمل ايدى » وما يعزى الى المغول من العيث والدعارة فلا يزيد على ما جرى في الحرب العامة من التخريب الذى اقتضته الدواعى الحربية أفلا ترى ما فعل الألمان في شمالي فرنسا مع أنهم أرقى أمة متمدة » هذه هى نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد فى الأرض ، وليس هنا محل تبين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الألمان فى شمالي فرنسا

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين فى الترك الى مواضع أخر من أهمها مسألة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الألفاظ العربية والفارسية ، والاعتياض منها بألفاظ تركية مهملة بعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين مع ان استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض

أن هناك معاني لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الأخذ من العربي والفارسي على شرط تترك هذا المستعار من تينك اللغتين ، وقد دارت على هذه المسئلة الجلي مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطوراني كما أن حزب العربي والفارسي هو الحزب الإسلامي ، واستعملوا في الاستانة لفظي « تركجي » و « اسلامجي » للدلالة على هذين الحزبين

وبرهان الحزب الإسلامي في مناهضة التصفية هو أولاً ان اللسان التركي وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وأفعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير في الامور العقلية ، قليل الألفاظ المؤدية للمعاني المجردة ، ان أمكنه أن يفي بحاجة أمة في حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج أمة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هي هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ، لاجل الكمال ما نقصه من تلك الجهة . ثانياً ان الادب التركي الذي نشأ ونما وحررت فيه الكتب الممتعة ، وقصدت القصائد البليغة وصار أدباً معدوداً ، وجال في ميدانه خول من الكتاب ونوابغ من الشعراء هم مفاخر أمة الترك انما هو هذا الأدب المقتبس من الفارسي والعربي والذي صار أدباً قائماً بذاته ، أفيحسن أن يغير أسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنه الى أدب تركي بحث يرجع الى لغة ليس فيها شيء من الاستعداد لتكوين أدب بالغ درجة الرقي كالأدب العثماني الحاضر ، وعلى فرض الحال أنه تبسر ذلك أفلا يلزم حقب متظاوله لتأسيس أدب جديد ؟ أما كون استعمال العربي والفارسي هو مما يضعف القومية التركية والحال أن مقصد الترك الجدد هو ايقاد شعلتها في النفوس فالحزب الإسلامي هذا لا يجد الأدب العثماني هذا حائلاً دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسية ، عدا كونه أزين لها وأزيد في محاسنها ، أنفع للترك من الجهة السياسية لانه يؤكد الروابط التي تربط العرب والفرس وسائر المسامين بالامة التركية مما يزيدا قوة ومنعة اذ كان هذا الحزب لا يزال دستوراه في السياسة هو الاتحاد الإسلامي ، ويرى الإسلام فوق كل شيء ، وقد كان أنور باشا ناظر الحربية يقول اذا كان أترك التركستان مرتبطين بنا فليس ذلك لكوننا أتركا مثلهم بل لكوننا مسلمين بحسب

اسلام الفرس ومبدأ التشيع

لللا مير شكيب

- العرب والعجم
- القومية الفارسية
- قول المسيو دوموبين صاحب كتاب « تاريخ العالم » .
- الشرع الاسلامى والقوانين الرومانية (استطراد) .
- نظرية الحقوق فى الاسلام لصاوا باشا الرومى .
- العلاقات بين العرب الفاتحين والأُمم المغلوبة
- أقوال الكونت دوغو ينو صاحب كتاب « الأديان والفلسفات فى أسية الوسطى »
- الفرق الشيعية فى فارس الاخبارية والمجتهديه والشيخية .
- مبدأ الشيعة .
- أبو ذر الغفارى ومعاوية فى الشام .
- التشيع عند العرب والعجم .
- النزعة الحالية عند الشيعة وأهل السنة الى الوحدة الاسلامية العامة .
- المؤتمر الاسلامى العام فى بيت المقدس .
- مع حاشية « المناولة أو الشيعة فى جيل عامل »

ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالاسلام ، وشدة استمساكهم بالتشيع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم في الأحياء آثار البغضاء للعرب ، وهم يعامون أن آل البيت الذين يقصدونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب . ولقد حدثني من أتق به أنه وُجد من الإيرانيين علماء مجتهدون في مذهب الشيعة ، قضوا حياتهم في خدمته والدعوة إليه إلى أن حانت وفاتهم ، فيبيناهم يلفظون أرواحهم تكلموا بما ينبغي عن شدة بغضائهم للعرب وكان هذا كلامهم الأخير في الدنيا وهذا هو القياس البعيد في الشنآن بين الأقوام . وقد كنت أحدث إحدى المرار رجلاً من فضلائهم ، ومن ذوى المناصب العالية في الدولة الفارسية ، فوصلنا في البحث إلى قضية العرب والعجم ، وكان محدثي على جانب عظيم من الغلو في التشيع إلى حد أني رأيت له كتاباً مطبوعاً مصدراً بجملة « هو العليّ الغالب » فقلت في نفسي لا شك أن هذا الرجل لشدة غلوه في آل البيت ، ولعلمه أنهم من العرب ، لا يمكنه أن يكره العرب الذين آل البيت منهم ، لأنه يستحيل الجمع بين البغض والحب في مكان واحد . ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه . ولقد أخطأ ظني في هذه أيضاً ، فانتى عند ما سقت الحديث إلى مسألة العربية والعجمية وجدته انقلب عجبياً صرفاً ، ونسى ذلك الغلو كله في عليّ عليه السلام وآله ، بل قال لي هكذا وكان يحدثني بالتركية : « إيران بر حكومت اسلاميه دكلديريالكز دين اسلامي اتخاذايتمش بر حكومتدر » أي إيران ليست بحكومة اسلامية وإنما هي حكومة اتخذت لنفسها دين الاسلام » وكنت أتحدث مرة أخرى إلى الأمير « فرمان فرما » عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين ، ووالد الأمير فيروز ناظر الخارجية الإيرانية لعهد الشاه الأخير من آل قاجار ، وقد كانت بيني وبين الأمير فرمان فرما المشار إليه مودة أكيدة واجتماعت كثيرة ، وكنت أرى فيه أيضاً شيعياً غالباً ، وأحسب أنه لتشييعه الشديد لا يمكنه أن يكون شائناً للعرب ، وقد غلطت في هذه أيضاً ، فقد رأيت يجمع بين الأمرين يحب آل البيت أشد الحب ، ولا يحب العرب الذين آل البيت منهم . وقد صرح لي قائلاً : ان العرب عند ما استولوا على فارس أفسدوا أخلاق العجم ، وبذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التي استولوا عليها وأدخلوها في دينهم ، فلم أستطع على كلامه صبراً ومع أني كنت أيلم معرفتي بهذا الأمير شاباً وكان

هو كهلاً ، وكان عندنا ضيفاً في جبل لبنان ، لم أملك نفسى من الحدة وقلت له : لا شك أن أخلاقكم كانت فاسدة من قبل ، ولو لا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأتم أمة منظّمة ، وهم أمة آتية من الصحراء من تحت الخيام ، وقد اتفق المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أن العرب لم يفتحوا تلك الفتوحات السريعة ، ولم يستولوا على ممالك الفرس والرومان والهند والترك والبربر وغيرهم إلا بما كانوا عليه في صدر الاسلام من الأخلاق العالية .

فانقطع بعد ذلك عن الحديث . وقضيت مما سمعته من هذين الرجلين من كبار العجم أشد العجب ، لأنى كنت أراها في غاية التمسك بالاسلام ، وهما يعلمان أن الاسلام عربى المنبت ، وكنت أراها في غاية العصبية لعتره على ، وهما يعلمان أنها من بنى هاشم من صميم العرب ، وأراها مع ذلك اذا جرى الكلام في القوميات انقلبا فارسيين متشددين ، لا يريدان أن يعلمنا عن العرب شيئاً ، فكأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان احداها اسلامية والاخرى فارسية ، وأغرب من هذا أن هذين الرجلين ليسا من الجنس الفارسى الآرى بل من الجنس الفارسى التركى ، لأن فارس كما لا يخفى ترجع الى سلالتين منها السلالة الايرانية الآرية ، ولغتها الفارسية ، ومنها السلالة التركية المغولية ولغتها التركية . ولكن السلالتين اندجتا أمة واحدة تحت ظل الدولة الفارسية وصارت الفارسية هي اللغة الرسمية للجميع كما أن التشيع غالب على الفريقيين . ولا أقدر أن أقول ان هذه الحالة الروحية في العجم هي عامة لهم ، وان جميع مجتهديهم وعلمائهم يضمرون العداوة للعرب برغم معرفتهم أن آل البيت هم من قريش ، وبرغم ذهاب الألواف منهم في كل سنة حججاً الى البيت الحرام في مكة ولكنى لا أشك في أمر واحد وهو أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الاسلامية التي جاءت من العرب ، وان هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون الى آل البيت ، منها ما تقدم ذكره من أن استيلاء العرب على فارس أوجد في العجم مناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ، فلذلك رأيتهم اتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة في حرب بنى أمية الذين كان مركزهم الشام . وما زالوا حتى حولوا الخلافة الى العراق وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية

ومن الوسائل التي يمت بها العجم الى الاسلام نسب سلمان الفارسى الذي كان من

أ كابر الصحابه ، وهو منهم وقد جعله النبي ﷺ من آله فقال : سامان منا آل البيت . وقد لحظت أنه لما قتل اللعين أبو لؤلؤة الفارسي سيدنا عمر رضى الله عنه وقام عبيد الله بن عمر بعد وفاة أبيه فقتل المارزبان ، وهو الأمير العجمي الذي كان أسيراً بالمدينة وأسلم ، وكان قتل عبيد الله اياه بتهمة أنه كان ذا يد خفية في دفع أبي لؤلؤة الى قتل عمر ، كان من على رضى الله عنه أن احتج أشد الاحتجاج على قتل عبيد الله بن عمر للمارزبان ، بدون ثبوت تلك التهمة التي وجهها عبيد الله اليه . فكانت هذه القضية من أسباب انحياز عبيد الله الى معاوية . وهي على كل حال مما يتخذ العجم دليلاً على سابق محبة على لهم

وكان على بن الحسين بن سيدنا على وهو الملقب بزین العابدين يمتُّ الى الفرس بنسب ، لأن أمه هي بنت يزدجرد آخر ملوك فارس . ويقال نقلاً عن أبي القاسم الزمخشري في كتاب « ربيع الأبرار » أنه لما جئ الى المدينة بسبي فارس في خلافة عمر ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد . فقال له على : ان بنات الملوك لا يُعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن قال : يُقوَّمُن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقوَّمُن ، فأخذهن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر وأزواج الثالثة ولده الحسين فكان له منها ولده زين العابدين .

هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى ، اقتداء بالأُمم الأوربية في الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتدُّ أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الاسلام — وهو الذي أخبرني بذلك — ان العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشع منها الأبدان ولكنهم اقلعوها بالاسلام وافتخروا بان الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالباري تعالى ، وتذكروا عبادة الذئب الأبيض . . . فياللاسف

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم

القديمة التي منها الكيومر تبة أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، ومن هنا جاءتهم عبادة النار . ومنها فرقة زرادشت الذى كان يدعو الى وحدانية الله ، ويقول انه خالق النور والظلمة ، وان الخير والشر انما حصلا بامتزاجهما ، وانهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، الى غير ذلك من العقائد والأوايد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس كالثنوية ، والزردشتية ، والمناوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو الى الاخاد والاباحة .

والذى يظهر ان الميل الى هذه العقائد ليس بجديد في فارس ، بل انه كانت لم تزل له عقايبيل منذ زمان ابن العباس . وقد دلنا التاريخ على ذلك من قيام بابك الخرمي — نسبة الى خرمة كسكرة بلدة بقرب اصطخر — الذى ثار في أيام المعتصم العباسي وكان يرى رأى المزدكية من المجوس الذين كانوا خرجوا قبل الاسلام وأباحوا المحرمات ، وقتلهم أنو شروان ، ثم ثاروا بعد الاسلام بالمبادئ نفسها وعليهم بابك هذا ، فقتل جند اخلافة واستولى على الحصون ، فسرح اليه المعتصم جيشاً تحت قيادة أبى سعيد محمد بن يوسف ، فاستخلص منه بعض ما كان أخذه . ثم سير اليه الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة وكان أبوه أسلم في زمان المأمون فهزم بابك في وقعة أرشق ، وفر بابك الى موقان ، ولكن جبرته لم تخمد . وفي سنة ٢٢١ ظهر « على بغا » الكبير في وقعة هسنادس ولحق الافشين بغا بالامدادات . وفي السنة التالية وجه المعتصم الى الافشين جعفر بن دينار مدداً ، وأتبعه بايتاخ ، ووجه معه ثلاثين الف الف درهم ، وألح الافشين على بابك بالحصار ، واستنزه من معقله بعد حرب تشيب لها نواصي الاطفال ، واحتوى على معسكره ، وأحرق قصوره بالنفط ، وسبى أولاده وعياله ولكن بابك أفلت من يده بدخوله في غياض قريبة ملتفة الدوح ، لا تسالك فيها الخيل ، ونفذ من هناك الى جبال أرمينية ، فوقع في يد سهل ابن سنباط من رؤساء تلك الناحية فأسامه الى الافشين وقدم هذا به وبأخيه على المعتصم فأمر بقتلها ، وكافأ الافشين بتاج من الذهب ، ووشحه بوشاحين من الجوهر ، ووصله بعشرين مليون درهم وعقد له على السند . وكافأ ابن سنباط بالف درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ، وبتاج البطرقة .

ولابى تمام الطائى في هذه الوقائع القصائد الطنانة التي هي من أجزل شعره بل من

أجزل الشعر بأسره .

وقيل ان المعتصم أخرج في حرب بابك الخرمي من الدراهم خمسمائة وقر؛ وقيل أخرج مالا يدخل تحت الحصر . وكل هذا يدل على ما كان لتلك النزعة المجوسية من الخطر فضلاً عن ان بابك راسل ملك يزنطية وأغراه بغزو بلاد الاسلام ؛ وسار ملك الروم تيوفيل ابن ميخائيل وأوقع بالمسلمين وأوجف في ديارهم ؛ والمعتصم مشغول بحرب بابك ، فاضطر المعتصم أن يغزو الروم تلك الغزاة الشهيرة التي فتح بها عمورية . ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرمي ظهر له ان الافشين نفسه كان يكيده سراً للاسلام ؛ ويجهتد في هدم الدولة ونقلت له عنه أشياء فيما يتعلق بعقيدة المجوس . جاء في كتاب « العيون والحدائق في أخبار الحقائق » : انه لما نهي الى الخليفة المعتصم خبر دسائس الافشين وما كان يرسل به أهل أشروسنة ؛ أمر بالقبض عليه وعلى ولده الحسن ؛ ثم أخرجه من حبسه وأحضر جماعة من الاشراف والوجوه اينظروه على أشياء ؛ وأتى بما يزار ؛ فقيل للافشين : هل كاتب ما يزار؟ قال لا ، فخاوبه ما يزار فقال . كتبت الينا تقول : ان هذا الدين يعني دين الاسلام ان اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ؛ ونعود الى دين آباؤنا العجم ، فانكر ذلك ؛ فاحضر محمد بن عبد الملك الزيات رجلين وكان هو الوزير والمناظر فقال للافشين : لم ضربت هذين ظهرأ و بطنا وهذا امام وهذا مؤذن كان في أشروسنة . قال : نعم ضربتهما لانهما اتخذا بيتاً للاصنام فجعله مسجداً وكان بيني وبين الصغد عهد نخشيت من نقض العهد . قال : فما كتب عندك قد زيّنته بالحرير والجوهر فيه كفر بالله تعالى ؟ قال : هو كتاب ورثته عن أبي فيه آداب الملوك ؛ وهو دين القوم الذي هو اليوم كفر ؛ فكنت أسمع الأدب وأترك سوى ذلك ؛ ووجدته محلي ؛ ولم تكن لي حاجة الى أخذ الحلية التي عليه ؛ فتركته بحاله ككتاب كهيئة ودمنة ، وكتاب مزدك . وشهد عليه الموبذ وقال انه كان يأكل الخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويقول انها أرطب لهما من المذبوحة ، وقال : اني قد دخلت لهؤلاء القوم (يعني المسلمين) في كل ما أكرهه ، وقد أكلت الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير اني الى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة يعني أنه لم يفتن

ثم وافقه المرزبان بان أهل أشروسنة يكتبون اليه بلسانهم كتابا معناه : الى الله الالهة من عبده فلان بن فلان . قال : بل كذا كانوا يكتبون الى أبي وجدي . قال محمد بن

عبد الملك الزيات : بما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » . ونواظر على أشياء مثال هذه تدل على فساد دينه وفساد دياناته في الاسلام يطول شرحها .
ثم أمر المعتصم بإعادته الى محبسه وبقى فيه نحواً من سنة الى أن مات وصلبوه بعد موته على باب العامة ، ثم أحرق هو والخشبة التي صلب عليها ، وحمل الرماد فطرح في دجلة ووجد في داره تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة من جوهر ، وكتب فيها دياناته

وقال الذهبي في كتاب « دول الاسلام » : سنة ٢٢٢ التقى الافشين وبابك . فانهزم بابك ولم يزل الافشين يعمل عليه حتى أسره ، وكان بابك بطلاً شجاعاً جباراً عنيداً ملعوناً أراد أن يقيم دين المجوس ، واستولى على توزر ، والمدائن ، وقد أنفق المعتصم بيوت الأموال في حرب هذا . فأنفق في ذلك العام الف الف دينار . وفتح الله مدينة بابك بعد حصار شديد فاختم بابك وأسرجيع حاشيته وأولاده وبعث اليه المعتصم بالأمان فزقه وشم ثم صعد في الجبل وانفلت الى جبال ارمينية ، فنزل عند بطريق فاغلق عليه البطريق واسامه للحتف وجاء جماعة فسلموه . وكان المعتصم جعل لمن أسره حياً مائة الف دينار ، ولمن جاء برأسه نصف ذلك ، فكان يوم دخوله بغداد وهو على جل يوماً مشهوداً . ثم قال الذهبي : سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين وسجنه ثم صلبه الى جانب بابك اتهم بعبادة صنم وكان اقلت وخافه أيضاً المعتصم اه . وقد حصلت في فارس ثورات متعددة غير ثورة بابك الخرمي اعربت فيها الفارسية المزدكية عن ذات نفسها

والحاصل ان العجم بعد أن دانوا بالاسلام بمدة طويلة ، بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصلى ، وينزع بها عرق المجوسية . وفي هذا شيء من العداوة التي بين العرب والعجم ومن استكبار العجم الخضوع لدين أصله من العرب . ومثل هذا أيضاً الحنين الذي عند بعض شبان الترك الى ديانتهم القديمة والى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب . وقد بلغنا أن بعض ناشئة المسلمين من أمة الجاوى يبحثون كثيراً عن مذهب بودا الذي كان مذهب الجاوى قبل أن أساموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره . كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الاسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداك .

وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة الى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة

الفرعونية ، وميل الى التفصي من النسبة العربية والحضارة العربية . وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشيء من الكبر عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهم . والحال أن الاسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي وأن مبدأه الاساسي (انْ أكرمكم عند الله اتقاكم) وأن النبي محمداً لم يبعث الى العرب وحدهم بل الى البشر كافة ، فان كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهي في الاسلام .

وبعد فانا نرى الأوربيين وهم اليوم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الارضية وهم يعامون أنهم جميعاً من الجنس الآري ، يتبعون ديانة رجل يهودي من الجنس السامي المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤطوه . ومنهم من يعبد أمة ولا يجدون في ذلك غشاضة ، ولا تأخذهم العزة في قوميتهم الآرية ، ولا يقولون : مالنا وعبادات الساميين ! هل سمعنا ان أحداً من الافرنج استكبر ان يتبع سيدنا عيسى عليه السلام كلا . أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأتي كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربي وهم غير مكلفين أن يؤطوه ولا أن يقدسوه تقديس الافرنج للمسيح . ان هذا والله لعجب عجاب . وأعجب منه ان هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم تجعل افرنج قوتها في كل شيء . فياليتها اقتدت بالافرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات .

ونعد الى قضية العجم وعلاقتهم بالعرب فنقول اننا رأينا فضلاً في هذا الباب للسيو « غودفروا دومومبين » صاحب « تاريخ العالم » الذي سبق لنا ذكره ، وهو فصل فيه تعليقات كثيرة على نسق الافرنج المولعين بهذا الاسلوب في التاريخ ، ولو خبطوا فيه ، الا ان تعليقات « دومومبين » يشبه بعضها أن يكون صحيحاً وفي بعضها نظر . فهو يقول ماملخصه : ان الأمة الاسلامية في أيام الخلفاء الراشدين بعد أن دان الاعاجم بالاسلام ، لم تكن أخذت شكلاً عاماً ، ولا رست قواعدها على وحدة تامة ، وانما كانت شعوباً متساكنة ، ودخل بنو أمية وهذه هي الحال . وربما أرادوا أن يجعلوا هذه الأمة نظاماً كافلاً وحدتها . الا أن دولتهم لم تطل كثيراً . وكان العرب مبعثرين في البلدان التي فتحوها

وكانت منهم فئة هنا وفئة هناك ، ولا يمكن حصر عدد العرب الذين خرجوا للمفتوحات . وإنما يقال نحو ٢٠٠ ألف رجل ، وقد اختلطوا بالاهالي الاصليين بالزواج ، وفاضت عليهم الخيرات من الغنائم وغيرها ، فانغمسوا في الترف . وكان العمل كله من زراعة وصناعة في أيدي الشعوب المغلوبة ، وكان العرب يرون أنفسهم أكرم الشعوب ، وانهم الأمة المختارة لأجل هداية البشر ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مسلمين . ولهذا ثقل عليهم بقاء قسم من بني ثعلب ، وغسان ، وكندة ، على النصرانية ، وأرادوا حملهم على الاسلام ، ولكن الخلفاء لم يشاءوا حملهم عليه بالعنف ، وضربوا عليهم نوعاً من الجزية : لكنهم ميزوهم في ذلك عن الاعاجم ^(١) انتظاراً لاسلامهم

أما الاعاجم أي البرابرة — ومعنى اللفظتين واحد فالاعاجم بالنسبة الى العرب هم البرابرة بالنسبة الى الرومانيين — فان العرب لم يكونوا ينظرون اليهم كقوم مساويين لهم . ولم يكن عليهم الا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأمّا اشراكهم في شرف الملة الاسلامية ومنافع الاسلام في الدنيا والاخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لانهم قوم منحطون عن درجة العرب . وحسب الاعاجم حريتهم الدينية لانهم أهل كتاب . فأمّا المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة إنما هي بين المسلمين فقط . اهـ

نقول ان كلام « دومومبين » هنا لا يتخلو من الخلط لا سيما عند ظنه ان العرب لم يكونوا مهتمين بادخال العجم في الاسلام ، وانما كان همهم الوحيد اسلام العرب . نعم انه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة (لا اكره في الدين قد تبين الرشد من الغي) لم يعترضوا أحداً من الكتائبين في دينه . وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الاسلامية لأنه لا يوجد أئمه ولا أشرف من الحكومة التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها الى دينها . وأمّا ان الخلفاء ورجال الأمة العربية ، لم يكونوا يرتاحون الى دخول الاعاجم في الاسلام ، حتى لا يشركوهم في منافع الاسلام الدنيوية والاخروية . فلعمري هذا هو الخلط بعينه . فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لا سيما الاتقياء منهم تدور على محور نشر الاسلام . ولما شكوا أحد العمال بمصر من نقص

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري تجد من هذا البحث ما فيه بلاغ

الجباية بسبب اقبال أهل الذمة على الدخول في الاسلام أجاهه الخليفة عمر بن عبد العزيز :
ويحك ان محمداً جاء هادياً ولم يجي جايياً . وجاء في فتوح البلدان للبلاذري انه : لما
استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم
بعضهم . قال : ورفع عمر الخراج على من أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم . ثم بلغه عن عامله
على خراسان ؛ الجراح الحكمي ؛ عصبية ؛ وكتب الى عمرانه لا يصلح خراسان الا السيف
فانكر ذلك وعزله . وجاء أيضاً في فتوح البلدان للبلاذري ان أمير المؤمنين المأمون اغزا
السغد وأشروسنة وفرغانة وكان قد ألح عليهم بالغارات أيام مقامه بخراسان ؛ وبعد ذلك
وكان مع تسريته الخيول اليهم يكانبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما . ثم قال
ان المأمون كان يكتب الى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من
أهل ماوراء النهر ؛ ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان ؛ وأراد الفريضة من أهل
تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرّفهم واسنى صلاتهم
وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من
جند أهل ماوراء النهر من السغد والفرغانة والاشروسنة ؛ وغيرهم ؛ وحضر ملوكهم بابه ؛
وغلب الاسلام على من هناك .

قال وحدثني العمري عن هيثم بن عدي عن ابن عياش ان قتيبة اسكن العرب ماوراء
النهر حتى اسكنهم أرض فرغانة والشاش . اهـ

قلت : قتيبة بن مسلم الباهلي ولاء الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان ؛ ففتح فيما
وراء النهر الفتوحات الكبار ؛ فهو العربي الكبير الذي فتح بلاد الترك . وكان ذلك مبدأ
دخول هذه الأمة في الاسلام . وأما اسكانه العرب فيما وراء النهر فقد كانت هناك جماعات
كثيرة من العرب لدن الفتح طال بها العهد فيما بعد واتقطع ما بينها وبين الأمة العربية
فنسيت لغتها واستتركت . وقد حدثني بعض اهالي كاشغر من التركستان الصيني انه من
المعروف عندهم كون كثير من اهالي تلك البلاد يرجعون في نسبهم الى اولئك العرب الذين
فتحوا بلاد الترك . وسمعت مثل هذا من بعض أمراء الطاغستان التي كان العرب يسمونها
باب الأبواب . وقالوا لي ان أكثر العائلات الشريفة والعائلات التي كانت حاكمة في الطاغستان
هي من سلائل العرب الفاتحين .

ثم نعود الى كلام المسيو « دومومبين » في موضوع ثورة العجم على العرب بعد استقرار الاسلام والقائه بجرانه على بلاد الأعاجم ، فهو يقول ما محصله : ان العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدينهم ، ولذلك نجد الاسلام نفسه مبرز المسلم في القصاص على الذمي ، كما كان الشأن في رومة بالنسبة الى البرابرة . وأما في القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء . وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الاسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الروماني في التشريع الاسلامي دخل شيئاً فشيئاً .

وهذه مسألة مما وهم فيه « دومومبين » كغيره من مؤلفي الأفرنج الذين لم يقدرُوا أن يتتبعوا سير التشريع الاسلامي وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ، فظنوا خطأ ان ماخذ التشريع الاسلامي من القانون الروماني ولقد ألفت في هذه المسئلة صاوا باشا الرومي من علماء الحقوق في أيام الدولة العثمانية كتاباً ممتعاً بالافرنسية اسمه « نظرية الحقوق في الاسلام » Théorie Du Droit Musulman

قال في أوله انه هو أيضاً كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، ويبنى ذلك على ما يعرف من كون بني أمية لبشوا في المنام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين . فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الاسلامية من القانون الروماني الذي كان به العمل في سورية ، الا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الاسلام ، فاستجداد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك — وساهم — وقرأ الفقه الحنفي جيداً — وذكر الكتب التي طالعها أو راجعها — وتجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الرأي الذي معناه ان التشريع الاسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأي ضعيف أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقة .

قال صاوا باشا في صفحة ١٦ من كتابه :

« ان الصناعة والتجارة ، لم تكونا مهملتين في الحجاز . وكان الأشراف يعتنون بهما ، وطالما كانوا يعملون الرحلة الى الشام ، ويجلبون منها ما يلزم لبلادهم ، اذ كانت

المدينة السورية وقتئذٍ أكمل من مدينة الجزيرة العربية ، وكان أشرف قريش الذين من عادتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الأوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، ان الأحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي انما هي مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جاريًا قبل الهجرة . فالخطأ في هذه المسألة له وجه لا يخفى . فالذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ هذه الشريعة هو معذور اذا ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب فان الأسباب التي تحمل عليه كثيرة أشرت الى بعضها وسأشير الى البعض الآخر »
ثم قال :

« ان الخصومات التي كانت تتولد في الاسلام في السنين الأولى من تبسطه في الشام والعراق ، كانت تنفصل بحسب القانون الروماني تفادياً من وقوف سير العدل ومن الخلل في الأحكام . فالفتاح المسلم رأى أن يوسع القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجدته في البلدان التي فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء أوربة الى كون الخلافة الاسلامية أدخلت في فقها أحكاماً كانت احتاجت الى استمدادها من قانون رومة ، لفصل القضايا بين رعاياها . ومما لامرته فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لاسيما مما يتعلق بالايجار والرهن لم يكن معروفاً في الحجاز . فامراء الاسلام كانوا معنورين في الأخذ من القانون الروماني الذي كان مكتملاً في سورية . وكان يدرس في أشهر مدرسة للحقوق في ذلك العصر الاوهي مدرسة بيروت التي أسسها الامبراطور يوستينيانوس وكان يدرس فيها « دوروتى » مساعد « تريبونين » الفقيه المشهور .

هذه هي المقدمات التي بنى عليها العلماء الاوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل انما هو مجموعة أحكام تضاهاى ما كان جاريًا به العمل في سورية قبل الفتح الاسلامي . فأنت ترى الأسباب التي حلت على هذا الظن وهي معقولة . الا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في اوربة . ويكفى أن ينظر الانسان الى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الاسلامي واصالة منبعه وان هذا ليس من ذلك .

ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر . ففقه يوستينيانوس هو عمل

مبنى على العقل السليم البشرى ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الامام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن ترى في الفقه الاسلامى حكماً واحداً غير مدغم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاريب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبى حنيفة »

ثم دخل صاوا باشا فى الموضوع ، وأورد خلاصة اجتهاد الامام أبى حنيفة وأصحابه أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وزفر ، ثم من بعدهم من الأئمة ، وخص تاريخ التشريع الاسلامى وبين ماأخذه كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الاسلامى المعبر عنها بعلم الاصول وقال انه لايقدر انسان أن يعلم مأخذ الشرع الاسلامى ان لم يقرأ أصول الفقه ، وقال انى أدعو من يهيمه هذا الموضوع ان لايحكم فيه قبل أن يطلع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الاسلامى مطالعة كافية ثم قال : انى أنا مسيحي معتقد بدينى ولكن المسيحي الحقيقى هو الذى يعامل جميع الناس بالحق . ولهذا أنا أخص الشريعة الاسلامية خص رجل مسيحي وأقدرها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام

وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية فى هذا الموضوع . والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين انه يبنى حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وان أولئك يبنون على ظنون وتخربات . وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قوهم ؟ لابد أن يكون كذا . وهناك أسباب تدعو الى الظن بأنه كذا وكذا . ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لاتصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها تمحيص وانما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »



ونعود الى كلام « دومومبين » الذى قاطعناه مرتين للرد عليه نظراً لشهرة مكاتبه فى التاريخ ، فهو يقول : ان العلاقات بين العرب الفاتحين وبين الأمم التى غلبوا عليها لم تكن مبينة على قاعدة المساواة ، وانه من زمان بنى أمية كان أهل الذمة مضطرين أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام ، ويقدموا لهم المؤن وخليهم العلائف ، وانه بعد ذلك فى أيام المتوكل

العباسي حصل ضغط على النصارى واليهود ، وانه بالاجمال كان موقف أهل الذمة موقف ذلّة ولم يكونوا ليتحملوه الى الآخر فلم يكن لهم مناص من أحد أمرين اما الخروج على الحكومة الاسلامية أو الدخول في الاسلام . وكان الخروج على الاسلام أصعب عليهم لأنهم كانوا متفرقين ، وكانت تعوزهم الأسلحة والأعتدة ، وتعوزهم القوة المعنوية ، أيضاً فاختر أكثرهم الشق الثاني ، وهو الدخول في الاسلام . وبعد أن دخلوا في الاسلام وصار لهم إلتحق في المساواة شرعوا يخاصمون خلافة أهل السنة والجماعة فكانت كل حركة دينية فيها مناهضة للسنة وللخلافة مرجعاً لهم يسارعون اليها ، وكانوا هكذا يأخذون بثأرهم في داخل الاسلام أكثر مما يأخذون بثأرهم في الخارج عنه .

ثم يقول « دوموبين » يظن الناس أن ظفر الاسلام كان ظفراً محتماً وفتيحة منطقية للتوحيد السامي على النصرانية اليونانية التي تناسب طبائع الاوربيين أكثر من الساميين . ولكن لا يجب أخذ هذا القول على إطلاقه . فقد كانت آسية الصغرى من قبل التاريخ المسيحي ميداناً لصراع مديّنات مختلفة ، وآلهة متعددة . ثم ان أفكار هذه الأمم المتعددة التفت في أحد الأيام حول رجل يهودي كان مليئاً من تقاليد قومه صلب العقيدة بدينهم ، الا انه كان ساخطاً على المظالم الاجتماعية التي كانت في أيامه كما انه كان ساخطاً على رجال الدين لما كانوا عليه من الرياء . وكان قلب هذا الرجل مفتوحاً لآلام الشعب ناسياً نفسه كلها لا يرى لنفسه عليه حقا ، فكانت نفسه من الجهة الأدبية نفساً الالهية . فدانت آسية الصغرى بالمسيحية وعبدت له هذا الرجل الذي كادت تترج فيه الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية . ولم يكن الشعب مهتماً أن يخوض في قضية كنه هذا الامتزاج الأُن السكينة حاولوا أن يفهموا هذا المسيح بحسب أفكارهم وأن يؤسسوا له كنيسة . ومن هناك أخذوا بالخوض في هذه القضية المعقدة مستخدمين لها الفلسفة اليونانية من جهة والفقه اليهودي من جهة أخرى . فدخلوا فيما لانهاية له من تحليل هذه المسألة والتعريف بما كان الالهياً وبما كان انسانياً في طبيعة عيسى وتحديد الفاصل بينهما من الزمان والمكان . وجاءوا في هذه المجادلات الدينية بغلظة وعنف وصلف وتعصب لا يحيط بها الوصف ، ودخل معهم في ذلك الملوك واستخدموا هذه المشاحنات لأغراضهم الدنيوية فانقسم القائلون بالنصرانية الى مثل ونحل مختلفة متعادية . فكان الآراميون في العراق وما بين النهرين نساطرة ، وكان نصارى

سورية يعاقبة ، وكان قبط مصر ملكيين ويعاقبة ، وكانت الشعوب بدون شك تشترك في هذه المباحثات بدون أن تفهم منها شيئاً ، وربما كان كثير من الخلق قد ملوا وسموا من هذا التهادى كله في الجدال على طبيعته المسيح الالهية والانسانية .

ولقد تقرر ان الاسلام هو عبارة عن كتاب نزل بالعربية على رسول من العرب ، الا أنه من المقرر أيضاً ان عناصر هذه الديانة العربية مشتركة مع عناصر الديانتين اليهودية والمسيحية فهي أخت لهما ، وقد جعل الاسلام عيسى ابن مريم أكبر الأنبياء بعد محمد والذي سيأتي في آخر الزمان ويؤذن بدينونة البشر . وحفظ الاسلام لمريم أم عيسى مكاناً من الطهر علياً لم يتضاءل هذا المكان الا بعد أن أخذ المسيحيون يعبدونها عبادة حقيقية ، وبالجملة فإن المسيحيين واليهود الذين كانوا يدخلون في الاسلام لم يكونوا يرون أنفسهم دخلوا في دين جديد . ولا نعلم تاريخ دخول النصارى واليهود في الاسلام ، وغاية ما نعلم ان بنى أمية لم يكونوا معتنين بنشر الاسلام بين أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز انه عني بهذا الأمر خاصة ، لكنه لم يلبث في الخلافة أكثر من ثلاث سنوات ، فإذا يقدر أن يصنع في مدة قصيرة كهذه ؟ ولم نعلم كيف كان دخول هذه الأقوام في الاسلام هل بدأ بدخول الرؤساء فانقادت لهم العامة كما حصل بين البرابرة في أوربة ، أم دخلت الجماعات في الاسلام فوراً ؟ وعلى كل حال كان الفتح الاسلامي قد قطع مواصلات الأمم المسيحية في آسية مع القسطنطينية مرجعها الطبيعي . وكانت نار الاسكندرية قد انطفأت أيضاً . فلم يبق ما يأتى من الخارج بما يوطد العقيدة المسيحية .

وأما اسلام الفرس فقد بدأ بالامراء وأصحاب الاقطاعات الذين بدأوا بالعلاقات مع رجال الدولة العربية وصار لهم مقام في الدولة الا ان اسلام الفرس لم يكن كاملاً . بل بقيت بينهم فئات مزدكية تظهر بصور مختلفة . وأما في مصر فبقيت أمة من القبط . كما انه بقي في سورية جماعات من المسيحيين على غير اتصال بمركز الكنيسة العام .

فدخول أهل الزمة في الاسلام قد أحدث انقلاباً عظيماً في الأمة الاسلامية ، لأن المسلمين الجدد تطلبوا المراكز في الدولة وتغيرت باسلامهم أنظمة الأراضي والجبليات والجيش وحدث لذلك تأثير كبير في المجتمع الاسلامي وكثرت الطبقة التي يقال لها « الموالي » . ثم

هناك مسألة أخرى وهي مسألة الرِّق . فالاسلام يعرف الرق الا انه يبحث على تحرير الارقاء . وكان الفاتحون المسلمون يفضلون أن يجدوا أمامهم من يؤدون الجزية واذا وجدوا أقواما من الوثنيين يوجب عليهم الدين الاسلامي أن يُجبروهم على الاسلام أو يستأصلوهم فكانوا يتجنبون اجبارهم على الاسلام كما يتجنبون سفك دمائهم في أكثر الأحيان . وكانوا يتأولون لهذا الأمر بأن مثل هؤلاء هم « صابئة » فالذين ليسوا بنصارى ولا يهود ولا مزدكيين ، كان يقال لهم الصابئون . وأما الارقاء فلما كثر عتقهم تولدت منهم طبقة جديدة . وكان الموالي أيضا يمتون بالولاء الى رؤساء من العرب . وكل ماجرى من هذه الأمور كان مؤدياً الى المساواة بين طبقات الأمة الاسلامية . وهكذا ضعف العرب تدريجاً ، وبعثهم ضعفت الدولة الأموية فاتتهز بنو العباس فرصة هذا الخلل وهذا الانقلاب اللذين دخلا على المجتمع الاسلامي وأخذوا بالكيده لئلا يبنوا أمية ودس الدسائس لقلب دولتهم . ولم يكن أبو مسلم الخراساني لينجح في ثورته على الأمويين لو لم يوافق ذلك استعداداً عظيماً في نفوس الأمم التي أسلمت من غير العرب .

ثم قال « دوموميين » ان الحياة تكاملت في المملكة العربية في النصف الأول من القرن الثامن المسيحي (أي أوائل القرن الثالث للهجرة) فظهرت المجادلات الكلامية واشتدت وتولدت الفرق . وذكر ان أشرف العرب عادوا فتمسكوا بالدين أكثر من ذي قبل ، وقال ان بنى أمية كانوا اجيالاً متدينين . واستند في هذا القول على كلام العلامة غولدسبير المستشرق المجري المشهور الذي كلامه حجة . والحال ان كثيرين من المستشرقين نسبوا اليهم ما عدا واحداً منهم . أو اثنين رقة الدين . و « دوموميين » نفسه سبق له ان أشار الى عدم اهتمامهم حاشا عمر بن عبد العزيز بنشر الدين .

ثم قال « دوموميين » انه كان لطائفة قراء القرآن لذلك العهد نفوذ عظيم في المجتمع

الاسلامي

وقال ان المركز الديني لعهد بنى أمية كان الحجاز ، لاسيما المدينة ، وان من الغريب كونها جمعت وقتئذ بين التقوى ، والورع ، وطهارة العقيدة ، وبين اللهو والغناء وأسباب السرور ، فان أشهر المغنين كانوا بالمدينة كما كان أشهر الفقهاء فيها . وهذه ملاحظة صحيحة . قال : اما اهتمام غير العرب الى الاسلام فنه ما كان في أصله من باب المصانعة ، الا ان

منه ما كان بحسب رأيه من باب الاقتناع الوجداني . وقد كان هؤلاء المهتمين تأثير عظيم في تقوية الاسلام وتوطيده . وهو يرى ان علم الحديث وتحرير السيرة النبوية ، قد كانت بدايتهما في زمان بني أمية . ومن رأيه ان الدين الاسلامي دين حضري Religion Citadine وانه توطد بالمساجد الجامعة وهناك كان يجتمع المسلمون والمهتدون الذين اعتادوا مثل هذا الاجتماع في الكنائس قبل الاسلام

ثم جعل « دومومبين » مقابلة بين تنصر البرابرة الذين دخلوا في السلطنة الرومانية واسلام الأعاجم وغير العرب ، فقال وهو من أكثر كلامه صواباً :

« ان البرابرة الذين هجموا على السلطنة الرومانية في الغرب ، انما كانت غرائهم لأسباب معاشية أي ان ذلك كان حادثاً اقتصادياً صرفاً ، فكانت هذه الأقوام تدخل الى بلاد الرومان ارتياداً للرزق وحباً براحة المعيشة . وكانت كلها منحطة في الأفكار والعقائد ، وكانت أديانها وثنية . فعندما احتلت انقراض السلطنة الرومانية وجدت جهازاً حياً هو الكنيسة فانضوت اليهوديات بالنصرانية عقيدة الأمة الرومانية المغلوبة وصار البرابرة أنفسهم هم حماة النصرانية .

أما العرب فكانت حادثتهم على العكس من هذه . قد جاءوا بعقيدة دينية أناهم بها رجل عظيم منهم فلما غزوا الروم والفرس لقنوا هذه العقيدة أنما كانت أعلى منهم كعبا في المدنية . فالمغلوب في الشرق اتبع دين الغالب ، حال كون الغالب في الغرب اتبع دين المغلوب .

قال : وان الذين دخلوا في الاسلام من النصارى واليهود أدخلوا فيه ما كان في حقائبهم من المباحث اللاهوتية فتولد منها علم الكلام الاسلامي . فقد كانت قبل الفتح الاسلامي مراكز لاهوتية وفقهية شهيرة مثل انطاكية ، وبيروت واورفة ، واسكندرية ، وغزة ، والذين أساموا أدخلوا علومها في الاسلام ، وجعلوا تأويل آيات القرآن وفق الحكمة اليونانية وصارت للاسلام فلسفة عالية اشتهرت شرقاً وغرباً الخ

فهنا نظن المصنف استرسل الى الافتراضات ، والتخرصات على عادة الاوربيين ، اذ انه لم يأت بشاهد واحد معين يثبت افتراضه . والافتراض وحده لا يتولد منه حقيقة مقطوع بها . وقصارى ما نقوله نحن ان الأفكار مشتركة بين البشر ولا سيما اذا كان صقع المفكرين

واحدًا ، وكان الاتصال كثيراً . ومما لاشك فيه ان علم الكلام الاسلامي كان مؤيداً بالمنطق وان علم المنطق هو من العلوم التي تلقاها العرب عن يونان فاستعملوها في أقيستهم العقلية ومباحثهم الدينية ولكن المنطق منه ما هو طبيعي أيضاً يكفي فيه العقل السليم . وما كان المنطق اليوناني الذي يدرس في المدارس الا الأسماء والاصطلاحات التي وضعوها للصور الفكرية القائمة في النفوس . هذا هو الفرق بين المنطق المطبوع والمنطق المسموع

ويعجبني أكثر من كلام « دومومبين » في هذا الموضوع كلام الكونت « دوغو بنو » Comte De Gobineau صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » فهذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين أحدهما « ثلاث سنوات في آسية » والآخر « الأخبار الآسيوية » من تأليف « دوغو بنو » المذكور المعبود في مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف في أحوال ايران وأواسط آسية . ولقد ظهر كتاب « دوغو بنو » « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » Les Religions et les philosophies dans L'Asie centrale سنة ١٨٦٥ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٠٠ ونال شهرة عظيمة في ألمانيا ، ولا سيما أن الاستاذ شيان L.Scheman الألماني صدره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت « دوغو بنو » هو من أكبر مفكري العصر ، وأنه لما ترجمت تأليفه الى الألمانية ، عدّه كثير من الالمان من أعظم كتّاب القرن التاسع عشر . ونقل عن بعضهم أنه قال : « اننا لا نعرف كاتباً أوربياً فهم حقيقة الشرق الحديث فهم هذا الرجل ولا وصفه بمثل هذا البيان الفصيح » ويقول الاستاذ شيان : اننا لا ندرى في كتابه هذا « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » أي شيء نستبدع أكثر من الآخرا سعة أنظاره أم عمق غور أفكاره أم غزارة معلوماته أم متانة رواياته أم سمو بيانه أم لطف أحاديثه الخ وقد بدأ « دوغو بنو » كتابه هذا بقوله :

« ان جميع أفكارنا وجميع الطرق التي نفكر بها كان منشؤها في آسية » والشاهد الذي نحن في صده من كتاب « دوغو بنو » الذي أقام ثلاث سنوات في بلاد فارس ونقّب عن علومها وآثارها وصار صدرأ لا يبارى في معرفة شؤون الامة الفارسية هو تاريخ اسلام العجم وأسباب غلبة التشيع عليهم فهو يقول تحت عنوان « الاسلام الفارسي » ما يلي ملخصاً :

« ان الديانة الاسلامية التي هي مشتملة على عقائد كثيرة سابقة لها هي موافقة الى الغاية لعقل الشرقيين ، ولكل طبيعة فكرية شرقية. وبهذا السبب نجد الاسلام يتقدم هذا التقدم المدهش في افريقية . وليس الأمر كذلك في أوربة حيث هذه العقيدة لا تصادف اقبالاً ولا نعلم أن من الاوروبيين من تقبل الاسلام غير جماعات من الارنوبوط والبشناق . أما في الهند فان الفاتحين من العرب والغزنويين والمغول والافغان قد لبثوا زمناً طويلاً حتى أدخلوا في دينهم هذا العدد الذي دخل فيه من أهل الهند . وليس جميع مسلمي الهند من أصل هندي كما أنه ليس أكثر مسلمي الصين من أصل صيني بل أكثرهم متحدرين من أصول فارسيين وآبائهم كانوا عملاً في خدمة جنكيز وقوبلاي .

واذا أردنا أن نفرص بين العقيدة الدينية والضرورة السياسية التي طلما عملت باسم العقيدة لا نجد ديناً أسمح من الاسلام بل نقدر أن نقول لا نجد ديناً متحايداً فيما يتعلق بأديان الآخرين أكثر من الاسلام . وفيما عدا الاحوال المستثناة التي اضطرت فيها الحكومات الاسلامية الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتوحيد عقيدة رعاياها فعلى وجه الاجال كان التسامح وكانت الحرية الدينية هما أساس الشرع الاسلامي ، وذلك بسبب أن القرآن يعلم الناس أن معرفة الحقيقة لا تتعلق بإرادة الانسان بل بإرادة الله .

وما زال المصنف يشرح هذا المعنى الى أن قال : ان الذي يلتزمه الاسلام من الاعتقاد هو وجود الله واحد يوحى ارادته الى خلقه بواسطة الانبياء . فهذا هو الالف وهو الياء في هذا الدين وما اعتقد الانسان بالله ورسله فانه يبقى متمتعاً بتام الحرية في قضايا وجدانه ويجوز له أن يختلف عن سائر المسلمين في آراء كثيرة وجدانية ويبقى مع ذلك معدوداً من المسلمين ما دام معترفاً بالله ورسله لا يجحد هذه العقيدة علناً . فنتيجة هذا المبدأ العظيم قد كانت أن يقبل كثير من أبناء الملل الأخرى على الدخول في الاسلام ، ويشاطروا الأمة الفاتحة منافع الايمان به ، وكذلك ان تدخل تحت هذا الغشاء الرقيق من الاسلام آراء وعقائد ومذاهب قديمة لم تكن من الاسلام في شيء ، ولكن الاسلام وسعها . ومن أجل هذا تعددت المذاهب الاسلامية ولم تكن في العدد أقل من مذاهب النصرانية ومنسوب الى نبي الاسلام القول بأن أمته ستفترق الى فرق كثيرة .

وانه لمن الصعب موافقة القائلين بان الدين الاسلامي مانع للترقي الفكري بل الذي

يظهر لنا ان القضية هي بالعكس ، فان ديانة جاءت فيها هذه الجملة : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء . وجاء فيها ان الانسان في اليوم الآخر يحاسب بقدر ما أعطى من العقل . وقد مررت من ظهورها في القرن السابع الى أواخر القرن السادس عشر بادوار سعادة مادية عظيمة مصاحبة لحالة رقي علمي وأدبي لسنا في الحقيقة محيطين بها كلها لا يمكن أن يقال انها ديانة مانعة للترقي الفكري . واذا قيل انه في العهد الأخير ظهر الاسلام بمظهر انحطاط من هذه الجهة ، فان أسباب هذا الانحطاط لا يؤخذ بها الاسلام نفسه . فليتأمل الانسان فيما اذا استمرت في قطعة من أوربة ادارة عسكرية ، مستبدة غاشمة متغشمة مدة مائتين وخسين سنة ، كما جرى في تركيا . أو استمر حكم ممالك غرباء من كرج وشركس وترك وأرنووط كما جرى في مصر . أو كما حصل قبل سنة ١٧٣٠ في فارس من غارات الأفغان ومن حكم نادر شاه العسكري والمظالم التي رافقت تأسيس دولة آل قاجار الحالية ، فلا شك ان هذه القطعة مهما كانت أوروبية فانها لا تثبت أمام هذه الحوادث ، وان ما لها يكون الى الانحطاط . ولهذا لا أجد تعليلاً غير هذا التعليل لما نراه من انحطاط البلدان الشرقية ، ولا أرى من العدل أن نلقى على الاسلام مسئولية حالة كهذه واتى أرد كل الرد نسبة تقييد العقول الى ديانة لمعت في ظلها للعقل البشري أدوار سلبية . ولا يقدر في هذا الأمر أن يكون موجوداً في الاسلام عدد من المشايخ الجهلاء أو الجامدين . أفلم يوجد مثل هؤلاء ، وأشد منهم تعصباً وأحط فكرياً بين خدمة الدين المسيحي في أوروبا ؟ انه مما لا مشاحة فيه أن روح النقد والبحث والأخذ والرد ، قد رافق الاسلام من بداية أمره وبدأ من محمد نفسه . والآن في فارس نجد الشيعة الذين هم الأكثرية في البلاد منقسمين الى ثلاثة أقسام : الاخبارية والمجتهدية والشيخية . ولكل من هذه الفرق الثلاث آراء جديدة مبنيّة على مقتضيات الوسط التي تعيش فيه . فالأخبارية يقبلون جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء والأئمة ، وبمقتضى هذا المبدأ يمكن هذه الفئة أن تقبل مبادئ وآراء لم يكن أصلها من القرآن ، وذلك بأنه اذا ورد في الأحاديث النبوية ما يوافقها فقد أصبحت مقبولة عند هذه الفرقة . نعم في هذا المذهب سعة لا تنكروا ان كان الأخباريون يرون أنفسهم أخلص الشيعة ، ويخالفون محدثي العرب والترك من أهل السنة في شدة تمحيص الأحاديث ، وتجد في الاخبار التي يعتمدون عليها ويطبقونها على الاسلام أقوالاً باقية من الديانات الفارسية

القديمة والساسانية ، و تراهم يذهبون في حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من الاسلام ، فلا يقولون بأن الاجساد تعود بعد الموت كما هي ، بل يقولون ان البشر بعد الحساب انما يكتسبون مظاهر نورانية . وسواء كان الابرار أو الفجار فلا يظهرون في الابدان التي كانت لهم في الحياة الدنيا ، وسواء كان نعيم أولئك أو عذاب هؤلاء ، فكله هناك من طبيعة عقلية محضة لامادية . وفئة الاخباريين هذه ينتسب اليها كثير من الطبقة الوسطى في الشعب ، فهدما وجد من الأفكار الغريبة عن الاسلام ، وأمكن وضعه تحت اسم واحد من الأئمة تقبلوه بدون مراجعة . ولهذا تجد كبار علماء الدين يردون عليهم ويفندون مزاعمهم لاسيما في طهران .

وأما الشيخية فان لهم صلةً بكثير من مبادئ الاخبارية ، وهم وان كانوا يقولون بحشر الأجساد كما في الاسلام ، فانهم يتابعون الفيلسوف ابن سينا في قضية معراج الرسول الى السماء ، وفي معجزة انشقاق القمر ، ويقولون انه لا يجب تلقي هذه الامور بحسب ظاهرها ، بل يجب حلها على المجاز ، ففي مسألة المعراج يقولون انها كانت رؤيا - وهذا الرأي على ضعفه موجود في الاسلام قال به كثيرون وينسب الى معاوية رضى الله عنه وأما في مسألة انشقاق القمر فيقولون انه كناية لفظية . ومؤسس الطريقة الشيخية هو الشيخ أحمد البحريني ، عربي الأصل . كان يدرس في تبريز وتوفي في كربلاء ، وله تأليف في علم الكلام لم يصرح فيها بشيء من هذه المبادئ ، ولكن يقال انه كان يستعمل الكتان ، وانه كان على جانب عظيم من الجراءة في آرائه . وللعقيدة الشيخية أنصار كثيرون في الطبقة العالية من رجال الدين وهم يناصبون الاخباريين العداوة وينتقدونهم أشد انتقاد في قبولهم جميع الاحاديث والاخبار بدون نقد ولا تمحيص ويحتجون عليهم بالقواعد التي وضعها أئمة الحديث والتي تقتضي مزيد التحري . وهم في هذا المعنى قريبون من أهل السنة . وقولنا قريبون من أهل السنة لا ينبغي أن يؤخذ منه أنهم أميل الى السنة من غيرهم بل هؤلاء أيضا يرون أنفسهم من أخلص الشيعة وأصلبهم عقيدة ، فهم في الحقيقة وسط بين تدقيق أهل السنة الزائد في الحديث ، وتساهل الاخباريين فيه وهم أشبه بفرقة *Puscytes* الانكليز الذين هم من أشد الفرق كراهية للكثلكة ، وهم في الواقع أقرب من غيرهم اليها .

أما فئة المجتهديّة فانهم ينتقدون الاخباريين في سرعة تهافتهم، وسهولة تلقيهم للاخبار بدون تمحيص ويقولون ان الخبر يجب ليكون معمولاً بموجبه أن يستوفى شروط التمحيص المنصوص عليها في كتب الأئمة؛ فمن الوجهة النظرية لا تجدهم يتساهلون في هذا الموضوع أصلاً وأما من الجهة العملية فتجدهم بالعكس يقبلون كثيراً من الروايات عن معجزات الرسول والأئمة؛ ولا يحبون أن ينازعوا فيها أو أن يتحروا في أسانيدها؛ وكذلك لا يقبلون كلام الشيخية في حملها على المجاز؛ ويرجعون فهمها بحسب ظاهرها؛ اذ يرون ارضاء العنان في التأويل بالمجاز والكنائية مفضياً الى هدم الدين نفسه ويرون تحكيم العقل في كل شئ منافياً للإيمان وهم كأسويين يؤمنون بالمعجزات. وأكثر المجتهدين والاجتهاديين هم من طبقة القضاة؛ ومأموري الادارة؛ والذين يشتغلون بالعمل أكثر من النظر. وكثيراً ما يتحول الانسان في فارس من مذهب الى مذهب فينبأ هو من الشيخيين مثلاً اذ تراه تحول اجتهادياً أو اخبارياً. أما مذهب السنة فهو ضئيل في فارس والشعور القومي هناك ضده وقد ازداد بغض الشيعة للسنة من أيام الدولة الصفوية؛ وكان العامل في هذه العداوة سياسياً أكثر مما كان دينياً. وبالاجمال لا توجد ديانة أكثر فرقا من الاسلام وذلك لسببين الأول: كثرة عدد الفرق، والمعروف بصورة رسمية انها من الاسلام، والثاني: ان الانسان يمكنه أن يقبل في جانب مبادئ القرآن آراء كثيرة لم يكن أصلها منه. فسبب هذه الحرية العظيمة التي تجدها في الاسلام والتي هي منشأ الأخذ من الخارج هي بساطة العقيدة ووجازتها فهي تنحصر في قول الانسان: لا اله الا الله محمد رسول الله. فمن صرح بهاتين الشهادتين فهو مسلم

ثم أخذ المصنف يذكر تاريخ البعثة النبوية وما قام به الرسول ﷺ من تصحيح العقائد السابقة وأطال في هذا المقام وقال ان الرسول كان مصلحاً معتدلاً في اصلاحه. وقال ان الرسول لم يأخذ ماعلمه عن اليهودية من التوراة رأساً وانما أخذ عن التلمود وعمما كان دائراً في عصره بين اليهود. وكذلك قال ان محمداً كان مصيباً في قوله ان النصارى حرفوا الانجيل لان النصارى في عصره وجد منهم من حرف الانجيل قال: فنبى الاسلام في نفسه كان يحترم ملتي موسى وعيسى أشد الاحترام الا أنه كان يشدد النكير على اتباعهما الذين أفسدوا العقائد التي كانا قد أتيا بها. فالاسلام بالكاتب الثلاثة التوراة بدون تبديل والانجيل

بدون تحريف ، والقرآن الموحى الى محمد بواسطة جبريل ليس الا إعادة دين العرب القديم الى نقاوته الأصلية ، واحياء ملة ابراهيم كما كانت ، وقد ذكر « دى غوينو » سيرة الرسول الشخصية في صفحة ٤١ من كتابه فقال : انه كان بين العرب بل بين جميع معاصريه رجلاً متحلياً بشئائل زكية ، رصينا ، محباً للعدل ، محباً للانسانية ، حليماً ، نزيهاً ، الى الدرجة القصوى

وأما الفتح الاسلامي وكيف تحولت به فارس مملكة اسلامية وبقيت فارسية في نفسها وهو الموضوع الذي نخوم حوله الآن فقد عدلناه بالأسباب التي سبق ان أوضحها بصور مختلفة وهو ان الاسلام مبدأ سهل سمح يسهل أن تدخل تحته مبادئ جديدة طارئة عليه من اخراج أو راحة اليه من السابق . وأعظم دليل على هذا الأمر هو التشيع الذي هو دين فارس اليوم . قال : فالعرب عند ما هدموا ملك كسرى في وقعة القادسية كانوا قد صادفوا أمة فارسية خامرها الفساد في أخلاقها كما خامر الأمة البيزنطية . وليس هذا بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة والحجاسة المدهشة وجميع الفضائل العسكرية من اخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس وبعدهمة وبصيرة بالحرب . وإنما نقول انهم لو صادفوا امامهم في الشرق ما صادفوه في الغرب من أمم متعلقة بحكوماتها وأقوام مغلصة لأمرائها لما كانت أمكنتهم تلك الفتوح التي فتحوها في الشرق بهذه السرعة الغربية ولكن عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد وأمثالهما اضطروا الى العودة الى قفارهم . الا أن المملكة البيزنطية كانت قد تخرت بفساد الأخلاق وتمزقت بالمجادلات الدينية . وكذلك فارس لم تكن أحسن منها حالاً .

ثم ذكر أحوال ديانات العجم يوم ظهور الاسلام فقال ما محصله : ان المجوس كانوا قد أسسوا في ظل الدولة الساسانية ملةً رسمية ، زعموا أنه لا يجوز أن يكون غيرها في المملكة وهو خطأ لم يقع فيه الزاردشتية من قبل . ولم يلحظ المجوس ما كان قد تطرق الى بلادهم من المذاهب الغربية ، فان العقائد اليونانية والاشورية والمبادئ الافلاطونية الدينية التي تولدت في الاسكندرية كانت قد شاعت في جنوبي فارس وغربيها . وأما في شمالي فارس فالقبائل التي هناك كانت لم تخضع للديانة المجوسية الا على شرط حفظ شعائرها القديمة التي من جلستها عدم وجود طبقة كهنوتية خاصة . وكانت هذه القبائل تتمسك بعاداتها من أن رئيس

العائلة هو الكاهن الوحيد لها . وكان قد دخل في فارس أيضاً عقائد مسيحية ويهودية كان لها تبع كثيرون منهم أمراء وقواد ذوو سلطان ، ودخلت أيضاً البوذية والمناوية والبراهمية وهذه الأخيرة كانت منتشرة في كرمان ومقاطعات هرمز . وكانت المجوسية الفارسية توخت ارضاء جميع المذاهب وفتحت صدرها لكثير من العقائد المسيحية واليهودية والكلدانية . ورأت نفسها ديانة سَمحة تريد أن تتفادي المنازعات والمجادلات الدينية ، فاصابها في آخر الأمر ما يصب كل ملة تقصد التوسع فتقع في التضيق ، وذلك انها اضطرت أخيراً الى الاكراه والاضطهاد . ولما كانت هي دين الحكومة صار كل ساخط على الحكومة ناغم عليها سوء الادارة ساخطاً على الديانة أيضاً فلما جرت وقعة القادسية واتصر العرب على العجم جاءت فرجاً لكثير من اليهود والمسيحيين الذين كانت الحكومة الفارسية تضطهدهم ، وكان الدين العربي الجديد يعدُّهم أهل كتاب ولا يكلفهم الا أداء جزية تريحهم من التكاليف العسكرية . وكذلك جاءت القادسية فرجاً لاصحاب المهن والصناعات الذين كانوا يفرِّمون غرامات فاحشة بحجة أنهم يهينون النار أو الماء أو التراب وهو مما لم يكونوا يقدرون أن يتجنبوه لأجل صناعاتهم . فما كان أسرع مثل هؤلاء بطبيعة الحال الى الدخول في الاسلام قال : ولا تريد أن تقول بهذا ان الديانة المجوسية كانت قد فقدت كل حكمها بعد أن وضعت يدها على الدولة مدة أربعة قرون ، بل كانت قد بقيت لها عروق واشجة في البلاد . ولما انهزمت في معركة القادسية كان انهزامها مرافقاً لانهزام الدولة والوطن . ولم يمضِ على ذلك زمن حتى صارت هي الممثلة للوطن الفارسي . فقد كان بقي للسلطة القديمة بقايا ذات بال ، وكان من أمراء فارس من لم يزل متمتعاً بماله وجاهه ونفوذ كلمته ، ولم يكن المسامون يضطهدونهم كما يظن بعض المؤرخين ، فبقيت شوكتهم قوية . فلما جاء بعض أمراء الترك ينازعون خلفاء العرب الملك ويستقلون عنهم بامارات لهم خاصة ، وجدوا من استعداد زعماء العجم موافق سياستهم حتى ان أشد هؤلاء الأمراء اسلاماً مثل محمود الغزنوي مثلاً كان يقوى العجم على العرب وكان الأدب الفارسي لا يزال الا في صور معلومة فارسياً في ديباجته فتأيدت بذلك النزعة الفارسية ، ثم انطلقت الحرية للشعب الفارسي فصاروا يلعنون العرب علناً بلا تكبير حتى دخل في ذلك أحفاد الذين كانوا أول من ابتهجوا بمقدم العرب . وكانت قد تنوسيت الأحقاد القديمة على السلطة السابقة ، بل كان

الشعب الفارسي رجع يتذكرها ويتأوه على ذلك المجد القديم الغابر . ولم يكن بقي ابيت الملك الفارسي الأخير سلالة ليلتفّ الفرس حولها ولكنه كان من الممكن احياء القومية الفارسية نفسها من جديد وتجديد رياسة دينية شبيهة بالتي كانت بفارس قبل الاسلام . وبالجملة شرعت الوطنية الفارسية تظهر في رنشدان صيغة دينية خاصة بها شبيهة بما كان لها من هذا القبيل قبل ان دخلت في دين العرب

ولم يكن مما يرد على الخاطر أن تنتقض فارس على الاسلام نفسه فان العالم وقتئذ في نظر الشرق كان ينبغي أن يكون مسلماً . فالاسلام كان يمثل القوة السياسية والمجد والحضارة معا . وقد يجوز لهم أن لا يبقوا منه الا الاسم فقط ولكن هذا الاسم كان لا بد منه . فالفلاسفة كانوا يعملون تحت اسم الاسلام بجميع قواهم لبث مبادئهم ولو خالفته . والأمراء الساسانيون والغزنويون والديلمة مثل بني بويه كان كل منهم يعمل على شاكلته ولكنهم كانوا جميعاً ينطوون ظاهراً تحت لواء الاسلام . فكانت الحالة هناك كما هي الحالة الآن في الغرب : كثير من الناس لا يشهدون المراسم الدينية المسيحية ولا يعتقدون بدين المسيح . ولكنهم في الوقت نفسه لا يرحون يترنمون بذكر « المدينة المسيحية » و « العالم المسيحي »

وكان جل مقصد العجم صدع وحدة الدولة العربية لانهم كادوا يختنقون تحت سلطان هذه الخلافة العربية المنبسطة على البلدان من اسبانية الى الهند . وكانوا يعملون لاستقلال فارس بنفسها استقلالاً داخلياً فأول ما فكروا به هو انكار مشروعية خلافة أهل السنة ، والظهور بمظهر المناصرة لحقوق آل البيت المهضومة ، متمسكين بمبدأ شرعي هو بزعمهم أعظم مشروعية وأعرق في الاسلام من المبدأ العربي نفسه ، فكأنهم صاروا عرباً أكثر من العرب ومسلمين أكثر من خصومهم . قاموا يستظهرون على العرب بمبادئ لا يمكن هؤلاء أن ينكروها بتاتاً ، وهكذا كان منشأ مذهب الشيعة في ايران وقد صحب منشأ معارك وملاحم لا تحصى ولكنه خدم فارس كثيراً في قضيتها القومية وجدد كثيراً من منازعها القديمة .

كان النزاع في ظاهر الحال دائراً على حق العباسيين في الخلافة وعدمه . ولكن في الحقيقة كانت النهضة نهضة فارسية محضة . وأخذت كل بلدة تؤلف لنفسها طبقة دينية خاصة

ولما كان وجود طبقة دينية خاصة — كما في الدين المسيحي مثلاً — غير متفق مع مبادئ القرآن ولا مع سنة الرسول وكان كل من المسمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيّد في عقيدته بأوامر رجال الدين نزع هؤلاء المسمون من العجم الى طريقة جديدة وهو أن يقولوا ان القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره الا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم « ملّا » وهذا منزع أخذه الايرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن مؤابذتهم المجوس ، وهي حصر الخدمة الدينية في طبقة معينة لا تتعداهم . وهكذا تجددت الديانة الساسانية بشكل اسلامي هو مذهب الشيعة . ولما تأسست الدولة الصفوية فيما بعد لم تكن سوى دولة ساسانية مسالمة . وان تعمقنا في حقائق الأشياء نرى ان التشيع عندهم هو القول باله أزلى أبدى واحد لا بداية له ولا نهاية . قد خلق الكون على قواعد ثابتة ، وبين خلقه شروط النجاة والهلاك وسيكون الرجوع اليه ، والرسول هو أكمل مخلوقات والقرآن غير مخلوق بل وُجد منذ الأزل بالارادة الالهية ، وبالجملة فالله والرسول والقرآن يذكروننا هنا بالعقيدة الفارسية القديمة المسماة « الزروانه اكرته » أي الزمان بدون حد . وأما العمل فهو للائمة آل البيت فهم الذين يحفظون العالم ويهدونه الى صراط مستقيم وليس في الخارج عنهم الا الظلمات . فالاعتقاد بهم هو النجاة ، والانحراف عنهم هو الهلاك . وهم اثنا عشر اماماً . واذا تأمل الانسان ، يجد اعتقاد العجم المسمين في علي أشبه باعتقاد العجم القدماء في هرمزد المخلص الحافظ القيوم ، كما أن ذريته أشبه بالملائكة الصالحين الذين في ديانة زردشت يقاتلون الأرواح الخبيثة . وأما قضية الشيطان والقتال الدائم بينه وبين الأئمة فهي أشبه بقضية أهرمان في المجوسية القديمة . ولذلك تجد أهل السنة يكرهون هذه الاعتقادات أشد الكره ويرون فيها الاعتقادات المجوسية القديمة ، ولعمري ليسوا بمخطئين . ولكنهم لا يقدرون أن يلوموا الا أنفسهم نظراً للسعة التي في مذهبهم فانهم قد حاولوا أن يدخلوا في الاسلام من الخلق بقدر استطاعتهم ولم ينظروا الى ما كان المسمون الجدد يحملون في حقائبهم ويدخلون به على الاسلام . انتهى

هذه خلاصة ما ذكره الكونت « دوغو ينو » وقد يكون اطلع على أحوال العجم أكثر من كل أوربي . ولكننا لا نقدر أن نتلقى جميع قضاياهم بدون فحص وان أصاب في كثير منها : ومما لا مشاحة فيه ان أهل فارس يغفلون في علي وآل البيت أكثر جداً من

الشيعة العرب ، كآزبديّة في اليمن ، والمتأولة في الشام ، والشيعة في العراق ولكننا لا نقدر أن نقول ان هذه الخصائص التي لآل البيت وهذه العصمة للآئمة الاثني عشر غير معروفة أصلاً عند الشيعة من العرب . فان كانت الأسباب السياسية وحدها هي التي جعلت أهل فارس على النزوع الى مذهب الشيعة ليقيموا منه خصماً لمذهب السنة ويجددوا الدولة الفارسية التي كان العرب قد قضوا عليها ، فاذا نقول في شيعة العراق وشيعة الشام وشيعة اليمن وكلهم عرب افحاح ينزع بهم عرق العربية كما ينزع بأهل السنة بدون فرق .

اني لا أخالف هذا المؤاب في كون الفرس نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة الى الاسلام ، ولا أخالف أيضاً في كونهم انتفضوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية إنما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية في أصلها ، المقصد منها مقاومة الحكم العربي . ولقد تقدم لي هذا البحث بعينه في هذه الحواشي ولم أكن اطّلع عندما حررت ذلك البحث على كتاب الكونت دوغو بينو فأنا اذن متفق معه في المبدأ ، وإنما أخشى أن يكون مبالغاً في بعض الأمور وذاهباً في اطلاق الحكم مذهب الأوربيين بنى جلده ، فيما يتكلمون به عن الشرق . فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب ، وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري ، وقد سبق لي بحث وافٍ في هذا الموضوع نشرته في مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ مسيحية وجاذبي فيه الحبل المجتهد الكبير ثقة الاسلام التبريزي الذي استشهد بيد الروس عند مادخلوا اذر بيجان العجم بعد ذلك التاريخ بأشهر قلائل .

وكذلك نشر الاستاذ المحقق الشيخ احمد رضا من علماء جبل عامل مقالات ممتعة في المقتطف عن أصل التشيع في القطر الشامي ذكر فيها أنه لما نفي أبو ذر الغفاري من المدينة الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، أقام أبو ذر في دمشق ينشر دعوته العلوية ، وآراءه الاشتراكية في عدم جواز استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء ، واستجاب دعوته قوم في دمشق لا تزال أعقابهم الى اليوم . ثم انه كان يخرج الى الساحل فكان له مقام في قرية الصرفند القريبة من صيداء ومقام آخر في قرية ميس المشرفة على غور الاردن وكتناهما من قرى جبل عامل . والمقامان الى الآن معروفان . فكان له من ذلك

الوقت في هذه الديار من استجاب دعوته في التشيع وكان معاوية استغاث بعثمان من أبي ذر وكتب اليه ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره بردّه الى المدينة ، فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا غطاء ولا وطاء ، بعد أن شتمه ونال منه ما اشتبهى ، كما ذكر ابن الأثير في كامله ، والطبري في تاريخه ، وان كرّها أن يذكر أسباب نفيه بعد ذلك الى الربطة ، الا مانسباه الى أبي ذر من الآراء الاشتراكية . قال صديقنا الاستاذ الشيخ احمد رضا : ولا يمكن التسليم بان الأمر الذي أخرج معاوية فأخرجه عن حلقه حتى فعل بأبي ذر ما فعل هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمره أهم من هذا وأعظم ، وهو الدعوة الى العلوية التي كانت تقضى على آمال معاوية كلها . قال : وكان أبو ذر معروفاً بميله الشديد الى الهاشميين عامة والى علي خاصة ، وكان ممن تخلف مع علي عن البيعة يوم السقيفة ، على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليهم اسم الشيعة . ورد في كتاب الزينة في تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبي حاتم الرازي كما نقله عنه صاحب الروضات : « ان أول اسم ظهر في الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم : أبو ذر وسلمان الفارسي والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ، الى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى علي عليه السلام »

قال الشيخ احمد رضا : « أما الشيعة في ايران وانعجم فقد كان مبدأ أمرها في أوائل الدعوة العباسية ولم تكن يومئذ ثابتة الأركان ولا في زمان بني بويه ، والدولة العلوية هناك الى أن انقضى أمر الخوارزمية في ايران ، وأقام المغول حكومتهم في قلب ايران ، وتعاقبت ملوكهم الى زمان السلطان الجايتو محمد المغولي المنقب بشاه خدابنده ، فهو الذي أظهر التشيع في ايران ودعا اليه وأمر بان يخطب بأسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر . (الى أن قال) : ولكن دولة العجم لم تصبح شيعية محضة قبل زمن الشاه عباس الكبير الصفوي الذي كان في القرن العاشر (للهجرة) وكان صاحب الفتيا لديه بل مرجع ايران في زمانه المحقق الكركي العاملي . ويقول جودت باشا في تاريخه ان الشاه عباس هو الذي بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة الصفوية على أساسه . اهـ

أقول ان هذه الروايات التي نقلها الاستاذ الشيخ أحمد رضا العاملي من أعضاء مجمعنا العلمي العربي تطابق المشهور والمأثور في التواريخ المعتبرة ، الا اني لا أعلم من أين نقل ان

قال حدثني رجل من أصحاب الأجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا : نزلنا الربذة فرأى بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا : هذا من أصحاب رسول الله ﷺ . فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا فبينما نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق ، حسبته قال من أهل الكوفة فقالوا يا أبا ذر : فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية فلتكمل برجال ماشئت . فقال : يا أهل الاسلام لا تعرضوا عليّ ذاكم ولا تذلووا السلطان فإنه من أذل السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي . ولو سيرني ما بين الافق الى الافق أو قال ما بين المشرق والمغرب ، لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي ، ولو رددتني الى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذاك خيراً لي . قال أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج عن عبد الله بن سيدان السامي قال : تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما ثم انصرف أبو ذر متبسماً فقال له الناس : مالك ولأمر المؤمنين ؟ قال : سامع مطيع ولو أمرني أن آتي صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت . وأمره عثمان أن يخرج الى الربذة . هذا وقد نقل ابن سعد بأسانيد متعددة قول رسول الله ﷺ : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر . ولهذا الحديث في بعض الروايات تتمه وهي : من سره أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى أبي ذر . ونقلوا عن أبي ذر انه قال أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والدينو منهم ، وأمرني أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر الى من هو فوق ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وان أوديت ، وأمرني أن أقول الحق وان كان مرأاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من لاحول ولا قوة الا بالله ، فأنهن من كنز تحت العرش . وكان ينفق كل ما بيده ويقول : ان خليلي عهد اليّ أي مال ذهب أو فضة أو كى عليه ، فهو جبر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله . ولقي أبو موسى الأشعري أبا ذر فلزمه ، فجعل الأشعري يقول له : أنت أخي ومرحباً بأخي . وجعل أبو ذر يقول له : اليك عنى لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تستعمل .

لقد نقلنا هذه الأحاديث مكتفين بها عن غيرها من أخبار أبي ذر لاجل أن نعرف

القارىء بحقيقة حال أبي ذر فقد ثبت انه كان شديداً في الحق لا يخاف فيه لومة لأثم ، وانه كان زاهداً في الدنيا ، وكان على منزع اشتراكي يميل الى الفقراء والمساكين ، ويكره ادخار الأموال ، لكنه برغم خلقه هذا كان يرى الطاعة للسلطان ، كأنه كان يذكر دائماً ما أوصاه به الرسول ﷺ وهو : اسمع وأطع ولو لعبد حبشي . فأما ذهابه الى الشام فالتشيع ان عثمان نفاه اليها وليس في الطبقات الكبرى لابن سعد تصريح بأنه نفاه الى الشام وانما هناك إيماء بأنه رأى ما لم يعجبه وهو في المدينة فخرج الى الشام ، ثم اختلف في الشام مع معاوية . فكتب معاوية الى عثمان يقول له : ان أبا ذر أفسد الناس علينا . فأمره برده الى المدينة . ولم أقف على أثر في الطبقات لسكناه بجبل عامل وساحل صيداء ، ولكن قرأت خبراً يدل على أن أبا ذر جاء بيت المقدس .

وعلى كل حال خبر أبي ذر الغفاري بأنه كان من شيعة عليّ خير شائع بين الناس ، ومن الثابت ان التشيع بدأ عند العرب قبل العجم ولكن الغلو في التشيع بدأ عند العجم . ويجوز أن يكون هذا الغلو في التشيع ، وهذا الاعتقاد في عسمة الأئمة ، والقول بان ادارة الكون هي في يدهم ، من آثار الديانات الفارسية القديمة كما ان الأسباب السياسية التي أشرنا اليها سابقاً من نزوع العجم الى الأخذ بثأرهم من العرب كانت أيضاً عاملة في نشر التشيع في فارس . وأما كون غلبة التشيع الحقيقية على تلك المملكة لم تقع الا في عهد الدولة الصفوية ، فهذا يقع الاجماع عليه ويؤيده الكونت دوغوينو في كتابه الذي ذكرناه . ويصرح به الاستاذ الشيخ احمد رضا ومن قبل هذا الدور لم يبلغ التشيع هذه الدرجة من القوة في فارس بل نجد في التواريخ ما يدل على العكس

وفي رسائل أبي بكر الخوارزمي رسالة الى جماعة الشيعة بنيسابور يعدد فيها جميع ماجرى من المحن والمظالم على آل البيت ولو اتدب أحد علماء التاريخ لشرحها لجاء منها كتاب كبير وفيها يقول : « ونسأل الله أن لا يحشرنا على نصب أصفهاني ولا على بغض أهل البيت طوسي أو شاشي » وهذا يدل على ان التشيع لم يكن غالباً على تلك البلاد كما هو اليوم . بل كان في العجم نواصب وكان بلد كبير مثل أصفهان معروفاً بشدة العداوة لآل البيت وهذا بشهادة رجل من كبار المتشيعين وأدباء عصره كابي بكر الخوارزمي . أما الدلائل التي يستخلصها الانسان من التواريخ على استعداد العجم للتشيع فهو اتفاق

المؤرخين على كون الخلافة العباسية انما قامت بالأعاجم أيام كانت الدعوة الهاشمية واحدة لم يفترق فيها بنو العباس عن بنى أبي طالب . ولقد قال المسيو هوار المستشرق الفرنسى صاحب « تاريخ العرب » ان العجم فى وقعة الزاب أى الوقعة التى انهزم بها مروان بن محمد آخر بنى أمية ، أخذوا بثأرهم عن يوم القادسية . ثم انه ظهر أن آل برمك برغم كل ما كانوا عليه من الحظوة فى زمان المنصور والرشيد كانوا فى الباطن يميلون الى آل البيت ، حتى قيل ان سبب نكبتهم هو اطلاق جعفر بن يحيى البرمكى سبيل يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم بدون اذن الرشيد ، بعد أن دفعه الرشيد اليه وجعل اعتقاله فى داره . وكذلك يعلم الناس أن بنى بويه كانوا شيعة وانهم بعد استيلائهم على بغداد والتزامهم نصره الخلافة العباسية والعمل تحت لوأها لم يزالوا شيعة .



أما الحالة الراهنة الآن فى فارس وهو الذى يهم التعريف به ، اذ كان من أهم موضوعات حاضر العالم الاسلامى ، فهى ان الدولة الفارسية لاتزال دولة اسلامية وحامية للتشيع فى الاسلام . ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الاسلامية فى العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التى كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشرُّ خيراً ، ولقد لحظ كل من ساح فى بلاد العجم حتى من الاوربيين ان الأمة الفارسية فى العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الاسلامى جميعه ، فتهتم لتركيا ، ولبلاد العرب ، ولمصر ، وللمغرب ، ولكل بلاد الاسلام اهتماماً أكيداً ، ويكرهها ما يكره المسلمون ، ويسرها ما يسرهم ، وسمعت مرة الأمير العلامة الجليل أرفع الدولة رضاخان ممثل فارس فى جمعية الأمم يقول من خطبة له فى جلسة عمومية : ان فارس تمثل فى عصبه الأمم العالم الاسلامى المؤلف من أربعمائة مليون نسمة . وقد كان من دلائل القرب بين الشيعة والسنة عقد الحكومة الفارسية الحاضرة معاهدات صداقة بينها وبين تركيا ، وبينها وبين العراق ، وبينها وبين الحجاز ونجد ، وبينها وبين مصر ، وكلها حكومات سنية . وفى أواخر السنة الماضية عندما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف شهده جماعة من أعيان الشيعة كالسيد الطباطبائى ، والسيد الحسين آل كاشف الغطاء ، وجماعة من علماء الشيعة فى العراق ،

وجاعة من علماء الشيعة العاملين منهم الاستاذان الشيخ سليمان ظاهر، والشيخ احمد رضا وغيرهم، وقد صلى أعضاء المؤتمر الممثلون لجميع العالم الاسلامي مرتين بامامة المجتهد الكبير السيد حسين آل كاشف الغطاء، ولم يخطر ببال أحد الاعتراض على ذلك بل ابتهج به المسلمون جميعاً وصرح رياض بك الصالح مفخر شبان سوريا بأنه اليوم قد انبثق فجر الوحدة الاسلامية.

نعم ان في فارس اليوم نزعة لادينية تبحث في وقت واحد عن الالحاد في الدين، وعن تاريخ فارس القديم، وتريد التجدد العصري بزعمها، واحياء الفارسية التي مرت عليها ألوف من السنين أي الحديث الأحدث مع القديم الأقدم تحاول الجمع بينهما ولكنها لا تبلغ درجة الفئة المائلة لها في تركيا من جهة الغلو في التجدد مع احياء التركية القديمة. وكنتا الفتيتين لا تقدران على زعزعة الاسلام لاني فارس ولا في تركيا

وهذا ما كنا نشرناه في مجلة المقتطف عن الشيعة تحت عنوان « المتأولة أو الشيعة في جبل عامل (١) »:

اطلعت في المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ أحمد رضا من أدباء جبل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمأولة في هذا الجبل وتأملت فيما أورده من تاريخ ظهورها فيه مع سبب اشتهاار الشيعة في بر الشام دون غيرها باسم « المتأولة » الى غير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت أن أضمر الى هذا البحث بعض ما خطر لي فيه اتماماً للفائدة ووفاء بالبلاغ لامن قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأى الى الآراء والقاء دلوي بين الدلاء فأقول :

ذكر الكاتب أن لقب متأولة مشتق على غير القياس . من تولى أي اتخذ ولياً لانهم تولوا آل البيت النبوي رضوان الله عليهم أي اتخذوهم أولياء أو هو مشتق من تولى أي تتابع نظراً لتواليهم خلفاً عن سلف في موالاته العترة المصطفوية . والذي أراه أن التوجيه الأول هو الأقرب وانه هو الاصل في التسمية فان تولى يأتي في اللغة بمعنى اتبع كما يأتي بمعنى انصرف فكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه في الكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع : « ومن يتولهم منهم

(١) مقتطف أغسطس سنة ٩١٠ م ٧٣٩

فانه منهم « أى يتبعهم وينصرهم . والشيعه قد تولوا آل البيت أى اتبعوهم فقبيل فى اسم الفاعل متولى وتحرفت الكلمه بطول الزمن على السنة العامه فقبيل « متولى » وجعوه متاوله وكان الاولى أن يقال فيه متولىه . والوجه الثانى هو من تولى فى حب آل البيت أى تتابع فيكون اسم فاعله « متولى » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفرده لكن يبقى التحريف فى جمع اذ لا جمع لمتولى على متاوله بل جمعه الصحيح متواليه وقد سمعت وجهاً ثالثاً من فم استاذنا الامام الشيخ محمد عبده المصرى أكرم الله مشاودوهو أنهم كانوا يقولون للعلوى «مُتٌ ولياً لعلى» وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضاً على الثبات فى حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كلمه «مُتَوَلَى» ثم صارت بتوالى الأيام مُتَوَالَى وكلها وجود غير بعيدة والغرابه ليست فيها بل فى كون هذه اللفظه غير معروفه الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبعلبك . فى العراق شيعة لا يقال لهم متاوله وفى اليمن شيعة يقال لهم الزيديه ولا يقال لهم متاوله وفى العجم شيعة أكثر من كل محل ولا يقال لهم متاوله و بين مسلمى الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاوله . وأغرب من هذا أن فى نفس دمشق الشام محبة يقال لها الخراب سكانها من العلويين ويقال لهم هناك روافض ولا يقال لهم متاوله وبالاجال فالشيعة فى جميع بلاد الاسلام تحت ألقاب شيعة وعلويه واماميه وجعفرية وزيدية واثنا عشرية وغير ذلك وكلمه متاوله مخصوصه بشيعة بر الشام

على أن المجانسة فى المعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد فى اللفظتين والولى أو المتولى هو المشايخ أو الملتشيع ورد فى كتاب «غاية الاختصار فى أخبار البويونات العلوية المحفوظة من الغبار» للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسينى تقيب حلب قوله كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ويقال شايعه كما يقال ولاء من الولى والمشايع

هذا ما حضر لى الآن من جهة كلمه متاوله وأنا موافق لصاحب البحث على كونها حديثة العهد جرت على الألسنة منذ مائتى سنة فقط لأن المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظه عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة فى القطر منذ أوائل الفتح الاسلامى أما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع فى الشام وانه من سيدنا أبى ذر الغفارى الذى نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية

الصرفند ومقام آخر في مشارق الغور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان أقرب الأقوال الى الصحة ولكن كنت أحب أن يكون الكاتب أورد النصوص التاريخية من أمهات الكتب أو نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فإن التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظلمة فيه هي التي أضلت كثيراً من المؤرخين في حقيقة أصل الطائفة الشيعية في جبل عامل ، وحملت بعضهم على الظن أنهم قوم أتوا من العجم فلا انكار أن أبا ذر كان موالياً لعلى أى كان شيعياً وأنه من المتخلفين عن مبايعة الصديق يوم السقيفة وله في ذلك شركاء من الصحابة نصت على ذلك الأمهات . فأما مقامه بالشام فغاية ما ذكره فيه أنه كان ينكر على معاوية جمع الأموال ويشنع عليه بهذا السب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٢٥ وفاة أبي ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة قال : « وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان أن اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة » أما تسمية هذا الجبل بجبل عامل أو جبل عاملة فلم أجد الكاتب تعرض لها مع أن فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عرباً لا عجماء وذلك لأن مؤرخي العرب انفقوا على كون حير وكهلان وأشعر وعمرو وعاملة هم ولد قحطان وان أباهم هو يشجب ابن يعرب بن قحطان وان من حير التبابعة وبنى شعبان وقضاة وسن كهلان الازد وطى* ومدحج وهمدان وكندة ومراد وانمار . ومن كل من هؤلاء بطون وأنفاذ كثيرة . وأما أشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها أبو موسى الأشعري وأما عمرو فمنهم ظم وجذام وأما عاملة فخرجوا الى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ، ومنهم عدى بن الرقاع الشاعر وعلى هذا يكون أصل مكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيهم أيضاً قوم من السكاسك وهي قبيلتان على ما حققه ابن الجوزي النسابة الاولى من كندة والثانية من حير وهم بنو زيد بن وائلة بن حير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذي حملني على هذا الظن وجود أرض يقال لها السكسية الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضع كثيرة . قال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين :
 بلد في جبال عاملة . وقال عند ذكر تبينين : بلدة في جبال بني عامل المطلية على بلد بانياس
 بين دمشق وصور . وورد في تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصن الافرنج تينين : ان الملك
 العزيز خرج من مصر لنجدة المساميين في الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخليل
 (الخليل) ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب أنه لم يرد في الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو
 معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هي الى أحد حكامها في
 العصور الوسطى قيل انه من الأمراء بني معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطاني وان كل
 ذلك لم يقم عليه برهان وقوله هذا هو الصحيح أما الامراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم
 من اسمه بشارة . وأما بشارة بن مقبل القحطاني فبدا لو ورد شيء من تاريخه لنعلم أين
 كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من أمره لسكال يمكن ترجيح
 هذه الرواية على غيرها وما دام صاحب هذا الاسم مجهولاً فالأولى أن تكون هذه البلاد
 منسوبة الى حسام الدين بشارة من أمراء الدولة الأيوبية قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين
 يوسف انه أتى عكا فأقام بها معظم سنة ٨٥ ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة
 السور ومعه حسام الدين بشارة وقال أيضاً انه في سادس عشر جمادى سنة ثمان وثمانين وصل
 كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا
 خمسون وخرجوا لشن الغارات في البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد
 من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد

وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين
 للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه أنه كان من أكبر أمراء تلك الدولة
 فلا يمنع أن يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو أقرب وجه في هذه النسبة حتى يقوم
 ما يدل على رجحان خلافه

أما كون التشيع في جبل عامل هو أقدم من العجم بل في كل قطر حاشا الحجاز فمن
 الحقائق التي لا خلاف فيها بل التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الاسلام . فجودت
 باشا في تاريخه يقول ان الشاه عباس هو الذي بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة

الصفوية على أساسه . والمحبي يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدابنده بن طهماسب ابن الشاه اسماعيل بن سلطان حيدر ينتهي نسبه الى الامام على وان أول من بالغ في التشيع وأظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسعمائة وهذا مخالف نوعاً لما قاله جودت باشا وعلى كلا القولين فالتشيع في العجم غير قديم كما أنه في العرب وفي بر الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تتمسك بحبال التقيّة خوفاً على أنفسهم . ولذلك نجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً فقد ترجم المحبي محمداً بن علي بن محمود الشامي العاملي المعروف بالمشغري ونقل عنه ماقاله بن معصوم في السلافة من الثناء والاطراء وذكر أنه خرج من الشام الى العجم ولم يذكره بتشيع ولا رفض وكذلك ترجم حسناً ابن زين الدين الشهيد العاملي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين ابن محمد بن حسن كذلك . انما في ترجمة محمد بن علي بن احمد المعروف بالحريري وبالخر فوشى العاملي الأديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسعى يوسف بن أبي الفتح عند الحكام بقتله بنسبة الرفض اليه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء في بلاده . كذلك عند ما ترجم الخ العاملي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلافة أنه قدم من مكة في سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفي الثانية منهما قتلت الأتراك جماعة من العجم لما اتهموهم به من تلويث البيت الشريف وان المترجم خاف على نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان ونجا . وذكر المحبي أن ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكان رجلاً متعبداً الا أنه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ذكر أنه ولد بيبلك غروب شمس الأربعاء لثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وخسين وتسعمائة وانتقل أبوه الى بلاد العجم وما زال يتدرج في سلم الفضل الى أن ولى مشيخة الاسلام في تلك الديار . وقال « وغالت تلك الدولة في قيمته واستمطرت غيث الفضل من ديمته فوضعت على مفرقها تاجاً وأطلعت في مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس فكان لا يفارقه حضراً ولا سفيراً الخ » ثم نقل عبارة الطالولي في حقه التي أطراه فيها بما لم يسمح به لأحد وقال ان شاه عباس طلبه لرياسة علماء بلاده لكنه لم يكن على مذهب الشاه في الزندقة لانتشار صيته في

سداد دينه الا أنه غالى في حب آل البيت . وذكر المحبى أنه لما نزل الشام نزل بمحلة الخراب وهي الآن محلة الشيعة . ونقل في حقه عبارة للشيخ أبى الوفاء العرضى وهي أنه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم حضر دروس الوالد أى الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله أدلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر فردّه عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضى تفضيل المرتضى فشمته الوالد وقال له (رافضى شيعى) وسبه فسكت ثم ان صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه فصنعها ودعاها فأخبره أن هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمونا فقال له : ما علمت أنك المنلا بهاء الدين . ثم قال : أناسى أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطانتنا شيعى ويقتل العالم السنى . قال المحبى ولما سمع بقدمه أهل جبل عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجا تخاف أن يظهر أمره نخرج من حلب

ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا الازالون معتصمين بالنقية مكتمين لأمرهم مئين من السنين لأنه لا جدال في كونهم موجودين في الشام من أوائل الفتح الاسلامى ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عَرَضاً وربما لم يذكروه أصلاً . ومما يدل على القدم والتكتم كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة ويقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية أى القائلين بالأئمة السبعة وقع ذلك في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع . فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه الطوائف التى خرجت منهم ومنازل الفريقين لا تزال متناوذة مما يستدل على وحدة الجرثومة فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحددة في الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف راجعة في أصلها الى العرب والله تعالى من وراء العلم

التشيع

ايهما فيد أقدم الشام أم العجم^(١)

طالعت ما ورد في المقتطف من أحد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لي ولأجد افندي رضا من أدباء جبل عامل بان التشيع هو في الشام أقدم منه في كل قطر حاشا الحجاز فالفاضل التبريزي يريد أن مجرد الاستدلال العقلي على أقدمية التشيع في الشام باقامة أبي ذر الغفاري في نواحيه ومخالفته لخليفة عصره هو غير سديد إذ أهالي مصر حينئذ يجب أن لا يتأخروا عن أهل الشام في التشيع لأن محمد بن أبي بكر كان عندهم وهو من ألد الخصوم لعثمان (رضي الله عنه) ويقول أيضاً ان مبدأ التشيع في العجم هو في أيام الدعوة العباسية إذ معلوم ما ظهر من ميل أهل خراسان الى تأييد أمر العلوية وان تلك البلاد كانت منذ ذلك الوقت مركزاً لعلماء الامامية. وانه اذا ورد في تاريخ المجي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع في فارس في أيام السلطان حيدر أو الشاه اسماعيل فربما كان مقصدها عموم التشيع جميع ايران وجعله مذهباً رسمياً

والجواب على ذلك أن التشيع بدأ منذ أيام سيدنا على كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينه وبين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) قسمين قسم كان مع على وقسم كان مع معاوية ووقع هذا الانقسام نفسه في الحجاز ثم في الشام التي لم يطبق جميع أهلها على مناوأة على يومئذ فكان منهم من بقى على موالاته فلهدنا قلنا ان الشام في التشيع أقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسه لذلك العهد قد تبسط في فارس حتى يتبسط فيها مذهب من مذاهبه فان لم يكن ثبت الأصل فكيف يثبت الفرع ؟

نعم ظهرت الدعوة العباسية في خراسان ومرو في أواخر الدولة الأموية حينما هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بني أمية فوجدوه في ذلك السواد وهو خراسان ملبياً لدعوتهم وناصرراً لكلمتهم ، وتم الخروج على الأمويين ، ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء

(١) المقتطف يناير ١٩١١ ص ٧؛

العباس وكانوا في الأول يداً واحدة مع أبناء عمهم العلوية ، ولكن لا يصح أن يقال ان الدعوة العباسية هي نفس الدعوة العلوية ، بل يقال هما شعبتان من أصل واحد ، وان الدعوة العباسية هي غير التشيع . وعلى فرض كان ذلك كذلك فأين الأيام التي يقول عنها مناظرنا الفاضل وهي أيام اجابة العجم لدعوة بني العباس من ايام انقسام أهل الحجاز والشام بين علي ومعاوية . فان بين العهدين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام علي سنة ٣٥ وكانت خلافة أبي العباس السفاح العباسي سنة ١٣٢

فاذا ثبت ان أهل الشام انقسموا بين علي ومعاوية في أثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد ، وأما التشيع في بلاد العجم فلو عدنا القيام بأمر بني العباس تشيعاً علوياً محضاً وهو ليس كذلك فلم يظهر الا في أواخر دولة بني أمية أيام مروان ابن محمد . ولهذا حكمنا بسبق الشام للعجم في تاريخ الشيعة . وهناك دليل آخر . وهو انه لو كان أهل فارس مشايعين لآل علي في قيامهم بدعوة بني العباس لما قاموا بمبايعة رجل عباسي حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الأمر لنفسه وانما كان القائمون يومئذ بنصرة العلوية هم من العرب لا من العجم

فما وقع الانقسام بين العلوية والعباسية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (الحسن) بن علي بن أبي طالب وهو الملقب بالنفس الزكية بالمهدى علي أبي جعفر المنصور أخي السفاح تبعه أهل المدينة وقتلوا من دونه حتى قتل ولم يكن خروجه في العجم ولا قاتل معه أحد من فارس ثم خرج أخوه ابراهيم في البصرة طالباً البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتله وأجاب دعوته خلق وانهمز من أمامه سفيان بن معاوية أميرها واستولى على الاهواز وواسط وسار الى الكوفة وقد أحصى ديوانه مائة ألف وكاد يتم له الفوز لولا ما قضى الله من هزيمته أخيراً وقتله وذلك سنة ١٤٥ ولم نقرأ انه قام بنصرته أحد من خراسان ولا في مرو ولا في جميع فارس

ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضوان الله عليهم أجمعين) وذلك في خلافة الهادي بن المهدي العباسي ، وكان ظهوره في المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بني العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل

وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأتى مصر ، فأرسله واضح عامل البريد وكان شيعياً على البريد الى المغرب . وبلغ ذلك الهادي فضرب عنق واضح . ومات ادريس بالمغرب وولد له ادريس الأصغر الذي أسس دولة الأدارسة بالمغرب مما ليس هنا محل تفصيله . ولم يكن لفارس أقل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت يومئذ بل انحصرت في الحجاز والعراق والمغرب

وسنة ٢٠١ عندما أوصى المأمون بولاية عهده الى الامام علي بن موسى الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولقبه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضر شعار العلويين وكتب بذلك الى الآفاق صعب ذلك على بني العباس وامتنع بعض أهل بغداد عن البيعة وأدى الأمر الى فتنة وبويع ابراهيم بن المهدي بالخلافة وكان المأمون في مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهزم الثأرون على المأمون فلم يسمع ان عرفاً في العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولبسه الخضر وطاوعه الأكثرون وصار أهل العراق يدخلون عليه في الثياب الخضراء ويحرقون كل ملبوس يروونه من السواد . ولولا وفاة الامام علي الرضا سنة ٢٠٣ لم يبق المأمون على عزمه في التخلي عن الأمر للعلوية . فلو كان التشيع يومئذ واشج العروق في أرض العجم لما سبقهم أحد الى الموالاتة والمظاهرة ولتقدموا فيه على العراقيين الذين هم أولى بنصرة بني العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهي أول دولة علوية حقيقية استوثق لها الأمر ولم تكن أيامها نزق نائر ولا فتنة خارج بل دولة راسخة متأثلة زاحمت دولة بني العباس بالمناكب ابتدأت سنة ٢٩٦ واستمرت الى سنة ٥٦٧ كان أول ظهورها في افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز ، حتى خطب بدعوتها الأمير الساسيري في العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم ان عبد الله القداح الذي كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحي اصفهان الى الأهواز والبصرة ثم الى سامية من أرض حص داعياً فكان قصده بلاد العرب . وبديهي انه لو وجد في بلاد العجم يومئذ مثاراً لدعوة أو مستورى لزند لما رحل عنها الى

غيرها ثم خلفه ابنه احمد فصاحبه رستم بن حوشب من أهل الكوفة فاختر لبث دعوته اليمن وهناك التقى ابن حوشب بأبي عبد الله الشيعي فاصطحبا واتفقا على بث الدعوة في افريقية فسار أبو عبد الله الشيعي اليها وأجابت دعوته قبائل كتامة وقاتل بني الأغلب فقهرهم فكانت هذه البلاد منبتا لأكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستمائة سنة .

وفي سنة ٢٥٠ عند ماظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة واستولى عليها ولكن خانة السعد فظفرت به جيوش العباسيين وقتل وحُمل رأسه الى الخليفة المستعين ولا نعلم فيما يحضرننا من التاريخ وان يكن ما نعلمه فيه أقصر من أن يسمى عالماً ، ان دولة علوية قامت في العجم فعلا الى زمان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي قام بطبرستان وكثر جمعه واستولى على طبرستان وجرجان وسمى بالداعي الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعده الناصر الحسن بن علي المعروف بالاطروش وتوفي سنة ٣٠٤ وقام من بعده الحسين بن القاسم العلوي ويلقب بالداعي وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموته ملك العلويين في هانك الديار

ولا أريد أن أقول بهذا ان التشيع لم يعرف في العجم الا في هذا العهد بل انما أقصد كونه عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانه أيضاً لم يكن في العجم شائعاً كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجم الغفير من أئمة أهل السنة من بلاد العجم . أما ابتداءه في العجم فيرجع الى أواخر القرن الأول قال ياقوت الحموي عند ذكر قم ما يأتي : ذكر بعضهم ان قم بين اصبهان وساوه وهي كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلهم شيعة امامية ، وكان بدء تمصيرها في أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان أمير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليه وكان في عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم أتى الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان في جلة اخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري وقعوا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كندات فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى فتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها واتقلوا اليها واستوطنوها

واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرى سبعة محال بها وسميت باسم احدهما كندت فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمماً . وكان مقدّم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قدرني بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميا وهو الذي نقل التشيع الى أهلها فلا يوجد سني قط . ومن ظريف ما يحكى انه ولي عليهم وال وكان سنياً متشدداً فبلغه انهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغني انكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ وانكم لبغضكم اياهم لانتمون اولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تغيثوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي انه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن . فاستمهلوه ثلاثة أيام وقتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلاً صعولاً حافياً عارياً أقبح خلق الله منظراً اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك فجاءوا به فشتهم وقال: جئتموني بأقبح خلق الله تتنادرون عليه وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم: أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم اه .

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن استاذ الامام الكبير الشيخ جمال الدين الافغانى أكرم الله مثواهما

وعلى هذا فيكون التشيع في بلاد العجم مخصوصاً بقم وبعض أماكن وكانت تقع بين الشيعة وأهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ . وفي الثالث الأول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بأمر الخلافة وصار الخليفة آلة في يدهم وكانوا شيعة وأصلهم من الديلم وبقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ ولكن لم يغلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الأقطار الإيرانية وصار مذهب الدولة الرسمي الا في أيام الملوك الصفوية في أواخر القرن التاسع كما ذكر المحي وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

أما التشيع في جبل عامل وأطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الأدلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح . وقد يأتي التاريخ في أثناء سرد الحوادث وتأتي كتب السير والتراجم بما ينبئ عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ماورد في طبقات الشافعية للعلامة السبكي في ترجمة الفقيه أبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي المعروف بابن أبي

حافظ وهو قوله تفقه على الفقيه سليم (١) ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازروني ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور وأقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة . ثم ذكر وفاته في سنة ٤٩٠ بدمشق .

وقال ياقوت الحموي عند ذكر الكرك : قرية في أصل جبل لبنان وليس هو القلعة التي يقال لها الكرك بفتح الراء ونسب اليها أبا الرضا الكركي . وقال كان ثقة في الحديث ، متقناً لما يكتبه الا أنه كان رافضياً مات سادس عشر ذى الحجة سنة ٥٦٢ كذلك في رحلة ابن بطوطه في القرن الثامن ما يدل على وجود الشيعة في هذه الأماكن (٢) ومن هنا استدللنا على كون التشيع معروفاً في جبال الشام من أيام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام في هذا المعنى قطر الا الحجاز ولا يساويها فيه الا الكوفة



وكتب الاستاذ الشيخ احمد رضا في خطط الشام المجلد ٦ ص ٢٥١ بعنوان (الشيعة) (بلا توقيع) نفي به مقاله بعض الكتاب من أصل مذهبهم من بدعة عبد الله بن سبا وتبسط قليلاً في الدليل على وجودهم في زمن علي عليه السلام في جبل عامل ومما جاء به ماورد في كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمي رواية مستدة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على أنه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى « أسعار » أهلها من الشيعة . وأسعار هذه خرابة بين مجدل شمس وجبانا الزيت . وهناك نهر يعرف بنهر أسعار وهي على طريق القادم من الشام الى جبل عامل . وذكرت منازل الشيعة في بر الشام . ثم معتقدات الشيعة وما خالفوا فيه أهل السنة أو خالفهم فيه أهل السنة .

(١) يريد سليماً الرازي الشير بصور

(٢) (المقتطف) وقد ورد ذكر الشيعة في رحلة ابن جبير وكان في دمشق سنة ٥٨٠ للهجرة قال : « وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من الذين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السابيون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلي رضي الله عنه ومنهم الغرابية وهم يقولون ان علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب »

ترجمة القرآن الى غير العربية

على ذكر المؤلف الترك وعلاقتهم بالاسلام والحضارة الاسلامية

للأمير شكيب

- الترجمة الى التركية
- قصة محمود بن سبكتكين .
- فتوى الشيخ محمد بن حنيت مفتي الديار المصرية .
- مقال الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر سابقا .
- ما لجواز الصلاة بالترجمة من التأثير في الأمم الاسلامية غير العربية .
- مقابلة بين العربية للمسلمين واللاتينية للامم الكاثوليكية

ثم في سنة تجديد طبع هذا الكتاب أي سنة ١٩٣٢ مسيحية بدأوا يجربون اقامة الصلاة نفسها باللغة التركية ، ويقرأون القرآن بالتركية مترجماً وقد أحدثت هذه المسئلة ضوضاء في تركيا وفي العالم الاسلامي كما لا يخفى . ورأى الأتراك الجسد هو أن الأتراك لا يقدر أن يفهموا القرآن بالعربية فما صلاة انسان لا يفهم ما يتلو؟ ورأى الأتراك المحافظين وسائر المسلمين هو أنه لا بأس في ترجمة القرآن الى التركية ، وتفسيره بالتركية ، ليفهمه الترك الا أنه لا بد من الصلاة به في أصله العربي ، وذلك لأن الترجمة قد تنحرف بالكلام الالهي عن معناه الأصلي ، ولأن الترجمة تفقد الأصل كثيراً من فصاحته وبلاغته ، وعلى كل حال يرى هؤلاء أن الصلاة بالقرآن مترجماً الى التركية بدعة سيئة . وأنصار الصلاة بالقرآن المترجم يحتجون على جوازها برأى الامام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . ومن الناس من يقول : ان أبا حنيفة كان أجاز الصلاة بقرآن مترجم ، الا أنه رجع عن رأيه هذا فيما بعد .

ولقد نقل ابن خلكان في وفيات الأعيان قصة جرت أمام السلطان محمود بن سبكتكين وهو أنه جمع العلماء بين يديه في مدينة مرو وانتدبهم للمقابلة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي فقرروا أن يصلي أحدهم ركعتين على مذهب أبي حنيفة ، وآخر ركعتين على مذهب الشافعي لينظر السلطان فيهما ويختار فصلّي القفال المروزي صلاة الشافعي بالطهارة المسبغة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب الخ وقال : هذه صلاة لا يجوز الشافعي غيرها . ثم صلى صلاة الحنفية وتساهل في الطهارة واللبس والنية والائتان بالأركان والهيئات الى غير ذلك مما حكاه ابن خلكان ، نقلاً عن امام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ومن جملة ذلك أنه قرأ آية من القرآن بالفارسية « دوبركك سبز » ثم قال : هذه صلاة أبي حنيفة . فأنكر علماء الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة ، فطلب القفال احضار كتب أبي حنيفة فأحضرت وقرأ ما يتعلق منها بالصلاة فوجد طبق ما فعل القفال فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة وتمسك بمذهب الشافعي رضى الله عنهما . وهذه الرواية التي رواها ابن خلكان فيها نظر من جملة وجوه ، الاول ان كل من قرأ « وفيات الأعيان » من أوله الى آخره يلحظ عند ابن خلكان تحاملاً ظاهراً على أبي حنيفة ، والحنفية ، وتعصباً شديداً للشافعية الثاني أن امام الحرمين ، والقفال المروزي ، كلاهما أيضاً شافعي يريد اظهار مزية مذهبه ، الثالث أننا لا نعتقد جواز صلاة الحنفية على الوجه الذي زعمه القفال الا في حال الضرورة . وليس هذا بقادح في المذهب الحنفي اذ كان الاسلام كله يراعى الضرورات ويقدرها بقدرها ، ولذلك جاء في الحديث « انما بعثت بالحنيفية السمحة » . بقى أن ترجمة القرآن الى الألسن الأخرى لا خلاف في جوازها عند الحنفية . أما الصلاة بالترجمة فلو كان هذا الرأي هو المعول عليه في المذهب الحنفي لكان الأتراك منذ ألف سنة أي منذ اسلامهم يصلون بالتركية وليس الحال كذلك ولقد بلغنا أن مشيخة الأزهر بمصر ألفت لجنة خاصة بموضوع ترجمة القرآن للبحث فيه واصدار القرار الذي تطمئن به خواطر المسلمين في هذا الشأن وسرى ما يكون من هذه اللجنة . أما « دوبركك سبز » فهي ترجمة ورقتين خضراوين أي قوله تعالى (مدهامتان)

وأما الترجمة التي أخرجوها بالتركية للقرآن الكريم فلا يكاد التركي نفسه يقرأها لا لركا كتبها في نفسها بل لركا كتبها في جانب الأصل

ولما كانت مسألة ترجمة القرآن قد أخذت دوراً عظيماً في هذه الأيام ، وكان الامر جداً ليس بهزل ، أحيينا أن لا يخلو هذا الكتاب من خلاصة أثيرة في هذا الموضوع . فإباحة ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة يتولد عنها محاذير كثيرة ، لان القرآن ينبغي أشد المحافظة على أصله ، وهو قد نزل بلسان عربي مبين ، ولا يمكن فهم حقيقة اعجازه وخوارق فصاحته وبلاغته الا باللسان العربي الذي نزل به ، فإذا تعاورت الايدي كتاب الله بالترجمة مع ما فيها من الوعورة ومن تعذر تطبيقها على الأصل ومن اختلاف مناهج البيان بين اللغات لم يخل الأمر من وقوع تحريف في كتاب الله . كما أن تحريم الترجمة البات ومنع الصلاة بها حتى للعاجز ، يكونان من العقبات في وجه انتشار الاسلام الذي أربعة أخماس أتباعه وربما أكثر من ذلك هم من الأمم الأعجمية ، فكانت الحكمة تقضي بالتوسط بين الأمرين ، وهذا ما فعله الامام الاعظم أبو حنيفة رضي الله عنه . نعم انه في أول الامر قد أفرط في التوسيع والرخصة وعلى ما يظهر أجاز الصلاة بالترجمة حتى لغير العاجز ولكنه عاد فيما بعد الى رأى صاحبيه أبي يوسف ومحمد ، وهو منع الصلاة بالترجمة على القادر الذي يمكنه أن يتلو ما تيسر من القرآن نفسه واجازة ذلك للعاجز .

ومن حيث انه قد سبق هذا البحث منذ بضع سنوات وصدرت فيه فتوى للاستاذ العلامة الشيخ محمد بنحيت مفتي الديار المصرية فلا بأس من أن نورد هنا خلاصة هذه الفتوى فقد نقل الاستاذ بنحيت ما قيل في قضية ارشاد المساميين لاهل الكتاب ، وتعليمهم القرآن ، فقال ان أبا حنيفة يرى جواز تعليم الحرابي والذمي القرآن والفقهاء رجاء أن يرغبوا في الاسلام . وقد أخذ أبو حنيفة هذا من قوله تعالى « **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** » ومن أنه روى كونه النبي ﷺ مر على ابن ابي ، قبل أن يسلم ، وفي المجلس أخلاط من المساميين والمشركين فقرأ عليهم القرآن . وأما الامام مالك فمنع تعليم القرآن غير المساميين . وأما الامام الشافعي فله في المسئلة قولان . ويظهر أن الشافعي يبيح تعليم القرآن لمن يُرجى منه الرغبة في الاسلام ويمنعه اذا حصل الظن بأن المقصود منه هو الطعن في الدين

والذي يظهر من كلام الشيخ بنحيت لا مجرد ترجيح الجواز لترجمة القرآن فقط بل

الحث على ترجمة كتاب الله ترجمة صحيحة ، تفاديا من التحريف والنشويه المذنبين بتعمدهما أعداء الاسلام ، وعاملاً بأن كثيرين من الملل الأخرى ينشوقون الى الاطلاع على حقيقة القرآن ، وهذه التراجم الفاسدة المنتشرة في أوروبا تضلل عليهم الطريق التي بها يتصلون الى الحق . ويقول الشيخ بخيت ان ترجمة القرآن للتعليم والتفهيم والتعلم والتفهيم والانداز والتبليغ قد أجازته الحنفية والحنابلة وأجازته الشافعي في قول بلا تفصيل ولكن منعه مالك . وأما اعتياد قراءة القرآن بغير العربية التي نزل بها ، أو كتابة المصحف بلغة أخرى غير العربية ، أو بالعربية مخالفة لخط المصحف العثماني ، فهذا ممنوع أشد المنع اتفق الأئمة في ذلك . وقضية ألفاظ القرآن وكتابه وترتيب سورته وآياته انما تؤخذ بطريق النقل عن الشارع ، أما الصلاة بترجمة القرآن ، فان كان قادراً على أن يتلو شيئاً منه لم يجز له أن يقرأ بالترجمة ، وأما ان كان عاجزاً عن قراءة أي شيء منه بأصله جازت الصلاة بالترجمة . وهذا الجواز للعاجز في قول الحنفية فقط . أما عند غيرهم فلا يجوز مطلقاً . ولا يسقط فرض الصلاة عن المكلف اذا أقامها بالترجمة

أما الاستاذ الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر سابقاً فقد نشر في هذه الايام مقالةً طويلاً استقصى فيه هذه القضية ، ونقل عن شمس الأئمة السرخسي هذه العبارة : وأصل هذه المسئلة اذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة رحمه الله ويُسكروه ، عندهما أي عند صاحبين لا يجوز اذا كان يُحسن العربية . واذا كان لا يُحسنها يجوز . وأبو يوسف ومحمد رحمهما الله قالا : القرآن مُعجز والاعجاز في النظم والمعنى . فاذا قدر عليهما فلا يتأدى الواجب الا بهما ، واذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه ، كمن عجز عن الركوع والسجود يصلّي بالايماء ، وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما روى أن الفرس كتبوا الى سامان الفارسي رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك في صلاتهم حتى لانت ألسنتهم للعربية

ونقل الشيخ المراغي عن شرح السكندر للزيلعي هذه العبارة : وأما القراءة بالفارسية بجائزة في قول أبي حنيفة . وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز اذا كان يحسن العربية لان القرآن اسم لمنظوم عربي لفوله تعالى : (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) . وقال تعالى : (اِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) والمراد نظمه ، ولأبي حنيفة قوله تعالى : (اِن هَذَا لَفِي الصِّحْفِ

الأولى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وصحف إبراهيم كانت بالسريانية ، وصحف موسى كانت بالعبرانية فدلّ على كون ذلك قرآناً : الى أن يقول : ويجوز بأى لسان كان وهو الصحيح لأن المنزّل وهو المعنى عنده لا يختلف باختلاف اللغات . والصحيح ان القرآن هو النظم والمعنى جميعاً لانه معجزة للنبي ﷺ ، والاعجاز وقع بهما جميعاً الا أنه لم يجعل النظم ركناً لازماً في حق جواز الصلاة خاصة رُخْصة ، لأنها ليست بحالة الاعجاز . وسُئِلَ عمر النسفي عن لا يحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن ، هل يكافئ تعلم تلك اللغة غير العربية فقال نعم ، لان تعلم القرآن فرض لاقامة الصلاة . ومذهب أبي حنيفة أن القرآن لا يختص بالنظم العربيّ في قوله الأول الذي رجع عنه فيفرض عليه تحصيل ذلك كما يفرض عليه تعلم القرآن بالنظم العربيّ لمن قدر عليه . وعندهما (أي عند الصحابين) تجوز قراءة القرآن بغير العربية اذا كان لا يحسن العربية فقد وافقاه أي ان الصحابين وافقوا أبا حنيفة في أنه يصير قرآناً عند العجز عن أدائه فيفرض ذلك عليه بالاجماع في هذه الحال

نقل المراغي أن الحبيب العجمي صاحب الحسن البصري قدس الله سرهما كان في الصلاة يقرأ القرآن بالفارسية لعدم انطلاق لسانه بالعربية . ونقل أيضاً عن أبي حنيفة في الرجل يفتتح الصلاة بالفارسية أو يقرأ بالفارسية أو يذبح ويُسمّى بالفارسية وهو يحسن العربية قال الامام : يجزئه في ذلك كله .

وقال أبو يوسف ومحمد : لا يجزئه في ذلك كله الا في الذبيحة ، وان كان لا يحسن العربية أجزاءه . قال الصدر الشهيد في شرحه على الجامع الصغير لمحمد بن الحسن . وهذا تنصيص على أن من يقرأ القرآن بالفارسية لا تفسد الصلاة بالاجماع ، ونقل عن معراج الدراية ان ترجمة القرآن تسمى قرآناً مجازاً ، فيقال ليس ذلك بقرآن وانما هو ترجمة . قال : وانما جوازناه للعاجز اذا لم يُنْخَلْ بالمعنى لانه قرآن من وجه ، باعتبار اشتاله على المعنى فالانبيان به أولى من الترك اذ التكليف بحسب الوسع وهو نظير الايمان .

والشيخ مصطفى المراغي يرى فيما يظهر في هذه المسئلة رأى الصحابين أي جواز الصلاة بترجمة القرآن للعاجز قياساً على جوازها بالايمان لمن عجز عن القيام . ولكن الشيخ المراغي لا يقطع بكون أبي حنيفة رجع عن رأيه الأول اذ يقول ان رواية الرجوع رواها أبو

بكر الرازي مرة ، ورواها نوح بن مريم وعلى بن الجعد ، وقد أغفلت مرة واحدة في كتاب الامام محمد . وأغفلت أيضاً في شرح المبسوط للسرخسي وفي كتب قاضيخان والشيخ المراغي لا يريد بهذا ترجيح عدم رجوع أبي حنيفة ولكنه يقصد أن رجوع أبي حنيفة الى رأى صاحبيه لم تتفق فيه الروايات . قال : فإذا نظرنا الى ذلك نراهم ، أي علماء الحنفية ، متفقين على أن التكليف بالوسع ، وأن الترجمة للعاجز هي التي في وسعه ، وانها خلف عن النص العربي يقام مقامه عند العجز كما يقام الائمة عند العجز مقام الركوع والسجود ، ولم نعهد في التشريع ان المكلف مؤخراً في الخلف . بل الذي عهدناه أن الخلف يأخذ حكم الأصل ويحل محله . واذا تأملت قولهم : ان المعنى لا يختلف باختلاف اللغات تراهم يريدون أن لا تخلو الصلاة من القرآن اما بلفظه ومعناه واما بمعناه فقط فهم حريصون على أن تكون المناجاة لله بكلامه أو بمعنى كلامه وهم حريصون على تحصيل المقاصد ، وجعل الصلاة صورة حية مملوءة بالشعور بجلال الخالق وعظمته ، وفي معاني القرآن الكريم من العظات والعبر ما يملأ القلب روعة ورهبة وخشية ، وبركتها لا يمكن أن تذهب بنقلها الى لغة أخرى والمناجاة بالمعاني خير وأبقى من وقوف المكلف صامتاً .

ثم أورد الاستاذ المراغي عدداً من الآي الكريمة وقال انه لا يتردد لحظة واحدة عن القول بان جمال معاني هذه الآيات لا يمكن أن يفارقها في اللغات الاخرى ، نعم قد تضيع روعة هذه الألفاظ ، ولكن تبقى روعة المعاني والمناجاة محتاجة الى هذه الروعة ، ولا يسع منصفاً الا الاعجاب بأراء فقهاء الحنفية في هذه المسئلة والله هم حيث قالوا : ان الصلاة حالة مناجاة لا حالة اعجاز وللعالم الاسلامي الحق في أن يفخر باولئك العلماء الذين استنبطوا هذه القواعد وهذه المدارك الدقيقة . وفي الحق ان فقهاء الحنفية هم الملجأ دائماً في حل المعضلات الاجتماعية ولا نستطيع أن نفهم حقهم من الثناء

واعترض الاستاذ المراغي على من قال بعدم جواز الصلاة بالترجمة بناء على أن الترجمة ليست قرآناً وان ما كان كذلك كان من كلام الناس . قال المراغي : وهو غير صحيح ، لان الترجمة وان كانت غير قرآن بالاتفاق ، تحمل معاني كلام الله ، ومعاني كلام الله ليست كلام الناس ، وعجيب أن نسلب من معاني القرآن صفاتها ، وجاهاً ، وتوصف بأنها من جنس كلام الناس بمجرد أن نلبس ثوباً آخر غير الثوب العربي كأن هذا الثوب هو كل شيء .

ونحن نوافق الشيخ المراغى فى أن الصلاة بالترجمة للعاجز خير من السكوت ، ومن عدم تلاوة شىء لا من الأصل ولا من المعنى . ولكننا نخشى من أنه اذا فتح هذا الباب على مصراعيه ، كثر العدول عن أصل القرآن الى الترجمة لما فى ذلك من السهولة على الأعاجم . ويؤيد ذلك الشعوبية ممن يكرهون العرب لما رُب سياسية ، فيتمهى الأمر أخيراً بعدول مئات ملايين من المسلمين عن الصلاة بالقرآن الأصلى الى الصلاة بتراجم مهما بالغ المترجمون فى تحريرها والتدقيق بها ، فلن تكون شيئاً بالنسبة الى الأصل .

وقول الاستاذ المراغى ان للمعانى روعة لا يسلبها ايها اختلاف الالفاظ ، نُجيب عليه بأن روعة المعانى لا يبقى منها الا القليل اذا لم تلبس القوالب اللاتقة بها . وقد أجمع أرباب البيان فى الشرق والغرب على أن النقل من لغة الى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها لا سيما اذا كانت الترجمة حرفية . فاصرار القائلين بعدم جواز ترجمة القرآن مبنى على خوفهم من تعدد القرآن وعلى ما يلاحظون من دخول السياسة فى هذا الموضوع أى ان أقواماً أرادوا الابتعاد عن الاسلام من أصله ، فعجزوا عن ذلك لتمكن الاسلام فى صدور الأمم التى يديرون هم شئونها ، فرجعوا الى أسلوب آخر وهو ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة لتكون لهم الخطوة الأولى فى الابتعاد عن العرب وعن الاسلام معاً .

وربما كان الاستاذ المراغى لا يعلم من هذا الأمر كل مانعنا نحن ، فهذه المسئلة ليست بحديثة ، ولقد بدأت المناقشة فيها بين رجالات الأتراك فى أيام الحرب العامة . وكان منهم نفرٌ جاهر بوجود التفصى من الاسلام من أصله ، فاقام الآخرون عليهم التكبير ، وبنوا لهم استحالة هذا الأمر وأن التثبت به يفضى الى ثورة تأتى على الحرث والنسل ، لان الأتراك لا يرضون بالاسلام بدلاً . فعند ذلك قال اولئك الملاحدة الذين كانوا يريدون القضاء على الاسلام : اذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين . فليكنُ اسلامنا تركياً . وارتفع منه كل ما فيه رائحة عربية

وكان رأس القائلين بهذه المقالة الفاسدة ضياء كوكب أنب المفكر المشهور عندهم الذى توفى بعد الحرب والله المستعان ، وقد بقيت هذه الافكار تعمل فى تركيا الى أن انتهت الحرب ، ثم الى أن تأسست أنقرة وأخذت بالسياسة اللادينية المحضة التى يكون من العبث محاولة تغطيتها والمكابرة فيها — كما يفعلُ بعضهم — فكان من جملة ما قامت به الفئسة السكالية من الأعمال الرامية الى ابعاد الترك عن الدين الاسلامى والثقافة العربية ، السعى

بترجمة القرآن الى التركية واجازة الصلاة بها . وهم لا يقيدون هذا الجواز بالعجز ، بل يريدون أن يجعلوه عاباً للقادر والعاجز معاً حتى يصير هو القاعدة ، وربما ينقلب الى الضد اذا طالت أيام الملاحظة في أنقرة فتصير الصلاة بالقرآن الاصلى ممنوعة ، وربما يعاقب حينئذ عليها كما يمنعون الآن عرب ولاية اطنه من التكلم بالعربية والكتابة بها . ولنا شواهد على ذلك منع حكومة أنقرة الحج ، وهو من أركان الاسلام ، والغاؤه الشرعية الاسلامية بأسرها في المعاملات ، واقامتهم الأمة التركية على القانون السويسرى المدنى . فمن يفعل هذه يفعل تلك ولا يبعد عنه شئ . واذا جازت عادة الصلاة بالتركية فى الاناضول عمت جميع الأمم التى لا تتكلم بالعربية ، كسلسى أوريا من أرناؤوط وشناق وأترار وتتر ، ثم صارت الى العجم والى الهند والصين والجاوه . ولو كانت قضية الصلاة بالترجة هى بتلك الدرجة من السهولة عند علماء الحنفية الذين لم يكونوا يجهلون رأى الامام الاعظم وصاحبيه ، لكانوا أجازوا الصلاة بالتركية من قديم الزمان ، والحال انهم لم يكونوا يصلون الا بأصل القرآن ولا يزالون كذلك . وكانوا يرون أن الانسان مهما بلغت به الأمية والسذاجة فلا يعجز عن حفظ بعض آيات يلقنه اياها والداه أو شيخ محله أو رجل من اخوانه .

وبالاختصار فنحن على رأى أبى يوسف ومحمد الذى رجع اليه أبو حنيفة من جواز الصلاة بالترجة للعاجز ، لكن بعد أن يتحقق عجزه التام عن حفظ شئ من القرآن وهو مع ذلك مكلف أن يتعلم شيئاً منه يقيم به صلاته ولكننا لانرى التوسع فى الجواز لما نخشى فيه من انقلاب المسئلة الى دسيسة سياسية قومية يتسع خرقها باسم المذهب الحنفى ، ونرى أن الأولى باخواننا الترك أن يستمروا على ما كانوا عليه الى الآن من أمر الصلاة بالعربية ، وأما اذا كانوا يريدون فهم معانى القرآن وهو أمر لازم فيقدرون أن يترجوه وأن يترجوا تفاسيره الكثيرة فيفهموا من معانيه ما يستعجب عليهم . وهانحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية فى سلم المدنية ، وراقية جداً ، مثل الفرنسيس والبلجيك والنمساويين ، وما يزيد على الثلث من الألمان ، ونحو من الربع من الهولانديين ، ثم امة المجر ، وأمة التشيك ، والبولونيين ، ثم الايرلانديين ، ثم الامة الايطالية ، والامة الاسبانيولية ، والامة البرتغالية ، وجميع سكان أميركا الجنوبية ، وأهل أميركا الوسطى ، وخمسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية ، وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية ، بدون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها الا نزر لا يذكر ، وانما يفسرون لهم ما يريدون

فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتينية الى ألسنتهم ، اذن هذه سبيل ليس الاسلام فيه بأوحد ، فكما ان اللغة اللاتينية هي لغة دينية لثلاثمائة وخمسين الى أر بعامة مليون مسيحي كاثوليكي فاللغة العربية هي اللغة الدينية ويجب أن تبقى اللغة الدينية لثلاثمائة وخمسين الى أر بعامة مليون مسلم . بل العربية أولى بهذا التخصص لأن كتاب الاسلام السماوي انما نزل بها ، ولم يكن كتاب النصارى السماوي قد كُتب باللاتينية من أصله ، بل اللاتينية هي لغة الكنيسة الرومانية ، قد ترجوا الانجيل اليها من اللغات السامية . ثم ان العربية هي لغة حية يتكلم بها نحو سبعين مليوناً من البشر ، واللاتينية لم يبق واحد في الدنيا يتكلم بها بل صارت من قبيل الآثار التاريخية .

ثم أورد الاستاذ المراغى أقوالاً عن الصدر الشهيد ، وعن شارح الهداية وعن الزيلعي ، وعن أبي يوسف ما يستظهر به على جواز قراءة شيء من ترجمة القرآن بعد تلاوة الفرض من النص العربي ، وقال ان هذه النصوص صريحة ، لا تحتمل التأويل ، دالة على جواز ضم الترجمة الى النص العربي ، المفروض للقادر على العربية ، ولكنه أورد نصوصاً أخرى على عدم جواز قراءة الترجمة مع الأصل ، ويظهر أنه وقع خلاف بين الفقهاء في ذلك ، وقد رجّح صاحب الفتح فساد الصلاة التي تكون بهذه الصفة اذا كان المقروء من الترجمة قصة أو أمراً أو نهياً وقال بالجواز اذا كان المقروء ذكراً أو تزيهاً ، والاستاذ المراغى يرى رأى صاحب الفتح هذا اذا لم يكن هناك عذر من عدم احسان النطق بالعربية .

وأما الترجمة من حيث هي فاتنا نوافق الشيخ المراغى والشيخ بختيار وغيرهما ممن أجزوها استناداً على أقوال العلماء والأئمة والسلف الى سلمان الفارسي ، ونقول مع الشيخ المراغى انه قد استفاد من ترجمة القرآن كثيرون من العلماء الذين لم يكونوا يدينون بالدين الاسلامي ، فبعضهم آمن به وخرج من الظلمات الى النور ، وبعضهم لم يصل الى تلك الدرجة لكنه غير رأيه في الدين الاسلامي وفي النبي ﷺ ، ووضع الاسلام موضع الكرامة وبحث فيه البحث اللائق بجلاله . قال : وأظنني أعبت اذا شرعت أبين الفوائد التي تعود على الاسلام نفسه من اظهاره ونشره على الأمم المحتضرة ، بلغاتها ، ولكن يجب أن تُراقب تلك التراجم . قلنا : في عصر كالعصر الذي نحن فيه لا يختلف في هذه المسئلة اثنان .

محاصرات العرب للقسطنطينية

على ذكر المؤلف تهديد الترك للقسطنطينية قبل فتحها

للغزاة

ان العرب منذ فتحوا الشام فكروا في فتح القسطنطينية لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، وكان الاسلام لو فتحها تغلب على شمالي اورية بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية : «لنفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال انه مذكور في الجامع الصغير للسيوطي . وهو منقوش على الحجر في جامع آيا صوفيا باسطنبول . وكيف كان الأمر فالمسامون تنبهوا من بدء الاسلام لأهمية القسطنطينية ، وسنة ٦٥٣ جهز العرب اسطولا عظيما في ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسرين أبي أرطاة لأجل غزو القسطنطينية . فتلاقى هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه . الا أن الاسطول العربي في هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية . وفي سنة ٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح غزا الاسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسرين أبي أرطاة المذكور ، ووصل اليها كما رواه الطبري . ثم ان فضة بن عبيد غزا خلقيدونية — ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى — حيث وافاه يزيد بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ يوفان هذه الغزاة في سنة ٦٦٦ للمسيح ولكن الياس النرزي قال : ان السنة التي حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة وفق سنة ٦٧٢ مسيحية . وقد جاءها يزيد براء ، وكان بسرين أبي أرطاة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهري ابريل وسبتمبر ، ولم يتمكنوا من فتحها فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة « قيزيقيا » في الشمال الغربي من آسيا الصغرى . وفي الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل في فشلهم النار الاغريقية التي أحرقت جانبا من الاسطول كما ان جانبا آخر منه غرق في أثناء الرجوع .

وليس عندنا كل التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع في هذه السنوات السبع. والمرجح ان الجيش العربي الذي جاء من البرّ بدأ بالحصار سنة ٦٦٧ وأن الاسطول أفلح عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ومنهم من يمدّ ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون ان أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه توفي في حصار القسطنطينية سنة ٥٠ ومنهم من يقول سنة ٥١ ومنهم من يقول ٥٢ والذي في الطبقات الكبرى لابن سعد انه توفي سنة ٥٢ وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف من بلخارث بن الخزرج شهد بدرأ ، وأخذأ ، والخذق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وخرج غازياً في زمان معاوية . قال في الطبقات : فرض فلما ثقل قال لأصحابه ان أنا مت فاحملوني ، فاذا صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لولا ما حضرني لم أحدثكم سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قال ابن سعد : ولما مرض أناه يزيد بن معاوية يعودّه فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتي اذا أنا مت فاركب بي ثم سغ بي في أرض العدو ما وجدت مساعفاً ، فاذا لم تجد مساعفاً فادفني ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار به في أرض العدو وما وجد مساعفاً ثم دفنه ثم رجع . قال ابن سعد أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا همام عن عاصم بن بهدلة عن رجل من أهل مكة ، ان أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرى الناس مني السلام ولينطلقوا بي فليبعدوا ما استطاعوا . قال حدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس فانطلقوا بجنازته ما استطاعوا قال محمد بن عمر : وتوفي أبو أيوب عام غزاة يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية ، وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الروم فلقد بلغني ان الروم يتعاهدون قبره ويرمونه ويستسقون به اذا قحطوا انتهى ما جاء في الطبقات .

ثم ان الأتراك عند ما فتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري وبنوا عليه قبة وجعلوا عنده جامعاً وجاء في الانسيكلو بديّة الاسلامية ان ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب . قلت كانت وفاة ابن قتيبة في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل ست وسبعين ومائتين على ماني وفيات الأعيان . والحال ان وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كانت يوم الأحد لأربع خلون من جادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين أي قبل وفاة ابن قتيبة كما في وفيات الأعيان أيضاً . فيكون جزم أصحاب

الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب الانصاري هو بغير محله ، لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة وأنت ترى انه قد ذكره ، وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به في الفحط فقد جاء في الانسيكلوبيديّة المذكورة نقلها عن الطبري وابن الأثير وابن الجوزي والقزويني والحال انها مذكورة في طبقات ابن سعد الذي تقدّم في الزمن هؤلاء جميعاً . وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركي للحاج عبد الله اسمه « الآثار المأجديّة في المناقب الخالديّة » طبع استانبول سنة ١٢٥٧

وجاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة ان الهدنة بقيت بين العرب والروم نحواً من أربعين سنة الى أن تولى سليمان بن عبد الملك فاعمل في غزو القسطنطينية وجرّد لها جيشاً كثيفاً عقد عليه لأخيه مسامة فجاءها من البرّ وجاء الأسطول العربيّ من البحر وكان الخليج المسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمر هذا الحصار سنة كاملة وكان ابتداءه في ٢٥ اغسطس سنة ٧١٦ وهذه المرة خاب العرب أيضاً فصدوا اليه وذلك بفقد الاقوات وبزحف البلغار من جهة الشمال مناصرين للروم . وقد جاء ذكر هذه الغزاة في تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير واستوفاهما ابن مسكويه ويقال انه وجدت عين ماء اسمها عين مسامة عند الدردنيل حيث كان الأمير مسامة قد خيم بعسكره ذكر ذلك المسعودي وابن خردادبه وقيل ان مسامة بنى جامعاً في ذلك المكان . وذكر ابن قتيبة ان رجلاً اسمه عبدالله بن الطيب سل سيفه وأثبتته في باب القسطنطينية. وهذا الرجل كان من أصحاب مسامة. ولم ينصرف مسامة من حصار القسطنطينية حتى اجبر امبراطور الروم على التعهد ببناء بيت لأسرى العرب بجوار قصر الامبراطور . وكذلك كان مسامة هو الثاني لأول جامع في القسطنطينية نقل ذلك المقدسي وابن الأثير ويقال انه هو الذي بنى برج غلظه ، وروى « حاجي خليفة » في تقويم التواريخ انه هو الذي بناه سنة ٩٧ للهجرة انتهى

قلت ذكر المسعودي في مروج الذهب خليج القسطنطينية فقال انه يضيق عند المدينة فيصير عرضه نحواً من أربعة أميال وعليه العمارت وينتهي في ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس^(١) وهناك جبال ، وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسامة بن عبد الملك . وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأنته مراكب المسلمين في فم هذا

(١) هذا تحريف للفظة الدردنيل فيما يظهر لنا أو غلط طبع في النسخة المطبوعة بالمطبعة الازهرية

الخليج مما يلي بحر الشام . ومنتهى مصبة مضيق (هو الدردنيل) وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى كلام المسعودي وهو مما حرره سنة ٣٣٠ للهجرة . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة ان العرب حاصروا القسطنطينية في زمن هرون الرشيد ووصل الجيش العربي الى اسكدار ، أي القسم الاسيوي من المدينة فاضطرت الامبراطورة « ايرانه » — والمسعودي يقول لها اريين — التي كانت كافلة ابنها قسطنطين السادس لصغر سنه ان تطلب الصلح وتؤدي للخليفة الجزية . روى ذلك تيوفاتوس ، والبلاذري ، والطبري ، وابن الأثير . وقال هؤلاء ان هذه الغزاة جرت سنة ١٦٥ للهجرة . قلت ان البلاذري يذكر ان المهدي أغزا ابنه هرون الرشيد الروم سنة ١٦٥ فنزل على الخليج . ثم نقلت الانسيكلوبيديّة عن « اوليا » عن محيي الدين الجالي ان العرب حاصروا في أيام المهدي والرشيد القسطنطينية أربع مرّات .

وأما الجامع المنسوب الى مسامة بن عبد الملك في القسطنطينية فلم يعرف مكانه . وقيل انه هدم في أثناء فتنه ، وذلك سنة ١٢٠٠ مسيحية . وقيل ان الصليبيين اتهبوه سنة ١٢٠٣ وذكّر ابن الأثير ان الامبراطور قسطنطين « مونوماك » كان قد رمّم هذا الجامع بناء على رغبة طغرل بك السلجوقي وذلك سنة ٤٤١ ، وقال أبو الفداء انه سنة احدى وأربعين وأربعمئة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرل بك هدية عظيمة وطلب منه المعاهدة فأجابها اليها وعمرمسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . اه .

وقال ابن خلكان في الوفيات في ترجمة السلطان طغرل بك : « ومن محاسنه المسطورة انه سير الشريف ناصر الدين بن اسمعيل رسولا الى ملكة الروم وكانت على الروم اذذاك امرأة فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية وبالجماعة يوم الجمعة فأذنت له في ذلك فصلى وخطب للامام القائم (العباسي) وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فأنكر ذلك وكان من أكبر الأسباب في فساد الأحوال بين المصريين والروم »

وجاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة نقلاً عن المقرئ ان الامبراطور ميخائيل « باليولوغ الثامن » بنى سنة ٦٦٠ للهجرة في القسطنطينية جامعاً أهدي اليه الملك الظاهر بيبرس مفروشات نفيسة

فتح الترك للقسطنطينية

و خلاصة خططها

للشيخ
مكي

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلالهم لاضفاف البوسفور ستائة سنة قبل أن حاصرها الأتراك لأول مرة لعهد بايزيد الأول العثماني ، وذلك سنة ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد الأول ماسكا بخناقها بلغه قدوم جيش افرنسي مجرى تحت قيادة سيجيسموند الأول ملك المجر لاجدة القسطنطينية فنهد اليهم بجيشه والتقى الجمعان في نيقوبوليس من بلاد البلغار الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٩٦ فكانت الدبرة على الفرنسيس والمجر . واستؤصل جيشهم قتلا وأسراً . وقرأت في بعض تواريخ الفرنسيس انه حصلت في تلك البلدة معركتان احدهما سنة ١٣٩٣ انهزم فيها سيجيسموند ملك المجر . والثانية سنة ١٣٩٦ انهزم فيها المجر والافرنسيس معاً . وعاد بايزيد الى التضيق على القسطنطينية الى أن ارتضى امبراطور الروم بشروط ابن عثمان ، وذلك سنة ١٤٠٠ وكان من جملة تلك الشروط التخلي عن حارة في تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والاذن في بناء مسجد جامع ، ونصب قاض شرعي لفصل دعاوى المسلمين . ولما جاء تمرلك وتغلب على السلطان يلدرم بايزيد وأخذه أسيراً نشقت فروق نسيم الفرج الا أن ذلك لم يستمر الى الآخر بل سنة ١٤٢٢ جاء السلطان مراد الثاني وحاصر القسطنطينية وضيق عليها فلم يقدر له فتحها فارتضى بالصلح مع الامبراطور . وخلفه ابنه محمد الثاني فزحف اليها سنة ١٤٥٢ وبنى بجانبها حصن « روملى حصار » وبدأ الحصر في ٩ ابريل سنة ١٤٥٣ وافتتحها في ٢٩ مايو وكان أكثر الحاح الأتراك في الهجوم من جهة البر بين باب طو بقبو وباب أدنة

فان مدافعهم الثقيلة فتحت ثلماً تعذر على الروم سدّها . وكان خليج قرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية فنقل الترك أسطولهم من جهة طوله بغجه وأصعدوه في البر الى أكمة بك أوغلي وأنزلوه الى الساحل المسمى بقاسم باشا وأزلقوه على الشحم الى الخليج واستولوا عليه وكشف المولى آق شمس الدين قبر أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه . وانهب الأتراك البلدة ثلاثة أيام ثم دخلها السلطان محمد الفاتح في اليوم الرابع ، وارتفع النهب وعم السكون ، ونودي بالأمان ، وصلى السلطان الجمعة في كنيسة أياصوفيا بعد أن حوّلها جامعاً . وكان الجنويون في غلظة ولهم فيها محلة خاصة بهم فسلمها الأتراك منهم . وجاء تاريخ فتحها مصادفاً بحساب الجبل لآية « بلدة طيبة » أي (١٥٣) وهي سنة فتحها بالحساب الهجري . ولم يملك الاسلام في الحقيقة بلدة أجل منها ، ولا خطّة أهم موقعاً ، ولا مدينة أطيّب نجعة . وقيل ان أجل مدن العالم منظراً اذا أقبل المسافر عليها ثلاث نابولي في ايطالية ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والاستانة وهذه أجل الثلاث . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى في المعمور واقعة بين البحرين الاسود والأبيض ، وواصله بين البرين آسية وأوربة أمامها بوغاز ووراءها بوغاز ومن ملكها فقد تبوأ ملكاً كبيراً وكرسياً عالياً منيفاً ومن شرقها البوسفور ومن غربها بحر مرمره المنتهي بمضيق الدردنيل ، واذا تحصن كل منهما كما يجب أصبح العبور منهما في حكم المستحيل تقريباً . ولقد تمكن الأدميرال الانكليزي (١) دو كفوررت من اجتياز الدردنيل بغتة ووصل الى الاستانة ولم يجز أن يهاجها وقفل راجعاً ولكن حصون الدردنيل لم تكن وقتئذ في المنعة التي صارت اليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسا وانكلترة وجهتا في الحرب العامة الى الدردنيل جيوشاً جرارة وأساطيل فاما اجتمعت في حرب بحرية وانهما بذلنا لاختراق هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله في تاريخ الحروب وانتهى الأمر بأن الجيوش العثمانية دحرتهم الى الورا واضطرتهم الى الرجوع والانقلاع أخيب ما كاتنا ، بعد أن فقدتا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل (٢)

(١) في ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٨

(٢) راجع الكتاب المؤلف على حرب الدردنيل التابع لسلسلة وثائق الحرب العامة بالفرنسية

فالعرب في صدر الاسلام لم تحف عنهم أهمية هذه المواقع ولذلك زحفوا اليها عن أبعاد شاسعة ، وأعملوا في غزوها قوات هائلة . ولما ملك آل عثمان بلاد الأناضول ثم اجتازوا البحر الى الروملى حصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون في استخلاصها لأنفسهم الى أن قبض الله ذلك الفتح العظيم لمحمد الثاني ابن مراد ، وكان من أعظم السلاطين تولى الملك في حياته سنة في عهد أبيه وأصلى الأعداء المعارك الكبرى ، مثل معركة قوصوه التي هزم بها المجر والامم البلقانية ، ثم انه جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة أبيه وهو ابن ٢٢ سنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن ٢٤ سنة .

قال البارون « كلرادوفو » Baron Carra de vaux في كتابه « مفكرو الاسلام » في الجزء الاول منه عند ترجمة محمد الفاتح : ان هذا الفتح لم يقبض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تبسّر بمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم . فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد ، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب له مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل انه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ومعه مدفعية هائلة وكان أسطولها المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية . وهو الذي من قريحته تصور سحب جانب من الاسطول من البر الى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا . وبعد حصار ٥٠ يوماً هدمت مدافعه أربعة أبراج ، وفتحت ثمانية عظيمة من جهة باب سان رومان وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه وسار على رأس جيشه ويده قضيب من حديد الى أن دخل قصر امبراطور الروم فأنشد قول الشاعر الفارسي : العنكبوت تنسج خيوطها في القصر الملوكي واليوم يسمع صدهاء على أبراج افراسياب ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التي بها صور أشخاص وإنما أمر بأن تغطى بالحص الخ »

وازدادت عمارة فروق في زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكته لا سيما من بلاد القرممان ومن الجزر وعاد اليها كثير من الروم الذين كانوا غادروها ، و بعد وفاة الفاتح جاءها اليهود المطرودن من أسبانية ومعهم جماعة من العرب . وما زالت هذه البلدة تنمو وتعظم حتى صارت عاصمة العالم الاسلامي ومن عظميات عواصم العالم كله و بلغ عدد سكانها في هذا العصر مليوناً ومائتي ألف نسمة. الا أنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التي لا نظير لها اهمالاً زائداً ونقلت مقر الحكم الى أنقرة فرجعت الاستانة القهقري ونزل عدد سكانها من مليون ومائتي ألف الى سبعمائة ألف وقيل الى ستمائة ألف وان اعمال الحكومة التركية لمثل الاستانة لمن الأغلاط السياسية التي لا جدال فيها .



واقصد شاد بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والتكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظيرها ، وأهم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في سواها والتي تجد مناظرها العديدة سامقة في الفضاء من كل جانب فتكسب بها اسطنبول منظراً لا يجده ناظر في غيرها لا شرقاً ولا غرباً

ومن أهم هذه الجوامع جامع الفاتح الذي أتم بناءه هو رحمه الله سنة ٨٧٥ للهجرة وبنى بجانبه ثمانى مدارس وعنده القبة التي دفن فيها الفاتح ومدفن أخرى لآله يقال ان منها مدفن الاميرة الصربية ماري ابنة جورج برانكوفيه التي كان تزوج بها مراد الثانى وماتت وهي باقية على دينها .

ثم جامع بايزيد بقرب باب السرعسكرية وفيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وبعض عائلته .

ثم جامع السليمية بناه السلطان سليم الأول مشرف على محلة الفنار وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد وعبد الجيد ومحمد الخامس ومحمد السادس .

ثم جامع الشاهزاده بناه السلطان سليمان سنة ٩٥٥ للهجرة وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ومدفن أخيه جها تكير .

ثم جامع السليانية ، وهو من أجل وأشهى وأنعم جوامع الدنيا بناه السلطان سليمان القانوني وكان المهندس له المعمار سنان ، وانتخب له أعلى قمة من الجبال التي عليها الاستانة وبني حوله أربع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانوني وسليمان الثاني وأجد الثاني . وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية في بنائه ما لا يوجد في أيصوفيا

ثم جامع السلطان أجد بناه أجد الأول وهو قريب من أيصوفيا وله ست منائر وفيه مدفن السلطان أجد الأول وولديه عثمان الثاني ومراد الرابع

ثم جامع « بني جامع » بقرب الجسر الواصل بين اسطنبول والغلطة وقد بدأت به السلطنة كوسم ثم أكملته السلطنة خديجة والدة محمد الرابع وذلك سنة ١٠٧٤ للهجرة وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ومصطفى الثاني وأجد الثالث وعثمان الثالث . ولا تزدهم الجاعات في مسجد ما تزدهم في هذا الجامع نظراً لقربه للجسر ومركز حركة الخلق .

ثم جامع النور العثماني بدأ بنائه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث .

ثم جامع لاله لي وفيه مدفن سليم الثالث

ثم زيرك جامع وأصله كنيسة حوَّله الفاتح الى جامع .

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثماني بناه أحد الصدور العظام سنة ٨٦٨ للهجرة

ثم جامع مراد باشا بناه أحد وزراء الفاتح سنة ٨٧٠

ثم جامع وفا بناه بايزيد الثاني سنة ٨٨١ للشيخ مصطفى وفا .

ثم جامع داود باشا على بحر مرمره تاريخ بنائه سنة ٨٩٠

ثم جامع خوجه مصطفى باشا في سماطيه أصله كنيسة يزنظية تحولت جامعاً سنة ٨٩٥

ثم جامع عتيق علي باشا في شميرلي طاش بني سنة ٩٠٢

ثم جامع مهرماه ابنة السلطان سليمان في أعلى نقطة من المدينة بقرب باب ادرته بني

سنة ٩٦٥ وهندسه المعمار سنان

ثم جامع رستم باشا عند الخليج بناه رستم باشا الصدر الأعظم في زمن سليمان الاول وهذا الجامع هو من بناء سنان ايضاً وفيه من صنعة الخرف القاشاني نفائس لا توجد في غيره .

ثم جامع الصدر الأعظم « الصوقولى » كمل بناؤه سنة ٩٦٩ .

ثم جامع فتحية أصله كنيسة تحول جامعاً في زمان مراد الثالث سنة ١٥٨٧

ثم جامع جراح باشا كان بناؤه سنة ١٠٠٢ للهجرة .

وفي اسطنبول القديمة نحو من خمسمائة جامع وبديهي أنه غير داخل في هذا العدد الجوامع التي في غلطة و بك اوغلى و بشكطاش و نشان طاش و القرى التي على البوسفور من الجانبين فهناك جوامع أيضاً تخصى بالملئات . ومنها جوامع في الغاية من الاتقان والبداعة وكلها لها المناظر الرفيعة المستديرة الضاربة في الهواء البالغة الحد في البهاء والتي هي زينة هذه العاصمة . ومن أشهر هذه الجوامع « النصرية » في الطوبخانة وجامع « جهانكبير » في « الفندقلى » وجامع « بشكطاش » وجامع « يلديز » وغيرها .

ولنتكلم الآن على جامع أيا صوفيا وهو الدرّة الدهماء واليتيمة الطائر ذكرها في الغبراء فنقول :

ان هذا الجامع لا يزال أعظم جامع في القسطنطينية ، كما أنه كان أعظم وأجل كنيسة في الشرق ، ومن أعظم وأجل كنائس العالم . والأصل في هندسة قبة المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التي كانت معروفة قديماً في العراق أي انها هندسة آسيوية لا أوربية كان أتى بها البناؤون من العراق الى بلاد الروم وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليونانى القديم . أما حلية أيا صوفيا الداخلية فهي من الصناعة السورية . فهي إذاً من جميع الوجوه تضرب في بنائها الى عرق آسيوى . ولقد صار طرزها هو المعول عليه في بناء الكنائس الارثوذ كسية كلها ولا سيما في الروسية . ولم يحدث في الهندسة طرز يفوقه وجاء في الانسيكلو بيديا الاسلامية ان بعض كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس في

البندقية مبنية أيضاً على طرز أيا صوفيا . قالت : وان أجمل جوامع الأتراك في الروملى — كجوامع أدرنة مثلاً — لا تخرج عن طرز أيا صوفيا الا قليلاً .

وأول من أسس أيا صوفيا هو الامبراطور قسطانس ابن الامبراطور قسطنطين الكبير وذلك سنة ٣٦٠ مسيحية ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى . ثم أصابها جوائح من حريق وزلزال ثم أعيد بناؤها سنة ٤١٥ م احترقت في أثناء فتنة احترق بها جانب كبير من المدينة . وعندها قرر الامبراطور يوستينيانوس تجديد بنائها والسخاء عليها بالأموال الطائلة وحشد لها الصناع وجع مواد البناء من أطراف المملكة لا سيما من انقاض الهياكل القديمة التي كان النصارى قد دمروها بعد تنصر الدولة . واستجد يوستينيانوس لهندسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائى ذلك العصر وكل عصر وهما « ايتيموس ترالس » و « ايزدوروس ميله » فتوخياً فيها الطريقة التي تقيها الحريق وتأثير الزلازل التي تكثر في القسطنطينية وعقدا لها هذه القبة العجيبة . وتم بناء أيا صوفيا سنة ٥٣٧ واحتفل يوستينيانوس بافتتاحها في يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها وهتف يومئذ : سليمان قد غلبتك . ولم يكن في قوله هذا مبالغاً . ثم حصلت زلزلة سقط بها جانب من القبة وذلك في زمن يوستينيانوس نفسه ، فجددوا بناءها ورفعوها نحو ٢٠ قدماً واحتفلوا بافتتاح البناء سنة ٥٦٣ . ويقدر داخل أيا صوفيا بخمسة وسبعين متراً طوالاً وسبعين متراً عرضاً ويقدر علو القبة ستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدران لا تكفي لتوطيد القبة الى الدرجة المطلوبة فقد أرسلوها أيضاً على أساطين أربع مرتبطة بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها وبقسي شديدة وعدد أعمدة الكنيسة التي يتوكأ عليها البنيان ١٠٧ أعمدة كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع . وكانت القبة والحيطان مزينة كلها بالفسيفساء المذهبة الآخذة بالأبصار وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة وان القلم ليعجز عن اعطاء تلك المناظر حقها من الوصف . وكان القسوس والوفية^(١) الذين يخدمون في أيا صوفيا لعهد يوستينيانوس ٤٢٥ شخصاً وكان لها مائة بواب . وقيل انه لما فتح الأتراك القسطنطينية كان وفية أيا صوفيا ٨٠٠ شخص

وسنة ٩٨٩ مسيحية حصل زلزال أضر بقبة أيا صوفيا ثم ترممت . وسنة ١٢٠٤ اتهم

(١) الوافه قيم البيعة

اللاتين الصليبيون هذه الكنيسة وجردوها من حلاها وذلك في أثناء مقامهم بالقسطنطينية وأكثرت ترميمات أيا صوفيا للعهد البيزنطي وقعت في القرن الرابع عشر اذ بنيت حول الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء في الانسيكلو بيديا الاسلامية أن أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحمد ابن رست من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك في كتابه « كتاب الأعلاق النفيسة » وكان يسمى أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ويصف كيفية ذهاب امبراطور بيزانطية الى الكنيسة أيام الآحاد والاعياد بذلك الاحتفال العظيم وكيف كان الاسرى المسلمون يؤتى بهم الى تلك الحفلة ليهتفوا للملك قائلين : « أطال الله حياة الملك » وذكر هذا الكاتب شيئاً في غاية من الدقة فقال انه يوجد في مدخل الكنيسة الغربي مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً فكلما مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة يفتح باب من هذه الابواب من نفسه ثم ينغلق لنفسه . ولم يذكر هذه النادرة أحد غير أحمد المذكور . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفي الاسلام كتابة عن ايا صوفيا حتى القرن السابع للهجرة فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقي كلام وجيز على أيا صوفيا . ثم جاء ذكر أيا صوفيا في رحلة ابن بطوطة الذي زار الاستانة لكن ابن بطوطة يقول انه لم يدخل الى داخل الكنيسة لأنه كان من العادات المرعية عندهم ان كل من دخل اليها لا بد له من أن يسجد للصليب وهو أبى أن يفعل ذلك .

ولما دخل الاتراك القسطنطينية في ٢٩ مايس ١٤٥٣ التجأ جميع الاهالى الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد الى أيا صوفيا وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك الى عمود قسطنطين الكبير يظهر ملك في السماء فينهبهمون نكوصاً على الأعقاب ويعودون من حيث أتوا . ولكن الترك دخلوا الكنيسة وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى . وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم . فالترك لم يذبحوا هناك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى . ولما جاء محمد الفاتح ترجل عن جواده ودخل أيا صوفيا وارتفع صوت الأذان في داخل الكنيسة وسجد السلطان ومن معه للاله الواحد وتحول هيكل قسطنس ويوستنيانوس مسجداً للإسلام .

أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أيا صوفيا فهو أنهم غطوا الصور التي كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المبثوثة على الجدران والاقبية وذلك بالحص الذي يمنع

من ظهورها للعيان لما في دين الاسلام من تحريم الصور في أبا كن العباداة وكذلك رفعوا
الحاجز الذي كان بين القسيدين والاهالي . ولما كانت الكنائس البيزنطية موجهة في
بنائها الى القدس وكان المسلمون في صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة كان لابد للمسلمين في
أياصوفيا من أن ينحرفوا قليلا عن الجهة الشرقية الى الجهة الجنوبية . واغد دعم المسلمون
أيا صوفيا بجدران جديدة فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبي الشرقي من المسجد
وبنى أيضاً إحدى المنائر الأربع الموجودة الآن والتي هي من أجل ما يرى في سماء الاستانة
ثم بنى سليم الثاني المنارة الثانية وبنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتامت أربع منائر .
وكان لمراد الثالث في أيا صوفيا آثار كثيرة فهو الذي جعل عند الباب حوضين يسع كل
منهما ١١٥٠ ليتراً من الماء لأجل الوضوء وجعل في الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق
احدهما القرآن طول النهار ويؤذن بالصلاة فوق الأخرى ووضع مراد الثالث محل الصليب
الذي بأعلى القبة هلالاً أنفق على تمويهه بالذهب أموالاً طائلة وقطر هذا الهلال خمسون شبراً
فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بذت الى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثاني
وبجانبها مدفن ابنه مراد الثالث وحفيده محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول
ثم ابن أخيه السلطان ابراهيم . ومن اعتنى أشد الاعتناء بأيا صوفيا السلطان مراد الرابع
فشاد عضائد كثيرة للجدران وفي أيامه كتبت على الجدران الداخلية من المسجد الآيات
القرآنية بتلك الحروف التي لا يوجد أكبر منها وكلها مموّهة بالذهب وهي من خط ذلك
الخطاط الشهير يشكجي زاده مصطفى شلي فمن هذه الأحرف حرف الالف مثلا طوله عشرة
أذرع وهذا عدا بداعة الخط واشتباك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يدهش
الابصار ويتنافس به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين
الأربعة . أما المنبر الذي في أيا صوفيا فهو إحدى يتائم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد
الرابع . وقد شيّد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشتبكة من جهة المسجد . ثم ان
السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلا للماء ومدرسة وذلك الى الجنوب منه وجعل
أيضاً خزانة للكتب هي في نفس الجامع . ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوال
أيا صوفيا بالتأخر العام الذي أصاب المملكة وبقيت الحال على ما هي عليه الى أيام السلطان

عبد المجيد الذي سنة ١٨٤٧ عهد الى الاخوان « فوساطى » من البنائين الطليان بترميم مايجب ترميمه من المسجد فلبثوا مدة سنتين يشتغلون ولم يبقوا على الخيطان الا الحص الذي يحجب الصور البشرية وجلتوا الخيطان المموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك فى زمان عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجملة فكان ترميم السلطان المشار اليه لجامع أيا صوفيا من أجل ماآثره .

ولقد توالى الزلازل على الاستانة المعروفة بكثرة زلازلها ولم يصب أيا صوفيا من هذه الاهتزازات الارضية منذ القرن الخامس للمسيح الى الآن اذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التى أقامها البيزنطيون سابقاً والأتراك لاحقاً وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف . وأجل ما يكون مسجد أيا صوفيا فى شهر رمضان اذ تحتشد الألوفا من المصلين لصلاة العصر وكذلك الألوفا لصلاة التراويح بعد العشاء وأعظم حفلة تقع فيه فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان أى ليلة القدر . وكان السلطان عبد المجيد الثانى يأتى الى أيا صوفيا فى أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيارة البردة الشريفة فى سراى « طوب قيو » .

وقد كتبت على مسجد أيا صوفيا تأليف خاصة به ، منها كتاب ظهر فى زمن الفاتح من تأليف احمد بن احمد الجيلانى مأخوذ منه قسم عن اليونان وقد حرره المؤلف بالفارسى . ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله الى التركى وهذا التأليف تجده فى خزانة أيا صوفيا تحت رقم ٣٠٢٥ ، وروى الكاتب شلبي صاحب كشف الظنون أن الفلكى علياً بن محمد الكشجى ألف أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسى على أيا صوفيا لكننا لم نتحققه . ثم انه يوجد فى خزانة كتب برلين تأليف ثالث عهده ٨٨٨ للهجرة فى الموضوع نفسه هو ملحق بتاريخ الدولة العثمانية الا أن اسم المؤلف غير مذكور فيه

ثم هناك مجلد اسمه « تواريخ قسطنطينية » فيه كتابان فى الموضوع وفيه أقاصيص كثيرة تتعلق بالجامع وأسباب بناء هذا المعبد فى الاصل والاموال التى أنفقت عليه . ثم انه موجود تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأيا صوفيا » لعلى العربى الياس بدأ به سنة ٩٧٠ لعهد السلطان سليمان القانونى . ويقول على العربى الياس ان البناء الذى هندس بناية أيا صوفيا يأمر الامبراطور يوستينيانوس كان اسمه اغناطيوس وبالجملة نجد تاريخ هذا الرجل أو فى الكتب بموضوع أيا صوفيا وان كان مقصراً عن الوفاء بتحقيقاتنا العصرية . اهـ

هذا ما نقلناه عن الانسيكو بيديه الاسلاميه بشأن أياصوفيا أشهر جامع في القسطنطينية وذلك على وجه الاختصار . وفي الاستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير بناه أيضاً الامبراطور يوستينيانوس باسم القديسين سرجيوس وياخوس . وقد تحول في زمان محمد الفاتح أيضا الى مسجد .

ثم ان تاريخ أياصوفيا الذي أشارت اليه الانسيكو بيديه من تأليف الجيلاني قد جاء ذكره في كشف الظنون وجاء ذكر التاريخ الآخر للكشجبي قال : « تاريخ أياصوفيا مختصر نقله احمد بن احمد الجيلاني حين الفتح من اليونانية الى الفارسية وأهداه للفاتح . ثم نقله نعمة الله بن احمد من الفارسية الى التركية وللمولى الفاضل علي بن محمد الكشجبي المتوفى سنة ٨٧٩ تأليف لطيف بالفارسية ألفه للفاتح المرحوم » .



وفي القسطنطينية جوامع أخرى كانت كنائس منها « كليسه جامع » و « كول جامع » أى جامع الورد وغيرهما . ولا يزال فيها خسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمى « بسطان أيوب » في الخليج الذي هو أقدس مكان عند الأتراك فهو الجامع المبني على ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد الانصاري رضى الله عنه . وقد تقدم لنا خبر وفاة أبي أيوب في أثناء حصار القسطنطينية وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم انه لما جاء محمد الفاتح وحصر هذه البلدة الطيبة وفتحها انكشف للمولى آق شمس الدين ضريح أبي أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة ٨٦٣ جامعاً عند ضريح الصحابي المجاهد . ثم في سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٥ تجدد بناء هذا الجامع على صورته الاصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب الى جامع أبي أيوب المشار اليه ويتقلد فيه السيف باحتفال عظيم ، ويكون تقليد السيف من يد الشلبي شيخ الطريقة المولوية التي مركزها قونية .

هذه هي العادة التي أدركناها عليها الا أنه لما تولى السلطنة السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود وهو الذي أعلنت تركيا الجمهورية

بعد خلعه كان الذى قلده السيف السيد احمد الشريف كبير السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر .

هذا وبجوار جامع أبى أيوب مقبرة فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعمام والشعراء ورجال الدولة نظراً لكون الناس فى الاستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ويحبون أن يدفنوا فيه . ومن جملة من دفنوا فيه أحد أعمام محرر هذه السطور وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الارسلانى الذى كان عضواً فى مجلس شورى الدولة وتوفى فى الاستانة شاباً عن ٣١ سنة وذلك سنة ١٢٨٨ هجرية (١)

ومن المدافن الشهيرة فى الاستانة مدافن السلاطين مثل « سلطان محمود تر به سى » فى « ديوان يولى » وفيها دفن السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ مسيحية وولده السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٧ ، وتربة السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٧٨٩ وهى فى « بعبجه قبوسى » وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة ١٨٠٧ ومن الأمكنة الدينية المشهورة فى الاستانة التكايا ، وهى التى يقال لها الزوايا عند العرب . وهذه كان يبلغ عددها ٢٦٠ تكية فى البلدة وقرى البوسفور أشهرها تكية المولوية فى « بنى كوى » وتكية السنبلى فى جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة فى « بك أوغلى » وهى من أشهر تكايا تركيا وأقدمها ، بنيت سنة ٨٩٧ للهجرة ثم احترقت منذ مائة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة ١٢١٠ وفيها قبر احمد باشا المهتدى الافرنسى الذى كان اسمه الكونت دو بونفال de Bonneval والذى هو من آل « ليموزين » العائلة العريقة المعروفة بفرنسة من القرن الحادى عشر والتي اشتهر منها عدة من القواد الأبطال ، ومنهم « كلود اسكندر » هذا الذى ولد سنة ١٦٧٥ وتوفى سنة ١٧٤٧ وكان فى الجيش الافرنسى فحرت معه حادثة أوجبت غضبه ففارق فرنسة ودخل فى خدمة أوستريا واشتهر فى محاربة الاتراك ، وبعد مدة من الزمن وقع أسيراً فى أيديهم فى بوسنه ثم أسلم وجعله الاتراك قائداً باسم احمد باشا . ولما مات دفن فى هذه التكية . ومن المدفونين فيها اسماعيل الأنقروى شارح المثنوى

(١) راجع ترجمة الأمير محمد ارسلان عند ذكر الأمراء الارسلانيين فى دائرة المعارف للبيستانى

وأما المدارس القديمة التي تعلم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية فكانت نحو ١٧١ مدرسة أشهرها مدرسة أياصوفيا وفيها ١٥٠ طالباً ومدرسة السلطان احمد وفيها ٢٠٠ طالب والسليمانية وفيها ٦٥٠ طالباً والمحمدية وفيها ٩٠ طالب وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف



ولما آل الحكم في تركيا بعد الحرب العامة الى مصطفى كمال باشا وانقلب من السلطنة الى الجمهورية والى جمهورية لادينية Laïque أقفلت هذه الجمهورية التكايا وألغت الطرق وأغلقت المدارس الدينية والشرعية، ورفعت التعليم الديني من مكاتب الحكومة، وقامت بأعمال وأحداث كثيرة من هذا القبيل مما سيأتي ذكره في محله .
وفي الاستانة مستشفيات ودور للجانيين كانت من القديم تابعة للجوامع ثم جعلتها الحكومة التركية على الطريقة العصرية

أما خزائن الكتب فهي ٤٥ خزانه فيها ٦٤١٦٢ مجلداً كلها كتب اسلامية أكثرها مخطوط بالقلم. وأشهر هذه الخزائن الخزانه التي في سراي السلاطين في طوب قيو . ثم خزانه أياصوفيا . ثم خزانه الفاتح . ثم خزانه النور العثماني . ثم خزانه أسعد افندي . ثم خزانه الكوبريلى . ثم خزانه راعب باشا . ومن الخزائن المعروفة خزانه بايزيد وفيها كان بعض أجزاء كتاب الاكاييل النادر الوجود للهمداني الباني . وخزانه عاشر افندي بقرب « بني جامع » وفيها وجدت أنا منذ أر بعين سنة رساله « البرة اليتيمة » لعبد الله بن المقفع ورسائل أبي اسحق الصابي رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسي ونسخت هذين المخطوطين بخط يدي وطبعتهما وكانت هذه طبعتهما الأولى . ولقد عامنا أن حكومة تركيا الحاضرة جمعت أكثر هذه الكتب في مكتبة واحدة بدار الفنون . وأما مكتبة السراي فمنها قسم في الخزانه الخاصة بها ومنها قسم في « بغداد كوشك » ويقال ان فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة . ولقد أتيح لي أن أدخل الى هذه المكتبة والى خزانه التحف السلطانية وأن أرى كثيراً من الكتب النفيسة في أجلاها المذهبة وخطوطها التي تحير العقول ، ولا عجب فعن الملوك ولا نسل . وأى الملوك : سلاطين آل عثمان الذين ملكوا نحواً من سبعائة سنة مملكة من أكبر ممالك العالم . وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التي في خزانه آل عثمان قلما

يوجد مثلها في خزائن الملوك . ولا شك في أنها تقوم بملايين كثيرة من الجنبيات . وفي أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التي كانت في « الحرم النبوي بالمدينة » المنورة الى خزانة طوب قبو . وفي السراى من النفائس مالا يحصى ومن جملتها ١٢ ألف قطعة خزف صيني من النادر الاندر الذى صار مثله كالكهريت الأحمر كان المرحوم على الباشهانبه التونسى قد عهد اليه بجمعها وتنضيدها لسعة معرفته بالخزف المذكور وهو الذى قال لى انه لا يظن فى الدنيا كلها مجموعة خزف صيني فى نفاضة هذه المجموعة لا فى الكيفية ولا فى الكمية



وأما الخلفات النبوية التى أخذها السلطان سليم العثمانى من آخر خلفاء بنى العباس عندما فتح مصر ، فلها فى سراى طوب قبو كوشك خاص بها وأهمها البردة الشريفة ، التى أعطها الرسول ﷺ كعباً بن زهير عندما أنشده « بانت سعاد » وهى فى سفظ ثمين كان السلطان سليم رتب عندها ١٢ حافظاً يقرأون كتاب الله بالمناوبة بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً . وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها فى وسط رمضان فى يوم مشهود يكون فيه السلطان وأمرآة الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسى الأعيان والنواب وقد حضرت هذه الحفلة مراراً وكان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذى فيه السفظ الذى فيه البردة وهم يقولون لها « خرقة سعاد » . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحنى ، ويقبل الصندوق من أعلاه ويكون السلطان قد تناول منديلاً فمسح به على وجه الصندوق فيناوله اياه وينصرف سائراً من غير الجهة التى جاء منها . فيرقى غيره وهلم جراً الى أن تنتهى هذه المراسم والسكوت التام والخشوع العظيم سائداً عليها بحيث لا يسمع الانسان فيها الا صوت قارئ يتلو القرآن فى وسط البهو الذى فيسه الحفلة . لعل اخواتنا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الأصوات التى فيها مما يستحب شرعاً الا أنه ليس شئ من هذه الأمور منويًا به غير مجرد التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى .

ثم ان سراى طوب قبو هذه هى فى الواقع عبارة عن بلدة كبيرة فى طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها وفيها اكشاك وقصور وصروح بغاية الأبهة اذا طاف

بها الانسان طول النهار لا يأتي على آخرها . وفيها مساكن حرم السلاطين والغرف الخاصة بكل واحد منهم ومما أدهشني وأنا أطوف فيها اني لم أجد أمراً بغرفة ولا بهو ولا أيوان من هذه القصور الملكية الا رأيت على جدران ذلك المكان آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجل الخطوط المذهبة . وقد رأيت الفصيحة المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة بأحرف كبيرة موهبة بالذهب من أولها الى آخرها في ايوان واحد . ومن شاء أن يزور هذا المكان لم يكن له بد من أن يطوف به بمعرفة دليل يعرفه تاريخ كل محل ونسبته ووقت بنائه ومن كان من السلاطين يسكن في هذا القصر وأية حادثة وقعت في تلك الساحة وأي اجتماع جرى في ذلك البهو الى غير ذلك . وقد كان دليلنا يوم طفنا في سراي طوب قبو المؤرخ العليم بالخطط احمد رفيق بك المشهور الذي كان يشرح لنا كل ما يتعلق بكل محل من الوقائع فشهدنا بواسطته التاريخ مجسماً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراي طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية في الفخامة ، منها سراي « طولمه بغچه » التي كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير الذي تجرى فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك . ومنها سراي « جراغان » وقد احترق جانب منها . ومنها سراي « يلديز » التي كان يسكنها السلطان عبدالحميد الثاني وهي على رابية من أبداع روابي الاستانة ولها حديقة واصلة الى البحر . وكان يصيف فيها السلطان رشاد أيضا . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان رشاد مرتين في سراي يلديز ومرة في سراي طولمه بغچه هذا عدا المقابلات الرسمية . ومن السرايات الفخمة في الاستانة سراي « بكر بك » في الشاطيء الاسيوي من البوسفور وهي التي مات فيها السلطان عبد الحميد الثاني بعد خلعه . ومنها كوشك « كوك صو » وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التي تدهش كل من رآها وفي الاستانة ثكنة عسكرية كثيرة لانكاد نحصى الا أن أعظمها الثكنة السليمية في اسكدار يقال انها من أعظم ثكن الدنيا .

وفيه « الطوبخان » وهي معمل المدافع والأسلحة وأول من أسس الطوبخان محمد الفاتح ثم زاد فيها سليمان القانوني . وما زالت السلاطين تهتم بها وتزيد فيها . سنة ١٩١٢ زرتمها بنفسى وتفقدت أعمالها وكان مديرها رجل اسمه ناظم باشا فعلمت منه انها تصنع في كل اسبوع عشرة مدافع و ١٢٠ بندقية ومقداراً من العلف للبنادق ومن القنابر للدافع ،

ولسكن ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة الى احتياجات السلطنة فلذلك كانت الدولة العلية توصى على مدافعها وبنادقها في معامل ألمانيا . وقد علمت ان الدولة قد كانت أوسععتها في أثناء الحرب العامة وأدخلت فيها زيادات كثيرة .

وفي الخليج « الترساة » وهي محرفة عن « دار الصنعة » وكان العرب يسمون كل مكان تبني فيه المراكب البحرية بدار الصنعة فأخذ هذه الكلمة الافرنج وحرفوها وقالوا « ارسنال » وأخذها الترك وحرفوها وقالوا « ترسانة » وقد كان مؤسس الترسانة في اسطنبول السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ (١٥١٦) ثم زاد فيها القانوني ثم زاد فيها حسن باشا الجزائرى في زمن عبد الحميد الأول ثم زاد فيها حسين باشا في زمن سليم الثالث . وهناك دار نظارة البحرية العثمانية . وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة في خليج ازמיד .

وفي الاستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها دار الفنون في اسطنبول ومكتب « غلطة سراي » في بك اوغلى ، والمكتب العسكري في « شيشلى » ومكتب البحرية في جزيرة « خلقى » في بحر مرمره . وكلها قد نبغ منها الألوفا من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

وفي الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها . منها السوق الكبيرة التي بدأها محمد الفاتح وسوق مصر التي بناها سليمان القانوني وغيرها . وكذلك فيها خانة شهيرة مثل خان « والده سلطان » و « بيوك بنى جامع » وفيه ٣٥٠ غرفة و « سنبللى خان » وخان محمود باشا وغيرها ، ويقدر عددها فيها من الخانات بمائتين .

ثم ان القسطنطينية من قديم الزمان كانت في حاجة للمياه نظراً لوفرة سكانها وضخامة عمرائها . فقياصرة الروم كانوا جلبوا لها المياه من الخارج على الخنايا والقناطر العظيمة أوهم الأمبراطور هادريان ثم فالنس . ولما جاء المسلمون ازداد احتياج الأهالى الى الماء كما هو بديهي فجر إليها الفاتح مياهاً جديدةً ثم جرّها القانوني بواسطة مهندس سنان خمسة ينابيع عقد لها خمسة مجار فوق القناطر وجعلها في حوض كبير . وبنى عثمان الثانى حوض برغوس سنة ١٦٢٠ وبنى أحمد الثالث السد — والأتراك يقولون بند — الذى فى الوادى المسمى بغابة بلغراد . وسنة ١٧٣٢ بنى محمود الأول سد « بئجه كوى » الذى منه مياه بك اوغلى وغلطة والطوبخانة . وفى طرف بك اوغلى الى جهة شيشلى محل يقال له « تقسيم »

منه تقسيم المياه التي جرها محمود الأول .

وفي الاستانة حياض مياه قديمة من عهد الروم دثر أكثرها واعتيض منها بالعيون التي هي من أجل مآراته العيون والسبل المبنية بالمرمر البالغة الحد في بداعة الصنعة مثل سبيل السلطان أحمد الثالث الذي بقرب « باب همايون » الذي تاريخه سنة ١١٤١ .
ويقدر عدد حمامات الاستانة بنحو من ١٥٠ حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالاستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فروق » كصبور وقد وردت كذلك في معاجم اللغة وكأنهم أخذوها من قوله تعالى (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) أي فلقناه فان البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ثم يفرق القسم الاوربي منها بالخليج المسمى بقرن الذهب الذي فيه دار الصنعة أو الترسانة وفي آخره قبر خالد الانصارى رضى الله عنه .

وهذا الخليج يفرق بين القسم المسمى باسطنبول الأصلية وغلطه . وكانت غلطة من أيام الروم مسكن الجنوية وأصناف اللاتين . ولما فتح الترك الاستانة انتقل كثير من الروم والأرمن اليها ، ثم لما بنيت الطوبخانة وهي من قسم الغلطة جاءها كثير من المسامين وهكذا تحولت كنيسة ماربولس جامعاً منذ سنة ١٥٢٥ وقيل ١٥٣٥ وهي المسجد الذي يقال له اليوم « عرب جامع » ويقول بعضهم انه كان جامعاً في أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحولت كنيسة مارا فرنسيس الى جامع سنة ١٦٩٧ وهو المسجد المسمى بجامع الوالدة . وللأتراك ١٤ جامعاً في غلطة منها أربعة كانت كنائس .



ولقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان هذه العاصمة الشهيرة وقال انها دار ملك الروم ، وان الحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة ولكن ياقوت لم يعطها حقها وربما كتب في وصف بلدة لاتبلغ مقدار حارة من حارات القسطنطينية أكثر مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنب الأطناب في شأنها خشية أن ينسب اليه التعصب للرومية لأنه رومى وخشى أن يقال انه لايزال فيه عرق من الرومية ينزع اليه . وقد روى ياقوت ثلاثة أبيات جاء فيها ذكر القسطنطينية قال انها لأبي العيال الهزلى رثى ابن عم له قتل في القسطنطينية وهي هذه :

ذ كرت أخى فعاودنى رُداع القلب والوصب
أبو الأضياف والأيتام ساعة لا يعد أب
أقام لدى مدينة آ ل قسطنطين وانقلبوا

قال ياقوت وهى اليوم بيد الأفرنج غلبوا عليها الروم وكان ياقوت حيا فى أوائل القرن السابع للهجرة . ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضية ينبغى أن تعرف فى العالم الاسلامى وهى انه لما تقرر فى معاهدة لوزان المنعقدة بين تركيا ودول الحلفاء سنة ١٩٢٣ مبادلة السكان بين تركيا واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين فى بلاد الروم الى تركيا ويخرج الأروام الذين فى تركيا الى بلاد اليونان ، وجرت المبادلة بالفعل استثنى من ذلك الأروام الذين فى القسطنطينية وهم يناهزون مئتي الف نسمة واستثنى بمقابلتهم المسلمون الذين فى تراقيا الغربية لأن الدول الأوربية واليونان أتت اخلاء القسطنطينية من المسيحيين فابت تركيا أن تجعل ذلك بدون عوض ولما كان مسلمو تراقيا يعز عليهم فراق وطنهم جعلوا هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

فهذا ما اكتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة أدامها الله دار اسلام . ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلق عليها اسمها القديم استامبول وأعلنت انها لا تقبل المكاتبات التى ترد عليها تحت اسم القسطنطينية Constantinople وأوجبت أن يكتب استامبول Stamboul وذلك لأن الأتراك يرون فى اسم القسطنطينية تذكراً لملك الروم فيها ويرون اسم استامبول هو الاسم الذى يطلقه الأتراك عليها . وحقيقة الحال ان اسم استامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن خرداذبة انه يقال لها اسطنبول ومن المعلوم ان ابن خرداذبة عاش فى أوائل القرن الثالث للهجرة وكان فى أيام الخليفة المعتمد العباسى ويقال انه كتب كتابه المسالك والممالك فى نواحى سنة ٢٣٢ . اذاً يكون اسم استامبول أو اسطنبول قديماً ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنقريون من اسم القسطنطينية بحجة انه اسم غربي وهم يحبون أن يقلدوا الأوربيين فى كل شئ وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأدخلوا فيها كلمات لا تخصى من اللغات الأوربية وهذه الكلمات ليست من الأعلام بل من الكلمات المعتادة التى كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظها فى العربية فآثروا الألفاظ الأوربية على الألفاظ العربية حياءً بالتفرنج لاغير ،

فكيف نسوا هذا كله ورجعوا يحاولون اثبات تركيبهم في احياء لفظة واحدة هي لفظة « استانبول » أو اسطنبول . ان هذا المنطق الانقري لعجيب

هذا ولما كانت ألسن البنيان هي أدل الدلائل على هم الملوك فلا شيء أدل على علو هم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التي شادوها في اسطنبول آيات باهرة للمناظرين وآثاراً خالدة في الأولين والآخريين .

فهذه الجوامع عدا فائدتها المعنوية من جهة الصلاة التي هي عمود الدين وكونها مجمعاً للالوف وعشرات الالوف من جماعات المصلين هي أيضاً الملاجئ الوحيدة في الاستانة عند نزول النوازل سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سماوية أخرى . ومن المعلوم ان القسطنطينية في القديم والحديث عرضة للزلازل ولا تزال الزلازل تختلف اليها ، ولذلك اعتمد أهلها على البناء بالخشب لأن خطر الأبنية الخشبية في الزلازل أقل جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرضوا لخطر آخر هو الحريق الذي لا تخلو منه الاستانة ليلة واحدة . وكثيراً ما حدث من الحرائق ما أفنى قسماً كبيراً من تلك العاصمة ، ومرة احترق ثلث الاستانة في حريق واحد . وفي أيامنا هذه جرت حرائق كان يبقى بعدها مائة الف نسمة أو يزيدون بدون مأوى . فعند ماتحصل حرائق كهذه لم يكن للاهالي الباقين بدون مأوى وهم ألاف أو عشرات الألاف ملجأ الا الجوامع والمدارس التي حوّلها فانها مبنية كلها بالحجر الأصم المنحوت بناء هو المثل البعيد في الاحكام بحيث مضت عليها القرون ولم تتأثر لا بقدم ولا بزلزال ولا بحريق فتجدها كالقلاع بل أشد متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصير أصحاب البيوت المحترقة لاسيما في فصل الشتاء من أجمع ما يتصوره العقل فان بيوت الافراد لتعجز عن استيعاب خمسين ألفاً ومائة ألف من النسب الباقية بدون مأوى . وكذلك في أثناء الحروب كان يهاجر المسلمون الذين في ثغور المملكة الى الاستانة بعيالهم وهم ألاف مؤلفة فتضيق عليهم الارض بما رحبت ولا يسعهم غير هذه الجوامع . ولقد شهدت أنا بنفسى هذا الأمر في أثناء الحرب البلقانية فقد كانت مصر أرسلت بعثة للهلل الأجر المصرى لأجل مداواة الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال ، وجاءنى أنا أيضاً من الأمير محمد على توفيق رئيس الهلل الأجر المصرى تفويض بان أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة في الاستانة .

وفي ذلك الوقت تقدمت عساكر الدول البلقانية واخترقت حدود تركيا فاجفل الاهالى المسامون من امامها والتجأوا من كل صوب الى الاستانة لايلايون على شئ* ولم يكن في أيديهم شئ* تقريباً فدخل الاستانة نحو من مائة وثلاثين ألف نسمة مسالمة من الروملى* فأترانهم الحكومة فى هذه الجوامع التى لولاهلها لكان خطبهم لا يوصف ولكن كانت الحكومة أو انذر باحتياجها لمثونة جيوشها عاجزة عن اعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بغثة وليس بأيديهم شئ* يسد أرمافهم . فعند ذلك توالت برقياتى الى الامير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى والى الامير عمر طوسون رئيس لجنة اعانة الدولة بمصر والذى نجده على رأس كل مأثرة فى خدمة الاسلام ، فى الحال أرسلوا مبالغ وافرة من المال وأمكننا أن نوزع على هؤلاء البؤساء اعانات أصاب النفس الواحد منها ثلاثة ريالات مجيدية فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين ريالاً مجيدية ، وكانت بعثة الهلال الاحمر المصرى بالاشتراك مع لجنة من قبل امانة البلدة توزع هذه الأموال على المهاجرين بموجب قوائم كانت تعد من قبل بعددهم وبأسماهم ، ومن حيث انى كنت دائماً حاضراً تلك التوزيعات أمكننى أن أشاهد أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس التى كانت هذه الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها وعلمت أى غناء تغنيه هذه المباني الخالدة وتأملت فى فضل أولئك السلاطين الذين لولم يؤثروا فى الأرض الا هذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم ذلك نغراً فى هذه الدنيا وأجراً فى الآخرة . فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التى انصت الزمان بذكرها وارتعدت لها الدول الاوربية بأجمعها وعاش الاسلام زمناً مديداً آمناً فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الاسرة الا المسكبر الجاحد الذى يحاول أن يستر نور الشمس بيده ولكن التاريخ شاهد خالد أمين لا يكذب أهله .

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة ١٦٨٣

بشير

مازلنا نؤكد أن الأوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصباً ولا جفاء وأن تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها في الدماء ومن استنصاهم شأفة المسلمين من الأندلس ، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول ، فقد عني الأوربيون كل أثر للاسلام في أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقصدون في أوقات عديدة أن يستاصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ؛ كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الاكراه في الدين ويرضى من المعاهد الجزية وقالوا ان السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغيبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية ، وأحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا ياليت شعري لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقي على ديارته سراً الى أن جلوهم باجمعهم عن ذلك القطر الذي اوطنه العرب

رهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يبيز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصي الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التي هذا مبلغ وداعتها وناسمها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحريماً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقد من علاو قومه وكونهم مجبولين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بني جلدته بالعين التي يرى بها عورات غيرهم من الأقوم . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحاً وسجاجة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شيء آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فاذا سلطنا بكونها جرت في القرون الوسطى فاذا يقولون في المواقف والفظائع التي جرت من الجنس الأبيض الاوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمال أفريقيا والكونغو والسودان المصري وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم في الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ، ولا في الجاهلية الاوربية ، بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً وبربرية وتمتلى الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمي الروملى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمي غربى الاناضول ، لم نجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءات سبقتة ويحتهد كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذبول النسيان عليها . هذا الذي نعترض عليه وقلمنا نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذي يتعمد تعمية الحقائق

الفرق بين الخلافة والملك

— * —

هدى الخلفاء الراشدين

— * —

سيرة عمر بن الخطاب

على ذكر المؤلف الخلافة الراشدية والشورى الاسلامية

للامير شكيب

الخلافة في الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وانما هي رعاية عامة للامة لاقامتها على
الشرع الخنيف ، وردع القوى عن الضعيف في الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى
عليه من الخارج . وهي لا تنعقد الا بارادة الأمة . والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو
من الأمة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم
وعرف الخلافة التعريف الصحيح بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجحون بزعمهم
أن مبدأ كون السلطان القومي من الأمة انما هو من الأوضاع الغربية الاوربية قاتلهم الله
ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجراهم على الخلط . ومن أغرب الامور أن كثيراً من
الشرقيين ومن المسامين أنفسهم يتابعون الافرنج في هذا الوهم ولا يعامون قاعدة الاسلام
في هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور
الحكم الاسلامي انطباقاً على الشرع ، لراوه أمراً شعبياً محضاً وديموقراطياً بحتاً وأبعد شئ
عن السلطان المطلق والقرآن صريح في قوله تعالى : « **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** » وقوله
« **وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَفْتَنَهُمُ** »

نعم ان الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ولم يكن العرب لذلك العهد بسداجة البداوة يعرفون هذا الضرب من الحكم ولكنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم القاء من يريد الخلاص من تبعتها فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل في سيرة الخلفاء الراشدين فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام . ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فيما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الامر . جاء في الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سلمان أن عمر قال له : أملكُ أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جيت من أرض المسامين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكاً فهذا أمر عظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فاني وليت هذا الأمر وأنا لله كاره والله لو ددت أن بعضكم كفانيه ، ألا وانكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فرأعوني فاذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وان رأيتموني زغتم فقوموني » وكان عمر فيما روى قد خطب الناس وقال لهم : « من رأى في اعوجاجاً فليقومه » فقام واحد ممن سمعوه من الجمع وقال له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفونا . فقال عمر : « الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » . ولما بويع أبو بكر كان منزله بالسبخ في ضواحي المدينة فأقام هناك بعد ما بويع له ستة أشهر أحياناً يغدو على رجله الى المدينة ويركب أحياناً

فرسا له وبقى زمنا بعد الخلافة يغدو الى السوق فيبيع ويتاع بنفسه وكان قبل الخلافة يحلب أغناماً لجيرانه فلما بويع له بها قالت جارية من الخي : الآن لا تحلب لنا متاع دارنا . فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغيرنى مادخلت فيه عن خلق كنت عليه ، فكان يحلب لهم فر بما قال للمجارية : يا جارية أتحتبين أن أُرغى لك أو أُصرِّح . فر بما قالت أرغى وربما قالت صرِّح . فأى ذلك قالت فعل . فكث كذلك بالسُّنح ستة أشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها ونظر فى أمره فقال : لا والله ما يُصلح أمرَ الناس التجارة وما يصلح لهم الى التفرغ والنظر فى شأنهم واستنشق من مال المسلمين ما يُصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان الذى فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال : ردُّوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لا أُصيب من هذا المال شيئاً وان أُرضى التى بمكان كذا للمسلمين بما أُصبتُ من أموالهم ، فدفع ذلك الى عُمَرَ ولقوح وعبد صيقل وقطيقة فقال عمر لقد أتعب من بعده .

يمثل هذه العفة ويمثل هذه الطهارة ويمثل هذه البساطة فى المعيشة تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة الأمة العربية لأول ظهورها بالاسلام وظهور الاسلام بها . وسار على أثره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان آية الله الكبرى فى العدل والزهد والاغلاظ فى الحق والشدة على الأقوياء والراقة بالضعفاء وبأخلاقه هذه اتسق للاسلام ما اتسق من الفتوحات كما أنه بثبات أبى بكر عجزت الردة أن تجرى مجراها فى العرب . وكان عمر من سداجة العيش بالمقام الذى لا يصل اليه أحد . سئل عمر عما يستحله لنفسه من بيت مال المسلمين فقال : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلة فى الصيف وما أحجَّ عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وقال عمر مرة : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ان استغنيت استعفتت وان افتقرت أكلت بالمعروف .

وورد فى الآثار أن عمر مكث زمناً وهو فى الخلافة لا يأكل من المال شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة وأرسل الى أصحاب رسول الله فاستشارهم فقال قد شغلت نفسى فى هذا الأمر فما يصلح لى منه فقال عثمان بن عفان : كُلْ وَأَطْعِم . وقال مثل ذلك سعيد

ابن زيد . فقال عمر لعلی : فما تقول أنت في ذلك . قال غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك . وجاء في طبقات ابن سعد أن عمر كان يقوت نفسه وأهله ويكتسب الحلة في الصيف ولربما خرق الأزار حتى يرقعه فما يبدل مكانه حتى يأتي الأبان وما من عام يكثر فيه المال إلا كانت كسوته فيه أدنى منها في العام الذي قبله . فكلمته في ذلك حفصة ابنته فقال لها : إنما أكتسب من مال المسلمين . وقالوا ان عمر كان يستنفق كل يوم له ولعبياله درهمين فقط ، ثم ان عمر حج البيت فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً فقال لابنه عبد الله : يا عبد الله ابن عمر أسر فثنا في هذا المال ، وكان الدينار باثني عشر درهماً ، ومن الروايات عن زهد عمر أن أبا موسى الأشعري أهدى لعائلة عمر طنفسة نحو ذراع وشبر فدخل عمر الى البيت فقال : أتى لكم هذا فقالت امرأته : أهداها لنا أبو موسى الأشعري . فأخذها عمر فضرب بها رأسها ثم قال عليّ بآبي موسى الأشعري وأتعبوه . فأتى به قد أتعب وهو يقول : لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ما يحملك علي أن تهدي لنسائي . ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه فقال : خذها فلا حاجة لنا فيها

ومن أخبار عمر في زهده وتقصفه انه لما كان عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ، ركب دابة فرائت شعيراً فرأها عمر فقال : المسلمون يموتون هزلاً وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحيي الناس ، وتواترت الروايات على انه ما أكل سمناً ولا زيتاً ولا ذاق لحماً حتى انتهت المجاعة . وروى أنس بن مالك انه حرّم على نفسه السمن عام الرمادة وكان يأكل الزيت وانه تقرقر بطن عمر يوماً فنقر بطنه بأصبعه وقال : تقرقر انه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحيي الناس . وكان في أثناء المجاعة يختلف الى بيوت الفقراء ويحمل لهم الطعام على ظهره ، وجاء حديث عن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فنقول ميمٌ ذا ؟ فقالوا انه كان يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حرّم ذلك على نفسه فأكل بالزيت وأجاع نفسه كثيراً فتغير لونه . وقالوا يومئذ انه لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همماً بأمر المسلمين . ونظر عمر عام الرمادة الى بطيخة في يد بعض ولده فقال بئح بئح يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وامة محمد هزلى فخرج الصبي هارباً وبكى . فسأل عمر كيف حصل الولد على هذه البطيخة فعلم انه

اشترها بكفّ من نوّسى . وكان عمر يُطعم عام الرمادة (في المدينة) بضعة آلاف كل يوم على سُفرتِهِ ، ويرسل القوت الى المحاوِيج الذين لا يقدرّون أن يأتوا اليه والى المرضى والصبيان ، وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين ألفاً .

وأخبارُهُ في الزهد والتقشف كثيرة متواترة فمن شاء استقصاها فعليه بكتب السير . وقيل انه دخل مرة على رجل فاستسقاها وهو عطشان فأناه بعسل فقال ما هذا فقال : عسل فأني أن يشربه وقال لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة . وحدثت يسار بن ميمّر قال : ما نخلت لعمر الدقيق قط الا وأنا له عاص ، وحدثت السائب بن يزيد قال : رأيت على عمر ابن الخطاب ازاراً في زمن الرمادة فيه ستّ عشرة رقعة . وقال أنس بن مالك : رأيت عمر ابن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رفع بين كتفيه برقع ثلاث لبدّ بعضها فوق بعض . وحدثت على بن زيد عن أبي عثمان النهدي قال : رأيت ازار عمر قد رفعه بقطعة من آدم . وأبطأ عمر جمعة بالصلاة فخرج فلما ان سعد المنبر اعتذر الى الناس فقال انما حبسني قيصى هذا لم يكن لى قيص غيره ، كان يخاطله قيص سُبُلانيّ لا يجاوزكمه رُنع كفيه . وحدثت عامر بن عبيدة الباهلي قال : سألت أنسا عن الخزّ فقال : وددت ان الله لم يخلقه وما أحد من أصحاب النبي ﷺ الا وقد لبسه ما خلا عمر وابن عمر . وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا في التقشف والتقتير على نفسه انما كان مشرباً خاصاً يحمله عليه شدة الورع وتصوره ، وهو أمير المؤمنين ، ان في أمته أناسا كثيرين يعيشون في شظف فكان يأتي أن يكون في رعيته من يجوع وهو يشبع ومن يأتزر بالادم وهو يلبس الخز . والا فان عمر رضى الله عنه لم يكن يجهل ان الله تعالى قد أحل الطيبات من الرزق وانه لو حمل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجازله شرعاً .

وما ذكرنا هذه النتف من أخبار زهد عمر وشظف معيشته وخشونة مأكله وملبسه وتورعه الزائد فيما يستحقه من بيت مال المسلمين الا لنتظهر ما بين اخلافة والملك من الفرق وثبت ان الاخلافة في الاسلام انما هي رعاية لا بد منها لحفظ المجتمع وليس للراعى فيها أدنى مزية على الرعية في شىء تأد الى شخصه . وقد كان الخلفاء الراشدون بما تلقوه من تربية النبي ﷺ لهم يفهمون حق هذه الرعاية ويعلمون أنهم انما هم خدّمة للامة ومسؤولون

عن الدقيق والجليل من أمرها . وكان عمر يقول لومات جبل ضياعاً على شط الفرات
لخشيت أن يسألني الله عنه ، وكان يقول : «أيُّما عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أعبرها
فأنا ظلمته» . وكان يقول : «الرعية مؤدية الى الامام ما أدَّى الامام الى الله فاذا رجع الامام
رتعوا» . وخرج عمر بن الخطاب الى مكة فاضرب فسطاطاً حتى رجع لأنه كان يستظل
بالنطع . وقال عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة الى مكة في الحج ثم رجعنا
فما ضرب فسطاطاً ولا كان له بناء يستظل به انما كان يلقي نطعا أو كساء على شجرة
فيستظل تحته ، وحدث الربيع بن زياد الحارثي قال : شكنا عمر طعاماً غليظاً أكاه فقال
الربيع : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين لأنت .
فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها
الاممقاربتى هل تدري مامثلى ومثل هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم . قال : «مثل قوم
سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها
بشيء» قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : «فكذلك مثلى ومثلهم» . ثم قال عمر : «انى لم أستعمل
عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ، ولكنى
استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلاذن له عليه ، ليرفعها
الى حتى أقصه منه» . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرايت ان أدب أمير رجلا من
رعيته انقصه منه فقال عمر : ومالى لأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من
من نفسه . وحدث الأحنف قال : كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سرية أمير
المؤمنين فبلغ ذلك عمر فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأسا ، مرتت جارية
فقلنا هذه سرية أمير المؤمنين فقال : ماهى لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له انها من مال
الله . فقلنا فاذا يحل له من مال الله فقال : أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان
حالة فى الشتاء وحالة فى الصيف وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت
رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم .
وكأم الناس حفصة أن تكلم أباهما بأن يلين من عيشه شيئا فقالت : يا أمير المؤمنين ان
قومك كملونى أن تلين من عيشك فقال : غششت أباك ونصحت لقومك . وأبى عمر أن

يجعل الخلافة في ابنه وقال : ان أقواماً يأمروني أستخلف وان الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذي بعث به نبيه فان عجل بي أمر فالخلافة شوري بين هؤلاء الرهط الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وكان من جلة وصاياه قبل وفاته : «أوصيكم بكتاب الله فانكم لن تضلوا ما اتعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فان الناس يكثرون ويقولون ، وأوصيكم بالأنصار فانهم شعب الاسلام الذي لجأ اليه ، وأوصيكم بالأعراب فانهم أصلكم ومادتكم» . وقد جاء في هذا الحديث رواية أخرى وهي أصلكم ومادتكم واخوانكم وعدوكم عدوكم ، وأوصيكم بأهل الذمة فانهم ذمة نبيكم وأرزاق عيالكم .

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر وهو يصلي قال : من قتلني فليلق له غلام المغيرة ابن شعبه وكان نجاراً فقال عمر : قاتله الله ، والله لقد كنتُ أمرت به معروفاً ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعى الى الاسلام . ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوغ في المدينة . فقال له ابن عباس ما يفيد انهم ان شاء أخرجوهم من المدينة فقال له عمر : أبعدهم ما تكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم . ولما أيقن بالموت قال لابنه : يا عبد الله بن عمر أنظركم على من الدين خسبه فوجده ستة وثمانين ألت درهم فقال : يا عبد الله ان وفي لها مال آل عمر فأدأها عني من أموالهم وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بني عدى بن كعب^(١) فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعدهم الى غيرهم . وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فايهم استخلف فهو الخليفة من بعدى فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً . ووردت رواية أخرى في وصاته عند موته في معنى الرواية السابقة ولكنها تختلف ببعض ألفاظ قال عمر : أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فانهم رده الاسلام وغيظ العدو وجبابة المال أن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضئ منهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والايمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فانهم

(١) بنو عدى هم الفخذ الذين من قريش ينسب عمر بن الخطاب اليهم

أصل العرب ومادة الاسلام ، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه
بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن لا يكلفوا الا طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم
ودعا الستة الذين جعل الأمر شورى بينهم فلم يكلم منهم الا عليا وعثمان فقال يا علي لعل
هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان
وليت هذا الأمر فائق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك
صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الأمر فائق الله ولا تحملن بنى أبي
معيظ على رقاب الناس . ثم قال : ادعوا الى صهيبا فدعى فقال : صل بالناس ثلاثاً وليخل
هؤلاء القوم في بيت فاذا اجتمعوا على رجل فن خالفهم فاضربوا رأسه .

قلت فن تأمل في قول عمر : وان يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم رأى
فيه منزعاً اشتراكياً لا ريب فيه الا أنه منزع اشتراكى حكومى يصدق عليه ما يعبر عنه الافرنج
اليوم بلفظة *Étatisme* ثم ان الدول الاوربية اليوم قد اضطرت كلها الى سلوك هذه السبيل
وما هذه القوانين الاجتماعية التي يسمونها *Lois sociales* والتي معناها أن يؤخذ من الميزانية
المالية العامة لاغاثة المعوزين والمرضى منهم والباقيين بدون عمل *Chomeurs* أو *Trbeitlos*
الا من هذا الضرب

ثم روى ان سعيد بن زيد قال لعمر : لو اشرت برجل من المسلمين اتتمنك الناس
فقال عمر : قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً وانى جاعل هذا الأمر الى هؤلاء النفر الستة
الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا
الأمر اليه لو ثققت به سالم مولى أبي حذيفة ، وأبي عبيدة بن الجراح . وقيل انه قال : من
أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح فقال له رجل : يا أمير المؤمنين فأين أنت من
عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن
يطلق امرأته ??

قلت : أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد صح عن رسول الله ﷺ انه لما قدم عليه
أهل اليمن وسألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والاسلام أخذ بيد أبي عبيدة بن
الجراح وقال : هذا أمين هذه الأمة . وعن أنس بن مالك ان النبي ﷺ قال : الا أن لكل

أمة أميناً وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وفي حديث عن أبي هريرة ان النبي ﷺ قال : نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح . وقيل ان عمر قال : جلسائه مرة : تمنوا . فتمنى كل واحد بما حضره فقال عمر : لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . وعن شهر بن حوشب أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألني عنه ربي لقلت : سمعت نبيك يقول : هو أمين هذه الأمة . وعن ثابت بن حجاج أنه قال . لاستخلفته وما شاورت فان سُئلت قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح : ان عمر بن الخطاب أرسل اليه بأربعة آلاف درهم وأربعائة دينار : وقال للرسول : أنظر ما يصنع . قال فقسمها أبو عبيدة . قال ثم أرسل الى معاذ بن جبل بتمثلها وقال للرسول مثلها قال فقسمها معاذ الا شيئاً قالت امرأته نحتاج اليه . فلما أخبر الرسول عمر قال : الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

وكانت وفاة أبي عبيدة رحمه الله في طاعون عمواس في خلافة عمر سنة ١٨ وكان أمير الجيش الذي فتح الشام ودفن في غور يسان المنسوب اليه ، وبلغ من برّه بأهله أنه قال : وددت اني كبش فذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحسوا مرقى

وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن اهيّب بن ضبة بن الحارث بن فهر أي من قريش ، ورؤى عنه رضي الله عنه أنه قال وهو أمير على الشام : يا أيها الناس اني امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحر ولا اسود يفضلني بتقوى الا وددت اني في مسلاخه (١) . وأما سالم مولى أبي حذيفة فعلى احدى الروايات هو ابن عتبة بن ربيعة ، وعلى رواية أخرى سالم بن معقل من أهل اصطخر كان مولى ثبيته بنت يعار الانصارية ، وهو يذكر في الانصار لعنق ثبيته اياه ، ويذكر في المهاجرين لكونه مولى أبي حذيفة زوجها الذي تبدأه ورأه حتى صار يقال له سالم بن أبي حذيفة . وعن مالك بن الحارث كما ورد في الطبقات ان زيد بن حارثة كان معروفاً بنسبه ، وأما سالم مولى أبي حذيفة فلم يكن يعرف نسبه ، فكان يقال سالم من الصالحين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه وبين أبي

(١) يريد أن يكون في جلده أي يريد أن يكون ذلك الرجل .

عبيدة بن الجراح

ومرادى بهذا الذى نقلته فى عرض البحث عن حقيقة الخلافة وفى عرض الكلام عن عمر بن الخطاب وعن أبى عبيدة وعن سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم انه ليس من أمة على وجه الارض بلغت بها الديموقراطية مابلغته فى الاسلام، فأنت ترى ان الامام عمر الذى يقول الرسول فيه : « لو كان نبي بعدى لكان عمر » قد رشح خلافته على المساميين مولى أصله اعجمى وقيل ان نسبه الاصلى غير معروف وهو سالم مولى أبى حذيفة . وأنت ترى ان أمين الامة أبى عبيدة بن الجراح يقول انه قرشى لكنه يتمنى أن يكون فى جلد زنجى اذا كان هذا يفضله فى التقوى . وقد جاء فى الأثر انه لما قدم المهاجرون الأولون من مكة الى المدينة نزلوا بالعصبة الى جنب قباء فأمرهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً ، وكان بينهم يومئذ مثل عمر بن الخطاب وأبو سلمة بن عبد الأسد . فقد ثبت من هنا انهم لم يكونوا يعملون الاباوية (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وان التقوى هى المزية الأولى فى الاسلام لا يعد لها حسب ولا نسب . ومن أقوال عمر المشهورة : والله لو جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه

ولعمري ان الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون فى قریش ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قرشى فهى غير صحيحة ، مهما كان من فضله ، وكفايته قد يجدون فى قول عمر (لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لوليته أو لاستخلفته) مالا ينطبق عليه جزمهم وما يجعلهم يتفكرون

ثم نعود الى حديث الشورى فنقول ان عمر أوصى عثمان بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، وأوصى علياً بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى هاشم على رقاب الناس ثم قال للسته : قوموا فتشاوروا فامرّوا أحدكم . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعانى عثمان مرة أو مرتين ليدخلنى فى الامر ولا والله ما أحب انى كنت فيه عالماً انه سيكون فى أمرهم ما قال أبى والله لقلما رأيت به يحرك شفتيه بشئ الا كان

حقاً (١) فلما أكثر عثمان على قتل : ألا تعقلون أتؤمرون وأمير المؤمنين حي . فوالله لكأنما أيقظت عمر من مرقد . فقال عمر : امهلوا فان حدث بي حدث فليصل بكم صهيب ثلاث ليال ثم أجمعوا أمركم فمن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه ولما طعن أبو لؤلؤة عمر ثلاث طعنات وطعن من يليه قال عمر : أدركوا الكلب فقد قتلني . فادركوه فاتحروا أبو لؤلؤة بخنجره الذي طعن به الامام ثم أدرك عمر الزحف فقال : قولوا لعبد الرحمن بن عوف ليصل بالناس . فاحتمل الناس عمر الى بيته وفيهم عبد الله بن عباس قال ابن عباس : فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح فلما أسفر أفاق فنظر في وجوهنا فقال : أصلنى الناس ؟ فقلت : نعم . فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى ثم قال : أخرج يا عبد الله بن عباس فسل من قتلني؟ فخرجت حتى فتحت باب الدار فاذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر . فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فدخلت فاذا عمر يُبد في النظر يستأني خبر ما بعثني اليه فقلت : أرسلني أمير المؤمنين لاسأل من قتله فكلمت الناس فزعموا انه طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلني

ويقال ان عمر لما طعنه أبو لؤلؤة أول طعنة ظن كلباً قد عقره ولم يعلم أن رجلاً طعنه الا عند الطعنة الثالثة . وكان أبو لؤلؤة من سبي نهاوند أي فارسياً وكان اذا جاء السبي الى المدينة نظر الى الصغار منهم وجعل يمسخ رؤوسهم ويبكي ويقول : ان العرب أكلت كبدي . فظاهر أنه ما حمله على قتل عمر الاحب الانتقام من العرب الذين كانوا هزموا العجم لا سيما في واقعة نهاوند وأزالوا ملك الأكامرة وكان كل ذلك في زمان عمر . فهى احنة في صدر فارسى عن زوال ملك قومه وسبي من سبي منهم واستدلال العرب اياهم فتشقى

(١) قلت ومما تحقق من كلامه رضى الله عنه ان أقرب عثمان رضى الله عنه عثوا في أيامه فكانت تلك الفتنة التي أدت الى قتله والى ما عقب ذلك من الفتن والمصائب التي وقعت بسير الاسلام الى الامام ، ولم ترل تعمل في هذه الأمة فعلها الى اليوم

منها بقتل أمير العرب الذين أذلوا قومه . وكان عمر لما دخل عليه أمراء العجم أسرى وفيهم
الهرمزان قد قال لهم : الحمد لله الذي أعز الاسلام وخذلكم . فيظهر أنها بقيت هذه الكلمة
تعمل في قلوبهم . وكان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة
ابن شعبه وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنعا ويستأذنه أن يدخله المدينة ويقول
ان عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس انه حداد نقاش نجار فأذن له عمر في ارساله الى
المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم كل شهر فجاء الى عمر يشتكى اليه شدة الخراج فقال
له عمر : ما ذا تحسن من العمل فذكر له الاعمال التي يحسن فقال له عمر : ما خراجك
بكثير في كنه عمالك فانصرف ساخطا يتدمر قلبت عمر ليالى ثم مر به العبد فدعا فقال له
أم أدرت أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ فالتفت العبد ساخطا عابسا الى
عمر ومع عمر رهط فقال : لاصنعن لك رحى يتحدث بها الناس . فلما ولى العبد أقبل عمر
على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدنى العبد آتفا . فلبث ليالى ثم اشتمل أبو لؤلؤة على
خنجر ذى رأسين نصابه في وسطه فكمن في زاوية من زوايا المسجد في غلس السحر فلم
يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر فلما نادى منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث
طعنات احدها من تحت السرة خرقت الصفاق وهي التي قتلته ثم انحاز أيضا على أهل المسجد
فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلا ثم اتحرب بخنجره . وعن عمرو بن
ميمون قال : شهدت عمر حين طعن ، أتاه أبو لؤلؤة وهو يسوى الصفوف فطعنه وطعن
اثني عشر معه هو ثالث عشر فأنا رأيت عمر باسطا يده وهو يقول : أدركوا الكب فقد
قتلني فاج الناس وأتاه رجل من ورائه فأخذه ومات ستة أو سبعة ممن طعنهم فحمل عمر الى
منزله فأتاه الطيب فسقاه نبينا فخرج من احدى طعناته فسقاه لبنا فخرج فقال له الطيب :
أوص بما كنت موصيا فوالله ما أراك تسمى . وفي رواية أبي الخويرث أن أبا لؤلؤة عندما
قال له عمر : الاتجعل لنا رحى ؟ أجابه : بل أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار .
ففرغ عمر من كلمته وكان على بن أبي طالب معه فقال له عمر : ما تراه أراد ؟ فقال : أوعدك
يا أمير المؤمنين . قال عمر : يكفيناه الله قد ظننت أنه يريد بكلمته غورا .

وقالوا انه لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس :

أخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني . فخرج ابن عباس فأسلمهم فقال القوم : لا والله لو ددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا . ولما طعن عمر كان كلامه : وكان أمر الله فدرأ مقدوراً وقال : ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتموني . ولم يترك عمر صلاة الفجر بعد أن طعن وصلى وجرحه يشعب دماً ، وقال عند ذلك : لاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة . ولما أيقن عمر بالموت وارتج البيت بكاء قال : والله لو أن لي ما على الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلاع . فقال ابن عباس : والله اني لأرجو أن لا تراها الا مقدار ما قال الله « وان منكم الا وارثها » ان كنت ما علمنا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية فأعجبه قوله واستوى جالساً وقال : أتشهد لي بهذا يا ابن عباس ؟ قال نعم . وفي رواية أخرى أنه لما شرب عمر اللبن وخرج من جرحه بكى وأبكى من حوله فقال : هذا حين لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلاع . قالوا : وما أبكك الا هذا ؟ قال : ما أبكاني غيره فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين والله ان كان اسلامك لنصراً وان كانت امامتك لفتحاً والله لقد ملأت امارتك الأرض عدلاً ما من اثنين يختصمان اليك الا اتبها الى قولك . فقال عمر : أجلسوني فلما جلس قال لابن عباس : أعد علي كلامك . فلما أعاد عليه قال : أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ قال ابن عباس : نعم ففرح عمر بذلك وأعجبه . وحق عمر أن يفرح بشهادة مثل عبد الله بن عباس

وروى عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال حين طعن عمر : مررت على أبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما بغتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر ؟ فوجدوه الخنجر الذي نعته عبد الرحمن بن أبي بكر فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن ومعه السيف فأتى الهرمزان فقال له امض معي حتى تنظر الى فرس لي فلما مضى بين يديه علاه بالسيف قال عبيد الله بن عمر : فلما وجد حر السيف قال لا اله الا الله . وأما جفينة ، فكان من نصارى الحيرة وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص ، وكان يعلم الكتاب بالمدينة فجاءه عبيد الله بن عمر وقتله أيضاً ، ولما علاه بالسيف صلب بين عينيه ثم انطلق فوجد ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدعى

الاسلام فقتلها فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار ونهوه وتوعده فازداد غضباً وعرض
بعض المهاجرين فلم يزل عمرو بن العاص به حتى أخذ منه السيف . ثم أقبل سعد بن أبي
وقاص فتشاجر هو وعبيد الله وتناصيا حتى حجزوا بينهما . ثم أقبل عثمان بن عفان قبل
أن يويع فتناصيا أيضا فحجز الناس بينهما . وأظلمت الأرض على الناس ذلك اليوم . ثم
ويع عثمان بالخلافة فدعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا علي في قتل هذا الرجل الذي
فتق في الدين ما فتق . فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان على قتله ، وجلت
الناس الأعظم مع عبيد الله يقولون عن الهرمزان وجفينة : أبعدهما الله ويقولون : أما كفى
قتل عمر فتريدون أن تنبعوا عمر ابنه . فكثر في ذلك اللغط والاختلاف الى أن جاء عمرو
ابن العاص الى عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على
الناس سلطان فأعرض عنهم فسمع عثمان كلامه ووُدِّي الرجلان والجارية وأمسك
عثمان عن قتل عبيد الله بن عمر وتفرق الناس وكان عثمان يقول لعبيد الله بن عمر
وهو يناصيه : قاتلك الله قتلت رجلا يصلي (١) وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما في الحق تركك (٢) . وقيل ان عثمان وسعداً كانا يومئذ أشد أصحاب
رسول الله على عبيد الله بن عمر وما كفى عثمان عن قتله الا بما قاله له عمرو بن العاص .
وأما دفن عمر رضي الله عنه بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق
رضي الله عنه فان عمر استأذن عائشة في ذلك فأذنت له ، ثم دعا ابنه عبد الله بن
عمر فقال له : يا بني اني قد أرسلت الى عائشة أستأذنها أن أدفن مع أخوي فأذنت لي وأنا
أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان فاذا مت فاعسلني وكفني ثم اجلني حتى تقف بي على
باب عائشة . فتقول هذا عمر يستأذن الخ فان أذنت فادفني معهما والا فادفني بالبقيع . قال
ابن عمر فلما مات أبي خملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فأذنت بدفنه بجانب رسول الله
وبجانب أبيها وكان قد دفن أبو بكر على مساواة منكب رسول الله ﷺ فدفن عمر على
مساواة حقويه . وكانت وفاة عمر عن ثلاث وستين سنة وقيل عن ٦٠ وقيل عن ٥٥ سنة

(١) يعني الهرمزان

(٢) يعني بالآخر جفينة النصراني

وقد طعنه أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لربيع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت مدة خلافته ١٠ سنوات وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة — وأبو الفداء يقول عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام — من متوفى أبي بكر رضى الله عنهما

تولى الأمر عشر سنوات فلاً بها الأرض فتوحات ونصب للإسلام بضعة عشر ألب منبر، فباليث شعري ماذا كان تم للإسلام من الظهور لو عاش في الإمارة ٢٠ سنة أو ٣٠ سنة أو أكثر وقبل أن فاضت روح عمر بساعة قال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فانهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على ذلك الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضون اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم اللهم أنت خليفتي عليهم . فما دفن عمر حتى عمل أبو طلحة بما أوصاه به الى أن بويع عثمان بن عفان . وغسل عمر ثلاثاً بالماء والسر وكان أوصى بأن لا يغسلوه بمسك وصلى على عمر في مسجد الرسول بين القبر والمنبر ، وكان المصلى عليه صهيب ، قيل ان عمر أوصى بأن يصلى عليه صهيب فعملوا بوصيته . ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه فقام عن سريره وقال : نعم أخو الإسلام كنت يا عمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ترضى حين الرضى وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، لم تكن مداحاً ولا مغتاباً ، ثم جلس . وأورد محمد بن سعد في الطبقات حديثاً عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ساقه من ثلاثة عشر طريقاً بأسانيد مختلفة مع اختلاف قليل في لفظ الحديث وهو : أتى عليّ وعمر مسجياً فقال : ما على وجه الأرض رجل أحبّ الىّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى . وقال عبد الرحمن بن غنم يوم مات عمر : اليوم أصبح الإسلام مولياً ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فأتاه آتٍ فقال له : خذ حنرك بأشدّ فراراً من الإسلام اليوم . وعن زيد بن وهب : أتينا عبد الله بن مسعود فذكرنا عمر فبكى حتى ابتلّ الحصى من دموعه وقال : ان عمر كان حصناً حصيناً للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه فلما مات عمر اتلم الحصن فالتساس يخرجون من الإسلام . ومما قال ابن مسعود : لو اعلم عمر يجب كلباً لأحببته والله انى أحسب العضاء قد وجد فقد عمر . وبكى سعيد بن زيد يوم مات عمر

وقال : اليوم يهسى أمر الاسلام . وفي روايته قال : على الاسلام أبكى ان موت عمر تم الاسلام
 ثلثة لا ترتق الى يوم القيامة . ولأبي عبيدة بن الجراح في عمر بن الخطاب كلام قد صح كله
 قال : اذا مات عمر رقى الاسلام ما أحب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وانى أبقى
 بعد عمر فقال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول ان بقيتم اما هو فانه ولى وال بعد عمر
 فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ولم يحملوه وان ضعف عنهم فتلوه
 وعن الحسن بن على : أى أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء . وعن حذيفة :
 كان الاسلام في زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد الا قريبا فامسا قتل رحمه الله كان كالرجل
 المدبر لا يزداد الا بعدا . وقال أنس بن مالك نقلا عن أبي طلحة وقد رأى أصحاب الشورى
 وما يصنعون : لأنا كننت لأن تدافعوها أخوف مبنى من أن تنافسوها فوالله ما من أهل
 بيت من المسلمين الا وقد دخل عليهم في موت عمر نقص في دينهم وفي دنياهم
 وقيل في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرثاء :

جزى الله خيرا من أمير وباركت يد الله في ذلك الأديم الممزق
 فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليذكر ما قدمت بالامس يسبق
 قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائقي في أكامها لم تفتقي

ولم يعرف قائل هذه الايات . وقيل انها سمعت في موسم الحج قبل وفاة عمر . وعلى
 كل حال فهي من الشعر الذي يصح أن يوصف بقوله :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

فانه قلما وجد امام أجدر بسلام الله من هذا الامام . وانه مهما جد الخلفاء والملوك
 العادلون فلم يدركوا شأوه . أما البوائقي التي أشار اليها صاحب الايات الثلاثة فقد بدأ
 ظهورها في زمن عثمان رضى الله عنه بسبب أقاربه بنى أبي معيط وتفتقت في حرب الجبل
 وحرب صفين ، وغير ذلك من الفتن التي عقلت الاسلام عن التقدم في الارض بعد أن كاد
 يغلب عليها .

وعمر بن الخطاب هو أول من سمي بأمر المؤمنين ، وهو أول من كتب التاريخ
 في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة كتبه من هجرة النبي ﷺ من مكة الى المدينة وهو
 أول من جمع القرآن في المصحف وهو أول من سن قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على

ذلك وكتب الى الآفاق في شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئنا يصلي بالرجال وقارئنا يصلي بالنساء . وهو أول من ضرب في الحجر ثمانين جلدة واشتد على أهل الريب والنهم ، وأحرق بيت رويشيد الثقفي وكان حانوتاً ، وغرب ربيعة بن أمية بن خلف الى خيبر وكان صاحب شراب فلحق ربيعة بأرض الروم وارتمد . وكان عمر أول من عس في عمله بالمدينة وكان له عصا اسمها الدرة يؤدب بها ولقد قيل بعده : لدره عمر أهيب من سيفكم . وهو أول من فتح الفتوح وهي الأرضون والكور التي فيها الخراج والني من فتح العرق كله السواد والجبال واذر بيجان وكور البصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا أجنادين فانها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والاسكندرية وقتل رجه الله وخيله على الري بفارس وقد فتحوا عامتها . وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزيرة على حجاجم أهل الذمة ، فوضع على الغني ٤٨ درهماً وعلى الوسط ٢٤ وعلى الفقير ١٢ درهماً وبلغ خراج السواد والجبل في عهده ١٢٠ مليوناً . وهو أول من مصر الأمصار الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأزها العرب . وهو أول من استقصى القضاة في الأمصار وهو أول من دون الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الني وقسم الفسوم في الناس وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الاسلام . وبدأ بالأقرب للأقرب لرسول الله ﷺ بني هاشم ثم بني تيم ثم بني عدى . جاء بنو عدى رهط عمر فقالوا أنت خليفة رسول الله فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم قال : بخ بخ بني عدى أردتم الأكل على ظهري لأن أذهب حسناتي لكم لا والله حتى تأتيكم الدعوة ولو أن تكتبوا آخر الناس والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة الا بمحمد ﷺ فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب . وكان القوم اذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ قدم عمر أهل السابقة وكان أبو بكر قد سوى بين الناس في القسم فقبل لعمر في ذلك فقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أحداً فرضاً واحداً وكان عمر أول من حمل الطعام في السفن من مصر الى الحجاز وكان يخاف على المسلمين

في بادئ الأمر من ركوب البحر فنهاهم عنه اشفاقا عليهم ولكنهم ركبوه فيما بعد عند اتساع الفتوحات وكان اذا بعث عاملا على مدينة كتب ماله واذا عزل عاملا قاسمه ماله وجعل ذلك القسم في بيت المال ومن هؤلاء الذين قاسمهم ما لم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة. وكان يستعمل مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف وذلك لاشراف عمر على أولئك وهيتهم له وقيل له : مالك لا تولى الأكبر من أصحاب رسول الله عليه السلام فقال : أكره أن ادنسهم بالعمل . واتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر . ووضع في السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء الى ماء . وزاد عمر في مسجد رسول الله ﷺ ووسعه لما كثرت الناس بالمدينة ووضع نصب عينه أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان فأجلى اليهود منها الى الشام ، وأخرج نصارى نجران وأزلم ناحية الكوفة وأعطاهم بدل أملاكهم في نجران . وخرج الى الشام سنة ست عشرة وقسم الغنائم بالجابية وحضر فتح بيت المقدس ، وأبقى كل شيء هناك على حاله وأمتع المسيحيين واليهود بحريتهم الدينية ، وأبى أن يصلى في كنيسة القيامة عندما أدركته الصلاة مع أن البطريك دعاه لذلك بل خرج من الكنيسة وصلى في مكان آخر حتى لا يأتي المسلمون من بعده فيقولوا هنا صلى عمر فإخذوا الكنيسة من أيدي النصارى . وحيج عمر بالناس عشر سنين . ولم يكن عمر يريد اشتغال الساميين في الزراعة ولم يكن ذلك منه اهمالا لهنه بل كان أول من يقدرها قدرها ولكنه لم يشأ أن يشغلهم في ذلك الوقت عن الفتوحات ، وكان يعلم أنهم لو اشتغلوا بالزراعة لأحبوا أراضيهم ففترت همهم وتحلفوا عن الجهاد وهو يعلم أنه اذا اتسعت الفتوح وضرب الاسلام بجزرته في المشارق والمغرب أمكن الساميين فيما بعد أن يتعاطوا الفلاحة ويحسنوها . وكان عمر يقول عن الامارة انها أمر لا يصلح الا بالشدة التي لا تجبرية فيها وباللين الذي لا وهن فيه . وكانت هيبه عمر في صدور الناس فوق تصور العقل لما كانوا يعلمون من أنه لا يرعى في الحق خليلا . واجتمع مرة على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وقالوا لعبد الرحمن بن عوف وكان أجرا الصحابة على عمر . باعبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين فانه يأتي الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبته أن يكلمه في

حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته . فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين إن للناس فانه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك قال : يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا قال اللهم نعم قال : يا عبد الرحمن والله لقد لنت لهم حتى خشيت الله في اللين ثم اشتدت عليهم حتى خشيت الله في الشدة . وكان رحمه الله من أشد خلق الله تواضعاً وأخشعهم لله قيل انه رقى المنبر ذات يوم فحمد الله ثم قال أيها الناس لقد رأيتني ومالي من اكال يأكله الناس الا أن لي خالات من بني مخزوم فكنت أستعذبهن الماء فيقبضن لي القبضات من الزبيب . ثم نزل من على المنبر فقيل له ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين فقال : اني وجدت بنفسى شيئاً فأردت أن أطأطئ منها . وكان مرة ماراً بضحيان فقال لأصحابه لا اله الا الله المعطى ماشاء من شاء كنت أرعى ابل الخطاب في هذا الوادي في مدرعة صوف وكان فظاً يرعبنى اذا عملت ويضربني اذا قصرت وقد أصبحت وليس بيني وبين الله أحد . وقال مرة أحب الناس الى من رفع الي عيوني . ورأى الهرمزان عمر نائماً في المسجد فقال هذا والله الملك الهني .

هذه نبذة من سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أكثرها متواتر أجمعت عليه الرواة وان وقع اختلاف في بعض الروايات من جهة اللفظ فلم يقع من جهة المعنى بحيث لا يخامر الانسان شك في أن سيرة عمر كانت هي هذه كما وصفها الناس بالتواتر خلفاً عن سلف ، ولولم تكن هذه سيرته حقاً لما كانت هيبة الاسلام بلغت تلك الدرجة التي بلغت في أيامه ولولم يكن عمر ذلك الأمير العادل الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم لما كان العدل العمري مثلاً سائراً بين الناس الى يوم الناس هذا . ولقد أردنا بنقل هذه الشواهد من سيرته رحمه الله تعريف حقيقة الخلافة في الاسلام واثبات أنها ليست في شيء من الملك العضوض الذي جد بعد الخلفاء الراشدين والذي عليه ملوك الأعاجم فسيرة عمر هي مثال بارز يأخذ منه القارى صورة حقيقية عن كيفية الاسلام في زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الامارة التي أمرهم بها الشارع ﷺ فكانوا كلما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحرفوا عنها وهنوا وفسلوا (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

الفصل الاول من الكتاب في اليقظة الاسلامية

في القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامى قد بلغ من التضعف أعظم مبلغ ، ومن التدننى والانحطاط أعمق دركة ، فارتدت جوه وطبقت الظامة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى انبعاث الاهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قسبات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتتيال ، فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً فائى القوة متلاشى الصبغة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلاماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، فغلت الأيدي ، وقعدت عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة ايما اهمال .

وأما الدين فقد غشيت غاشية سوداء ، فالبتت الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التأمم والتعاويد والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما

من سائر مدن الاسلام ، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزآت ، وعلى الجلالة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهي الاسلام ، لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان (١)

وفيما العالم الاسلامي مستغرق في هجعته ومدج في ظلمته ، اذا بصوت قد يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، يوقف المؤمنين ويدعوهم الى الاصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصرط المستقيم ، فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ، واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامي . ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة مجد الاسلامي القديم والعز التليد ، فتبدت تباشير صبح الاصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الاسلام .

وولد محمد بن عبد الوهاب في نجد الواقعة في قلب الصحراء العربية ، حوالي سنة ١٧٠٠ م وكانت نجد في ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامي وتدليه ، أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار دينا . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الشورى الى دور الاستبداد الشرقي وكيف أخذ على أثر ذلك العرب الأحرار أباة الضيم يعودون أدراجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم في حرز بلادهم وموطنهم ، وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرر بنفسه يوماً لاختراق تلك الصحارى الرملية المحرقة والتوغل في فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على الدوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكماً عليهم ، بل دأبهم دوماً الحل والترحال وارتباد المنتجعات في مختلف الواحات في قلب الصحراء . وفي هذا الحصن المنيع

(١) لو أن فيلسوفاً تقريباً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب الخبز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأميركي ستودارد . (ش)

استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا تشوبها شائبة ، ورابطتهم السياسية لا تنفخ في بنيانها ريح . أما البدو الرحل فالزعامة فيهم لشيخوخهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدير شؤونهم . وأما الحضرة في الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيخوخ الأسر العليا منزلةً ومكانةً ؛ بيد أن مبلغ ما في أيدي هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة إنما هي سلطة صورية واهنة ؛ لا تقوى على الدوام على الوقوف في وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو أنهم بسطوا شيئاً من سلطنتهم على الأماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ، البلاد الداخلية ؛ فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون في الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آباءهم وأجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجامعة ؛ فلذلك ما انفكوا قط ينعون على العالم الاسلامي سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكاً بالاسلام على أصله وجوهره ولبابه ؛ وذلك حقاً مما يلائم طبائعهم ويتفق مع أمرجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه في الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكره وذاع اسمه ، فعرف بعلم وافر قواما على التقوى . فخرج الى مكة في أوائل عمره وطلب العلم في المدينة المنورة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتعلاً غضبا دينيا لما رآه بأمر عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الاصلاح . فقضى سنين عديدة راحلا من بلاد الى بلاد في شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقفاً النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً بن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد وأعلى زعمائها كعباً وشأناً يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكتسب ابن عبد الوهاب بذلك مكانة أدبية عالية ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالي وحدة دينية سياسية في جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التي أنشأها صاحب الرسالة ، وفي الواقع فإن المنهج الذي نهجه ابن عبد الوهاب ليسه شبيهاً كبيراً ذلك الذي نهجه الخلفاء الراشدون كأبي بكر وعمر . ولما مات سنة ١٧٨٧ خلفه ابن السعود فكان خير خليفة للمصلح الاسلامي الكبير ، واقفى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان في يد ابن السعود من القوى الحربية

العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكون على الدوام نازلاً على رأى الجماعة وشوراها ، فلم يمتن حرية أتباعه وبنى قومه ، وكانت حكومته على عنفها مكينة عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمأنينة والراحة . وعكف على العلم والتهديب ، فكان في كل واحدة مدرسة ، وفي كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين

وبعد أن أخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الأمر في كاملها : أخذ يستعد ليقوم بعمل أكبر ألا وهو إخضاع جميع العالم الاسلامى . ونشر الاصلاح فيه . فجعل نصب عينه في المقام الأول تحرير الأماكن المقدسة الحجازية . فكرر على الحجاز في صدر القرن التاسع عشر بمقاتلته الشجعان المشتعلين غير « دينية » . وكان له ما أراد من الاستيلاء على الأماكن المقدسة ؛ فلم تستطع قوة الوقوف في وجه الوهابيين وهم يحملون على الترك ، والترك في نظرهم أهل الارتداد والجحود ؛ ومغتصبو الخلافة اغتصاباً ؛ وحقها أن تكون أبدأ في العرب . وبينما كان ابن السعود سنة ١٨١٤ يعد العدة لفتح سور يهوهته متينة ؛ كان يخيل الى العالم منه أن الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقاً ؛ وصانعون ما شاء الله من الاصلاح في الاسلام

غير أن ذلك ما قدر ليكون . فلما أيقن سلطان تركية أنه لا يستطيع القضاء على الوهابيين استصرخ بطلا من مشاهير الأبطال ، وهو محمد على ، واستكفاه أمر القضاء عليهم وكان هذا المقدام الألبانى سيد مصر وأميرها ، ووافقاً حق الوقوف على فجرة أوربة وشدة بأسها وتفوقها ، فدعا اليه ضباطاً من أهل الغرب فنظموا له جيشاً قويا ، ودر بوه تدريباً على الطراز الغربى ، وجهزوه بمعدات الاسلحة الغربية . وكان غالب هذا الجيش مؤلفاً من المقاتلة الألبانيين الأشداء ، فسرعان ما أجاب محمد على نداء السلطان فأيقن حينئذ أن الوهابيين على شدة غيرتهم الدينية وحاستهم لن يستطيعوا بعد الوقوف في وجه البنادق والمدافع الأوروبية يطلق عيارها جنود مجربون . وما هي الامدة قصيرة حتى استردت الأماكن المقدسة الحجازية ، ورد الوهابيون على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاخفت الامبراطورية الوهابية الوليدة للحال اختفاء السراب ، وأرخت الستار على الدور السياسى

الوهابي (١)

بيد أن خاتمة هذا الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني ، فقد ظلت نجد بؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحية من نواحي الأرض ، وما فتئ الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يشنون روح الحركة الدينية في مئات الألوف من الحجيج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فيقتبس هؤلاء ناراً وهاوية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله في سبيل الإصلاح . وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبذروا بذوراً تلاها الاختيار الشديد للشورة الدينية في كل فج اسلامي ، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام في شمالي الهند الزعيم الوهابي المغالي السيد احمد (٢) مستنظراً مسلمي بنجاب وأنشأ دولة وهاوية . فكان هذا الزعيم يعد عدته لفتح سائر شمالي الهند خالت منيته بينه وبين ذلك ، واضمحت الدولة الوهاوية الهندية سنة ١٨٣٠ غير أنه لما جاء الانكليز يفتحون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهاوية الكامنة في الرماد ، وظلت هذه النار مخبوءة الى ما شاء الله فكانت عاملا من عوامل « الثورة الهندية » ، ثم استطار من شررها ما تناول أفغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشمالية الغربية فأشعلها أيما اشعال . وفي تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسي في الجزائر وأتى مكة ورضع أفوايق الوهاوية فيها ، ثم أخذ يجاهد في سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيداً للجامعة الاسلامية . وفي ذلك الأوان أيضا نشأت الدعوة البائية (البهائية) في بلاد فارس ، وهذه الدعوة وان كانت بتعاليمها بعيدة عن تعاليم الوهاوية ، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحاً كروح الوهاوية كأنها منعكس لها . وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهاوية بأفقهها ومضطربها اتساعاً كبيراً ، وتطورت تطوراً عظيماً حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية ، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفقهها أيضاً حتى تعددت متجهاتها ومناحيها ، وأهم هذه المتجهات انما هي الدعوة الكبرى

(١) افراً ما يأتي في الدعوة الوهاوية وحركتها :

A Le Chatelier, l'islam au XIXe siècle (Paris 1888) الاسلام بالقرن التاسع عشر

A. Chodzko "Le d'isme des Wahabis" Journal Asiatique معتقد الوهاوية

(٢) هو غير « السر السيد احمد » من عليكرة المسلم الهندي الحر المدود من رجال منتصف القرن

التاسع عشر

المعروفة بالجامعة الاسلامية . وانا سنفرد قسماً مخصوصاً في غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ، مكتفين الآن بالكلام على سائر وجهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكاتبتها الدينية والتهذيبية (١)

فالدعوة الوهابية انما هي دعوة اصلاحية خالصة بحته. غرضها اصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات ، وابطال الأوهام ، ونقض التفسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء ، وعلى الجملة هي الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ، ولبابه وجوهره، أي انما الاستمسك بالوحدانية التي أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ، صافية ساذجة ، والاهتداء والاتهام بالقرآن المنزل مجرداً وأماماسوى ذلك فباطل وليس في شيء من الاسلام . ويقتضى ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، والكون على السذاجة التامة في أحوال المعيشة ، وتحريم اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأثق في الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة ، والأفيون والتبغ ، وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ، وليس هذا جميع ما في الأمر ، بل عد الوهابيون المباني الدينية المزخرفة من نواهي الاسلام . فهدموا قبة قبر الرسول في المدينة المنورة ، وخرّبوا ما آذن المساجد ، فهم على اغلظم في الاعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد في المدارك وبعد في التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطنتهم السياسية ، فقصرروا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية بحسب

وقام على أثر ذلك عدد من النقدة، اتخذوا الوهابية دليلاً لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور وبمباشرة أحوال الترقى والتبدل ، وليس الفأ لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ، بيد أن تقدمهم هذا لفساد باطل ولا

(١) لا ينكر أن الوهابية هي نهضة في الاسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند والقائمون بها أولو تعصب شديد، وربما أفرطوا في مبادئهم وغلوا في عقائدهم شأن جميع المذاهب التي لا يقف أتباعها عند الحد الذي وضعه أصحابها . ولكن المقرر أنها حركة انابة الى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول (ص) والصحابة ، ونبد الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف، ويلقب الوهابيون أنفسهم سالفين ، وأكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

مسوغ له . اذ قد فاتهم أن الدور الأول لكل إصلاح ديني إنما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ، والاستمسك به على حاله الأولى استمسكاً لا يَحتمل نقد ناقد ولا اتهام متهم . فالصلح الديني لا يرى سبيلاً للقيام بالاصلاح وبلوغ الغاية ، الا بنسخ جميع البدع والأوهام اللاصقة بالدين ، دون اعتبار صفاتها وماهيتها . ليعتبرن العاقل اللبيب أنه لما بدأ الاصلاح البروتستنتي عندنا إنما كان مبدؤه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالمتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس »^(١) واتهموه بالباطل ، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية إنما هي افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المعصوم بالتوراة المعصومة وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزداداً ، ومبادئ التجدد والاصلاح الحقيقي تنمو نمواً مطرداً . وكان مما لاشك فيه وأمره طبيعي أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئاً فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون في أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى أدركوا المعتزلة ، فاستكشفوا دفايتها ونفخوا فيها نسمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأتينا على وصف النزاع الذي قام مشتداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب وأرباب مذهب العقل أعني المعتزلة من جانب آخر في أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لأتباع المذهب الأول ، فاختلفت المعتزلة وامحت آثارها احماء حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين ما فتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية يبراهين أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، و بأحاديث وآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح في الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : « إنما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشئ من رأيي فإني فأنما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج . وقوله أيضاً « انكم في زمان من ترك فيه عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا » رواه الترمذي عن أبي هريرة . وروى أحمد في مسنده عن أبي ذر مرفوعاً : « انكم في زمان عاملاؤه

(١) هو سيديريوس اراسيموس (١٤٦٧ - ١٥٣٦ م) أحد الاباطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزي على عهد آل تودور . وزميله يوحنا كوكف (١٤٦٦ - ١٥١٩ م) وتوما مور (١٤٧٨ - ١٥٣٦ م) - (المغرب)

كثير وخطباؤه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى - أو قال هلك - وسيأتي على الناس زمان يقل عاماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا (١) »

وقبل أن نشرع في الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الاعمال في سبيل الاصلاح ، يجدر بنا أن نبث بحث المخلص الخبير في نقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للاصلاح ، وبماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المترفية بترقي الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى (٢) وحدهم في هذه النقود وما يدور حولها أخذاً ورداً بل شاركهم في ذلك غيرهم في أبناء الفرنجة كأتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان » الفرنسى (٣) ونفر من أعظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية في العالم الاسلامي نظير اللورد كرومر (٤) واضرا به . أما هذا الأخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للاصلاح ، أعني ان الاسلام مجدداً مصلحا إنما هو غيره حاضراً بل هو شئ آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن تدبر حق التدبر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين في ديارهم عهداً طويلاً . على أنه بعد اقامة الوزن لهذا كله لا يتردد الباحث المقارن في تاريخ الأديان ، ولا سيما في آراء المصلحين المسلمين الحدباء ، وما استطاعوا القيام به من الاصلاح من القرن الماضي ، أن يدحض جميع هذه المتهمات ادحاضاً ، ويحجبه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جبهياً يجب ألا يعربن عن البال أن الاسلام في يومه هذا إنما يجتاز دوراً كذلك الدور الذي قد اجتازته النصرانية في أوائل عهد الاصلاح في القرن الخامس عشر . فالدوران حقاً

(١) نقلنا هذه الاحاديث بصيا الحرفي كما أرشدنا اليها حضرة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا

(٢) اقرأ كتب الفس المرسل س . م . م . زويمر Rev. S.M. Zwemer الآتية : —

« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia, The Cradle of Islam (Edinbourg' 1900)

« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. (London 1915) و « العالم الاسلامي اليوم »

The Mohammedan World of To-day وهي مجموعة محاضرات وخطب تليت في مجمع المرسلين

البرستنت العقود في القاهرة سنة ١٩٠٦

(٣) كتاب « الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et La Science (Paris 1883)

(٤) كتاب « مصر الحديثة » Cromer, Modern Egypt. Vol 2 (London 1908)

متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداة المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لا ينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامى للآلاف الأخير ، يبدو له على الجملة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصرى ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها فى صدر القرن الخامس عشر ؟ فن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ، ير أن روح الأولى اليوم : وروح الأخرى بالأمس ، انما هي روح واحدة . فلننظر فى شئ من هذا ، وهو تحريم الربا فى الشريعة الاسلامية تحريماً لو أيسح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنييهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذا دليلاً على جود فى الاسلام جوداً يمسك به عن مجارة الحضارة العصرية بيد أنه يجب الا يند عن البال أن الشريعة النصرانية قد حرمت الربا أيضاً تحريماً لا يوصف ، وقد كانت متشددة فى ذلك ما استطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للميدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة الأروبية وجناة ثمراتها ، لا يشاركهم فى ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وحدث أن « المبردين » أقدموا حيناً على التدين بعض التدين ، فعدوا هراطقة النصرارى وكفرتهم ، واتهموا بارتكاب النواهي ، واضطهدوا شراضطهاد . ولننظر فى شئ آخر يزداد الأمر تحققتا وانجلاء . يقول متعصبه النقدة أن الاسلام يجافى الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية فلعمر الحق لو شاء الاسلام أن يحتج على النصرانية ويرد اليها افتراءها ، لكان لديه حجة أدمغ وبرهان أقطع مما هو مدون فى صحف التاريخ النصرانى ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذب ، وأذيق الهول أشكالاً ، منذ أقل من ثلثمائة سنة^(١) بحضرة المجلس « البابوى » ، ليرتد عن تعطيله وهرطقته التى جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن تنعمى عما قاله محمد فى شأن العلم ؟ وأن تنكر تكريمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة مازالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهالك بعضها : —
« اطلبوا العلم ولو فى الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلي فى

« الضعفاء » ، وابن عدى في « الكامل » والبيهقي وابن عبد البر عن أنس رضي الله عنه
« اطلب العلم من المهد الى اللحد (١) » .

« لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة (٢) » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٣) » .

« العلماء ورثة الأنبياء (٤) » .

« أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال عزّ
وجلّ : وعزّتي وجلّتي ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك
أثيب وبك أعاقب (٥) » .

فهذه الأحاديث وكثير غيرها إنما هي برهان على ن الأحرار من المصلحين المسلمين
يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية المأشوية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور
ولست أعني بهذا أن دور هذا الاصلاح في عالم الاسلام ، بحق كونه دوراً اصلاحياً حرّاً ،
سائراً سير التقدم والترقي ، فهو لا محالة مدرك غاية الظفر وبالغ محجة النجاح التام . فالتاريخ
إنما يحوي بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التي فشلت بعد جهد وحبطت عقب نصب . وقد
علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة في أوائل الاسلام ، وكيف ذوت نجفت
فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التي ينبئنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد
انكارها ، أنه متى ما حان ميقات اليقظة الحقيقية في أمة ، وأنشأت العصبية الجنسية تدبّ في
عروق أبناء تلك الأمة ديبباً مستمرا ، أصلح الدين لا محالة ، ونفض عنه غبار التقليد
المصوق به ، وحرّر من عهد رسفانه ، وحلّ محملاً يلائم روح اليقظة ، وأخذ به أخذاً متفقاً
مع متجه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت في
سبيل العليّ ثابتة الخطى رابطة الجأش ، فكان الدين حبر عثرة أو علة فشل لها ؟ اللهم لا .
قد تبلغ تلك الأمة فترة تقف فيها مندلة صعباً من الصعاب ، أو حالة أربّة من الارب ، أو

(١) أفادنا الاستاذ السيد رشيد رضا أنه لم يره حديثاً نبوياً

(٢) رواه ابن عبد البر من حديث أنس ، وفي بعض ألفاظه « مائتا ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى

(٣) رواه ابن عبد البر عن الشيرازي عن أبي الدرداء رضي الله عنه

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي الدرداء .

(٥) وفي رواية « ما خلقت شيئاً أحسن منك » .

مزيحة عقبة قائمة في السبيل . ثم ما تزال مستحثة ركابها ومعملة المهاميز في مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقطف ثمرة الجهاد يانعة . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامي يبنى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك ما دامت روحه نائرة وعزمه متقدماً ، وهو فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربية ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامي لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزله كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع ما فيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطور من حال الى حال . يقول النقدة مثل اللورد كرمر ان الاسلام منقحاً ليس الاسلام حاضراً ، بل شيئاً آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فاماذا لا يظل الاسلام اسلاماً ؟ اذا شاء المسلمون أن يظلوا الى ما شاء الله مساميين ، وأن يظل دينهم دينهم ، وأن يستنبروا أبدأ بروح الرسالة المحمدية ، أنكرنا عليهم اسمهم كأنه شيء لا يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافاً بعيداً عما كانت عليه في الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يباين أكثرها بالأمس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الكنائس والبعض الآخر ، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدى المضطرب والغور ، وعلى هذا كله بجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ، فبالله علام هذا التعامى في حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذي تقدم أن نسط الكلام على قادة الاصلاح من المساميين ، مدققين النظر في ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنية على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمال ، وليس على ما هو مدون عنهم في بطون الكتب والتواريخ التي ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائري^(١) قولاً سديداً : « لا تقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبيهم الحر على الأسس التي وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر ، أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوماً في جميع ماضيه حتى في أشد عصوره حلكاً من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، الذين انما كانوا يتوالون الحقبة بعد

(١) هو اسماعيل حامد

الحقبة ، فيصرخون في المسامير صرخات الاصلاح الشديدة ، ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد ، واليك مثالا من هذا ، فقد كتب الغراني المشهور ، وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزيرٍ على الله عزّ وجلّ أن يكشف لعباده المخلصين في المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء في كل دور ، النعم التي تفيض نوراً على أبصارهم وبصائرهم فتهددهم سواء السبيل »

فهذه الصرخات التي توالى والمصاييح التي أوقدت في فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التي كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين ، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام في كل بلد من بلدان المسلمين في الرقعة الاسلامية عدد من رواد الاصلاح ودعاته ينهون ويوقظون ، ويحضون ويستحثون ، بيد أن هؤلاء كانوا نزرأ في بدء عهد الاصلاح الحديث فلاقوا في سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم ، اذ هبّ رجال الدين^(١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام ، فكان من طبيعة الأمر ظهور النزاع والمشادة بين المسلمين في سبيل الاصلاح . وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصابة من المصلحين ، ذوو عزم شديد وعلى رأسهم « السر » السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون في سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحرّ ، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلمية الاسلامية في عليكرة وأما « السر » السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين ، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكي حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين

(١) كره صاحب الرسالة أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالاسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية ، علي حد ما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأى مسلم كان يستطيع أن يقوم في المصاين اماماً ، بيد أنه على توالى الأيام نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الشرعية والفقهاء الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتى عرفت بالتالى برجال الدين ، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة « الدراويش » وأمثالها . على أن الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا في أول عهده .

متقدماً غيرة وهائية . وكان يعتبر قدر الحضارة الغربية ، ويحض أبناء قومه على ورود منهلها ، وأخذ الصالح منها ، فقد كتب سنة ١٨٦٧ في هذا الشأن يقول : « يجب علينا أن ندرس الكتب العلمية الغربية ، وان كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين ، وكان فيها ما يخالف القرآن الكريم ، وأن نأخذ اخذة العرب في أوائل عهد ملكهم ، فانهم لما شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا ألبتة في دراسة كتب فيثاغورس وكتب غيره من فلاسفة اليونان » .

ثم أخذت دعوة الاصلاح الحرّ تنمو نمواً سريعاً في الهند وتزداد قوة ورسوخاً ، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها اعزازاً كبيراً مثل مولوى شيراغ على والسيد أمير على العبقرين اللذين اشتهرا في العالم كله بما أخرجاه للناس من الكتب القيمة الباحثة في شؤون الاسلام وروحه ، وقد كتب هذه الكتب ^(١) باللغة الانكليزية الفصحى فذاعت ذيوهاً قلّ أن يعرف له مثيل ، وهذان البطلان وغيرهما أمثالهما في الهند لقبوا نفوسهم « بالمعتزلة الجديدة » ، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظام في سبيل الاصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع ، ومنادين بوجوب استقصاء الشريعة الاسلامية واستدرار خيرها واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر ، لأن لا سبيل لتجدد الاسلام التجدد الصحيح الباقي غير هذا السبيل ، وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظام وهو السيد « خدا بخش » في بعض كتبه يقول : « ما كان النبي ﷺ يبغي شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . ليس القرآن الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين . وليس عنرة في سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية » . ثم جاء على كلام نعى فيه حالة الاسلام منه : « لعمري ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذي أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذي جاء به النبي لبري من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية ^(٢) ، وعار عن

(١) لعل خير ما كتب السيد أمير على كتابه « روح الاسلام » (لندن ١٨٩١)

The spirit of Islam » (London 1891)

(٢) كنت مرة في المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوي (وكان يومئذ زبور بك مدير المذاهب في الاستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم في ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجره الشريفه

هذا التعصب القاتل والجهل الشديد ، والأوهام والأباطيل الكفرية . ثم أنهى كلامه قائلاً : « هل الاسلام عدو للترقى والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قاتل نعم ، فتى وضع الاسلام فى البوتقة وأخرج منه ما علق به من جميع هذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفى ذلك العهد كانت دعوة الاصلاح الحر قد طفتت تنتشر فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، فهب المصلحون الأحرار فى كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجاهدون فى سبيلها بجهد قوى وعزم أكيد . فقد ظهر الأحرار فى تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الحميدى ^(١) ، ومدبرى شؤون المملكة وساسة أمورها . وقام فى أحرار انترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا ^(٢) ومدحت باشا ، المجاهدين الكبيرين فى سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربة ذها ، وقائديها نحو التجدد والترقى . وظل الدعاء الأحرار فى تركية يغالبون الأهوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الحميدى مالم يعان مثله غيرهم ، فقتلوا تفتيلاً ، وأهبطوا جوف الأرض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا حتى كانت

لايقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأئهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيها ما ليس فى الاسلام من الرتب الدينية والدرجات الكهنوية ، وذلك عند ما يدخلون الى معابدهم ، وم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام ، وصادف أن كان هناك السيد أبو بكر خان من عظماء الهند أحد أعضاء مجلس الهند الأعلى وهو ليس ممن يحسن التركية ولا العربية ولا يعرف من الألسن الاسلامية الا الفارسية ، وجميع تحصيله كان فى انكلترة ، ولكنه كان يفهم روح الاسلام جيداً . نجاء وكاشفى بما وقع فى نفسه من انكار هذه العادة . ولكن :

« لتبعن سنن من قبلكم شبراً يشبر وفراعاً بنراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتهموه » حديث شريف . (ش)

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا أعظم رجال الدولة العثمانية فى القرن الماضى ، تولى الصدارة فى زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد الحميد ، ونبغ له تلامذة فى السياسة لم تعرف الدولة أمثالهم منهم أمين على باشا المشهور ، ونده فؤاد باشا الذى ليس بأقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا أبو القانون الاساسى أو الحكم الشورى الذى يقال له عند الاتراك « مشروطيت » (ش)

ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانها تقويضاً ، فبرزت « تركية الفتاة » الى الوجود . وفي مصر كان لواء الاصلاح خفاقا يحمله أبطال عظماء مثل الشيخ محمد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق اللورد كرومر الحميم . وفي سائر بلاد المسلمين كبلاد النثر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثير عديد الأحرار ورواد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم إنما هم على مذهب الاعتقاد بوجود تنشئة الاصلاح في المسلمين تنشئة متدرجة بماشية لمقتضى العصر ، وبأن الاسلام لقابل أحسن قبول لسكل تحول وتطور ، ومستعد بطبائعه لا يلاف تبدلات العصور والأدوار ، والتكيف على حسب ترقى الحضارات . فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنه العذب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية مبلغاً عظيماً ، ووغل فيهم تيارها موجلاً كبيراً ، فأقبلوا على كل شيء غربي أعثا كان أم سميناً ، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا يبالون بذكرى من ذكريات سالف أيامهم ، ففي كل من البلاد الاسلامية المترقية ، ولا سيما في البلاد التي ما زالت منذ عهد طويل في حكم الغرب كالمند ومصر والجزائر ، عدد من أبناء المسلمين الذين طلبوا العلوم في الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتمهيداً ، فباتوا لا يكتثون لشأن من شؤون الدين الذي ولدوا فيه ، ولا يهابون المصارحة بالتعطيل والاحاد ، فتلاشت في نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائري حال مثل هؤلاء من أبناء قومه بقوله : « كان للاحاد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر ، فهم يجهلون حد ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشي . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم

(١) للاطلاع على حركة الاحرار في بلاد النثر الروسية اقرأ كتاب أرمنيوس فباري « التهذيب الغربي

Arminius Vambery. « Western Culture in Eastern Lands » (London 1950)

في الانظار الشرقية »

ومعتقدهم ، غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية في نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون ألبتة بنشره في الناس وبال دعوة اليه في غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتي من بعدهم من الأولاد والاحفاد لحسب ، وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجمعين فالخلق أن الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلاشي (١) »

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقاً آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذي تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفي ذلك من التناقض والتباين ما يقضى بالعجب الشديد ، فان أتباع هذا الفريق الآخر هم من الناشئة الاسلامية ، متشبعون آراء الغلو الغربي كالألحاد والاشتراكية والبلفشية وغيرها . وغلوهم هذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليه من التعصب الديني الكثير ، وهم يسعون جهدهم لعقد عروة اتحاد بينهم وبين فريق الرجعيين ، حتى اذا ما عقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألفت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجةها الهاب صدور المسلمين كرهاً ومقتاً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يعدون نفوسهم في كل بلادهم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ، لذلك تراهم أبدأً نهماً أشد النهم في الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كما يتسنى لهم بلوغ الغرض من ذلك سيطرة الغرب المنتشرة في الشرق الاسلامي دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون في السعي وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية في سبيل الجامعة الاسلامية ، وقد رأينا غير مرة كيف يجتهد هذا الفريق الملحد في استثارة الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقد كتب السيد بخش يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « انى أعرف سيداً مسلماً ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجاح ، انما في يديه أداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حائز عليه من هذا التوفيق والنجح ، وما تلك الاداة الا الدين . فهو يبالغ في الظهور في بنى قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم في الجوع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير أنه على ما اعتقد في نفسى ليشتمل في

(١) كتاب اسماعيل حمد « المسلمون الفرنسيون في شمالى افريقية »

نفسه على آراء في الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبو عن سماع مثله سمع (قواتير) ولم ينطق بئله لسان (غبين) «

واننا سنسهب الكلام في فصلى « الجامعة المصرية » و « العصبية الجنسية » من هذا الكتاب على بيان أعمال هذا الفريق ، بيد أن ما يجب الاشارة اليه في هذا الموضوع اشارة مخصوصة ، انما هو التباين في المنهج والوسائل لتحقيق الاصلاح العام في العالم الاسلامي ، بين هذا الفريق ، وبين المصلحين المخلصين الصادقين الذين أتينا على ذكرهم من قبل ، ناهيك به من تباين ضار يفسد الاصلاح . فعلاة الوطنيين ، والضرر الذي ينتاب الاصلاح انما ناشئ من جانبهم ، دأبهم استثارة الروح الدينية في قلوب سواد الأمة ، وحمل هذا السواد على مقت كل شئ غربي يروونه في بلادهم ، واعداء الغرب في كل أمر سوى ما يؤول الى ترقية القوى العسكرية الاسلامية ، وفي هذه القطعة المقتطفة من مقال لأحد عظماء رجال « تركية الفتاة »^(١) يخاطب اوروبا ، مثال بين على هذا : —

« أجل ، الدين الاسلامي لم يبرح ولن يبرح على عدا حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا يا جهابذة الغرب أن النصراني ، سواء أرفيعاً كان أم وضيعاً دينياً ، فانه بمجرد كونه نصرانياً ، ليس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانية . وهذه مقاتنا لكم سهلة واضحة : ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الأحد ، واتخذ له من دون الله أباً ، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رماصلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لبارئ الكائنات : وعلى ذلك فالتخذ الهاً غير الله والجاهد الوجدانية ، لمستحق للعنة الأبدية . وليس ذلك جميع الأمر بل ان أقدم عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى يحمله على الدخول في الاسلام ، أو يستأصل شأفته من على وجه الأرض . هذا ما يأمرنا به الهنا الواحد الذي لا اله الا هو . نحن لا نعرف في هذا العالم سوى المؤمنين أو الكفار ، أما نحن المؤمنين ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، وأما أنتم الكفار ، فانتا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشركم انما الذي يقول بوجود الله من حيث يعتقد بولادته من البشر ، فما أشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بيننا وبينكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بين ظهرائنا لآفة في كياننا ولا غرابة فاعتقدكم انما هو

(١) كتبه الشيخ عبد الحق في جريدة شريف باشا « مشروطية » آب سنة ١٩٢١ .

غض من دين التوحيد ، ومعاشرتك ليست مما تتطهر به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .
«وعلى هذا كله ، فاتنا ننبذكم نبذاً من حيث ندرس أنظمتكم السياسية والعسكرية ،
فكأنكم والحالة هذه تدفعون الينا أسلحتكم لنقاتلكم بها فنشتد قوة بازائكم ونعظم
شوكة ، فوق ما تجود به علينا العناية الأزلية من العون عليكم في عصر أشعلتم فيه نار
غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكري شهدائنا وأبطالنا المساميين الذين استشهدوا في سبيل الدين
فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؟ وبعد هذا
كاه أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجة ؟ نعوذ بالله من
ذلك ومنكم ! »

ولا شك في أن مثل هذا المقال يلاقى في جمهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية
وقلوباً واعية^(١) . وفي هذا الموضوع ينبغي ألا يذهب عن البال أن المصلحين الأحرار
ما برحوا الأقلين عدداً ، وان كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، اذ يفوقهم السواد
الجاهل من الأمة ، السواد المجتازون اليوم دوراً من أشد أدوار التمخض والانتقال
والخروج من الظلمة الى النور ، أضف الى هذا أن من أظهر صفات السواد اعجابهم بشأن
بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مرأ ، ويعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت
والازدراء ، وان اعترف المسلمون الذين على هذا الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق
فإنما يفعلون ذلك على غل في القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شيء
جديد ، ويشتعلون غيظاً وتألماً من جراء ما يشعرون به ويرونه حولهم من شدة خناق
السيطرة الغربية . وعلى الجملة فإن هذا السواد الجاهل هم بين أيدي قادة الجامعة الاسلامية
وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخراف في صنع الطينة بين يديه .

فالاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الأحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما
الاولى فيها مناط الآمال في الفوز بالاصلاح على ما تقتضيه سنة سير العمران والترقي ، ولها
من ازمين أكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامي لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة
الغربية ، لا بل ما دامت هذه الحضارة ثابتة الأركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى
كل حال فالمتوقع أن الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالي انما هم المصلحون الأحرار .

(١) في هذا المقال غلو عظيم لا ينبغي على أحد ، ولكن الغلاة لا تخلو منهم أمة ولا أتباع طريقة (ش)

ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله ناشئ في السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات؟ وصفوة القول، فلا أدوار الاصلاح في عالم الاسلام اليوم، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الأخطار الحاملة أجنة البلايا، تلك الأخطار التي سنأتى على بيان أداتها في الفصول التالية من هذا الكتاب.

بقى علينا أن نذكر الحقيقة الكبرى التي يجب ألا تغفل، وهي أن في كل قطر في أقطار العالم الاسلامي جهوراً من المصلحين الأحرار يزدادون عدداً ويشدون قوة وينضم الى لوائهم رجال من سائر الأحرار الخبراء الراسخين علماء بأسرار نهضات الأمم وتقدمها، والى جانب هذا الفريق فريق المحافظين، وجميعهم، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين، انما يعملون عصبا متحدة متماسكة الأطراف في سبيل الاصلاح العام في المعمور الاسلامي، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة، شاعرين حقاً بان الفترة لعصبة وعالمين أن الدور دور انتقال شديد وحاسين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد لهُو من أشد الأعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً. أما ما يتوقع من التطور في الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الاصلاح، فليس من شأننا البحث فيه في هذا المقام. انما التاريخ ينبئنا أنه متى اقتضت سنة النشوء اصلاً، وأعدت أسبابه وعمله، واجازته دوراً اختمرت فيه عناصره، كان ذلك الاصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشرى.

ومما لا مرأى فيه أن روح الاصلاح، على اختلاف مظاهرها وصورها، قد تغلغت في الاسلام ودبت فيه ديباً هائلاً وفشت في كل عرق من عروقه فحركته فتحرك، فأخذ ينفع انفعالا عظيماً. فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود. قد استطاعت الوهابية التي ظهرت منذ أكثر من مئتي سنة أن توظف الاسلام فاستيقظ مذعوراً، فما كانت تلك العصبية الدينية الا الضرم في النار أو الغريسة نمت فجاءت بأطيب الثمار، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة، والمؤثرات الغربية في زائد انتشار وانبات في كل رقعة من الرقاع الاسلامية وان كانت المخاوف والمخدورات تقرأ في جبهة المستقبل، ففي جبهة المستقبل أيضاً تقرأ الآمال الحسان.

المبشر زويمر ومفترياته

المبشر زويمر

اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتباً افترى فيها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ما شاء وأودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ما ينفر الطباع من الاسلام ما حقه أن يكون سمة عار باقية على الدهر في جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو أعلى من أن يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره ومستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعي المبشرين في أقطار الاسلام كلها قطراً قطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعي وحبوطها ، مما هو حري بالاطلاع بل بانتباه العناء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبثة في جميع تلك الأقطار ، تحت أشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، وأكثرها مستشفيات ومصاح وملاجئ للفقراء ، وزويمر هذا من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلوبهم ثمة منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة أهوائهم ، وتمريض أجسامهم ، ومؤاساة فقرائهم ، وبالاختصار استنثار أمراضهم وعلاهم وكروهم وخصاصاتهم ، ولا ينكر أن هذا الرأي هو رأي مجرب خيرساح في جزيرة العرب وفي كثير من بلاد الاسلام وعلم ما يعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الأوقاف التي يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التي درس معظمها ، وصارت أترا بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره في البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وجد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية في كثير من الأصقاع لا سيما في بلاد الجاوى ، حيث معدل من يتنصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ، وقد بلغ مجموع المتنصرين بزعمه في الجاوى نحو ١٨ ألفاً ، وزعم أن الهند أيضاً شهدت من نجاح هذه الرسالات شيئاً

كثيراً ، وأن ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم في شمالي الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستاندياً قحاً^(١) فهو لا يفرق بين أحد من رسله ، وهو يغتبط بمساعي الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية في افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذي حل بالاسلام على أثر الحرب العامة ، وانهايار قوته السياسية ، لأجل جوب أقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مرا كز التبشير في البلدان الاسلامية التي كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان أول خطوة جرت لأجل توحيد الأعمال واثراك الحركات بعضها مع بعض هي المؤتمر التبشيري الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من أوربا وأميركا ، غايتها كلها تبشير المسامين ووضع هذا المؤتمر أوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحي بأجه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهي حل المسامين على الانجيل^(٢) وعقب هذا المؤتمر مؤتمرات آخران أحدهما في « لوكناو » بالهند والثاني في « اديمبورغ » بانكلترة .

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها من أجل ملاحظات سياسية في عضد رسالات التبشير ، ويعقد منحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرقى افغانستان) لعبد الرحمن خان أمير الأفغان حتى بعث اليها أحد قواده غلام حيدر خمل أهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان أهالى مقاطعة كيلان في بلوجستان ليسوا مسامين الا بالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسامين متعصبين . . . وفي جزيرة بورنيو من البحر المحيط لا يزال جيل اسمهم « الداياكس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسامون ؛ فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النغصة .

والطامة الكبرى عند زويمر هي في أواسط افريقية ، فانه يدوب لهماً على انتشار الاسلام في تلك الأرجاء بهذه السرعة الغربية ، ويتأوه على كونه في السودان كله لا يوجد

(١) أصل لقبته من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتانتات من فرنسا في زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى أميركا

(٢) مع أنهم يتقدمون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وأمثاله

أكثر من عشرين مبشراً ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمي (Missionary Review of the World) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها أنه في سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلاً جداً في اده (Iddah) على النيجر وأنه في سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم في كل مكان الى أبو (Abu) وأنه اذا بقيت الحال على ذلك المنوال فلا يرجى أن تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فما ظنك الآن ونحن في سنة ١٩٢٣ ؟) وبالاجمال يقول ان نحو ٥٠ مليوناً في أواسط افريقية وأطرافها قد أسلموا بالرغم من مساعي المبشرين الذين لم يعرفوا من أين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهد الجمعيات التبشيرية في عدن ، والشيخ عثمان منذ سنة ١٨٨٧ . وفي بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات في البلاد العربية هذه على شيء من النجاح الذي صادفته في الهند والبنجاب و بلاد الجاوى ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر وباركاند ولا يوجد بعثة برونستانية غيرها في آسية الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت بأعمال جليلة بين مسلمي الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لا تزال غير قائمه بواجباتها فيما يتعلق بمسلمي بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبي فارس ، وتركستان ، وأفغانستان ، و بلوجستان ، والصين وجزر الفيليبين . ويشكو من الشكوى من كون بلاد الأفغان لا تزال بكراً لم تطمئنها قدم مبشر ، وأن الأفغان يمنعون المبشرين من دخول أرضهم ، الا أنه يمتنى نفسه بأن حكومة أفغانستان لا بد أن تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسيبتيرية الأميركية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجعل مشهد على (شمالي أفغانستان) مركزاً للحركات^(١)

ومما يروى أنه في مؤتمر « ادنبورغ » قدم أحد الأعضاء الذين جاؤوا الصين تقريراً يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمي الصين الذين هم منتشرون في ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير في السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبغض الزوج للجنس الأبيض الاوربي على

(١) الذي نعلمه أن أفغانستان مصممة أن لا تدع بعثة دينية أجنبية تدخل أرضها .

اطلاقه ، وتضامنهم في وجهه ، ولكنه يوجب على أوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التي تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود أبداً فينبغي أن تكون هزيمة الاسلام في الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التي - أحياناً بدون روية - تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم أوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دائرة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ؛ وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواي زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة . وأما من جهة التعليم فاذا اتبعت الحكومات الأوربية برنامج التعليم التي هي جارية عليه في السودان والنيجريا^(١) . وفي كلية غوردون في الخرطوم فان هذه الخطة هي مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية . . . ثم يقول أما المدارس العليا التي تأسست لمكافأة الصادقين من المسلمين^(٢) فلعمري أكثر الأحيان لم تكن تلك الصداقة حقيقية بل هي مداواة منهم ؛ ولا يكون لتلك المكافآت ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يقبصون لهم^(٣)

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكاتمه الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعنائه والظهور بمظهر الشماتة به لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويشير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران احقادهم ، فينهضوا ويشوروا للمقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذي صار مباحاً أمامنا . . . على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسالك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل أنه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضيع وقته في احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم بركة الأدب والكياسة . . . انه يتحتم سوق الجملة بحكمة ومهارة

(١) يظهر أن الظروف قضت عليها بالترخيص بحصة من التعليم الديني

(٢) أي الصادقين للحكومات الاوربية

(٣) من رأى زويمر اذاً أن الحكومات الاوربية يجب أن تستخدم دماء من تلى عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهديهم وتحذر من أن تراعى خواطرهم بشئ يشعرون منه أنها تقيم لهم وزناً .

ولكن يتحتم سوقها بشدة ويجب أن الكنيسة تعي جميع قواها من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى أن تصل الى غايتها الح .

هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها . ونحن نجابوالمبشر زويمر وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده ، انه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف ورسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هي الانجيل في الظاهر والسيطرة الاوربية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، اذ لا بد للاسلام أن يستعصى على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً . وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار الخاطمة ، والعياذ بالله ، فالأولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، وأحوج الى الارشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والاحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة . فعلى الانسان أن يدبر بيته قبل أن يمد يده لتدمير بيت جاره . أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملاءم بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحت على العلم والانسانية والحضارة واغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين .

الاستاذ الامام الشيخ همل عبده

للا مير شكيب

أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مشواه ، تعرف اليه محرر هذه الخواشي في عهد الطلب ، أيام كان هو منفياً في بيروت على أثر الحادثة العراقية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولا زمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطري ، واستفضت من بحر حكيمته ما أمكن أن يناله قصور عارضي ، ووجدت فيه الضائة التي كنت أنشدها ، والبغية التي كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت في فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال ، وان يقبل عشاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه جبل المكاتبه ، وأقف على رأيه في أكثر الأمور جزئياً وكلياً ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يبت الى مالا يبش الى غيرى من سوانح فكره ، وذوات صدره و بينا كان بعض حساده يتهمونه بمباشاة الدولة المحتلة ومواقفة اللورد كرومر كان يكتب الى قائلاً : « الأحوال هي مما يتعاطم له الأمم ، ويعجز عن وصفه القلم » فكنت أعلم أنه ما أراد الأتحفيف الداء ، وتقريب أجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء وما زال شأنه يعلو ، وحقيقته تظهر ، وجوهه ينجلي بالحك ، وعقيدة فضله تتمحص من الشك ، الى أن اتفق الناس على كونه أحد أفذاذ الشرق الذين قاما جاد بهم الدهر ، وواسطة عقد المصلحين المجددين في هذا العصر ، وظهر أن طريقته الاسلامية العصرية ستزداد مع توالي الأيام انتشاراً ، وتكون هي طريقة المستقبل ومعول الآتى

واقدمكان جامعا بين العلم والعمل ، فلا تجد مايساوى فضله و بلاغته وثقوب أفكاره ، وقوة ملكته في الفلسفة ، سوى علو مباديه ، و بعد همته ، وغزارة مروءته ، وطهارة أخلاقه ، وهيبات أن يأتي الزمان بمثله

ومن حسناته الكبرى ، وأياديه التي ملأ بها طباق العالم الاسلامي براء،أخذه بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة « المنار » التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجان أفكاره . فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الاصلاح الديني وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الأولى في عهد السلف . وتأليفه مع المدنية الحاضرة . كما أن الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هوالأولى بأن يخلف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه .

الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويطول العهد بعد الأستاذ الأ كبر السيد رشيد فصح الله في أجله حتى يقوم في العالم الاسلامي من يسد مسده في الاحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معاً والجمع بين العقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح في النوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثه مما لا شك أن الأستاذ الأ كبر فيه نسيج وحده انتهت اليه الرئاسة لا يدانيه فيه مدان مع الرسوخ العظيم في اللغة والطبع الريان من العربية والقلم السيال بالفوائد في مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الانساني ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها الى المنطق السديد الذي لم يقارع به خصما مهما علا كعبه الا أخمه وألزمه ولا نازل قرناً كان يستطيل على الأقران الا رماء بسكاته وأجله . وأجدر بمجموعة « المنار » أن تكون المعامة الاسلامية الكبرى التي لا يستغنى مسلم في هذا العصر عن اقتنائها كما أن التفسير الذي وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التي خللت اسمه في هذه الأمة وقرته بكبار الأئمة وله من المواقف الشريفة في النضال الديني عن الاسلام والمرامة عن عقيدته الصافية ومن الكتب الجدلالية في رد شبهات أعدائه من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدة والمعطلة ما لا يقدر أحد في عصرنا هذا أن يدرك فيه شأوه ولا يستطيع جهبذ من جهابذة الاسلام أن يبلغ فيه مداه ولا نصيفه . انه الرجل الذي لودعا كل مسلم باطالة حياته حياً بخدمة الاسلام والمسلمين لكان بذلك جديراً . وليس في كلامنا هذا شيء من الاطراء ولا ثمة ما يدعوننا اليه وانما أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم وهو أمر الهى صريح كما أننا لسنا ممن يرى المعاصرة حججاً عن تقدير الفضائل قدرها بل نرى أن المنتصف يجب أن يزن أقدار الناس في الحياة و بعد المئات بميزان واحد وان كان من ضرائب البشرية أن تقسو على الأحياء وأن تحنو على الأموات وأن لا تعطى الانسان حقه غير منقوص الا اذا فات

ولقد حرر السيد رشيد تاريخ أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله في مجلدين كبيرين يزيدان على ألفي صفحة وسيعززها بمجلد ثالث فيكون من الفضول أن نقول انه لاناريخ للشيخ محمد عبده غير هذا التاريخ وهو الذي فيه ترجمة حاله بتفاصيلها وحياته من المهد الى اللحد مع ذكر منازعه بدقائقها وعقائده بحقائقها ومنشأته بنصوصها وأخبار الحوادث التي خاضها والمسائل التي راضها وقد دخل في هذا الكتاب تاريخ السيد جمال الدين الافغانى وسير أعلام آخرين وتلخيص الحوادث العربية في مصر وروايات كثيرة عن الخديوى السابق ووثائق تاريخية لا توجد في كتاب آخر ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية واعوية لا يعثر القارى على مثلها في غير هذا الكتاب . وللفقيه اليه تعالى راقم هذه الأسطر في الجزء الأول من هذا السفر الجليل فصل عن حياة الأستاذ الامام أيام كان في بيروت وكنا متصلين به وهو نحو من ١٤ صفحة ولهذا الفصل تمة وعد الأستاذ الرشيد بنشرها في الجزء الذي لم يظهر بعد

ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله في هذا الفن من الطول ما ليس خافياً عن أحد فقد امتزج خلق التمحيص بدمه ولجه وأصبح لا ينشرح صدره الى الخبر الى اذا وثق بأسانيد وآمن بامانة رجاله . وقد يسوق الرواية من جملة طرق الى أن يشلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر . وهذه طريقة السلف عندنا لا يروون شيئاً لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة فحسب بل لا يروون شيئاً من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات الا عنعنوه مسلسلاً وربما أشاروا الى درجة رجاله فقروا وليتوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم . وهذه الطريقة هي اليوم طريقة الاور بين أيضاً لا يروون خبراً ولا ينقلون جملة ولا أثراً الا وضعوا في الحاشية مأخذها والكتاب الذي أخذوها عنه مع ذكر الصفحة ومع ذكر طبعة الكتاب وتعيين المطبعة احياناً وكل ذلك توثيقاً للنقل ونصحاً بالتبليغ وتمهيداً للحكم الصحيح الذي لا يتهاى للقارى الا بعد مقدمات صحيحة وبنات رجيحة

ومن نفائس تأليفه السفر الذي أخرجه مؤخراً تحت عنوان « نداء الى الجنس اللطيف » فيه بيان حقوق النساء في الاسلام وتحقيق مسائل اجتماعية تدور أكثر من كل المسائل في هذا العصر مثل تعدد الزوجات والتسرى والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواج النبي ﷺ من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وتر بية البنات وغير

ذلك قد جاء الأستاذ في هذا الكتاب بالآيات الينيات على حكمة الشرع الاسلامي وغفلة
 المعارضين عليه جهلاً أو تجاهلاً . ولا يسعني الا توصية الخلق بمطالعة هذا الكتاب اذ ذلك
 أحسن ما يمكن وصفه به . ان الجواد عينه فراره . ولكني أورد شذرة واحدة من هذا
 الكتاب من قبيل التمثيل ليقبس القارئ عليه قال في باب التسري الصحيح في الاسلام :
 « كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الامم الحاضرة من التسري واتخاذ
 الأخدان فهو في شرع الاسلام من الزنا المحرم قطعاً الذي يستحق فاعله أشد العقاب وكل
 من يستبيح هذا الفجور الخفي وما هو شر منه من السفاح الجلي فهو بريء من دين الاسلام
 » وأما التسري الشرعي المباح في الاسلام فهو خاص بسببها الحرب الشرعية اذا أمر امام
 المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن وانما يكون له أن يأمر بذلك اذا ثبت عنده
 بمشورة أهل الحل والعقد أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعتق ومن افتداء أسرى
 المسلمين وسببائهم بهن ان وجد عند الأعداء سبباً وأسرى منا . فليس الاسترقاق واجباً في
 الاسلام لكنه يباح اذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة . ولكل حكومة
 اسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الاسلام العامة والاسترقاق المعهود في هذا العصر للسود
 والبيض كله باطل في الاسلام فالتسري بالنساء اللاتي يختطفهن النخاسون أو يبيعهن الآباء
 والأقربون أو يغريهن التجار والقوادون كله عصيان لله ولرسوله »

فن مطالعة هذا المثال تعلم أن ما يفهمه السيد رشيد رضا من أسرار الشرع لا يفهمه
 غيره . ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسئل عن هذا الأمر لأجاب بلا تأمل : ان
 الاسترقاق مباح لا بل حرام منعه وان سبي نساء الكفار جائز بلا نزاع وحرام منعه وهكذا
 جاء الاسلام والأمور الشرعية لا تعلق بل يجب أن تقبلها على علاتها . فان قلت له : ان هذه
 الطرق غير مألوفة في هذا العصر وان الاستمرار عليها مضر بالامة الاسلامية ومما يجز لها
 المقت والعداوة قال لك قولاً واحداً : هذا هو ديننا ولا نعلم غير هذا . ولم يفكر فيما وراء
 هذه الأحكام بهذا العصر من الضرر بالاسلام والخطر عليه

أما الاستاذ السيد فانه يصرح لك بما يحفظ من النص ويفهم من روح الشرع بأن
 الاسترقاق مباح الا اذا عارض ذلك مفسدة راجحة وان لكل حكومة اسلامية أن تمنعه لأن
 منعه هو من مقاصد الاسلام العامة . ثم يفتيك بأن السبي في الاسلام لا يجوز الا باذن
 السلطان وهذا الاذن من السلطان لا يصح له بمجرد رأيه بل يجب أن يؤخذ فيه رأي عقلاء
 الأمة الخ

الفصل الثاني

في

الجامعة الاسلامية

اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبساً فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً. ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار اليقظة والتنبه وأطوار الانتقال والتحول . فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الاصلاحية ، ثم أخذت تجتاز أدواراً عديدة متشعبة المناسخ وأحياناً متناقضة الصفات . وقد سبق لنا فسطنا الكلام في الفصل السابق من هذا الكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره ومنتجائه في سبيل الاصلاح المترقي على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وأوضحنا أن روح الاصلاح ما فتئت تدب في كل عرق من عروق العالم الاسلامي ديباً طبيعياً هائلاً ، فتدفعه الى الأمام دفعاً متواصلًا ، ولم تغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير في ذلك . وقلنا فوق جميع هذا ان المصلحين الأحرار الذين تناط بهم الآمال في احراز الفوز والغلبة ، مابرحوا الاقلين عدداً ، بينا سواد المسامين ما انفكوا ينتفضون ممزقين حجب الجهل ، ويستيقظون من هجعتهم استيقاظ المدعور ، يقودهم قادة مختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الأحرار قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمشاكسة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والموادعة يؤثرون مجافاة الغرب والاعراض عن الأخذ عنه ، الى مقاومته وايقار الصدور عليه . بيد أن هذا التيار الذي يثيره ويوقد ناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب لدور الانتقال ، لم يستقر على قرار ، ولا عرف لأفقه حد ، ولا وضع مجراه ولا بان متجهه بيباباً تاماً بعد ، وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لا يخرج عن وقوعه في مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » وهاتين باسطون الكلام على :

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هي الشعور بالوحدة العامة

والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي . وهي قديمة بأصلها ومنشؤها منذ عهد صاحب الرسالة ؛ أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعاصبة الاسلام لقتال المشركين . وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الإدراك ؛ وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام في قلوب المؤمنين ؛ فغرس غريستها بيديه في نفوسهم ؛ فنمت وتغلغت ، وامتدت جنورها وبسقت أغصانها وفروعها وينعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرناً فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً ولا ضعضع لها كيانا ؛ بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني . ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديداً ؛ بيد أن هذا الجدل ليس له من الشأن أكثر مما لأحققر نزاع يفتشاً بين أفراد الاسرة الواحدة ؛ المشتبكة الارحام ؛ اذ لا حقد في الاسلام فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ؛ فيصطلحون على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جوعاً متراسة متاسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سر الجامعة ومكاتها في نفوس المسلمين . وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمسك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلاداً عديدة ورقاعاً كبيرة في الأرض منتزعيها من النصرانية والبرهمية^(١) واستأصلوا شأفة المجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ؛ فلم يسمع قط أن شعباً قليلاً كان أو كثيراً انتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلى المسامون عن بعض البلاد التي كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكاً ودولة كالأندلس غير أن اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائع اعتباره جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام

(١) لم تستقر الفتوحات الاسلامية بعد أن رسخت في الهند استقراراً لزم حدوده . بل جاوزت الهند الى جزيرتي جاوى وصومطرة العظيمتين . فعطل الاسلام دين البرهمية فيها وجمعل أهل الجزيرتين فاطبة مسلمين

ان الوحدة الاسلامية انما هي قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وهم في هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . على أن هذا من الوهم الصرف فالأمر حقا على الضد منه . ان محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضاً مقدساً ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقة من رفاق العالم الاسلامي ، وهناك أمام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب «الحاج» ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجمله اخوانه المسلمون ويعلون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التي يناها المسلمون على يد الحج الممهدها السبيل انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفي أن نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وأبطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسي ، وجمال الدين الأفغاني ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامي المقدس ، وتنقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخي عظيم ، ولا سيما في أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام في موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه في النهاية ، اذ أطفئ سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم ما برحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة (١) الاسمية . بيد أن سلاطين الترك في القسطنطينية ، وما كانوا

(١) لم يعترف الشيعة في فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد أهل البلاد الغربية في شمالي أفريقيا أن يعترفوا لسلاطينهم الاشراف بالسيادة الروحانية .

ليحزروا من المسكاة الدينية في العالم الاسلامي مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون
وأ كابر خلفاء بني العباس في بغداد .

أضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم
المغتصبين للخلافة اغتصاباً^(١) وقد جهد السلطان عبد الحميد جهداً كبيراً لحياء عظمة الخلافة
الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي ، فنال ما ناله
ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الديني ، بل بسبب الشعور العام الذي
ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة
الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فمنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على
المسلمين ، ومنهم من ناصبه العدا كالتنوسي^(٢) . هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة
أوربية حتى وجأوا من عبد الحميد لحسبوه في الاسلام كالابابا في النصرانية . وما زلنا نرى حتى اليوم

(١) ان الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكاً
عضوياً قد يوجد فيه السبب العادل والسبب العاشم ، وما اتفادت الأمة الى هذا الملك العضوض المخالف
لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة
من الخارج (ش)

(٢) كون التنوسي ناصب السلطان العداوة هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوربيين
من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة أن سيدي محمد بن علي التنوسي وولده المهدي وجميع السادة
التنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار أنها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو
أكبر ملوك المسلمين . ولأبي النصر مقرب شاعر الحضرة التنوسية قصيدة يمدح بها سيدي المهدي من
جملة أبياتها :

ولا بد أن تأتي جيوش بيرقة فتغشى غواشيا العيون الغواشيا

قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الأسود الضواريا

زوية أهل المجد من يأت حبيهم ير العز في نادي زوية باديا

زوية هي القبيلة التي تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الحاس للسادة التنوسية ، ثم يقول :

وكم بدوى في الفلا خلف نوقه يبول على الأعقاب أشعت حافيا

تلافه في وادي النسلالة هاوياً فأصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولو لا انتظار الأذن من سيد الوري وسلطاننا الغازي لأصبح غازيا

أى لا يتمتع من أن يغزو ضعف في المنة ولا فتور في العزيمة وإنما هو انتظار الأذن من السلطان الأعظم

أكثر ساسة الغرب يهيمون في ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعها الخلافة ، و نرى أيضاً غالب حملة الأعلام يفيضون في الكلام فيما اذا استبقيت الخلافة في السلطان التركي على ظلعه ، أو نقلت الى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً هليض جناحي الجامعة الاسلامية ، ان هذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من المخلل . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكاةة في عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوي العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ، ما فتئوا منذ عهد بعيد يجدون في سبيل الجامعة الاسلامية في نطاق أوسع وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التي تستمدتها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجيج اذ يأترون كل عام مؤتمراً عظيماً ، ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التي أنشأها السنوسي ، ونحن شارعون في الكلام عليها (١) في موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التي اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين في الكلام على الدور الأول الذي ظهرت فيه للعالم ظهوراً يديناً ، وهو دور الدعوة الوهابية . أنشأ عبد الوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التي اشتهرت في عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز ، خال استيلاءه هذا الخطوة الأولى في سبيل فتح العالم الاسلامي قاطبة ، فتجأ اصلاحياً دينياً تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية . لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغاها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسي على أثر ذلك يشتد في العالم الاسلامي اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ما حدث في شمالي الهند وأفغانستان ،

(١) اقرأ السر و . موير — « كتابه نشوء الخلافة وتداعيا وسقوطها » ايدنبرغ ١٩١٥

Sir W. Muir, "The Califate" Its Rise, Decline and Fall."

وهو خير ما كتب في شأن الخلافة

والسر مارك سايكس — كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥

Sir Mark Sykes, "The Cailph's Last Heritage" (London 1915)

و « وفد الخلافة الهندي » وهو رسالة نشرت ملحقاً لجلية « الشؤون الاجنبية »

"The Indian Khilafat Deligation", "Foreign affairs"

Special supplement

مما كان في الواقع منبعا عن الروح الوهابية ، ويعد باعتبار الحقيقة والغاية نعيماً على الممالك الاسلامية انحطاطها السياسي ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقدانهم الهيبة والسلطان . فلماذا لم يكن الوجل من الغرب أو العداة له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الاسلامي في أول عهده ، لأن أوربة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً في العالم الاسلامي ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقرب شيئاً فشيئاً . وما كاد يتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبديلاً تاماً ، ففتتح الفرنسيين الجزائر واستولت روسية على عبر القوقاس ، وبسطت انكارتا نفوذها على الهند من أقصاها الى أقصاها ، جميع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء في كل صقع يوقنون كل الايقان أن الاسلام إنما يحيق به خطر عظيم ، و بلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ، وفي هذه العزوة أخذت الجامعة الاسلامية تسير في تيار غايته مقاومة الغرب وصدده وعداؤه ، وهي ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة في بادئ الأمر في موضع موضع ، وغير منظمة تنظيمياً مرتبط الوسائل كل الارتباط ، فهب أبطال من المسلمين مثل عبد القادر في الجزائر وشامل في القوقاس وغيرهما ، يقاثلون الفاتحين الغربيين قتالاً شديداً فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمضغ يزيد العالم الاسلامي جروحاً فيزداد تألماً وصراخاً ، بيد أن قتالاً مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لاباطال المسلمين ، وذلك لو هن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناوهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضى في القتال

وما انفكت روح العداة للغرب تهبج وتشتد ، حتى بات العالم الاسلامي قاطبة يغلي غليان المرجل على النار ، فشببت في الجزائر الثورة المعروفة بثورة « الكايل » سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل بلاد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدي في السودان المصري ، وهي الثورة التي دامت طويلاً وفتت في عضد الانكليز فتناً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خدت نارها حتى قبض « لكتشنر » الاستيلاء على الخرطوم ، وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر في أفغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم ،

فتناوت حمله مسلمي الهند فأهبت صدورهم الهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكايذ الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الأنفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا في أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية فنار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى في « تركستان الصينية » و « ينان^(١) » واشتعلت في جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الانشية » التي ما برح بعضها متقدماً حتى اليوم .

بجميع هذه الثورات التي كانت تشب معاً في هذا الدور في مواضع مختلفة، عداً للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقررة ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلة واحدة ، وفوق جميع هذا كانت تعوزها القوة المركزية الثابتة للقيام بتدبير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهديية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، والمهديية هذه لم تكن معروفة في صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر في القرآن ، غير أنه جاء في الأثر أن الرسول أنبأ أن رجلاً يدعى المهدي سيظهر للناس ليملا الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً^(٢) ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدي لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسلمين السعادة خالدين فيها . على أن المتدبر المستقصى ليعلم أنه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر في تاريخ الاسلام فقد قام كثيرون في عصور مختلفة بدعون المهديية فتبعهم عدد كبير ، فلهذا أمر المهديية في الاسلام يشبه أمر « مسيا » في اليهودية ، وقد كان من طبيعة الحال أن المسلمين ، وقد شدت على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، باتوا يعالون نفوسهم بظهور المهدي ، فلما ظهر المهدي ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التي تنبئ المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثل المهدي مثل النار هبت في الهشيم وسرعان ما خمدت .

ولما وصلت الحال في العالم الاسلامي الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية

(١) سيأتي ذكر هذه الثورات في بحث الاسلام في الصين (ش)

(٢) أحسن خلاصة لحديث المهدي وما ذا قيل فيه ما تراه في فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون

الحكام جميع هذا وباتوا يوقنون أن الثورات المحدودة المضطرب تشب في موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى في قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئاً من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الإدراك أنه إذا رام العالم الإسلامي حقاً تحرير نفسه من النبر الغربي ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التي يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المثلثة دكا ، وجب عليه أن يعمل عملاً منظماً شاملاً ، ويسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الإسلامي إذا شاء هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبله في جميع ما يؤدي إلى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فأنما هذا هو السبيل الذي لا سبيل الا هو للافلات من ربة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعة الإسلامية أن استقلال العالم الإسلامي عن الغرب النصراني الاستقلال السياسي ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحي العقلي العلمي الأدبي ، والترقية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكّت وطابت واعتزّت وبانت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل إذ ذاك كل عمل في سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الإسلامية ، وغاية الأحرار ، إذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الاكبر في العالم الإسلامي ، وما يعانیه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغيا تجديده الروحاني واصلاحه النفساني ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم في وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الأحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه ، واتباع طريقته في جميع ما هو لازم وضروري لبلوغ الغاية العليا . وقال أرباب الجامعة الإسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكي يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهدا ينبغي أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته في اتهاج مناهجه العملية ، والاستعانة بوسائله المادية بحسب .

وكان مبدأ سير الجامعة الإسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، إذ كان للجامعة أسان قامت عليهما ، هما الطرق الدينية الحديثة

النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التي قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الأفغاني ، واتنا بنسط الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية في الأقطار الاسلامية هي بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف « بالمقدم » ، ذي سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية ، وقد كانت هذه الطرق في عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفه عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانقطاع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالدرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق في دورها الأول شأن سياسي ، ولما كان التباعد والتعادي منتشراً بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعزراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسي يذكر مادامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشئ حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هي الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التي أنشأها محمد بن السنوسي ولد السيد محمد في محل بالقرب من « مستغانم » حوالي سنة ١٨٠٠ في بيت عريق في المجد الاسلامي والشرف العربي ، وحسبه مجدداً أنه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثة بشغفه بالعلم وسلوكه مسلك التقوى ، فدرس العلوم الدينية في جامعة فاس^(١) ، ثم أخذ يسيح في أقطار شمالي افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الديني ، وبعد ذلك حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة حيث قضى مدة يأخذ عن الأسانذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فاتفقت روح الاصلاح فيه . فلم يزابل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذي نواه واستعان الله عليه ، ثم عاد الى شمالي افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابنتى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء » . وقد كان السيد محمد رجلاً شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجا من كل صقع من الأصقاع الافريقية

(١) يريد جامع الفرويين الذي هو في العالم الاسلامي ثاني الازهر (ش)

الشمالية ، بيد أنه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى بانت الحكومة التركية في طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعده لشأنه ، فساءت العلاقات والشؤون بينه وبينها ، فنقل مقامه الى واحة « جغبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبيا ، وجعل مقره هناك . ولما توفي سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التي أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً في معظم الرقعة الافريقية الشمالية .

وخلف « سنوسى المهدي » أباه السيد محمد السنوسى ، فأخذ يجاهد في سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً في كيفية صيرورة سنوسى المهدي خليفة لأبيه . فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدي أصغرهما ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدتهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق ايماناً وأشد اقدماً ، فدعاها اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلفا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما الى الأرض ، فهوى المهدي بنفسه فأدرك الأرض سالماً ، ولبت الآخر في عالى النخلة فقال السيد محمد لجميع من كان حوله : « اخلافة من بعدى انما هي لولدى هذا المهدي الذى لم يتردد في تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل » ، واقتفى السنوسى المهدي آثار والده جميع حياته فكان حاكماً عادلاً تقياً ، وعاملاً كبيراً في سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفي أواخر حياته نقل مقره الى واحة « الجوف » للجنوب من « جغبوب » في صحراء « ليبيا » وتوفي سنة ١٩٠٢ خلفه ابن أخيه أحمد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالى وهو ذو اقتدار وكفاية .

وقد انقضت مدة أكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً ووثاقة ، وما برح الجهاد في سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً في تيار الحركة الاسلامية وبات لها أتباع في كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فالسنوسيون في بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع ما فى الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملاً شديد التأثير فى الحياة الدينية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت أقطار شمالي افريقية من أقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فمن مرا كمش حتى الصومال ترى البلاد مرصعة « بالزوايا » ، وهذه « الزوايا » تستمد قوتها من الزاوية المركزيه الكبرى

حيث مقام السيد السنوسي في « الجوف »^(١) الواقعة في قلب صحراء « لبيبة » . ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان^(٢) سوى رجل واحد^(٣). وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسي تلك الطرق المضلة ، فلا يستطيع السير فيها الاكل خريت خبير من رجال السنوسي ، أمير البلاد وسيدها المطاع

فسلطان السنوسي حقاً سلطان كبير . والسبب في ذلك أن لهذه « الزوايا » عظمة وشأناً أكبر مما يبدو للقارئ عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدني ، وكلا « المقدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعاً والقبيلة كافة^(٤). فالامر الذي يصدره أحدهما مقر ونا باسم السيد

(١) يريد بها زاوية التاج في واحة الكفرة التي في قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) قامت الرحلة الانكليزية روزيتا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء لبيبة سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد أحمد محمد بك حسين الرحالة المصري المشهور الذي قام هو لوحده برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء لبيبة . ووضعت الرحالة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العيان أن القوة السنوسية في افريقية تقوم لها وتعد كل دولة مستعمرة هناك ووسمت كتابها هذا ب « أسرار الصحراء » The Secret of the Sahara وقد وضع أحمد محمد بك حسين كتاباً فيها لرحلته هذه . « المترجم »

(٣) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٤) الزاوية فيها مقدم هو القيم عليها ، وهو الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسي . ويهيه وكيل الدخول والخروج واليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية . ومن عاداتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بخرامة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة ، ثم هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويعقد في القبيلة عقود النكاح ويصلي على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هي الملاهي الوحيدة في الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا - في طريقنا الى جهاد طرابلس - نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدي حيث زاوية سيدي هرون الفناشي الى موطن الحرب بسهل الفيض أمام مدينة بنغازي ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصافحة للطريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هي مرجعها في الدين والدنيا ، واذا تعددت فروع القبيلة كالعيادات مثلا ، فلكل نغم منها زاوية ، فعائلة منصور زاوية ،

السوسى ، إنما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفي الواقع ان وراء الحكومات الغربية الاستعمارية فى شمالى أفريقيا ، من انكليزية وفرنسية وإيطالية ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهى من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور . أو احراجها فى شأن من الشؤون . فلذلك سياسة الحذر واللين متبعة ازاءها على الدوام

والحكومة السنوسية أيضا على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على أن هذه السياسة سياسة التروى الشديد والاحتراز لتقضى بالعجب العجائب فابرحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير أنها ماركت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكاً وعرأً فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفى جميع الثورات التى هبت فى أقطار شمالى افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحى البلاد يشتركون فى القتال ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث فى الحرب الايطالية فى طرابلس الغرب وفى الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

بيد أن موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ما انفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يدودون عن حريتهم النامة ، التى هى عندهم أعز شئ لديهم ، فيبذلون جميع ما استطاع بدله فى سبيل صيانتها وحمايتها سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية مجرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ما جهد السلطان عبد الحميد ، وهو

ولعائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللبناين زاوية ، وللعوا كلة زاوية وهلم جرا ، وان الغريب أو السابل أو الفقير المعتز لينزل بزواية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجل البقاع وأخصب الأرضين ، وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة ماؤها وفى الجبل الأخضر هي بجانب عيون جلرية وأنهر صافية ، كزاوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية شحات فى مدينة سيرنا القديمة الخ ، وأبنا حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأرض اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وقل ان مررت بزواية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار ، وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها فى تلك البقاع الفاصبة عن العبران المحفوفة بالفلوات ، وقد قيدت فى دفتر عنسى يحوى معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية فى تلك الديار وما جاورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا . (ش)

في ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد في سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستمالة السنوسي اليه وارضائه ، فما استطاع الى ذلك سبيلا ، بل جيع ماأجابه السنوسي على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسي قوله : « الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضر بنهم ضربة واحدة^(١) » . ولما قام محمد أحمد زعيم المهديّة ، يناهض الانكليز في السودان المصري ويتصر عليهم ، أنفذر رسولا الى السنوسي يطلب منه نصراً في الحرب ، فرفض السنوسي ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير المسكين من « دنقلة » (يعنى محمدأحمد) الأستطيع ان أكون المهدي اذاشئت ذلك^(٢) » ،

لجميع هذا انما يبرهن على أن السنوسي لاينفخ في غير ضرم ، بل انه البرهان الذي لا يرد على أن السنوسي جاد جدا غير منقطع في اعداد ما يستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للاصلاح الديني والنهذيب النفساني والخلقى نخطته التي ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التي يجاهد في سبيلها الآن ، انما هي افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسي لموقفن حق الايقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسي من ربة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجددالرحاني والدعوة الاخلاقية في المسلمين ، فلهذا هو لايفتا يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهديب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتاء نفوسها التربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا خصب ، بل يجدد ايضاً اقتصاديا في سبيل تحسين أسباب المعاش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحه الواحات الخصبه ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الخديشة وابتقيت الأتزال على طريق القوافل ، وشرع في انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قدبلغت مبلغا من الاعتراز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذي اقتضى أن تسير السنوسية سير الانتاد ، مزدادة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشئ من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة

(١) هذه الرواية ترجع أنها مدخولة (ش)

(٢) السنوسي أعلن تكذيب المهدي السوداني (ش)

وحيثوته الأجل المرتقب . و بينما تسير السنوسية على هذا الجهد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوى والأكنان في جميع البلاد الافريقية الشمالية . وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا . فانها قد اتجهت وتغلغلت جنوباً في القارة الافريقية . مبشرة بالرسالة المحمدية . حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طففوا يقبلون أيما اقبال على الدخول في الاسلام أفواجاً^(١)

ولا شيء أدل على هذه النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية ، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة ولاغرابة في ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الاسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا نفي أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدليها . فلذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين^(٢) ، و بينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نأى تلك الأصقاع ، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان .

(١) اقرأ الكتب الآتية في شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —

« الطريقة الدينية الاسلامية لسيد محمد بن علي السنوسي » — باريس ١٨٨٤

“ La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi ”
H. Duveyrier, (Paris 1884)

و « الطرق الدينية الاسلامية » في الحجاز « باريس ١٨٨٧

“ Les Confréries Musulmanes du Hedjaz, A. Le Chatelier, (Paris 1887)

و « العصبية القومية الاسلامية » قسنطينة الجزائر ١٩١٣ .. “ Le Nationalisme Musulman ”

و « السنوسية » (وهو مقال بقلم أحمد عبد الله وهو من أشياع السنوسية) . مجلة ذا فورم

مايو ١٩١٤ “ The Sennussiyeh ” (The Forum) May 1914

و « السنوسي وجهاده المهدي » — مجلة « القرن التاسع عشر » عدد مارس « آذار » ١٩٠٠

T. R. Threlfall, “ Senussi and His Threatened Holy War, (Marsh 1900)

و « الخطر الاسلامي » — مجلة « القرن التاسع عشر وما بعد » سبتمبر « ايلول » ١٩٠٧

H. A. Wilson, “ The Moslem Menace ”

(٢) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في الصين — « المغرب »

وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقيا (١) ، وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيليبين ، فتحاً دينياً مبنياً . غير أنه في القرن الثامن عشر ، أمسى العالم الاسلامي مرتدياً رداء الخمول ، ففترت وبردت حرارت المبشرين المسلمين ، وسكنت تلك الروح النائرة الجوابة .

ولبت الاسلام هكذا ، حتى تباشير اليقظة الحديثة ، فعادت تلك الشرارات الكامنة في الرماد تستطير ، وما هي الا فترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانياً ، فأخذ الاسلام يجوز حدوده وينبث في كل صقع من أصقاع العالم الاسلامي ماعداً أوروبا . وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار ، يجب أن نعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه ، ناسرله بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات ، عديد من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذ من هذا انه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج الى برهان ، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الجس الغير ، الذين خرّجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفه ، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية ، داعين الى الاسلام . وهذه الاعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي افريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى ، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر ، فقد قال أحد الانكليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « ان الاسلام ليفوز في أواسط افريقية فوزاً عظيماً ، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية بانت كأنها خرافة من الخرافات » . وقال مبشر برنستنتي فرنسي : « ما برح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر في سبيله الا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية مدلاً أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب ، غير واهن العزم فالاسلام

(١) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في افريقية - « العرب »

حقاً لا يرهب في سبيله شيئاً ، وهو لا ينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحامون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم^(١) »

واما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوباً في افريقية فهو من الرائع الغريب . منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غير متوقع ، على أن المبشرين المسلمين محترقون « نياسلندة » دعاة الى الرسالة المحمدية ، و بعد البحث والاستقصاء واذكاه العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ، وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ومدرسة اسلامية ومعلمون مسلمون . ومع أن هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الاقطار الأخرى . ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر ، انه لن تمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز « زمبازي » وانتشر في جنوب افريقية انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام في افريقية مقصوراً على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، انما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سداً منيعاً في وجهه الاسلام . والغريب في هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية بل فتوح سامية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثاً : « منذ خمسين الى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة ، لا يكاد يرى فيها مسلم واحداً ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

(١) للاطلاع على مجاهد التبشير الاسلامي في افريقية اقرأ كتاب : —

ج . بونه موري — « الاسلام والنصرانية في افريقية » (باريس ١٩٠٦)

G. Bonet Maury. " L' Islamisme et le christianisme en Afrique. »

وربما كان ظفر الاسلام في افريقية اليوم أعظم ظفر لاقادالمبشرون المسلمون حديثا، بيد أن هذا ليس جميع الظفرالاسلامي بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم . وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية في بلاد التتر الروسية، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التي رافقت تلك اليقظة التترية . كان التتر مابرحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير أنه لما انفشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ماوصل منها الى بلاد التتر في أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المنتصرين الى الاسلام ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فاتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناء الاشق ، ولجأت اليه من مختلف الفرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجاح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه^(١) . على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الأمية ، المقيمة في الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولولا قوا من وراء ذلك من الهول مالا قوا .

وكانت النهضة الاسلامية في الصين عجيبة لامثيل لها ، فيقتضى الحال أن نبسط كلمة في شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربية مرتزقة . فصار على توالي الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزواجا وتعاوناً في أمر المعاش وغير ذلك ، بيد أنه على جميع هذه القرون التي كرت حتى اليوم ، لم يبرح المسلمون الصينيون يتميزون عن سواهم تميزاً حافظاً لأنسابهم العربية التي يختلفون بها ميولاً واخلاقاً عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبدأ يدعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلو على غيرهم من السكان ، أما موطنهم ففي مقاطعات « ينان » الجنوبية وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة في الصين غير هذه ، هي بلاد تركستان الشرقية التي فتحتها الصين في القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون متسلسلون نسباً من العروق التركية القديمة . وقد ظل المسلمون الصينيون جميعاً على اختلاف أجناسهم يعاملون معاملة الحسنى والرفق .

(١) اقرأ الفصل الوارد في آ هذا الكتاب على المسلمين في بلاد الروسية في عهد البلاشفة — «المغرب»

حتى العهد الأخير، إذ طفقوا يشمخون بأنوفهم غرماً وكبرياء، فأفلق ذلك الحكومة الصينية، فانقلبت عن الأحسان إلى الإساءة إليهم واضطهادهم. لكن لما أخذت اليقظة الإسلامية العامة تجوب آفاق العالم الإسلامي بانتشارها المطبق في القرن التاسع عشر، فبلغت الصين كما بلغت غيرها، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر فهاجت فيهم النعرة الدينية الإسلامية، فأخذوا يوقدون الثورة تلو الأخرى، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ في «ينان» وتركستان الشرقية، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستبسال والمغامرة في القتال ما لم يسمع بمثله من قبل. وقام في تركستان زعيم كبير، وقائد مجرب، هو يعقوب بك فاستطاع هذا الزعيم المقدام أن يجعل تركستان و«ينان» بلداً مستقلة استقلالاً تاماً في السباج عدة سنوات، فكان يخيل إلى الكثير من رجال الذهن في الغرب عهدئذ، أن الثورات لتتحدون جميعاً اتحاداً منيعاً وثيقاً، ومنشئون دولة إسلامية ثابتة الأركان في الصين الغربية، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة. وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً، فذاع اسمه وذكره في جميع العالم الإسلامي. وقد أعجب به السلطان العثماني وعظم بأسه وحنكته، فأنعم عليه بلقب «أمير المؤمنين» في تلك الديار. وبعد أن طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة، استطاعت الحكومة الصينية أن تخضع شوكة الثائرين، ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين في النفوس، إذ ما برحوا حتى اليوم في قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل. وأما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون في نفوسهم على صفات ومزايا من إباء الضيم وغياف النذل، فلما اشتمل على مثلها سواهم. وأما عددهم اليوم فيبلغ أكثر من ١٠،٠٠٠،٠٠٠. وعلى هذا يجب ألا يندب عن البال أن المسلمين في الصين بالغون من الشأن في عالم اسلام الغد مبلغاً عظيماً وصارون إلى شأن كبير.

ولو شئنا لتوسع في الكلام على النهضة الإسلامية العامة حتى يتناول جميع فروعها في القرن الماضي، لاستغرق ذلك الأسفار الضخام، ففي الهند ما برح الإسلام ينتشر انتشاراً متواليماً، وكذلك في جزائر الهند الهولندية. أما الدول الغربية الاستعمارية فأنهالا تستطيع غير أن تدع هذا الانتشار الإسلامي وشأنه، دون أن تحاول الوقوف في وجهه أو صد تياره، والسبب في ذلك أن المسلم اليوم قد ألق الانتفاع من المستحدثات الغربية كالقطر الحديدية والبريد والمطابع في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وفي ذلك من المنافع الاقتصادية التي تجتنبها

هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضوع في الكلام على الأس الأول للجامعة الاسلامية ، ننتقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التي قام بها جمال الدين الأفغاني وقد عرفت به من بعده .

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسد آباد » بالقرب من همدان في بلاد فارس . وهو أفغاني الأرومة لا فارسي ، يتحدث نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجري في عروقه الدم العربي البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاء ، دامغ الحججة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغنطيسية . فلماذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جوّاباً طاف العالم الاسلامي قطراً قطراً ، وجال غربي أوربة بلداً بلداً ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الأعمال التي قام بها . وكان جمال الدين يعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعياً مسلماً كبيراً فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسي منهاجا ، فجاء انكب على السياسة وشؤونها ، وذلك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جمال الدين الأفغاني كان أول مسلم أيقن بخطور السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها . فهب جمال يضحى نفسه ويفنى حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي ، وانذاره

بسوء العقبي ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصبح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جبالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العربية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نقوا جبالاً للحال ، فزابل مصر وأنشأ يسبح في مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاء عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة ، وقر به منه ورفع منزلته ، فسحر جمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية ، إنما كان على يد جمال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعملاً كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه .

وهالك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم النصراني ، على اختلاف أئمة وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . لجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى ككون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، و متمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العدا ، والحقد ، والتعصب الديني الممقوت (١) . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواقع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(١) اقرأ التمليق الخطير الشأن ، الوارد في هذا الكتاب رداً على مقالة « الاسلام والجنود السوداء »

لكتابها روجر لوبون في (مجلة باريز) عدد ابريل ١٩٢٣ - (المغرب)

« تتحل الدول النصرانية أعذاراً لها في كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذا لاهلها واكراهها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا تستطيع أن تكون قواماً على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتندرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الاصلاح والنهضة

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداة الاسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقاً .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق نعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم في الغرب اباة النفس ، والشتم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلواً مكروهاً ، وافراطاً في حب الوطن ضاراً ، ومقتناً وشناًة للاجنبي الغربي .^(١) »

« جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزيد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى انما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته^(٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التي أفنى حياته في سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة

(١) منقول من مقال بتوقيع « x » موسوم ب (الجامعة الاسلامية والجامعة التركية) نشر في مجلة العالم الاسلامي (مارس ١٩١٣) ويقول كاتبه انه قد استفاد من مسلم ثقة كبير المنزلة والشأن .
 "Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme" - Revue du Monde musulman.
 ومن أراد التوسع في الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب (العصبية الجنسية الاسلامية) لسرفيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد في هذا الكتاب على السيد جمال الدين الافغانى حكيم الفرق (العرب)

والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء . ولا عجب أن يكون جلال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها في المسامير عاصفة زعزعا ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشراً في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء . على أن جلالاً ما كان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يشنون الدعوة في سبيل الجامعة الإسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظام هو عالي باشا التركي الكبير ، الذي يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد إنما هو ازدياد النعمة الدينية فيهم ، لاتناقصها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس فاميري ، المستشرق الهنغاري الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القريم ، وكان هو قد شهد بنفسه مجلساً من مجالس الجامعة الإسلامية في منزل عالي باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الإسلامي .

على مثل هذه الأسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الإسلامية وشيد أركانها وأضاف إليها كل طمع بعيد وغاية جليظة . فعبد الحميد في الواقع داهية من أعظم دهاة العصر الحديث ، وسياسي في منتهى الحصافة ، غير أنه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تفضي به وساوسه أحياناً الى حد اللم

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسعى وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الخنق والدهاء فإنه لم يخل في بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية ، ظنين السوء بعالمه ، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على إرادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريره وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له أهواءه ويجارونه مع محض رغباته

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ في ان شديد عصب ، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية ، وكانت الحكومة في أيدي عصابة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل سائحة تضعع الدولة عند

الخروج من الحرب الروسية ، فألقى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعلق يده يد ، له الأمر والنهي وحده . ولما استوثق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التي نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الاسلامية .^(١) فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من أسلافه الأقربين ، وهو التذرع بالخلافة لبلوغ أغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للإلاء كافة ، أنه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسي الوحيد ، فهو الخليفة الديني للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي لتمديد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك قذف الرعب في روع الدول الغربية التي ظاهراً ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتشاور ، وتتخذ الوسائل وتقوم بالتدابير ، للانقضاء على المملكة العثمانية . وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجامعة الاسلامية تديراً نائياً المضطرب واسع النطاق ، غالبه بالوسائل الخفية الهائلة . فعدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشتهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية مثل جمال الدين وأنداده^(٢) ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود وتنفذ الرسل جناعات دراكا الى جميع الأقطار الاسلامية ، حاملة رسالة الخليفة ، ألا وهي رسالة الامل المحقق في النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين .

(١) كان الكاتب الفرنسي المشهور غبريال شارم أول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده في الدعوة للجامعة الاسلامية ، فجعل ينشر الفصول المنتعة في هذا الصدد منذ سنة ١٨٨١ . وفي سنة ١٨٨٣ وضع كتابه (مستقبل تركية والجامعة الاسلامية) أودع فيه جميع ما رجم بالغيب .

Gabriel Charmes " L'avenir de la Turquie - Le Pan Islamisme ..

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من مقدمى العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ؛ وآخرين من زعماء الأكراد وآخرين من زعماء الارناووط ؛ لا لزوم لتسميتهم ، وأقرم في الاستانة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف . قال لى أثناء الحرب كبير أولاده الأمير محمد سليم افندى : « كان الأرنأووط في يد والدى يهدد بهم أوستريا وجميع دول البلقان . كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمتها كلها ؛ فتحسب للولايات الحميدية حساباً . وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها ؛ فظن هذه الدول أنه بالعرب يخاف لها مشكلات لا تنتهى . فالآن أصبحنا ؛ والارناووط قد خرجوا من السلطنة بعد قتال شديد معنا . والاكراد بدل أن يباهدوا أمام الدولة في الروس ؛ صار يلزمنا أن نسوق العساكر لتطويعهم حينئذ عساكرنا هم في ملحمة كبرى مع الروس . وأما العرب فيبد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية ، اقبلوا عوناً للدول الغربية علينا . » انتهى . ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا في الستين الاخيرة . (ش)

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الإسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة . غير أنه لمن الصعب الشديد أن يستطاع تحديد المفعول الذي كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً ييناً ، والسبب الأكبر في ذلك هو أنه لما حدثت ثورة « تركية الفتاة » سنة ١٩٠٨ ، وخلق عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الإسلامية وفترب سيرها في المنجبه الذي كانت تسير فيه . زد على ذلك أن تركية على عهد عبد الحميد لم تخض غمار حرب بينها وبين دولة غربية من الدول الكبرى ، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحاً على مبلغ ما كانت عليه الأمم الإسلامية من الاستعداد والأهبة لاجابة نفيير الجهاد . على أن عبد الحميد قد أفلح حقاً في جل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية ، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الإسلامي ، وفسدوا مقامه تقديساً ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فج من أجاج العالم الإسلامي لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامي بيضة الإسلام ، الذي مملكته مملكة حصن الإسلام والمسلمين . ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الإسلامي أعنى به السيد السنوسي ، الذي كان يخامر قلبه الريب في مقاصد السلطان وأغراضه البعيدة ، وكذلك كان الأحرار في كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يتيقن هل كانت الأمم الإسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الإسلامي المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الإسلامية الكبرى في أوسع آفاقها ، ويحيى الشعور بالوحدة العامة والائضان المستمسك بعضه ببعض ، في جميع الأمم الإسلامية ، احياء نشيطاً . ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الإسلام نجس ، بل ما كان يبسطه ويبينه من جميع ماتكنه وتظهره الدول الغربية من أنواع العدا ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الأكبر في أن الدعوة التي أنشأها ودبرها عبد الحميد في سبيل الجامعة الإسلامية كان لها من التأثير الشديد في نفوس المسلمين ما برح يزداد وينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبدلاً كبيراً في العالم الإسلامي ، فتلث الثورة الترككية ثورة ايران ، ثم أخذت شرارات الثورات تبدو فيعقبها الانفجار

في كثير من الأقطار الشرقية ، وعلى أثر ذلك شرع يتبدى في وقت قريب في كل قطر اسلامي تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم نعهد من قبل ، كتطلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعي كبير — تطور كانت عناصره منذ أمد بعيد تزداد اختاراً في العالم الاسلامي حتى حان أجل ظهوره فظهر رائعاً . وانا سنفصل الكلام على هذا التطور بأنواعه في الفصول التالية من هذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره مجملًا في هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير في مجرى حركة الجامعة الاسلامية ، فونيت في سيرها بعض الوتئ مدة كان فيها الاضطراب السياسي والقلق الاجتماعي ينتشران انتشاراً عاماً في جميع بقاع العالم الاسلامي .

ولم تكن هذه الفترة طويلة . ففي سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأنف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . ففي سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة سوى الاستعمار . وفي سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركية ، نفسرت تركية في هذه الحرب جميع أملاكها الأوربية ، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد^(١) . وفي تلك الغضون انفقت انكازة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير » تحرق الارم ، فعضت على مرا كسش بالنواجذ وأنفنت فيها المخالب ، وهكذا في خلال سنتين توالى الحملات الأوروية تترى على العالم الاسلامي ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شرمزق .

فتزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة بصم الآذان دوتها . فأخذ العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاسلامية الى سابق حالها تجرى مجرى سريعاً . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبغي به على غير انقطاع دُعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة — الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغاني ، الحكيم العظيم .

(١) عند ما أعلنت الدول البلقانية الأربع الحرب على تركية ، نصرت بلانما يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين في القرون الوسطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الاروبيين من أنكر هذا الامر. (ش)

وأخذت تتأجج الجامعة الاسلامية تنبدي ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنبا الى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية ، من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامي وقيداً^(١) مما حمل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساءلون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً في مشرق العالم الاسلامي ومغربيه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزناير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الاسلامي أجمع . فاطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » ولم يكن خنق انكلترة وروسية لثورة ايران ، ومحق فرنسة لاستقلال مرا كش بأقل استتارة للعالم الاسلامي من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتداما .

غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه الى بني قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسية في بطرسبرج لرفع الصليب وشكك على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فالיום هم يأتمرون ويتشاورون في هذا الخطب ، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب - المسجد الأقصى في بيت المقدس . « أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . فان

(١) عند ما كنا في معسكر أنور بعين منصور بأعلي درنه ، كنا نجد مجاهدين لا من بركة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ؛ والجزائر ؛ والمغرب الأقصى ؛ ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاد الترك ؛ وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان وذكر السنيور جيوليتي في خاطراته التي نشرها مؤخراً ؛ وكان أيام الحرب الايطالية رئيس نظار ايطالية ، أن انكلترة ألحت عليه بالانفاق كيفما كان مع تركية ، أنها لهذه الحرب التي أثارت جميع العالم الاسلامي ، حتى وردت على انكلترة الاحتجاجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الاسلامي حتى الصين : (ش)

الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين . «
وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اننا ننادي الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركية ، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظيماً »
وأعجب ما بدا ، أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والاتحاد ازاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وایم الحق غريباً في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام . فان مجدداً ، وقد جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « أهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوماً مبغضين للنصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشوسيين أهل الشرق الاقصى (١) .

(١) ان الاسلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين في صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لما وقعت الحرب بين الروم والفرس وتغلبت الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » فلما صدق قوله تعالى بتغلب الروم على الفرس بعد بضع سنين ، فرح الصحابة فرحاً شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم أقرب اليهم جنساً من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صدرهم للاسلام . ولما غزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبو بكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيراً في خطبة مشهورة ، ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور أيضاً في التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيسة القيامة وبينما هو فيها أدركته الصلاة فأراد أن يخرج من الكنيسة يصلي فدعاه البطريرك صغرونيوس الى محل داخل الكنيسة يصلي فيه ، فأبى فألح عليه بالرجاء فأجابته : كلا . يأتي المسلمون بعدى فيقولون هنا صلي عمر فيجعلون هناك مسجداً في وسط كنيستكم . وهكذا كان الخليفة الأول والثاني يرعيات حرمان النصارى ، ومنسوب الى سيدنا عمر عهد عهده الى النصارى فيه من البر بهم ما ليس فوقه مزيد . ولكن سياسة أوروبا من أيام الصليبيين الى هذه الساعة ، قد كدرت هذا الصفاء ، وما زالت تسكدره حتى بلغ من حقن المسلمين اليوم أن صاروا البواحدوا مع البراهمة في الهند ، والبوذيين في الصين ، لابل القتبشيين في أواسط افريقية على الأوربيين . (ش)

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، اذ ظفرت اليابان ، الدولة الشرقية الوثنية « الكافرة » ، على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقاً ، فهب غالب المساميين ينتهجون لانتصار اليابان هذا ، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرقي والجماسة الإسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الإسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام^(١) وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، واتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فأوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلهج بحديث اسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ويحبه أشد التحبب . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « ان بريطانيا العظمى ، وفي حكمها ستون مليوناً من المساميين ، لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان ، تغير على الأمر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيراً كئيباً هائلاً . » وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « اذا شاءت اليابان أن تترك منزلة لم تترك مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك بته الا باتحاطها الاسلام ديناً . »

فاستقبلت اليابان وفد المساميين استقبالا جليلاً ، وأحلتهم محل الرعاية والاكرام ، بيد أنها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة . وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسية . وما زاد في ذلك التقرب ، فأخذت عرى الولاء تتوثق ، الحرب البلقانية وما تجلى فيها ومن حو لها من المطامع الاستعمارية الهائلة . ويمكن العلم بحالة شعور المساميين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب

(١) جاء أحد أمراء الأسرة المالكة في اليابان ، في أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة ، فيينا هو في الحديث مع السلطان ، اذ جاء ذكر الأديان فقال له السلطان : « بلغني أنكم تبحثون عن دين ، فان كان الخبر صحيحاً ، فأنا أوصيكم بالاسلام . » فقال له الأمير الياباني : « ليس الخبر كما بلغ جلالتهم ، بل نحن متمسكون بديننا » قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا ، ناظر المعارف الشهير ، في أيام عبد الحميد ، وكان صدوقاً حراً ، ثقة في كل ما يرويه ، ومع ما كان عليه من شرف الطباع ، لم يكن متظاهراً بالدين . فليسمع ذلك من يزعمون أن اليابان لم تترك في المدينة الا بعد ان خالت الدين ، وتبذته ظهرياً . (ش)

والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) . ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم بـ « رسالة الشرق » جاء فيه ما يأتي : —

« يا روح الشرق !! ألا هي من مرفدك وادفعي عن الشرق هذا الطوفان الغربي ، طوفان عدوان الفرنجة وبعيهم واعتدائهم !! »

« ايه ابناء هندستان !! كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمتمكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم ، وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بخالد قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم . دعوا قوة الأرواح الكامنة في قمم جبال حملايا تنبثق فقد حان لها ، وحق من أوجدها ، الانبثاق ، املاًوا الجو بصلواتكم الى اله الحرب لينصر الحق على القوة العاشمة ، ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، وارفعوا أصوات دعواتكم في هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين »

فن تدبر هذا المآل الذي آلت اليه عمالة المسلمين ، ولا سيما تقرّبهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لا يسعه الا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبديل الهائل مقصوراً على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمي الصين . فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف في وجه الغرب المعتدي ، ما يأتي : « ان أوروبة قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له ، فهي لا تنفك تنازعنا على حريقنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبة تم أوروبة ضاربتنا الضربة الفاضية اذالم يستنصر بعضنا بعضاً ، ونهبنا معاً في يوم آت هبته المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفي الدور الأول من الثورة الصينية ، نفّض مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاثلون معهم مستبسلين ، في سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور « صن - بات - سن » الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريةها (١) »

(١) كان المسلمون في حرب البوكسر يداً واحدة ، وظهرت واحدة مع أبناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير في تلك الحرب ، حتى التمسّت الدول من السلطان عبد الحميد ارسال وفد من قبله ينصح مسلمي الصين باسم الخلافة أن يمنحوا الى السلم . (ش)

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامي أجمع مضطرباً اضطراباً عميقاً ، ومحتتماً حثيثاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعي لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوي في سبيل التحرر من ربة الغرب

وربما يرى بعضهم من دواعي الاستغراب ، أنه لما دخلت تركيا في معمعان الحرب العامة في أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهد لم يهب على أثر ذلك العالم الاسلامي هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهد المقدس انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، كما حملت أبناء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد في ذلك الحين ، فالأمر في الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجاً شديداً أيما شدة في كل بلاد اسلامية في حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه البلاد . فصر باتت تغلي فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة^(١) ، فلولم تملأ بريطانيا بلاد النيل أجناداً لاعداد لها ، لحدثت في مصر الأهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر ، وإيران كانت على وشك الاتحاد مع تركية لولم يحل دون ذلك تدخل روسية وبريطانية وهيضهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رحاه حتى سافت بريطانيا اليه ممتتين وخسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد في حكم الحلفاء في آسية وافريقية ، كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين في سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامي قد انفجر وملاً الجو حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركية في الحرب كل الاستهجان ، ويعدون خرقاً في السياسة الرشيدة ، ويبذلون غاية ما في طوقهم لتسكين النفوس الثائرة والخواطر الهائجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة في الرأي كبيرة . فانهم أيقنوا

(١) ثورة دارفور التي قتل فيها علي بن دينار سلطان دارفور كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال ايضاً . (ش)

أن هذه الآونة ليست بالتي توفد فيها نار الحرب العامة في العالم الاسلامي ، ولا بالسائحة التي نغتم للدعاء ، حتى على الجهاد الاكبر لنقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب في ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الأهب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى النفاهم التام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها وبين حليفاتها من الأمم الكبرى غير المسلمة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الادبية في الامم الاسلامية على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركية بانت صنيعة طيعة بين يدي ألمانية تنزل على أمرها اقبالا وادباراً ، وأن « تركية الفتاة » غدت تدير دفة سفينتها عصبية من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أوليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود^(١) وعلى ذلك لم يكن من رأى عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار ألمانية ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدته من المطامح البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذلاطائل للمسلمين في ذلك سوى ابدال أذيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاقل بعضه بعضاً فيضعض كيانه وتسلب منته ، ويهن عظمه ، وتتجلى مخبات مقاصده ومكتوناته نحو المستقبل . بينما يهتبل العالم الاسلامي فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، ويشدد من بأسه وحوله وقوته ، ويعد العدة حتى اذا ما حانت الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الأسد المحصور ، فاتتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « فرساي » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التي كان يتوقع ظهورها دعاة الجامعة الاسلامية . فاما ظهرت واضحة طفقوا يجدون في سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لاعيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الأدبية بين الأمم الاسلامية ، وفي مؤتمر « فرساي » حسرت الدول الغربية الظافرة اللثام عن جبينها ، وبينت غاية التبيين أنها لانزل عن مطعم من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالأمم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة في الشرقيين

(١) في سلايك طائفة يقال لها « الدونغه » اي العائدون النيبون ، أصلهم يهود من مهاجري اسبانية ، الذين خرجوا منها مع عرب الأندلس . وقد أسلموا منذ نحو اربعمائة سنة ، ولكن اسلاماً مشوباً ببعض عقائد الأصلية . ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء ، والقيام على الأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذي يمثلونه في الهيئة الاجتماعية التركية ، أعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان أثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهماً . فكان منهم أناس يعدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقي . (ش)

الأدنى والأوسط . فقد قامت هذه الدول المنصورة واقسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية ، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التي كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال الحرب العامة ، وكانت تلك المعاهدات السرية في الواقع أساساً بنى عليه الصلح الذي عقد في مؤتمر فرساييل . زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانيا قد أعلنت في أوائل الحرب أن مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر فرساييل ، ظهرت بغتة معاهدة جديدة بين بريطانيا والعجم ، من مقتضاها أن هذه البلاد الأخيرة باتت في باطن الامر على الاقل ، ان لم يكن في باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضاً فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقين الأدنى والأوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقه المثيل .

غير أن للأمر وجهاً آخر تقيضاً لما تقدم . ذلك أن قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخروسة الغمار ، انما هو انشاء نظام عالمي حديث ، قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كرعاية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدراتها . فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختزنتها الأمم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلاً . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرأ وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، لحدثان ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبغي ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل العداء تشتد غلياناً في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهرت الجوارق وقصفت الرعود منذرة بأهول الصواعق . ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين عاملاً بالأمور الشرقية ، فأندروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « فرساييل » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المنذرين « ليون كاييتاني دوق سرموننته » وهو ثقة من ثقات الطليان في شؤون العالم الاسلامي ، فقد قال في ربيع سنة ١٩١٩ في جمة حديث له

ذكر فيه نتيجة الحرب العامة في الشرق : « ان الحرب الكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور في التربة ، وبعثت فيها روحاً عجيبة . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً عنيفاً ففي كل رقعة و بلاد ترى نار العداة للغرب مشبوبة ففي مرا كش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والطيحاج ، وفي مصر و بلاد العرب وليبية وسائر الأقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم التشرقي الاسلامي بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فأخذت تتحقق في العالم الاسلامي . غير أنه لما كانت الواقعات الأخيرة التي تقوم بها الأمم الاسلامية انما تغلب عليها صفات القومية الوطنية فاننا سنسبط الكلام عليها في فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية في هذا المقام هو أن العصبية الجنسية الاسلامية والجامعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بحملتها متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام في وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الأمم الاسلامية من قيود السلطة الأوروبية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاتنا نأثي للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية وواقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، وثار ثوراناً عجيبياً ، في هذه الآونة الأخيرة والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربي ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية ما لم يستثر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب ، وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعده وأركانه الفاسدة وما دهي العالم الاسلامي بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يغربن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتمدائه ودفعاً لجوره غصب ، بل ان منشأها الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها

قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصراني والنصراني . فان عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الاسرة الاسلامية ، على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال (السر موريسون) : - « ان الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فاعرى وهن جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض متماسكا متعاظداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوي ، سائراً سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه . »

فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ربطاً وثيقاً لا انفصام له . وباعتبار هذا المعنى ، فانها الجامعة الاسلامية انما هي عامة ، قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي ، حتى ان المسلمين الاحرار ، على ما يحبذون من الآراء الغريبة التي يردون شرعتها ، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغا خان ، ما يأتي : (ان هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم الى لوائها الحركل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية . فهذه الوحدة ، الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتتعمد أبدأ ، لانها عند أتباع النبي (أس الحياة وجوهر النفس .)

فاذا كان هذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب ، وتقدمه ، ورقبه ، وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشد شعور سواد المسلمين ، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون ؟ أضف الى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأة التي ليس منشأها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراط والغلو في العصب . وقد كان للحوادث السياسية

في العالم الاسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو ، فالتهب التعصب التهاباً بالغاً الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة في نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامة في المعمور الانساني مهددة من ناحية العالم لاسلامي . هذا هو الواقع ، الذي يجب علينا أن نعترف به ، وألا نخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصبية اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب .

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة في شيء* أن يقال ان تركية قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ ، نزولاً على أمر المانية ، فلم يكن هناك الابراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلاً على أن الجهاد الحقيقي في العالم الاسلامي بات ضرباً من المحال . ان من حله الوهم على هذا فهو على خطل شديد . اذ ان الجهاد لممكن أبداً كل الامكان . قال ضابط المائي كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولاً صريحاً وهو : « ان الجهاد الذي أعلنته تركية قد حبط حبوطاً لانه في الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب . و بسطنا مذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال .

فلسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة ، وتقرير الصلح على الاسس والاركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامي أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية . جميع هذا أشعل قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شيء في سبيلها . أضف الى ما تقدم ان الاهدب المادية ما برحت تزداد وتستوفي . وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينيوس فمباري الخبير حفي الخبرة بشؤون العالم الاسلامي ، فأندر الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهمه انما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق ، واليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازدياداً عظيماً على توالي الأيام . ولا يغيب عن البال أن روح العداة والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفاظ اتقدت ، أعني بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاماً ، نامياً ،

منتشراً في جميع الشعوب الإسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر الى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عالم انتشارها في آسية وافريقية ، وما لعظاتها البليغات واذاراتها الموقظات من التأثير الشديدي في نفوس قارئها المسلمين . فللصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، في تركيا والهند وفارس وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ما فتكر فيه أوربة وتقرره وتقوم على انفاذه على ما ينافي المصلحة الإسلامية ، تنتشر انباؤه في جميع هذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق في الرقاع الإسلامية ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الانباء معظمين مكبرين . فالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائتنا ، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء ، حتى تجوب أقاصي العالم الإسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف . وما تنشره صحيفة « ترجان » في القریم مثلاً ، تردده صحيفة « اقدام » في القسطنطينية ، ويرن صدها عظيماً في صحيفة « الحوادث الإسلامية » في كلكتا في الهند .

« فالجامعة الإسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى الذي يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتسك وتربط ، فتصير الجامعة الإسلامية كالبنيان المرصوص منيع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في انحاء المعمور لانتقى ولا تذر . »

منذ نشر فامباري اذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنصرة الإسلامية تشور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الإسلامية التي كانت تكاد لا تعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أم ما يكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذبوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الإسلامية وهي التي أشار اليها فامباري ، فقد تعاضمت تعاضماً غير مسبوق المثل . ففي سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الإسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا

العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية ، اما توأ على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار والبرد ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران و بشاور ، وفي البصرة و بمباى ترى صحف القسطنطينية ، وفي المحمرة و كركلاء و بورت سعيد ترى صحف كلكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الاسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها وهي حقا كالسبل الطامى فانها ما أدركت أمة مسالمة الاستولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتسكرة تجاراً ووعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعملة ومنتولين وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، واخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الاسلامى سيادة عامة ، الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة ، والاتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامى الفائت ويستعيدون عزهم التليد . قال السر نيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد ان الحضارة الاسلامية فانية أو غير متجددة مترقية ، انما يعتقد ان قدرتها قهقرى قصيرة حسب فقصر المسلمون أمرهم على التطوح في الاشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا في ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة في أوربة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر في طريق استئناف الارتقاء ، يأخذ عن الغرب ما يزيد في استحشائه وبعث فيه عزماً واقداماً ، ونشاطاً ، فتطورت الحياة تطوراً تبنت دلائله في كل قطر اسلامى . »^(١)

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاماً مقتبساً من كتاب (يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة) لمؤلفه يحيى صديق ، اضربنا عن ترجمته — (المترجم)

فإذا كان دعاة الجامعة الإسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات في مفتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة والدفاعاً . أضف الى هذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنه ، واهن القوة المادية وهناً كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوباً قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وإيطالية في الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعدة جليظة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد ايقانهم بادراك المبتغى ثم ان هذا التعادى الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيماً في الغرب فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحد كتّاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذاراً شديداً : « ان العالم الاسلامي بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذي يريد اعتبار الحقيقة لايعجب من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جمال الدين في المسلمين تسير سيراً دراكاً . »

وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراجل حقدته من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند ، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر ان هذا الثوران الاسلامي ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يغال السرنيودر موريسون بانذاره : « لقد حان وأيم الحق للامة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ماهو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقاً ، من جراء تجزئة تركية . وما هذه اللوامع النارية التي تبث في كابل والقاهرة الا البرق الذي تتلوه الزعود القواصف فالصواعق المزلزلة . اني قد أقيت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشر عقبي هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرساي قد خالوا تركية في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فن شاء البرهان فليتنظر الى هذه الوفود الاسلامية

العديدة ، الحالة بين ظهرانينا في لندن كأنها اللهب لا يصطلى به . فالمسلمون قاطبة في الهند ، من « بشاور » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لمسايرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعواالا شديداً ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة من مزاوله الشؤون السياسية يفرون من حوائنتهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشدين ، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث في العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات .

وأغرب ما في الحالة ان الأحرار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلالة الجامعة الاسلامية وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبي ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون في رده بموالاته الأحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثار حرباً عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب أن تفج غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذلك ، وهي التي تُرى اليوم دابة في كل عرق من عروق العالم الاسلامي باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضاً أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية في المعمور الاسلامي ذلك التعصب الذي اذا عاد فاتقد أو هن حركة الاصلاح الحديث في الاسلام ايهاً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذي عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لا يعد أكثر من مقدمة لما سيحدث في السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الديني في الاسلام اصلاحاً ضاربا الى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة « الاخوان » التي نشأت منذ نحو عشر سنين في نجد قلب بلاد العرب ، وهي الوهابية عينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير أعني به ابن السعود ، خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة

الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الاخوان » الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الاسلامي . وأما الأخرى فهي الدعوة « السلفية » التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة « الاخوان » في نجد ، غير انها قد انتشرت في هذه السنين الأخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخرًا متغلغلا في سلم الشرق .

واذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتها الدينية والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق . فن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في « اجياله الوسطى » ، فكانت الشريعة الاسلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الخالي ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان التزام الغربي جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، اذ ان فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنبا الى جنب ، وربما كان هذا الاخير أتم نظاما وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاج البخرية الألمان ، المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لاتحصى ، تسرب في البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب ، كالقروض ، والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعثا للشرفيين على العدا والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامي غضبان فهاله مارآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأني بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله ازاء حول الغرب الجبار العاني فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجدد في سبيل التحرر الاقتصادي

جده في سبيل التحرر السياسي من ربق الذل والاستعباد. ثم أنشأ حكماء المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأي السديد . يلتصقون الأسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامي رقيا اقتصاديا جليلا ، فمسخت الأساليب والمناهج الغربية ، ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً في وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد ، ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالمند ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد في كل قطر اسلامي ، وسنفضل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي . فما يجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلة فيها . وهذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحدة ، وأمن صلة ، ظهرت في المسلمين حتى اليوم انما هي الوحدة الاقتصادية بلا مرأ . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلوات الخلقية التهذيبية التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في تواتق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المعمور الاسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار الى كل جهة أرادوا ، فإزداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناء ووه مقادير ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصارفة ، والسامسة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوافق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم النزاحم الغربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للساسة المسلمين ، اذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وثام . فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضى بهم الى الانقسام لعدة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا بالسلحة ، أو يؤدي بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو

السكامة ، يجدون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لايجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى ؟ انما هي : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الاسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهي نفض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية . وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجذ أوروبا تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الاسلامي فهو يظل عائلة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الإسلامية الاقتصادية ، وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الاسلامي - السيطرة التي تتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب .

الدول المستعمرة والاسلام

للامير شكيب

من الغريب أن فارس عرضت على انكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت انكلترة مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريز . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب ، فأبت انكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة انكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت انكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها بينما هي في أول الحرب العامة تتردد في الميل الى أي الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء في الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تعهد الروسية بأن لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبدهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يفتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلورضوا بدخول تركية معهم في الحلف وقبلوا عضدها لهم في ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقررأ بين انكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ . ومن جلته قسمة سورية وفلسطين . ولورضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاوتتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما

كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر في الدخول في الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعد الظفر الأخير هو استلحاق مصر تماماً لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالثروة والفسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً لم يغتنمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، أن الحلفاء حالوا سنة ١٩١٥ الشريف حسيناً ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه باديء ذي بدء لأنهم أنهم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معه بعهد يمنعهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التي لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواماً ، وتأتى على الحرث والنسل وان العالم الاسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا الى قبول محالفة الشريف حسين أملاً بفصل العرب عن الترك ، وباستمالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حيلة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملأوا عهودهم للشريف ابهاماً وغموضاً ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع ككون قسم من العرب حال الحلفاء مخالفة فتت في عضد الأتراك ، وكانت من حيلة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلاً ، فالنية وضع اليد عليه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في ككون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للكابرة فالصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جلتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون في ككون الحلفاء أبوا مخالفة تركية وطلبوا منها الحياد لا غير في الحرب العامه ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغانتو سفير اميركا في تركية لأول

نشوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الخلفاء به تركية هو لزوم الحياد
 نخسب والحاصل أن الخلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا
 التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة
 من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافاة
 دولة اسلامية بالبقاء عليها . فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا
 يغيبوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ،
 وانها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال الا مجانياً .

أثر الروسيا في الشرق قديماً وحديثاً

للامير شكيب

حرر مؤخراً العالم الاجتماعي الكبير ، غو يغليمو فريرو Guglielmo Ferrero مقالة
 في جريدة «الايلاستراسيون» عنوانها «أوربة وآسية» بين فيها ان الحرب العامة أحدثت
 انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة
 ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، عن ذي قبل . والحال انه
 بعد ان خرجت انكاثرة ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها افغانستان ، والهند ،
 ثم مصر وبعدها كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ ، عادت فنهضت وردت انكاثرة وحليفانها
 على أعقابهم . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق احشاءها ، تطلب استرداد البلاد
 التي احتلت منها وعدم مس شيء من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هي آخذة
 بمبادي أوربة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة نخسب ، بل مبادئ وافكاراً تقاثلها
 بها . قال : «ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة
 متحدة ، متينة ، متماسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت فيما بين أجزائها .
 فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين في آسية ، ولكن من جهة أخرى ،
 كنت ترى كل واحدة منهما شادة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب

الذي تلقىه الروسية في قلب آسية ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسية « وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الى مقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدأ تحرير آسية ، وهذا عين ماورد في مقالة روجرلابون التي ترجمناها عن « مجلة باريز » . وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين فخررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية الى الاتحاد بين الروس والشرقيين ، ونلوم سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية ، لفائدة الدول الغربية ، فكان جل الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترة وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على تونس ، ولا ايطالية دخول طرابلس ، ولا انكلترة احتلال مصر والسودان بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حياية هذه البلدان ، لاسيما في بداية الأمر فالروسية هي التي كانت سبب سقوط الشرق واسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحوّل الحكومة القيصرية الى البلشفة هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابسأ الكتاب الأوربيون ينهبون اليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألاوهي قوله : « ان الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شاذة أزر الأخرى » . ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك ، والفرس ، والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدرون على اغائة الهنود ، والافغان ، والمصريين والعرب الذين مدت يدها اليهم انكلترة بالبطش والغصب . وكذلك انكلترة باستيلائها على هؤلاء قدعطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لايقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ، ولا الدولة الفارسية ، ولا تركستان ، ولا الصين بشئ* ، فكانت كل من الروسية وانكلترة قدشدت احدهما أزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن ، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل . ومن الأمور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ليس بين أوربا والروسية القيصرية فحسب ، بل بين أوربا والروسية البولشفيكية

نفسها ، مع شدة العداوة التي بين الفريقين .
 فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الاميرال كولتشاق ، والجنرال دينيكين ،
 والجنرال بودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثاره الأرمن ، والكرج
 وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على
 كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بذت انكاثرة وفرنسا في تسليح هذه الأقوام ،
 وسوفهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة ترصدان الفرص وتتربسان
 بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة
 اسلامية . فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة
 القوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر فلم يقبل الحلفاء هذا
 الرأي أصلا . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوه ، ولا فرغانه ،
 ولا غيرها من تركستان . ولارمى البولشفيك بهذه القوات كلها وماذاك الا لانهم يرون الخطر
 الاسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما . ومن الادلة البارزة على
 ذلك انه لما نقر المرحوم أنور من البولشفيكيين و برح موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها
 انسل الى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها
 لم يفكر أحد باوربا في امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيداً في أوائل
 أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تحف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا
 مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوربا بازاء الشرق .

الفتوحات الإسلامية في الهند

التقسيمات الجغرافية وعدد مسلمي كل ايلة

للشركيين

افتتح العرب المسلمون الهند وجانباً من الهند في صدر الاسلام ، ثم أُكمل الفتح محمود بن سبكتكين الغازي الشهير ، ورسخت قدم الاسلام في الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجاً عن طاعة الاسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرانا) وهو لقب أكبر من مهراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب أنه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذي لم يخضع لسلطة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هذا يتقدم في الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه .

وقد بلغ عدد المسلمين في الهند في تاريخ تجديد الطبع لهذا الكتاب ٧٨ مليوناً وبعدهم الى الامام لا الى الورااء
وبمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارى تصور عام بها :

فهي ثلاثة أقسام : القسم الأول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين في الشمال (نيپال) و (بوتان) ، وأهل نيپال خمسة ملايين كلهم هندوس ، وأهل بوتان مليون واحد هندوس أيضاً فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم أمة محاربة مشهورة بالشجاعة ، وأشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ، يتطوعون في الجنديّة نظراً لفقر بلادهم ، ووعورة أراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لا يكاد يكون له نفوذ
ثم القسم الثاني وهو الذي تحت حماية انكلترة ، وهو يدفع خراجاً سنوياً لها ، وملوكه وأمراؤه مضطرون أن يحضروا حفلة تتويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ،

وعدد هذا القسم ٧٠ مليوناً ، أى سكانه مع سكان القسم المستقل لا يزيدون على ربع الامبراطورية الهندية

و بقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر أملاكها

فالامارات التي هي تحت الحماية هي ما يأتي : (حيدر آباد الدكن) ، أهلها ١٣ مليوناً أكثرهم من الهندوس ولكن عاصمة البلاد أكثرها مسلمون وسلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على المملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر آباد نوعان من الجند : الأول يستقل به سلطان البلاد ، والثاني مرصد للاشتراك في حماية المملكة الهندية كلها وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذي تدفعه حيدر آباد لانكلترا زهيد ، واستقلالها الداخلى يكاد يكون تاماً

وقد حدث بين نظام حيدر آباد وانكلترا خلاف في السنين الأخيرة من أجل ولاية كبيرة يدعى النظام أنها تابعة لمملكته ، ويزعم الانكليز أنها مما ينبغي أن يلوه هم رأساً . ولا نعلم كيف انتهى الأمر بينهما ولكننا نعلم أن انكلترا لانزال مصرة على الاستئثار بتلك الولاية

ونظام حيدر آباد أوسع مالوك الاسلام ثروةً ومن أغنى مالوك العالم ، وقد كانت له اليد البيضاء على آل عثمان والخليفة عبد المجيد بن السلطان الخليفة عبد العزيز الذي طرده الأتراك السكاليون وأجأوه الى أوربة لا يملك شروى تقرير تقريباً فأقام أولاً بمونترو من سويسرة ثم انتقل الى نيس من ساحل فرنسة على البحر المتوسط (والعرب تقول نيقة) وبلغ نظام حيدر آباد أن الخليفة قد يصل من الاحتياج الى حد يمس بكرامة الاسلام ورأى أنه لا يليق بالمسلمين أن يصير السلطان الذي كان خليفتهم بالأمس الى حالة كهذه من البؤس والهوان فرتب له ثلاثمائة جنيه في الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد المحموده عند الجميع لا سيما أن الخليفة عبد المجيد هو ممن يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك في طهارة أخلاقه واستقامة مبادئه وسعه عقله ومعارفه و إخلاصه للاسلام والمسلمين

سم انه في أوائل هذه السنة ١٩٣٢ افرنجية ازدادت العلاقة بين الخليفة عبد المجيد ونظام حيدر آباد بزفاف كريمة الخليفة على نجل النظام ، ولم يحسن وقع هذه المصاهرة في

انقرة لأن الكهاليين خافوا من أن يتوكلوا الخليفة على ثروة النظام في بث الدعاية في تركية لا عادة الحكم الملكي اليها ، وكذلك لم يحسن وقع هذه المصاهرة في انكلترا لأن الانكليز خشوا ، ان يجعل عبد المجيد مركزه في حيدر آباد فتجتمع مسامو الهند من حوله وتحلق هذه المسئلة لهم مشكلاً جديداً ، والحقيقة ان خوف الفريقين بغير محله فلا نظام حيدر آباد مستعد للبلد في سبيل الدعاية الملكية في تركيا ولا الخليفة سيكون مركزه في الهند . ولن يقع انقلاب في تركيا الا بحوادث غير عادية تحصل في داخل تركيا . ومما يرجح في العقل أن انقلاباً كهذا لا يقع الا بعد وفاة مصطفي كمال

ثم (ميسور) وهي أرقى مملكة في الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك - ويقال له مهراجا - هندوسي وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد أهلها بحسب الاحصاء الأخير أربعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مسلمون ونصف مليون هنادك . ولكن المهراجا هندكي . وهي في شمالي الهند كما أن ميسور في الجنوب . وقد حصلت في كشمير فتنة شديدة بين المسلمين والهنادك في العام الفائت سببها أن الحكومة التي هي في يد الهنادك أهانت بعض المسلمين وجرحت شعورهم الديني وذلك بما قيل انه بعض الشرطة أجبرت أناساً من المسلمين بالسجود للأصنام قهراً لهم فهاج المسلمون في شمالي الهند وزحفت منهم عصابات على كشمير وأقامتها وأقعدتها ولم تسكن الفتنة الا بدخول جيش انكليزي تمكن من إعادة الراحة بينا الحكومة أخضت تفحص عن شكاوى المسلمين . ولا يزال هؤلاء يطالبون بعزل المهراجا الهندكي وأن يتولى كشمير أمير مسلم بناء على كون أ كثرية كشمير من المسلمين . ولكن ان لزم العمل بهذه القاعدة كان لا بد من فقد المسلمين لعرش حيدر آباد التي فيها المسلمون نحو من مليونين والهنادك ١١ مليوناً

ثم (ترافنكور) وأهلها أربعة ملايين أ كثرهم هندوس ومعهم مسلمون ، ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهراجا هندوسي

ثم (بروده) عدد أهلها مليونان هندوس ، ولها مهراجا هندوسي وهي مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهراجا هندوسي ، وعدد أهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها في وسط الهند ، وهي معدودة من البلاد الراقية ، وعندنا جيش منظم

ثم (ايندور) وهي في قلب الهند أيضاً ، وأهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم ثم (أودبور) التي مر ذكر سلطانها أنه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهي في وسط الهند أيضاً .

ثم (رامبور) وهي امارة اسلامية ، عدد أهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم ملك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهي نصف مليون أيضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب ثم بهوبال وأكثر أهلها هنداك ، ولكن الأمير مسلم ، وكان لهم ملكة يقال لها (بيكم) ويقال لها الرئيسة كانت متزوجة بالعلامة المجتهد الشهير ذي التصانيف العديدة الممتعة باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر ، وقد كان في مبدأ أمره كاتباً عندها ، وقيل ان الانكليز كانوا نعموا على السيد صديق خان كتابات له تثير الهند عليهم فأرادوا قتله فثارت هذه الملكة بهم وذكرت لهم مواقفها في ثورة الهند الكبرى وانقاذها عدداً كبيراً من الانكليز كان الهنود على وشك الفتك بهم وما زالت بهم حتى أفككتهم عن قتل صديق حسن خان ، وأثبتت ما كان عندها من قوة ارادة

وقد خلفت « البيكم » المذكورة (بيكم) أخرى ، ثم ماتت هذه من سنتين وتولى الحكم ابنها الأمير الخالي وهو رجل عاقل محمود السيرة وطني النزعة ، ولقد كان في العام الماضي بلندن في المؤتمر الهندي المسمى بالمائدة المستديرة وقد عرفنا من رجاله الأمير أحمد خان ناظر حررية بهوبال وهو من أمثال من عرفنا من رجال الهند

ثم (بها وليور) في شمالي الهند ، عدد أهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم أيضاً ثم (جبور وجود بور وآلور وبيكانير وجسامار وكونا) ، وكلها امارات هندوسية ، وتونك وأهلها مسلمون ، وريفا وبانايلا ونابها وجبن وكولابور وسكانها مختلطون مسلمون وهندوس

وأما القسم الثالث الذي تليه انكثرة مباشرة فعدد سكانه ٢٣٠ مليوناً وأهم بلاده (البنغاله) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباي)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه - ولو بصورة مجملية - لأن القارئ قلما يجدها في الكتب العربية . ثم لأننا أحببنا أن نذكر نسبة عدد مسلمي الهند الى عدد الهندوس . وأن نبين أما كتبهم من الهند

الاسلام في جاوى وماجاورها

للشيخ

١ — المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام

٢ — مسألة الحضارة في جاوى

ولما كان المؤلف أشار في حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتي جاوى وسومطره العظيمنتين رأينا من الضروري أن نقول كلمة في هذا الموضوع وهي :

ان الاسلام بدأ ينتشر في هاتيك الجزائر في أواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للميلاد وفي بلدة (غريزيك) من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا مالك ابراهيم أحد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية في تلك الجزر القاصية ، ووفاته وقعت في ١٢ ربيع الأول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ ، وكذلك في بلدة « بازه » قبر (الأمير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسي) توفي في ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغاب في هاتيك الأقطار حتى بلغ عدد المسامين فيها ٣٥ مليوناً أى نحو نصف عدد مسامي الهند وهم في الفقه على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمي الهولاندي منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد أن يكون عدد المسامين ازداد اليوم على ما كان في ذلك التاريخ ، ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامي) الفرنسية في سنة ١٩١١ أربع محاضرات على سياسة هولاندة الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندي (سنوك هورغرونيه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية في المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافذاذ الذين وقفوا على أحوال الاسلام عموماً وبلاد الجاوى خصوصاً وأقام بتلك الديار ١٧ سنة فتسل فيها أمورها علماً ، ويقال انه دخل مكة والمدينة

في موسم الحج متكرراً فهو الذي يحقق في تلك المحاضرات أن عدد المسلمين الخاضعين في جزائر الأوقيانوس ، لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة وقد ازداد هذا العدد كثيراً حتى بلغ الإحصاء الأخير خمسين مليوناً أي في سنة ١٩٣٢ بلغ مسلمو المستعمرات الهولندية هذا العدد ، وكانوا من ١٢ سنة ٤٥ مليوناً ، فتكون زيادتهم في هذه الألفي عشرة سنة خمسة ملايين نسمة ، فأنت ترى أن عدد ٣٥ مليوناً هو قديم العهد قد يكون بموجب إحصاء مضى عليه ثلاثون سنة بالاقبل

وفي السنة الماضية نشر « جورنال دوجنيف » رسالة لمكاتب له كان في بلاد الجاوى واطلع على أحوالها اسمه المسيو « بول بورداري » Paul Bourdarye زعم فيها أن الإحصاء الذي أجرته الحكومة الهولندية سنة ١٩٣٠ أثبت أن عدد المسلمين في مستعمراتها تزايد جداً وأنه بلغ الآن ٦٤ مليون نفس وعليه خطأ محض إحصاء بعضهم مسلمي تلك الجزائر بعشرين مليوناً كما رأيت مرة في إحدى المجلات العربية المطبوعة بمصر وكان هؤلاء المسلمين هناك سلاطين وأمراء مستقلون فما زالت هولانده تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى أخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصفاؤها بقية استقلالهم في إخضاع توانغ كو محمد دافوت سلطان آتسه الذي دخل تحت حياية هولانده سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الإسلام في تلك الديار - بحسب تحقيقات العلامة هورغرونيه - بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون إلى تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدينتهم البرهمية ، فجاء الإسلام واستألم إليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، وبدون أدنى قهر ولا عنف منها إلا ما حصل من أهالي شرقي جاوى الذين غلبوا بعض مجاوريهم بالقوة فن جاوى امتد الإسلام إلى سومطره وإلى قسم من بورنيو وسيليب والجزر التي إلى الشرق . وابن بطولته الرحالة الشهير امتدح ملك سومطره في القرن الرابع عشر بأنه جاهد في الكفار .

ولم يزل الإسلام ينتشر في البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولندية في ذلك وكيف انها تسمح للإسلام باكتساب هذه البقايا . وأكثر من صخب لذلك هي جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغرونيه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتي مترجماً عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام في البلدان التي أهلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . وهذا المخدور قد وقع فيه الألمان أنفسهم في المستعمرات الألمانية بشرق افريقية . ولكن الخطر عندنا أعظم لأن المأمورين الوطنيين من أهل الجاوى هم في الغالب من المتعلمين والمطلعين على أصولنا الادارية ، وليس عندهم تعصب مفرط في الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم ، فلا ينكر أنه مع تهادى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين في مسألة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمري لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا في تلك الديار بحجة أنهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملاً مخالفاً للعدل ، ولكن يجب تدبر الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين »

فأنت ترى أنها القارىء أن العلامة هورغرونيه - الذى هو معدود في الأقلين تعصبا، والذى من أول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية - هو نفسه يحذر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة في بلاد الوثنيين ، ولولم يكن عندهم تعصب مفرط ، لئلا يؤثر ذلك في عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام . وبعبارة أخرى ان مصلحة هولانده - وأوربا كلها - تقضى بترجيح بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال . فهل يأتى يجهل الأوربي أن نقل الانسان من عبادة الصنم الى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالانسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعى الأمم المتقدمة ؟ كلا . لا يجهل الأوربي ذلك ولكنه يعلم جيداً لاسيما المستشرق العظيم الذى هو مثل هورغرونيه أن الاسلام لا يجتمع مع الذل في قلب واحد ، كما جاء في العروة الوثقى بقلم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وأن الشريعة القرآنية قد ضمنت لتبعتها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال ، بحيث لا يقدر أن يحكم في رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوربي والميل الى الاسلام في قلب واحد لأن المستعمرين يعامون ما وراء الأكمة ولذلك أهم شئ

تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والأخذ بعزائم الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هورغرونيه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والانتفاض ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الأمر ، فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرية على أرساها بل يجعلون الحذر لها رقيباً والاحتياط رائداً ، وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للاسلام في الأمور السياسية علنية لاضرأ فيها ، وأما في الأمور الدينية فيجعلونها خفية لا بجاهرة فيها بحيث لا تدعوا الى الاضطراب ولا تبعث على الانتفاض

هذه هي سياسة العقلاء من المستعمرين ، فأما سياسة المتهورين فهي معلومة لاحاجة الى الكلام عليها لا تعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هورغرونيه بأن حزباً في هولانده ممالئاً لجمعية التبشير بحث الحكومة أن تحصل مسلمي الجاوى على النصرانية فيين الخطر العظيم من ممالأة جمعيات التبشير على مساعدتها هذه في تنصير المسلمين وطعن في مزاعم بعض النواب في الندوة الهولاندية كون اسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسماً فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو في منتهى الخفاقة وانه يجب على كل وطني هولاندى يهيمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتا ويحذر الحكومة من سوء عواقبه . وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وأن حكومة هولانده كما أنها متهمه عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهي متهمه لدى المسلمين باضطهاد الاسلام فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأى هذا العلامة أن الحكومة الهولاندية تخطىء اذا أقامت عقبات في طريق الحج لاسيما أن مسلمي الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الدين وأن تعصيب الحج عليهم لا يأتي هولانده بغير اثاره الخواطر وقلق الأفكار وهو يرد على بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر الحج و يظنون أنفسهم قد أحسنوا صنعا في حمل الحكومة على منع الحج أو تعصيب سبيله . ويقول : ان على الحكومة الهولاندية أن تسلك سبيلا وسطا فلا تحت على فرضة اسلامية

ولا تنهى عنها . وأنها قد أحسنت صنعا في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحداً بالقوة ولا تمنعها بالقوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الاسلامية كما خطر ببال بعضهم بل ينبغي حل المسلمين على القانون الهولاندى الا ما تعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتهم . وغرضه من ذلك عدم تقوية هذه الشريعة التي يحول تطبيقها بأسرها دون الصبغة الأوربية التي ينبغي أن تكون مجاهيد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هورغونيه يقول : ان سلامة المستعمرات الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافة الهولاندية في مسلمى تلك الجزائر الى أن يصيروا في هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون في الشرق كما يكون هولانديون في الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد في الدين شرطا في اتحاد الوطنية بل يقول : انه كما لم يمنع اختلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين الكاثوليك والهولانديين اليهود ثم مع الملاحدة والمعظلة من الهولانديين أن يكونوا جميعا أمة هولاندية فلا يمنع اختلافهم في الدين مع مسلمى الجاوى وسومطره أن يكون هؤلاء في يوم من الأيام وطنيين هولانديين وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولاندية التي تتغلب في نفوسهم على أثر الدين . وهو يتمشى في جميع آرائه على هذه النظرية ، وكأنه يعلم أن مهاجرة المسلمين من جهة العقيدة رأسا أمر عقيم لا يأتي بأدنى فائدة ، ولا يعود على هولانده الا بالضرر ، فلا يألو جهداً في تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشير الى صبغ الأمة الجاوية بالصبغة الهولاندية من طريق العلم والتربية .

أما حيث نجد هورغونيه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو في السياسة السوية فانه ينبه جهاراً بدون أدنى محاباة الى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الاسلامية ، لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها في السياسة بل هي رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتأسف من كون مسلمى تلك الجزائر مقلدين في دياتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمى مصر وحضر موت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التأليف التي تحرر في البلاد العربية،

وأنه الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية يظهر من هنا اتفاق الاور بين على بث روح القومية بين أمم الاسلام أملا بتشطية عصا الجامعة الاسلامية . فالتناقد رأينا أثر هذه السياسة في مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاور بين يرون خطر القومية أخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هو يرى أن لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيما لو أرادوا أن يتضامنوا في السياسة مع سائر مسلمي المعمور وأنه يجب منع قنصل تركيا الذين يتمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كانت مع الاهالي . وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك في الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة أية اعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الأتراك وأيتامهم — يقيم التكبير على ذلك بكل تصريح وينسى ما في ذلك من مخالفة مبادئ الانسانية — ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الديني حتى لا يقع فيه شيء من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكأنه يريد أن ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع ما انصف به من الاعتدال يريد أن يمحوا أثر كل تضامن اسلامي مع المسلمين التابعين لهولانده ، وأن ينسخ من التعليم الاسلامي كل ما فيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفي هاتين النقطتين لايرعى في المنام خليلا ...

ثم ان هناك مسألة مهمة يقال لها مسألة الحضارمة ، وهذه تكرث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مسألة سواها في الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضر موت من أقدم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق ، واكثر ما ينتشرون في جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحسب لهم حساباً كبيراً واشد ما يضيق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينهبوا الاهالي السذج الى الامور التي لولا الحضارمة ربما لا ينتهبون اليها ، فزال توضع الحواجز امام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهي تحتاج لذلك بكونهم في الاكثر أفاقين لا يأتون الى الجاوى بشيء من رؤوس الاموال وانهم هم بمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضر موت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده — لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هي ملك هولانده وهي أولى من الاهالي ببلادهم ...

— و بناء على ذلك فقد ضويق الحضارمة وغيرهم من العرب في قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولاندية أو النيرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولاندية التي هي من الاصل غير مرتاحة الى وجودهم بين مسلمي الجاوى لسبباً تسطو حصافتهم على سداجة هؤلاء ، ويوظفونهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعماري قد جعلت تضيق عليهم في غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت انحملهم على ترك تلك الديار

فلاستاذ هور غرونيه يتكلم على هذه المسئلة بما يلي ترجمته :

« ان عدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له اسباب يمكن أن يبني عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت هؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لانطاق ، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف انظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربي هناك لا يملك شيئاً من الأمان على حاله واستقباله . فاضطر بعض ذوى الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملاًوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيذ الخناق الذي هم فيه ويتعاطوا تجارتهم ومرفقهم بدون تلك القيود الثقيلة التي هي حجر عثرة في سبيلها ، ولكن بما لا يرب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع في هذا الموضوع ومعرفة ماهي عليه حالة اسلام الجاوى وماهي سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ، اذ كانت كل دولة مستعمرة لايهمها شيء مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدى عليها ، فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التي القاها هذا الاستاذ والتي تجد في آخرها جملة لا بأس بنقلها وهي :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى في ممارسة الحياة الوطنية على شرط أن يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامي . ولقد رأينا مقدار مساعدة الأحوال لنا في تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين في الامة الهولاندية بدون اثاره المسئلة الدينية .

ولعمري ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التساهل الديني عن اولئك الاهالي «
وكفى بهذا شهادة

وقد اعتنى علماء هولاندة جيد الاعتناء بتمحيص تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً
لكونها من أبداع وأغنى بلاد الله ولكونها من هولاندة بمكان الهند من انكثرة فألفت
على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لا ننقل هنا سوى ما تعلق بدخول
الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجال .

قالوا ان الذين أدخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة
والملاحة فانهم نزلوا أولاً بالثغور البحرية وبالمراسي الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً
فشيئاً الى الداخل وكانوا لا يلوون على شيء سوى الأخذ والعطاء ولم يظهر أصلاً انهم قصدوا
بأدى ذى بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عند ما صارت الأمة الماليزية تناظرهم
وتسد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرابحون الى القوة المسلحة حفظاً
لحريتهم ووقاية لمرفقهم فكانت مملكة دماك Demak وهي أول فتح عربي في الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد ماليزيه وثبت انه في القرن
العاشر والحادى عشر والثانى عشر طاف كثير من سياح العرب في سواحل الهند والصين
والجزر الماليزية . قال المسيو بيارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار
الهولاندى للجاوى » ان المدينة الاسلامية في القرن العاشر كانت تلمع باسطع أشعتها
وكان الخليفة يتولى سلطته قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة
فيتلاقى في وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد أحصيت تلك الطرق بين الغرب والشرق
فكانت نجسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى السند والهند الى الصين والثانية
من انطاكية الى بغداد الى الابله الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة
كانت تبدأ من طنجة في الغرب فتخترق أفريقيا الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد
فالبصرة فالاهواز ففارس فكرمان الى السند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من
ألمانية فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى
توسيع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التي

دخلت في حوزتهم وانفذ أصاب الميسورينو Reinaud في قوله : « ان فتوحات الاسلام الأولى تأتت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كلما فتحوا قطراً حددوا حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا في معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودى قد عرف الجاوى وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربى منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . ومما قاله : انه لا يمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزيج أو الجاوى وجيوشه لأتحصى وينبغى للانسان مسير سنتين حتى يأتى على جميع ممالكه . وفى بلاده جميع أنواع الأفاويه والعطور مما لا يوجد عند ملك غيره و يصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والصندل الخ وممالك المهراج يحدها بحراً لا آخر له يتصل ببلاد الصين . انتهى فكانت الجاوى يومئذ معدودة فى ممالك الهند وفى القرن الحادى عشر والثانى عشر ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المساميين الجغرافية وأصبح الارخبيل الماليزى معروفاً ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة فى الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى أن قال : انه فى القرنين التالين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التى كانت بين المشرق والمغرب وسافت هذه الأحوال مهاجرى العرب الى بحر الهند . وفى القرن الحادى عشر زار أبو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفى العصر الذى يتلوه كان الادريسي فى بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمى باسم الماليز أحد الشعوب الساكنة فى الجاوى . وذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة ماداغسكار من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن لسوء الطالع كانت معلوماته فى الاطلس الجغرافى لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على أن هذا الأطلس نفسه الذى أنبأنا عنه الميسورينو يدل على التبسط العظيم الذى تبسطه العرب فى جميع أصقاع الاقيانوس الهندى ونقل ابن سعيد (أبو الحسن نور الدين على) المولود سنة ١٢٧٤ أخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن فاطمة ساح فى سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الأبيض وطاف فى السواحل الشرقية حتى بلغ سوفاله . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان فى أواخر القرن الخامس عشر فى ساحل موزامبيق جالية اسلامية جلييلة عا كفة عن أشغال البحر

بصيرة جيداً بمهاب الرياح ومجازى الأبحر المجاورة وبين أيديها خرط بحرية وآلات متنوعة متعلقة بصنعة الملاحة . وأحسن من وصف بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين أبو الفدا فمع كون معلوماته ليست فى نهاية التمحيص فلم يكن أحد يقدر على ما يقدر عليه فى وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على أحوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم فى عصره عن هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة أسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . وأكبرها جزيرة السريرة التى طولها أربعائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلاً الخ . ثم يقول أبو الفدا : فى جنوبى الاقليم الأول جزيرة كبيرة فى البحر الأخضر ذكر ابن سعيد أن سلطانها لا يوجد له نظير فى ملوك الهند فى كثرة الكنوز والذهب والأفيال وقاعدة ملكه فى الجزيرة الكبرى وقال المهلبى ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

وبالاختصار فالى عهد استيلاء الأور وبيين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها وبخيراتها وبمسالكها وبالبراكين التى فيها وكانوا يعلمون أن فيها ممالك عظيمة مثل مملكة المهرج يصفها ابن خرداذبة وأبو الفدا بسعة الملك والحول والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفسكروا فى فتحها بالسيف كما فتحوا آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية لأنه لم تكن بأيديهم قوة كافية بازاء هاتيك الممالك وانما كانوا تجاراً ومرزقين منتشرين هنا وهناك ولكن كما قال فان در برغ van der Berg صاحب كتاب «حضر موت والمستعمرات العربية فى الارخبيل الهندى» : لما كانوا أعلى درجة فى المدنية من أهل تلك الأقطار جعلوا لأنفسهم مقاماً ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا فى وسط الشعوب الآسيوية التى انتجعوا بلادها . وهذا المقام العالى الخاص بهم الذى له أسباب خلقية وطبعية انضمت اليها عوامل أخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هى التى كانت الأصل الأصيل فى نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . اه .

قال المؤرخون الأوربيون : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانشرت لتكفى فى ذيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات

زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هذه وهى قوة العقيدة المحمدية التى هى من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام وما لا يشك فيه أنها متضمنة فضائل لم تكن فى دين من الأديان المعروفة فى الجاوى فقد كانت البراهمية والبوذية هما الديانتين السائدتين هنالك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دائمة بين مصدرى الخير والشر فكان فى ذلك من التعقيد وصعوبة التفهيم ما فيه لأن هذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين فى القوة بأيديهما ادارة المخلوقات أحدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تفضل الافكار وتنقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحية براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فان فى هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى فى الحضرة الالهية . فالدين الاسلامى أنى أهالى الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهلة الشعائر تنحصر فى الإيمان بالله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله . نخلص الناس بذلك من هذه الثنائية التى تجعل قوتين خالقتين فى صراع دائم وتجير الأفكار وتقلق الخواطر . فالاله الاسلامى واحد لا شريك له مهيمن على الخلق وجميع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصلوة الصلوة كصلاة الملك فلا درجات ولا طبقات ولا فواصل غير قابلة للوصل بين العباد . وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحسن اليه أهالى الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر فى كتاب واحد هو القرآن فإذا كان البراهمى يعيش بين الأمم الغربية منفرداً لاهم له فى التأثير فيهم ولا فى حملهم على مشاطرته تلك السعادة التى يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذى لا يرى تحقيق نعيمه الا فى التأمل والتبتل والرهبانية فان السائح المسلم فى أى بلد وجد وقرآنه يمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول فى العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدنية الاسلامية كانت أرقى جدا من مدنية أهل الجاوى وان العرب لما وطئوا هاتيك الشواطىء جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الجاويين وأهل الشرق الأقصى مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والأطوال

لتحديد الأقاليم وكان فن الملاحة بالغاً عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خبيرين بأحوال الأمم ويقال انهم كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ويقطعون البحار بمزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسى ونقاط الخط والاقلاع حتى كان السياح الاوربيون لأول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم^(١) وقد خلق العربي تاجراً بفطرته خبيراً بالعمليات المسالية والحسابية وبأساليب الأخذ والعطاء فتعلم الماليزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد اثمان الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التي هي الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشتري وطريقة السفتجة أو الخوالة التي كانت عند العرب كما هي عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الأسباب انتشرت في الجاوى عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً في البداية وما عمّت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساوياً في جميع آفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربي الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر Schreiber لأن الاسلام كان أسرع تقدماً في الجهة الغربية بين الجنس المسمى بالسونداني منه بين الجنس الجاواني والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكاً بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين في الغالب لا يعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ماوجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم برسوخ الاسلام في شرقي الجاوى كما هو في غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب في الجاوى على تشييد المباني الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم في الفتوحات الروحية فليس في الجاوى ما في سائر البلاد الاسلامية من المساجد التي تبهر الأنظار ببديع الصنعة ونظام البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجي » هو في نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام في الجاوى بخمسة قرون بتدئى من القرن الثاني عشر الى أن تنتهى باحتلال الهولانديين لبتافيا في القرن السابع عشر . وقد حقق

(١) مثل ابن ماجد الذي كان دليلاً للبرتغال

المؤرخ فت Vet ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدبى بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوى تحتها امارات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ أولئك الامراء والمهراجت يولون وجوههم شطر الاسلام فكان كلما كسب بلداً انتقل الى الذى بجانبه فاستصفي مملكة ماجاباهيت ودخل الى الملائع ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عددهم وهم دائماً فى علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ما ينزلون فى سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى أسسوا سلطنة دماك .

وكانت ماجاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلم الاسلام فى تلك الديار وكانت واسعة الأطراف تشتمل على الأقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغر ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » والى حدود مملكة « باجاجاران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان » و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واشتهر فى نشره هناك حسين الدين حليف سلطان دماك فى سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاوانى الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحى دخلت سلطنة ماجاباهيت فى خبر كان . وأعظم سلطنة تأسست للاسلام فى الجاوى كانت فى قطر ماتارام وقد بقيت فى شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تنساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا فى الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة فى بلاد الجاوى لأنه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما أسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمديّة قد وحدت الاسلام بين اجزائها واورثتها قوة جعلتها تقف فى وجه الغرباء الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً فى تلك الأرض فليس فى الجاوى قوة سواها (عن ييار غونو ملخصاً) .

أما جزيرة الجاوى فهى معدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالاً عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة بيوغاز السوند وشرقاً عن بالى بيوغاز بالى وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندى وموقعها بين ٥٢ ر ٥ و ٤٦ ر ٨ من العرض الجنوبي و ١٢٠ ر ٤٠

١١٢٥ من الطول الشرقى طولها الف كيلومتر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة وواحد وثلثون الفا وخمسة مائة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة وبراكين متأججة وجبالها مغطاة بالأشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصبة تروىها المياه السائلة من الجبال وهوؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الف اوربيون و ٢٥ الف صينيون و ١٥ الف اعرب وجميع الأهالى الجاويين مسلمون ، وتجارة الجاوى تقدر بأكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية وهى مركز المستعمرات النييرلاندية وعاصمتها باتافيا وبها يقيم الحاكم العام من قبل هولاندة ومن مدنها بويتزورغ وهى كرسى الحكومة الصينى ثم سامارانغ وسرايه وسراكارته .

ومن جزر الارخبيل المالبيزى بورنيو وهى اكبر جزائره لابل اكبر جزيرة فى الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمائة وستة وأربعون الف كيلومتر مربع وهى من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطى جبالها الى أعلى القن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ مترأ وهو فى المحل المسمى « كينابالو » فى شمالى الجزيرة ومنها فى وسط الجزيرة « غونونغ ريا » علوه ٢٢٧٨ مترأ . وتكثر الامطار فى هذه الجزيرة فتسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر فى بعض الأماكن ومنها أنهر أخرى مثل الكاهاجان والبارتيو فى الجنوب والمهاكام والكاجان فى الشرق والبارام والبانانغ رجانغ والبانانغ لوبار فى الشمال وجداول وأنهار صغار لاتحصى . وفى هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة ويستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انكلترا وهولاندة فنها مساحة ٥٥٣٣٠٠ كيلومتر مربع فى الشرق والجنوب والغرب هولاندة . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلومتر مربع فى الشمال لانكلترة . فأما القسم الهولاندى فينقسم الى قسمين : جهة غربى البورنيو وقاعدته « بونتيانك » وجهة الجنوب الشرقى من البورنيو وقاعدته « بانجر ماسين » وأما القسم الانكليزى فهو عبارة عن امارة « سرافاك » وأراضى الشركة الانكليزية فى شمالى بورنيو وجزيرة لابوان ومدينة بروناى .

فأما البلاد التى تحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و « مانباوه »

و « بونديانك » و « كوبو » و « سيمبانغ » و « ماتان » و « لاندك » و « تاجان مليو » و « سانغو » و « سيكادو » و « سنيتانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « سالينبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو بانمباهان أو بانجران وهم باجمعهم تابعون لهولاندة وعند كل منهم مجلس مؤلف من امراء الاسرة المالكة وأشرف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال وبالهند وكثير من ملوك بورنيو هم من أصل هندي وفيها هياكل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا في أواسط القرن السادس عشر انتشر من البانباغ الى السوكادانه والماتان . وفي سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيرى كوزوما » على عرش سوكلدانه وفي أيامه بدأ الأوربيون يتطالون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها عن جميع جزائر الارخبيل الماليزي فلبث الاوربيون ثلاثة قرون من برتغاليين واسبانيول وهولانديين وانكليزيين يوجبون في تلك الديار متجرين ومعاضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هي بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها في أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكلدانه فبقيت مدة تابعة لمملكة باتنام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالى جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا في السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امراء في هذه الجزيرة . وبقيت سوكلدانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذا سقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونيتانك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونيتانك فاصلها امارة رجل عربي اسمه الشريف عبدالرحمن بن الشريف حسين بن احمد القادري الذي فبره يزار في بلدة منباوه فيقال انه بدأ حياته بالغارات وغصب السفن الى أن غضب عليه أبوه الذي كان صالحا ورعاً فرحل من منباوه وجاء بعصابته الى جهة لاندك وكابواس وبلباقتة ونشاطه أسس مركزاً تجارياً لم يزل ينمو ويتقدم حتى صار مدينة هي مدينة بونديانك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودي به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك في أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولاندة أخذت على أيديهم ولم تبق لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التي قاعدتها سانباس فقد أسسها ماليزيو جوهور . وسنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولندية للهند الشرقية . وفي النصف الأول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « بروناي » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوكدانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد صفى الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمننا هذا .

وأما إمارة سرافاك التي قاعدتها كوتشينغ فأصلها أن بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينته تخصه الى بلدة بروناي فوجد الحالة فيها لا تطاق من الظلم والعسف وفقد الامن وتبليص الناس من أمواطم . وكان هناك أمير يقال له مودا حسن فاعتمد على الزبان جيمس الانكليزي وفوض اليه الأمور فأصلح الأحوال ووطد الأمن وفي سنة اعترف سلطان بروناي هذا للضابط الانكليزي جيمس بالامارة على سرافاك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين في مقاومة المسامين (١٨٤٢) وأمدته الحكومة الانكليزية ببعض النجديات في وقائعه مع العرب والماليزيين ولم يدخل في حكومته الا عدداً قليلا من الاوربيين وسوى في المعاملة بين الاوربيين والوطنيين^(١) فسعدت أهالي تلك الامارة واتسعت حدودها وعظم شأنها . وسنة ١٨٦٣ مات جيمس خلفه ابن أخيه كارلس بروك وقد ورث ملكا عريضاً يمتد الى حدود نهر لينبانغ ودخلت هذه المملكة تحت حماية بريطانية العظمى .

وأما سلطنة « كوتاي » على الساحل الشرقى من بورنيو فقاعدتها « تنغارون » وميناؤها « سامارينده » فقد كانت تابعة سلطنة موجو باهيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملكة بنجارماسين . وفي أثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاي الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تخل باستقلالهم وتجعل لها هي السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليوناً وسبعمائة ألف نسمة من هذا العدد نحو ستين ألف صيني وبضعة آلاف عربي ونحو ألى أوربى فهى قليلة الساكن بالقياس الى مساحتها اذ لا يصيب الكيلو متر المربع فيها أكثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الداياك يسكنون فى الداخل ومن الماليزيين المسامين الذين يسكنون فى الساحل .

(١) ياليت حكومته وسائر الحكومات الأوربية تقضى به فى هذه الحطة

والداياك هم من أصل ماليزى ولكنهم منحطون في المدنية منقطعون في البرارى والجبال والسيادة دائماً للمسلمين عليهم . ومتى أسلم واحد من الداياك صار معدوداً من الماليزيين . وأما السواحل فهي مأهولة بالمسلمين الماليزيين بعضهم من السلالة الماليزية الخالصة وبعضهم مختلطون بالامة البوغنيزية . ومن جهة أرض كابواس يوجد ماليزيون كثيرون ممتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الداياك والغالب على هؤلاء الماليزيين حب التجارة وصيد البحر وقنص الوحوش وليس عندهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحدة العقيدة الاسلامية هي أمتن وأقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الماسكين بافواه الانهر التي هي طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهة . ومنهم من يتغلغلون في أحشاء الجزيرة في طلب محصولات الأراضي الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى أقصى مساكن الداياك السابق الذكر ويطبعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جافانى لهم في بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعية جديدة بالذكر وهم أهل ذكاء واقدام . كذلك على السواحل الشرقية يكثر الجبل المسمى بالبوغنيزى وهم من أقوم الأقوام على التجارة والسعى وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية في هاتيك الأرجاء

وفي الأرخبيل الماليزى جزيرة يقال لها سيلاب Célèbes هي الجزيرة الثالثة في العظمة والبسطة مساحتها ٣٢٢٨ كيلومتر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وأرضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة . وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وانما ادارتها مقسومة الى قسمين أحدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالى من الجزيرة مع شبه الجزيرة الشرقى والثانى مابقى من الجزيرة . ولا يزال في أشباه الجزر الشمالية والجنوبية امارات وطنية مثل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد أمراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم ينتصر لهم أحد من الأهالى . وامارات أخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيد نغرنغ » لا تزال مستقلة في داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة أكثر من سائر جزر هذا الأرخبيل نزل بها الماليزيون سنة

١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفي القرن السادس عشر تغلب ملوك الما كاسار أصحاب دولتي « غوفا » و « تلو » على جنوبي سيلاب وقسم من أوساطها وعلى الجزر الصغيرة من أرخبيل الصوند . وفي زمان الملك « تونيجالو » الذي تولى الأمر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ما أراد . فلما آل الأمر الى ابن تونيجالو شرح الله صدره للاسلام على يد رجل ماليزي اسمه « داتوري باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فاسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين وأسلم معه وزيره « كارانغ ماتوفيا » وتبعهما سائر الأهالي وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالما كاسار والبوغينيز لا سيما أن مملكة غوفا في ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولنديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتغاليين في التجارة ويزاحونهم على محاصيل البهارات والفلفل في عاصمة الما كاسار . وقد عقد الهولنديون معاهدات تجارية مع أمراء تلك النواحي تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم يخل الأمر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال والاتفاق مع مملكتي بون وترنات زحفت العساكر الهولندية في سنة ١٦٦٧ ثم في سنة ١٦٦٩ وفتحت أوساط مملكة الما كاسار وأجبرت أمراءها على امضاء معاهدة « بانغاجا » التي حملت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبي من جزيرة سيلاب وبموجبها أطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان هؤلاء عندهم مراكز أسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولندية على الاسبانيول وأخرجوهم .

أما عدد أهالي سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة الماليزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر في داخل الجزيرة اسمه « توالا » وأصفي جنس من هؤلاء السكان هم « التوراجا » وهم جيل وثنيون في داخل الجزيرة ومنهم أقوام في شبه الجزيرة الغربي اختلطوا بالماليزيين فتكون منهم الما كاسار والبوغينيز . أما جنس الميناهازه

فيستدل من أشكاهم ولغتهم على كونهم ذوى قرى مع المساليزيين أهل الفيلبين وفورموز واليابان . وأشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ أوريباً و ١٤١ عربياً و ٤٦٧٢ صينياً و ٢٠١٧٨ من الأهالى أكثرهم بوغينيزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربى و ٥٧٦ أوريباً و ٢٧٨٤ صينياً و ٦٦٦٩ من الأهالى . ثم غوروتالو وفيها ٣٢٧ عربياً و ١٤٥ أوريباً و ٦٠٦ صينيون و ٥٢٤٧ من الأهالى . ثم سينجه وأهلها ٣٥٧٨ وفيها ٥١ أوريباً و ٢٣ عربياً و ١٠٨ صينيون . ثم بوتان وفيها ١٥٥ أوريباً و ١٩٧ صينياً و ٦٥٤٤ من الأهالى و ٣ عرب وهلم جرا . و جنس التوراجا زراع ومنهم قناصون ويسكنون في قرى محصنة لكثرة ما يقع بينهم من الحروب .

وفي البلاد التي تصاقب البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينيزيون دخل التوراجا هؤلاء في الاسلام اما النصرانية فتنمو في الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان في جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان في الأرجاء الجنوبية ولكنهما انتشرا أخيراً في جميع سواحل سيلاب وفي أكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون ابناء هذين الشعبين هم من اجراً الناس على البحر ومن اقدرهم على التجارة والماكاسار هم اصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيرة الجنوبية داخلية في ذلك مملكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم اصحاب الجانب الشرقى من شبه الجزيرة . ولما كاسار عداغوفا مملكة تانيت Tanette وارخبيل ساليار Saleyer الجنوبي . وللبوغينيزيين Buginais ممالك بون Bone وفاجو Vadjo ولوفو Louvu وسوبنغ Sopeng وما عدا هذه الممالك فيوجد حكومات صغار تابعة للحكومات التي هي اكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو أمير أو ملكة أو أميرة يتقلد أو تتقلد الملك بالارث ولكل من الملك أو الملكة وزير ثم مجلس مؤلف من اعضاء بيت الملك . وامراء البلاد والأهالى قسماً منهم الاحرار ومنهم الأرقاء . وللاهل عادات ومنازع لايزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فانوارث بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا في المدن . والزواج يجري وفقاً للشرع المحمدى لكن حفلات الافراح وثنية تقريباً . وأما المرأة المتزوجة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الكسب فتراهم ارقى امم تلك الجزر في الأمور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشى وعندهم صناعات

يدوية من النساجة والحدادة و بناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لا يباريهم أحد في حرفة الملاحة وصيد السمك . ومعدل كثافة السكان من هذين الجبلين بالنسبة الى مساحة الأرض هو ٢٧ شخصا في كل كيلو متر مربع كما في غوفا وفي تانت و ٢٠ شخصا في بون . وأما في الاماكن التي تديرها هولاندة رأسا فهو ٥١ شخصا في كل كيلو متر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندي . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع أحكام حقوقية اسمه «رابانغ» بلغة الما كاسار و «لاتوفا» بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز في جميع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربية من بورنيو وفي ارخبيل ريوف Riouy والجزر الصغار من أرخبيل الصوند وفي شرقي جزيرة لونيوك وشمالى سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقد انتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم وصارت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصا في الكيلومتر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندانو كثافتهم فيها بمعدل ٨٣ في الكيلومتر . وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفصلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهي بين ٩٢ ر ٥٢ و ١٠٣ ر ٤٣ من الطول الشرقى و ٥ ر ٣٨ من العرض الشمالى و ٥ ر ٥٨ من العرض الجنوبى وطولها ١٧٦٠ كيلو متراً بعرض يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلو متر ومساحتها ٤٣٠٠٠٠ كيلو متر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر و ٣٤٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهوؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثل جزيرة بورنيو . وفيها زراعة الارز والحبوب وتكثر فيها الحيوانات كالخيل والبقر والجواميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون ألفاً منهم من اجناس هندية كالباناء والآلا والكوبو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقال لهم آتشينيون والماليزيون والآتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالى الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها ما يليه الهولنديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانباغ وآتشين وبادانغ ومدان الخ .

والمسلمون في الجاوى وسومطرة و بورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولندية هم ٣٥ مليوناً وبعضهم يقول ٤٠ مليوناً .

مسلمو الفيليين

الفلبين

وتنهي القول بجزائر الفيليين وهي أرخبيل من الاوقيانوس المالايزى بين ٢١٤ و ٣٠ و من العرض الشمالى و ١١٤ ر ٣٠ و ١٢٤ ر ١٥ من الطول الشرقى بين بحر الصين غربا والاقويانوس الباسيفيكي شرقا وبحر سيلاب وبحر جولو جنوبا. وهذا الارخبيل يحتوى ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون Luçon فى الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر بيسايا Bissayas فى الوسط وجزر كالاميان Calamianes وبالوان Palaouanes فى الغرب وجزيرة مينداناو Mindanaw فى الجنوب . وهذه الجزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الأرز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقر والجاموس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليوناً والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليوناً وفيها نحو ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ومساحتها ١٨٢ ر ٢٩٦ كيلو متر مربع . وعدد سكانها سبعة ملايين منهم المالايزيون الكاثوايكيون ويقال لهم التاغال والمالايزيون المسلمون ويقال لهم المورو والبولينيزيون وهم وثنيون وفيها زنوج وفيها نصف مليون من الصينيين ومثنا الف اوربى . وأعظم حواضرها مانيلا ثم لوبا ثم بانانغ ثم بانانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيليين نسبة الى فيليب الثانى ملك اسبانية الذى فى أيامه جرى اكتشافها ودان أكثر أهلها بالانصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ و بعد ان بقيت هذه الجزر مئات من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فعضدت الجمهورية الاميركية الكبرى حركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يشورون على هذه وأحوالهم لا تزال غير مستقرة .

و يظهر أن الأميركيين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيليين ليتقوا بهم على الكاثوايك فجاء منهم وال سابق للفيليين الى الاستانة منذ ٢٠ سنة والتمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمي الفيليين وينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من

الجهل والغباوة ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ تعنى بأموار المسلمين بقدر امكانها أرسلت المشيخة الاسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه أفندي زيد الكيلاني النابلسي وجعلته أشبه بشيخ اسلام في الفيلبين فذهب الى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف وبدأ بمهمته وعاونه الأميركيون عليها الا أنه مرض مرضاً قضي عليه بالعودة الى الاستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت أن تعتنى بهذا الأمر بعد ذلك فاضطر الى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الاسلام في الفيلبين ويذكر ما هم عليه من التحمس في محبة أبناء ملتهم لو أتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التي كانت تمكنت منه مع تغير الهواء عليه فذهب في شرح شبابه شهيد حقيقته وعلو همته وكان صديقاً جميلاً فسألته رحمه الله عن أحوال المسلمين في تلك الجزائر النائية فأخبرني بأن عددهم هو من مليون الى مليونين وأن السواد الأعظم منهم في جهالة عمياء لا يعرفون من الاسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم الا أفذاذ قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام فعسى أن يقبض الله من المسلمين جمعة تحذو حذو الافرنج في التهذيب والارشاد فترسل الى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه أفندي الكيلاني التي لم تكد تبدأ حتى انتهت . لا نقطع الأمل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الأضالون



والفيلبين هي ارخبيل أو مجموع جزائر في الاوقيانس الكبير تتألف من نحو ألف ومائتي جزيرة صغرى وكبرى . وهذه الجزر هي القسم الشمالي من ماليزيا اكتشفها ما جلالان الملاح البرتغالي ودعيت باسم فيليب الثاني ملك اسبانيا وهي ممتدة على ١٥٠٠ كيلو متر من الشمال الشرقى من بورنيو بين بحر الصين والمحيط الباسيفيكي وتبلغ مساحتها السطحية ٢٩٦٠٠٠ كيلو متر مربع وأهم محاصيلها البن والأبازير « البهارات » وقصب السكر والأرز والتبغ والقنب ومن بحرهما وأنهارها يستخرج عرق اللؤلؤ والدر بكثرة ومناخها شديد ولذلك كان أهلها وعددهم زهاء سبعة ملايين نسمة أشداء أقوياء . وقد اضمحل سكانها الأصليون الا قليلا بما داهمهم من بأس الفاتحين من المساليزيين وأكثر سكانها تمدناً اليوم هم التاغال وعددهم مليون ونصف والفيزيا وعددهم مليونان ونصف والفيكول وعددهم أر بعامة ألف والمورو أى المغاربة وهم المسلمون وعددهم كثير في الجزائر الجنوبية وهم اخلاط من المساليزيين والصينيين والهنديين والعرب والجاحدين من

الأوربيين ويعد في جلة المسلمين قوم من الجوراماتادو يقدمون أرواحهم فدية لله
ويتقربون اليه بقتل الكافرين وهم متعصبون على الجملة على ما وصفهم أكثر من
كتبوا عنهم

ولقد استولت اسبانيا على هذه الجزر زمنياً ولكنها لم تعمرها وغاية ما صرفت
وكدها اليه تنصير السكان ليدنوا بالكنيسة فأصبح المتظاهرون بها والمتحلون لها تسعين
في المئة من السكان ولما لقي التناغال والميتيون مالفوا من سيطرة رجال الدين وسوء الادارة
قاموا يريدون تخفيف ماناظم وأن يعاملوا بالمساواة مع البيض فنشبت ثورة سنة ١٨٩٦ ولم
تنطفئ شعلتها الا بوعد زعيم الثأرين أن تقوم اسبانيا بالاصلاح المنشود ولما لم تقم هذه
الحكومة بوعدها عاد ذلك الزعيم يبدى نواجد الشر في السنة التالية بمعاونة الولايات المتحدة
وبعد ان حاربت الحكومة الاميركية اسبانيا من أجل هذه الجزائر استولت على الفيلبيين
وكوبا وبورتوريكو ونكست اعلام اسبانيا وراح الأميركان يستعمرونها فيحسنون
استعمارها

ولما مد السلام رواقه على هذا الارخبيل وانتهى دور الكتاب والحسام جاء
الدور للكتب والأقلام وأخذت المجامع العلمية تبعث برسلها للبحث والتنقيب لتنظر في
تاريخ الفيلبيين واجتماعها وعمرائها فانشر منذ سنة نحو عشرين مصنفاً في الكلام على
هذه الجزائر ومن جملتها كتاب تاريخ المورو أي مسامو الفيلبيين لوطينينا الفاضل الدكتور
نجيب صليبي

ولقد اطلعنا على مبحث في مجلة العالم الاسلامي الفرنسي اقتطفته من مصادر كثيرة
ومنها كتاب جزائر الفيلبيين الذي ظهر مؤخراً بالانكليزية من قلم جون فورمان فآثرنا
تحصيله للقراء ليقفوا على أحوال أولئك القوم ويعرفوا مبلغ عناية الغربيين بكل فرع من
فروع العلم والاجتماع قالت المجلة الباريزية :

شغل المؤلف جزءاً عظيماً من كتابه بالكلام على المسلمين بعد أن اطال عشرتهم
وخالط زعماء الثورة ورجال الحكومة منهم فجاء من ذلك بيان رائده الانصاف وسداه ولجته
التحقيق وقد أبان في كتابه علاقة مسامو الفيلبيين مع الاسبانيين سابقا ومع الأميركيين
لاحقاً الى أواسط سنة ١٩٠٥

المسلمون اليوم هم عبارة عن ثمانية أو تسعة أعشار جزيرة مينداناو الكبرى وجميع

ارخبيل سولو مع جنوبي بالوان وكانوا منتشرين في الشمال من تلك البلاد على عهد الفتح الأسباني ولما نزلت الحملة الأسبانية الأولى في جزيرة لوسون سنة ١٥٠٧ اختلطت لأول أمرها مع الراجا (حاكم تونديو) وابن أخته الراجا سليمان في مانيلا حاضرة الفلبين اليوم وكان قائد الجيش الأسباني العام اذ ذلك يرى سكان تونديو ومانيلا مسلمين ويطلق عليهم في مكاتباته الرسمية لفظ المورو (اي المغاربة) ولم يكن لأحد من الأسبانيين شك في ذلك لأن المغاربة لم يُطردوا الأخير من اسبانيا الا سنة ١٤٩٢

ولقد اختلفت الاقوال في دخول الاسلام الى تلك الجزر والمرجح أن الجزر الجنوبية مثل ميداناو وسولو انتشر فيها الاسلام لقربها من مساحي شمالي بورنيو فاستولى المسلمون على سلطنة بورنيو عقيب أن خربوا مملكة المجاباهيت من بلاد جاوى سنة ١٤٧٣ ولم يتحارب الأسبانيون مع سلاطين المسلمين الا في سنة ١٥٧٧ وقد تقدم السلطان عبد القهار عدة ملوك مسلمين ومنه بدأ تاريخ الفتن بين المسلمين والاسبانيين . وبالجملة فان الاسلام انتشر في مينداناو وبورنيو بمساعي دعاة من العرب على أنه لم ينتشر حقيقة في جنوبي الفلبين إبان الفتح الأسباني ولم تنتحل سولو الاسلام الا بعد أن جاءها دايكس من بورنيو وتزوج أحد زعمائهم المدعو اندازولان - وكان استولى أولاً على جزيرة بازيلان ثم على سولو - من ابنة زعيم من أعيان المسلمين في مينداناو واتحل الاسلام وأسس سلطنة سولو ثم قويت شوكته باتحاده مع بورنيو ومينداناو

وعادت الاحقاد القديمة فتجددت بين الاسبانيين والمسلمين وحمل الاسبانيون على هؤلاء مدفوعين بعامل السخط الشديد وفي سنة ١٥٧٦ تارلا كاندولا والراجا سليمان في جزيرة لوسون ولكن قوة الاسبانيين اذ ذلك حالت دون انتشار الكلمة الاسلامية وان بقيت اليوم بقية من ذرية لا كاندولا في بعض القرى فقد انحط مقامهم وأصبحوا نكرة لا تعرف حتى ان أحدهم كان خادما في مطعم فرنسوى في مانيلا سنة ١٨٨٥

وقد بعثت اسبانيا سنة ١٥٩٦ حملة على مينداناو فقتل قائدها عند نزوله الى البر وأغار الى سولو بنفسه سنة ١٦٣٨ فاحتل بعض المراكز في شاطيء ميداناو حيث لقب الراجا سيبوجي سنة ١٦٤٠ بلقب السلطنة . ولم تكن هذه السلطنة وذاك الاحتلال الاسمياً لاحقيقة لها اذ بقيت الفتن قائمة قاعداً بين المسلمين الأصليين والمسيحيين الفاتحين ولا سيما في القرصنة . فدامت الغزوات البحرية بين الفريقين بلا انقطاع مدة ثلاثة قرون

فريق يعتقد أنه يجاهد جهاداً مقدساً وهم المسامون وفريق يدعى أنه يحارب باسم الصليب وهم المستعمرون الاسبانيون

وفي أواسط القرن الثامن عشر حدثت بين المسلمين والاسبانيين فترة غريبة ذلك بأن المفاوضات بينهم انتهت بأن يكتب ملك اسبانيا سلطان سولو الذي قاوم أحد اخوته مكانه فجاء مانيلا يطلب مساعدة حاكمها . ورأى السلطان محمد غليم الدين أن يتنصر فتعمد ولحقت به أسرته وبدأت تتعلم في مانيلا التعليم الاسباني المسيحي وبعد سنتين رُخص له بأن يذهب من مانيلا الى سولو وزامبوانكا في موكب له فاضطر أولاً أن يكتب الى السلطان محمد أمير الدين في ميندانا وينصح له بلسان شديد اللهجة أن ينضم الى الاسبانيين . وبعد سفره بقليل تبين للحاكم الاسباني أن العبارة العربية كانت مخالفة للعبارة الاسبانية التي كتبها بنفسه ووقع عليها ولذلك أمر بسجنه في زامبوانكا ثم أعيد الى مانيلا ولم يسع والى الاسباني الا أن يعود الى تنصير ذلك الحاكم المسلم ولو صورة

ولما احتل الانكليز مانيلا سنة ١٧٦٣ وجدوا السلطان مسجوناً فأطلقوا سراحه فراح الى سولو وأقام على استئصال شأفة الاسبانيين في ميندانا وأصاب الانكليز أيضاً شياً من شره وان أحسنوا معاملته . وقد بعث الانكليز الى سولو بمئة وخمسين رجلاً لتوطيد قدمهم فيها فدعاهم أحد زعماء المسلمين الى مأدبة وذبح منهم ١٤٤

وبعد أن انجحت انكلترا عن قاعدة تلك البلاد عدل الاسبانيون من معاملتهم للمسلمين فاعترفوا سنة ١٨٣٦ باستقلال سلطانهم هناك حتى اذا كان عام ١٨٨٤ سيروا عليه حملة واستولوا على حاضرة بلاده فراح السلطان وخاصة رجاله يحتفظون بألغابهم فأدرت حكومة اسبانيا عليهم رواتب ومشاهرات الا أن المسلمين لم يبرحوا يلجأون الى الغارة والنهب في السواحل حتى قيل ان غارات المسلمين قويت شوكتها سنة ١٨٧٦ فلم يعد حكم اسبانيا في سولو الا اسماً

وهكذا جرت حوادث بين الحكام الاسبانيين والسلاطين المسلمين يخضع هؤلاء تارة ويتنقضون أخرى مثل سلاطين باكات وبوهاين وكودارنكان المتحالفين مع داتاووتو ولما ضاقت اسبانيا ذرعاً ببعض القبائل المسلمة واتقاضها الحين بعد الآخر عزمت غداة ثورة سنة ١٨٩٦ أن تطرد المسلمين من عقردارهم وتسكن فيها جماعة من المسيحيين الوطنيين ثم خضع بعض اولئك الأمراء للاسبانيين خضوع حب لان منهم من كان يقدر

المدنية الغربية قدرها ولذلك ظلوا على موالة الأمبركانيين أيضاً بعد ان استولوا على هذه الجزائر .

وبؤخذ مما كتبه فورمان أن الاحقاد القديمة بين الاسبانيين والمسلمين دامت على أشدها مدة ثلاثة قرون وظل المسلمون هناك يذكرون ما وقع لآخوانهم مسلمي اسبانيا . وبما كانت تجرى الشروط عليه بين والى مانيللا الاسباني وحاكم سولو المسلم أن لا تمس شعائر المسلمين . وعلى ما حاولته اسبانيا من تنصير المسلمين فقد خرجت من الجزائر كيوم دخلتها ولم تفلح فيما قصدت اليه . ولا شك أن جمهورية الفيليبين تحسن معاملة المسلمين كالاسبانيين وكذلك المسلمون لم يكونوا أقل عداء لسكان البلاد المسيحيين من معاداتهم للبيض .

ولما استولى الاميركيون على الجزائر لم يمساو المعتقدات الاسلامية ولا عملوا على نقض شرع أهل الاسلام وان كانوا ينكرون عليهم ترتيباتهم في حكومتهم وهي حكومة أعيان « ارسطوقراطية » وقد انتقد أحدهم على حكومة الولايات المتحدة أن وطدت نفسها على انتظار ادخال تعديل في حال المسلمين هناك وتعليلها الأمل بأن نشر التعليم العام بينهم سيؤدي بعداً الى نتيجة حسنة . على ان الاميركان كانوا يوجسون خيفة من نظام الاقطاعات الشائع بين المسلمين هناك . وقد نادى حكومة أميركان بأن يظل أهل ولاية المسلمين يحكمون انفسهم بانفسهم ولم تتداخل الا بعض الشئ في حكومتهم وادارة بلادهم وتمتاز حكومة أميركان عن اسبانيا بان طريقتها في حكم تلك الجزيرة والمسلمين من أهلها خاصة هو بتدريب الاهلين على المبادئ الديمقراطية اما اسبانيا فقد أرادت أن تحمل على الاسلام نفسه لتخلص من المسلمين . ولو اقترب بعض الزعماء المسلمين من الاميركان سياسياً مع احتفاظهم بأخلاقهم من الوجهة الاجتماعية لما طال على البلاد عهد السلام

وقد عنيت الحكومة الاميركية بتنظيم شؤون المسلمين وتأسيس بلديات لهم في الجزر تقيم مع المجالس الوطنية وتعمل بالعادات الوطنية ما امكن وهي العادات التي لاتناني عادات الشعوب المتعدنة ولا اخلاقها وقد بلغ عدد جيش الاحتلال الاميركي النازل في جزيرة سولو وحدها ٤٨٣٩ رجلاً و ٢٩٤٥ ضابطاً على ان الحمار بين من أهلها لا يتجاوزون العشرين الف رجل . وفي تلك الولاية ٤١ مدرسة فيها ٢١١٤ تلميذاً و ١٥ معلماً اميركياً و ٥٠ معلماً مسيحياً وطنياً و ٩ معلمين مسلمين والمدارس غاصة بالتلاميذ والمتعلمين حتى ان ٢٤٠ طفلاً من المسلمين حرموا من الدرس الآن فباتوا ينتظرون لان المدارس ملئت بالتلاميذ والطلاب من المسلمين

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية

محاضرة السيد اسماعيل العطاس

قد أهدانا نسخة من هذه المحاضرة الادبية حضرة الفاضل السيد اسماعيل العطاس من السادة الحضارم المقيمين بجاوى وكان القاها في نادي الشبان المسامين بالقاهرة في ٦ يناير سنة ١٩٢٩ فاحببنا ضمها الى هذا الكتاب لأنها من افضل الخلاصات عن بلاد الجاوى وهذا نصها : —

قبل العهد التاريخى

ان اكتشاف بعض الأدوات الحديدية في الزمن الأخير في جاوى وبحت علماء الآثار فيها دلا على أن هذه الفؤوس ورؤوس الرماح هي من أدوات العهد الحديدي السابق للتاريخ خلاف ذلك اكتشف بعض أجزاء من هيكل المخلوق المسمى Pithecanthropus Erectus وهو من نوع الانسان القردي Human Monkey أو الانسان الفوسيلي Fossil-man الذى يظن بعض العلماء انه من الحلقة المفقودة The missing link هذه البقايا من العظام هي من العهد الفليوسيني phiocine period وانه من المحتمل أن هؤلاء الاناس الفوسيليين هم أصل السكان القدماء في تلك البلاد و يظن بعض العلماء الدارسين في تاريخ جاوى أن من هؤلاء القوم توالد الشعب الذى سكن جزيرة جاوى قديما والمعروف باسم كالافرنج Kalang والمسعى عند غزاة الهند بالرشاكا Rashaka وكانوا يتعيشون من صيد السمك والحيوانات ولا يعرفون الزراعة ولا تربية المواشى وينتقلون من مكان الى مكان ويعيشون في جماعات قليلة بين العشرة والأربعين وكانوا على أ كثر الاحتمال من عباد الشمس مثل الشعوب الأقدمين في بابلونيا

العهد الهندو

لم يذكر في كتب الهندو المعروفة بالفيديا Veda's شىء عن أول قدوم الهندو الى جاوى أما الكتب الجاوية المسماة بالباباد Babad's فقد ذكرت أن — الهندو «أنى كا كا» aji Caka

زار جاوى فى حاشية عظيمة ويقال انه كان أميراً هندياً أو وزيراً أول لأمير هندو وزيارته هذه تعد أول مبدأ عهد الهندو وأول سنتهم يوافق سنة ٧٥ أو سنة ٧٨ ميلادية وهو أول من أسس أول دولة هندية فى جاوى واليه ينسب ادخال أول حكومة منظمة وانشاء أول دولة هندوية فى جاوى الوسطى المسماة ماتارام Mataram ولا يعرف من تاريخ العهد الهندو الا القليل ولكن آثارهم ومعابدهم القديمة تدل على أنه وجدت دول هندوية قوية فى جاوى أشهرها ثلاث

١ — دولة Mataram (ماتارام) المذكورة فى جاوى الوسطى

٢ — Padjadjaran (باجاجاران) فى غرب جاوى

٣ — Madjapahit (ماجابهيت) فى شرق جاوى

وكانوا يستعملون اللغة السنسكريتية كاللغة الرسمية والى الآن نجد هنالك كثيراً من

كلمات الملايو المستعملة من أصل سنسكريتى

وقد بلغت دولة المتارام Mataram الذروة القصوى فى القرن التاسع الميلادى ومنها تخرج العمال الماهرين والبنائون الذين بهروا العالم ببناء المعابد الفخمة مثل بورو بودور Boro-Budur ومندوت Mendoet وشندى سيو Tjandi Sewoe والتي تعد الى الآن من عجائب الدنيا وفيها برع العمال فى الصناعة القصديرية وفى طريقة رى الحقول الأرزية التي لم تزال مستعملة الى الآن

وفى عهد دولة باجاجاران Padjadjaran أسلم أول أمير هندو واسمه حاجى بورا

Hadji Paera وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى

وفى عهد مملكة ماجافاهيت Madjapahit نشر مولانا ابراهيم الديانة الاسلامية فى

قرية ليران Leran القريبة من بلدة جريس Gresik وبعده أتى مبشرون اسلاميون

آخرون فأسلم على أيديهم بعض الامراء من دولة ماجاباهيت Madajapahit وفى

النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى وجد ثمانية أمراء مسلمون من الأهالى بألقاب

ال « سوسوهونان » Susuhunan (سلطان). وقد دارت رحى الحرب بين دولة

ماجافاهيت Madjapahit وبين الثمانية الأمراء المسلمين تحت رئاسة رادين فلتاه (الذى كان

أميراً من دولة ماجافاهيت Madjapahit واعتنق الاسلام) وبعد حرب دارت أربع

سنوات انكسرت جيوش المسلمين ولكنهم لموا شعنتهم مرة أخرى وأخذوا نارهم فى موقعة

دارت خسة أيام فيها انكسرت جيوش دولة ماجافاهيت Madjapahti شر كسرة ولم تقم لهم بعدها قائمة فكانت الضربة القاضية وذلك في سنة ١٤٧٥ ميلادية وبسقوط دولة الماجافاهيت الهندوية (البوذية) تدهورت الديانة البوذية رويداً رويداً وهكذا انتشر الاسلام بدخول الأهالي والأمراء فيه جماعات ووحيداً

العهد الاسلامي

ان تاريخ الجزائر الهندية الشرقية في مدة الستائة سنة الأخيرة هو من أحسن الفصول في تاريخ انتشار الاسلام بالدعوة والارشاد اجتهد أنفار قليون في نشر الاسلام والتوحيد والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون مساعدة في ابتداء الأمر من أمراء البلاد وفي بعض الأحيان امام عداوة مسلحة وهم لا سلاح لهم الا القلوب المطمئنة بالايمن والاخلاص والمجادلة بالنبي هي أحسن

أما تاريخ دخول الاسلام في الجزائر الهندية الشرقية فغير معروف بالنهات ومن المحتمل أن الاسلام دخل بدخول تجار العرب الى هذه البلاد في أوائل القرون الهجرية . وهذه النظرية تتقوى بما هو معروف من أن العرب كانوا حاملين لواء التجارة بالشرق في الزمن القديم . ففي ابتداء القرن السابع الميلادي زادت التجارة مع الصين على طريق سيلان Ceylon حتى انه وجد تجار عديدون من العرب في Canton كنتون بالصين في منتصف القرن الثامن الميلادي . وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الى حضور البرتغال Portugese لم يكن للعرب منازع في الراسة - التجارية الشرقية . لذلك يتقوى الاحتمال أن العرب قد ذهبوا بتجارهم الى بعض الجزائر الهندية الشرقية في ابتداء القرون الاولى من الهجرة كما فعلوا في أما كن أقرب وأخرى أبعد منها بينما بعض هذه الجزائر مثل سومطرا Sumatra واقعة بينهما .

انه وان لم يذ كر جغرافيو العرب هذه الجزائر في كتبهم - قبل القرن التاسع الميلادي الا انه في كتب التقويم الصينية مذكور أن في سنة ٦٧٤ ميلادية كانت جالية عربية في الشاطي* الغربي - من سومطرا

ويستنتج بعض العلماء من اتخاذ الاهالي الشافعية منجبا لهم ومن انتشار المذهب الشافعي في شواطئ الكوروماندل Coromandel وشواطئ الملابار Malabar الآن كما كان سابقاً في منتصف القرن الرابع عشر - حين زيارة ابن بطوطة لهذه الجهات أن الاسلام دخل الى هذه الجزائر الهندية الشرقية من جنوب الهند ومن شواطئ الملابار وذلك لأن مذهب البلاد الاخرى المجاورة حنفي ولان موانى الملابار يؤمها التجار قديماً من جاوى ومن الصين ومن اليمن ومن بلاد فارس ومن بلاد الهند أو من فارس دخلت الشيعة الموجود بعض بقاياها الآن في جاوى وسومترا

ومن ابن بطوطة نعلم أن سلطان سومطرا Sumatra المسلم قد حسن العلاقات مع ملك دهلي Delhi وان من العلماء الدينيين المقربين الى السلطان السومطري اثنين من بلاد فارس أحدهما من شيراز والآخر من أصفهان وقبل ذلك بمدة كان قد كثرت تجار الدكان Daccan الذين احتكروا التجارة بين الممالك الاسلامية الهندية وبين الجزائر الهندية الشرقية - في موانى هذه الجزائر وفيها زرعوا حبوب هذه الديانة الاسلامية السمحاء

فالى هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند يرجع الفضل في تأسيس أول الجاليات الاسلامية من الأهالي وفي تحويلهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الرحمن فهم لم يدخلوا محار بين ولم يعلقوا السيوف فوق الرقاب لا كراه الناس في الدين بل استخدموا اللطف والفكر والمعرفة في سبيل نشر الدين الاسلامي أكثر من استخدامهم اياها لطلب السعة في الرزق والغنى في المال

اذا كان دخول العرب الى هذه الجزائر غير معروف بالتمام فانه معروف أنهم دخلوها قبل البرتغاليين فقد قال ماركو فولو Marco Polo الذي صرف خمسة أشهر في الشاطئ الشمالي من سومطرا سنة ١٢٩٢ م ان كل السكان كانوا مجوساً وعباد أصنام عدا سكان البلدان في مملكة بارلك Pariak الصغيرة الموجودة في الشمال الشرقي من سومطرا لأنهم اعتنقوا الاسلام بواسطة تجار العرب

ولما دخل ابن بطوطة سومطرا سنة ١٣٤٥ وجد هنالك ملكا مسلما اسمه الملك الزاهر وتمتد سلطنته على الشاطىء مسافة ايام سفراً وقد كان محبا للباحثة مع علماء الدين وكان فى حاشيته شعراء وعلماء

وقد تحصل العرب عموماً على احترام عظيم من الاهالى ونفوذ كبير فيهم سيما السادة والأشراف سلالة الحسن والحسين سبطى المصطفى عليه السلام فقد تباهى أمراء الأهالى وملوكهم المسلمون بالنقرب اليهم بمصاهرتهم وبتزويج بناتهم منهم ويتفاخرون اذا ولدن منهم سادة وأشرافاً . وقد صار البعض منهم سلاطين ولم يزل منهم أحياء يرزقون مثل سلطان وأمراء فونتياناك Pontianak من جزيرة بورنيو Borneo

منذ القرن السابع عشر كان أكثر مهاجرى العرب الى هذه الجزائر حضارم وكانوا يتعيشون من التجارة وبعده أضافوا حرفة أخرى هى الملاحة فكانت مراكبهم الشراعية تمخر البحار كالأعلام وكان قبطانهم ونائب القبطان والادارى من العرب أما التجار فكانوا من الاهالى ومما لا نزاع فيه ان هذه المراكب كانت سببا فى ازدياد عدد المهاجرين الحضرميين الى هذه البلاد وفى زيادة ثروتهم . وقد بلغوا ذروة المجد فى الملاحة بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٥٥ حين احتكرت مراكب الحضارم ملاحه الموانى ومنذ ذلك الحين ابتدأت مراكبهم الشراعية فى الانحطاط بسبب منافسة المراكب البخارية الاوروبية والآن لم يبق عندهم من المراكب شىء

عدد العرب

كان عدد العرب قبل ادخال الاحصاء غير معروف أما بعد الاحصاء فكان عددهم

كما يأتى : —

سنة	فى جاوى (ومدورا)	فى خلافتها	المجموع
١٨٥٩	٤٩٩٢	—	—
١٨٧٠	٧٤٩٥	—	—
١٨٨٥	١٠٨٨٨	—	—
١٩٠٥	١٩١٤٨	١٠٤٤٥	٢٩٥٠٠
١٩٢٠	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

عدد المسلمين الآن

في الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فقط خمسون مليون مسلم وكثيرون من الالهالي الذين يعرفون الكتابة يتكلمون بلغة الملايو بحروف عربية وفي لغة الملايو نفسها ما يزيد على ٢٥٪ من كلماتها مأخوذة من العربية

دخول الاوروبيين

للحصول على البهارات والذهب والاحجار الكريمة وخلافها رأسا من منابعها الشرقية بحث البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر عن الاراضي والبلاد التي تخرج منها هذه الأشياء الثمينة وفي سنة ١٤٩٦ سافر فسكوداجاما Vasco da Gama ووصل الى مكان كالكوتا Calcutta الحالية على طريق رأس الرجاء الصالح . ونجاحهم هذا وما يليه شجعهم على زيادة البحث والاسفار ففي سنة ١٥١١ وصل البرتغالي اتونيو دي ابرو Antonio de Abreu الى جاوى وامبون وبندا Java, Amboun & Banda وفي سنة ١٥٢٢ ارسل البرتغالي de Lerne الى Bantan (من جزيرة جاوى) التي كانت لم تزل حينذاك هندوية بوذية . وحيث ان حاكم Bantan البوذي كان محاربا لأمير شريون المسلم Cheribon استجار الامير البوذي لما أحس بضعفه بالبرتغاليين ووعدهم بمكان لبناء معمل Factory وبحرية التجارة وبهدية سنوية قدرها الفكييس من الفلفل مقابل قلعة يبنها البرتغاليون للدفاع عن الميناء ومساعدتهم اياه في حربه ضد أمير شريون المسلم . وبالرغم من اتفاقهم على ذلك فقد سافر البرتغاليون واعدين بالرجوع بقوة أكثر . ولكنهم لما رجعوا وجدوا أن سلطان شريون Cheribon قد اتصر واستولى على Bantan باتتان

وهذه البعثة كانت سببا في تاسيس التجارة بين البرتغال والجزائر الهندية الشرقية التي احتكروها لأنفسهم فيما بعد وقد بلغت تجارتهم اقصاها بين سنة ١٥٩٠ وسنة ١٦١٠ وبلغ عدد مراكبهم ١٥٠ الى ٢٥٠ في الارسالية الواحدة . وفي أواخر القرن السادس عشر كانت Lissabon لشبونة أغنى ميناء في اوروبا . وبنينا كانت لشبونة مركز التجارة كانت الموانى الهولندية اما كن التوزيع لشمال اوروبا وفي سنة ١٥٧٧ مر «دريك» Drake الانجليزى في طوافه حول الأرض بجزائر الملوك Bantan & Moluccas

وفي سنة ١٥٩٤ منع البرتغاليون دخول المراكب الهولندية ميناء لشبونه فسد باب التجارة امام الهولنديين الذين كانوا وسطاء بين البرتغال وشمال اوروبا . لذلك اجتهد الهولنديون في الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة الطريق التجاري الذي يوصل الى الجزائر الهندية الشرقية . وقد تمكنوا من ذلك بواسطة Cornelis Houtman هوتمان الهولندي الذي سكن البرتغال وعرف السر . وقد أسس تجار امستردام شركة للتجارة مع الهند الشرقية وسافرت اربعة مراكب هولندية ، وموريس Maurits ، Holandia محمول الواحد ٤٠٠ طن وامستردام Amsterdam ٢٠٠ طن و Duyfje ٥٠ طن تحت قيادة هوتمان المذكور في ٣ ابريل سنة ١٥٩٥ ووصلوا باتم Bantam بجاوى في ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦ ثم أرسل الهولنديون سنة ١٥٩٨ ارسالية أخرى تحت قيادة فان نك Jan Cornelis van Neck . واخرى بعدها . ولما رأى البرتغاليون نجاح الهولنديين أرسلوا ٣٠ مركباً حربياً لمحاربة المراكب الهولندية الذاهبة الى الشرق الأقصى ولكن الهولنديين كسروا البرتغاليين وبذلك ماتت تجارتهم وأخيراً أخرجهم الهولنديون من الجزائر الهندية الشرقية وفي سنة ١٦١٧ عين جان بيترس كون Jan Pietersz Coen حاكماً عاما هولنديا وفي ١٢ مارس سنة ١٦١٩ سميت القلعة بتافيا وفي ٣٠ مارس سنة ١٦١٩ تكونت البلدة بتافيا التي لم تزل الى الآن عاصمة للجزائر الهندية الهولندية

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية في الوقت الحاضر

الموقع الجغرافي والسكان

تمتد الجزائر الهندية الشرقية الهولندية من آسيا الى استراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً وبين الدرجة ٦ شمالاً من خط الاستواء و ١١ جنوباً منه وأطول خط من الغرب الى الشرق خمسة آلاف كيلو متر حيث تخترق فيها السفينة البخارية في ١٤ يوماً في وقتنا هذا ومسافة الخمسة آلاف كيلو متر هذه تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربي لأرلندا في الاطلانطيق وبين الشاطئ* الشرقى للبحر الاسود في آسيا وأبعد مسافة من الشمال الى الجنوب ٢٠٠٠ كيلو متر وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالي وروما

ليمكننا أن تصور مساحة بعض هذه الجزائر يجب أن نعرف الحقائق من المقارنة الآتية:
جاوى و (مدورا) مساحتها ١٣١٥٠٨ كيلو مترات أو ٥٠٧٦٢ ميلا مربعا وتعادل
مساحة انجلترا بدون اسكتلندا وويلز وارلندا
سومطرا ٤٢٠٠٠٠ كيلو متر أو ١٦٢٠٠٠ ميل مربع أى أكبر من مساحة بريطانيا
العظمى .

بورنيو الهولندية فقط ٥٥٣٠٠٠ كيلو متر أو ٢١٣٠٠٠ ميل مربع تعادل فرنسا
سيليبس ١٨٥٠٠٠ كيلو متر أو ٧١٠٠٠ ميل مربع أكبر من ولاية واشنطن
وتعادل مساحة نيوزيلند وسيلان معاً
نيوجينيا الهولندية فقط ٣٩٧٠٠٠ كيلو متر أو ١٥٣٠٠٠ ميل مربع مثل اليابان
(دون ملحقاتها)

ومجموع مساحة الجزائر المذكورة وغيرها من الجزائر الهندية الشرقية الهولندية
مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو ٧٣٣٠٠٠ ميل مربع ويعادل مجموع مساحة
الدول الآتية — بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا
والدينمارك والسويد أو نصف مساحة أوروبا تقريباً بدون روسيا

ومجموع طول شواطئ هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض circumference of earth

عدد السكان حسب احصاء سنة ١٩٢٠

جاوى (ومدورا) ٣٦٦٤٠٠٠٠٠٠

سومطرا ٦٥٢١٨٦٠٠٠

بورنيو الهولندية ١٥٧٥٧٦٠٠٠

سيليبس ٣٦٣١٤٦٠٠٠

الباقى ٣٦٣١٩٦٠٠٠

فالمجموع هو ٥١٠٠٠٠٠٠٠

الطقس

تبلغ درجة الحرارة على الشواطئ في النهار عادة ٥ ر ٢٦ سنتجراد (يساوى ٨٠

فهرنهايت) وبالليل ٢١ س (٧٠ ف) ويختلف الجو اختلافا عظيما بسبب الجبال الكثيرة العالية المكسوة بالخضرة وبسبب الاودية فكلا زاد العلو قلت الحرارة وزادت البرودة عادة بنسبة نصف درجة س في كل ٣٠٠ قدم أو درجة واحدة ف كل ٣٣٠ قدما. فبينما نشعر بالحر على الشواطئ نحس باعتدال الربيع في الاماكن المتوسطة العلو وبالشتاء في الاماكن الجبلية العالية وتارة لا فارق بين الصيف والربيع والشتاء الا ساعات قليلة

الحكومة

ان الجزائر الهندية الشرقية الهولندية تكوّن جزءاً من المملكة الهولندية سياسيا والقوانين الهولندية هي أعلى القوانين ولكنها عادة لا تتدخل الا في القوانين التي تؤثر في الأحوال الاقتصادية وخلاف ذلك فان الجزائر الهندية الشرقية مستقلة استقلالاً اداريا في التشريع والنفوذ الأعلى للملكة التي تحكم بموجب قوانين الحكومة. وناظر المستعمرات ينوب عن الملكة فهو الذي يشرف على الحكومة الهندية الشرقية الهولندية ويحكم الحاكم العام كذلك باسم الملكة ويساعده في التشريع والادارة مجلس الهند Road van India Council of Netherlands India ويمكن كذلك أن يستشير رؤساء الادارات وهي ادارة العدلية والمالية والداخلية والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية والأشغال الحكومية Gouvernemen bedryven Industries والحربية والبحرية ثم السكرتارية العمومية

ومنذ سنة ١٩١٨ أنشئ مجلس الأمة Volksraad ونصف أعضائه منتخبون والنصف يعينه الحاكم العام وهذا المجلس استشاري ويمكن للحاكم العام أن يستشير في كل الامور ولكنه مضطر الى استشارته في الميزانية Budget وسلف المستعمرة

الزراعة

لا توجد أرض في البلاد الحارة تزرع فيها مختلف المزروعات مثل الجزائر الهندية الشرقية الهولندية ولا سيما جاوى والزراعة هي أهم أسباب التقدم الاقتصادي فيها وأكثر الاراضي في جاوى مرتفعة الى علو ١٥٠٠ متر أو ما يزيد على ٤٥٠٠ قدم مزروعة ففي هذه الاماكن العالية يزرع الدخان والشاي والقهوة . وفي الأماكن

المتوسطة والتلوية يزرع الأرز والذرة والبقول والتمباك والدخان والبطاطس والكاوتشوك
بينما في الأراضي الواطية يزرع قصب السكر والجوز الهندي والكافور Kapok ويمكن تقسيم
الزراعة الى قسمين :—

(١) الزراعة التي في أيدي الاور وبيين

(٢) الزراعة التي في أيدي الاهالي

والاولى للصادرات والثانية أ كثرها للاستعمال في البلاد وكذلك للصادرات وأهم
زراعة الاهالي الارز ثم ال Cassava البطاطس والجدول الآتي يبين مساحة الارض المزروعة
باليكتار والهيكتار يساوي ٤٧١ و٢ فدان انجليزي وحاصلها بالطن ton الميتر يكي

الارز المائي	٢٥٩١٠٦٠٠٠	هيكتار حاصلها	٦٦٠٥٧٦٠٠٠	طن ton
الارز غير المائي	٣٨٥٦٠٠٠	»	٤٣٥٦٠٠	»
الذرة	١٥٥٩٨٦٠٠٠	»	١٦٥٦٤٦٢٠٠	»
البطاطس	١٤٨٦٠٠٠	»	١٧٠٦٥٠٠	»

اما أراضي الزراعة التابعة للاور وبيين فتبلغ مساحتها ٢٦١٠٩٧٥ هكتار منها
٩٠٧٦٥٦ هكتارا مزروعة ومن الأخيرة هذه ٢٢٦ ر ٥٧٥ هكتاراً في جاوى أى ٦٣ ٪
ومن الجدول الآتي نعرف أهميتها

قصب السكر يزرع شرقي جاوى وبموجب احصاء ١٩٢٥ كانت في تلك السنة ١٧٩
فابريقه اخرجت ٢٥٣٠٠٠٠٠ مترك تن Metric ton سكر من ٢٦٧ ر ١٧٦ هكتار أرض
مزروعة بالقصب وكان متوسط محصول الهكتار الواحد ١٢٧٨٠ كيلوجرام المطاط أو الكاوتشوك
أو Rubber في اوائل سنة ١٩٢٦ بلغ عدد العزب Estates ٨٧٥ منها ٤٨٤ في جاوى ومجموع
المساحة المزروعة ٥٠٤٨٠٧ هكتاراً منها ٤١٤٩٤٨ هكتاراً مزروعة بال Hevea ومن المساحة
الأخيرة ١٨٠٤٧٨ هكتاراً في جاوى

القهوة

بلغ مجموع العزب estates في سنة ١٩٢٦ — ٣٦٠ منها ٢٧٠ في جاوى ومجموع المساحة
١١٦٥٣٠ هكتاراً منها ٩٥٢٨٦٠ هكتاراً ذات محصول من ذلك ٩٥٣٥٧ هكتاراً في جاوى
منها ٨٠٧٤٦ هكتاراً ذات محصول والمحصول في سنة ١٩٢٥ — ٦١١٥٣ طناً منها ٥٧٦٩٣ أو
٩٤ ٪ من النوع المسمى روبستا Robusta Coffee

الشاي

أكثر الشاي مزروع في غرب جاوى من ٢٨٥ estates ٢٦٠ في جاوى و ٢٥ في سومطرا وبمجموع المساحة المزروعة في سنة ١٩٢٦ هي ٩٧٦٣١ هكتاراً

التمباك

المساحة المزروعة في سنة ١٩٢٦ - ٤٥٦١١٥ هكتاراً منها ١٨٦٦٨٨ في سومطرا والباقي في جاوى cinchona ٩٠ ٪. من محصول الدنيا تخرج من جاوى وبمجموع مساحة الأرض المزروعة ١٩٦١٥٧ هكتار

بعض صادرات المحصولات الزراعية سنة ١٩٢٥ وأثمانها

٥٦٦ مليون روبية	١٩٠٦٠٠٠ طن ثمنه	الكاوتشوك
» ٣٦٧	» » ٢٦٠٠٠٦٠٠٠	السكر
» ١١٠	» » ٩٢٦٠٠٠	تمباك
» ١٠٢	» » ٣٥٠٦٠٠٠	الزنجيل الناشف
» ٦٨	» » ٦٩٦٣٥	القهوة
» ٧٤	» » ٥٠٦٠٠٠	الشاي
» ١٩	» » ٢٦٦٥٠٠	الفلفل

أما مجموع أثمان الصادرات كلها فهو :

١٦٧٨٤٦٧٩٨٦٠٠٠ روبية أى ما يزيد على ١٤٨٦٠٠٠٦٠٠٠ جنيه انكليزى

المواصلات

نصف السفن التجارية التى تأتى وتخرج من هذه الجزائر هولندية وتليها السفن البريطانية واليابانية ثم الأمريكية أما السكك الحديدية فتوجد في جاوى ٥٣٩٤ كيلو مترا وفي سومطرا ١٦٧٣ وأكثر هذه السكك الحديدية تابعة للحكومة وبمجموع ايراد السكك الحديدية في سنة ١٩٢٥ - ١١٩٦٩٢٢٦٠٠٠ روبية منها ٦٤٦٥٢٥٦٠٠٠ روبية للحكومة

نسبة بعض الحاصلات الى حاصلات العالم

تنباك	٩٠٪	من حاصل الدنيا	القصدير	٢٢٪	من حاصل الدنيا
كافور	٨٤٪	»	الشاي	١١٪	»
الفلفل	٨٠٪	»	السكر	٩٪	»
الكاوتشوك	٤٦٪	»	البن	٧٪	»

واذا نسبنا مجموع الصادرات الذي هو ١٥٧٨٤٦٧٩٨٦٠٠٠ الى مائة فتكون نسبة اثمان الصادرات هكذا :

الكاوتشوك ٣٢٨٦٪ والسكر ٢٠٧٠٪ وزيت البترول ٩٦٩٪ والتمباك ٦١٩٪ والزجيل الناشف ٥٧٤٪ والقصدير ٤٣٦٪ والشاي ٤١٧٪ والقهوة ٣٨٢٪ والفلفل ١٣٥٪ والكافور ١٢١٪ فيكون المجموع هو ٨٧٪ وباقي الصادرات ٩٠٤٪ فالمجموع ١٠٠٪ يساوي ١٥٧٨٤٦٧٩٨٦٠٠٠ روية

ونسبة توزيع الصادرات هكذا :

سنغافور	٢٦٦٨٪	هولندا	١٥٤٦٪
الولايات المتحدة	١٤٠٩٪	الهند الانجليزية	٨٠٤٪
بريطانيا العظمى	٦٨٤٪	هونج كونج والصين	٥٦٦٪
اليابان كور ياومور موزا	٥٥٠٪	فرنسا	٣١٢٪
ألمانيا	٢١٢٪	استراليا	١٩٤٪
باقي الدنيا	١٠٥٤٪		

الصادرات	الواردات	زيادة الصادرات	مليون روية
١٢٠٠	٨٠٠	٤٠٠	في سنة ١٩٢٢
١٤٠٠	٧٠٠	٧٠٠	في سنة ١٩٢٣
١٥٠٠	٧٥٠	٧٥٠	في سنة ١٩٢٤
١٧٨٤	٨٨٠	٩٠٠	في سنة ١٩٢٥

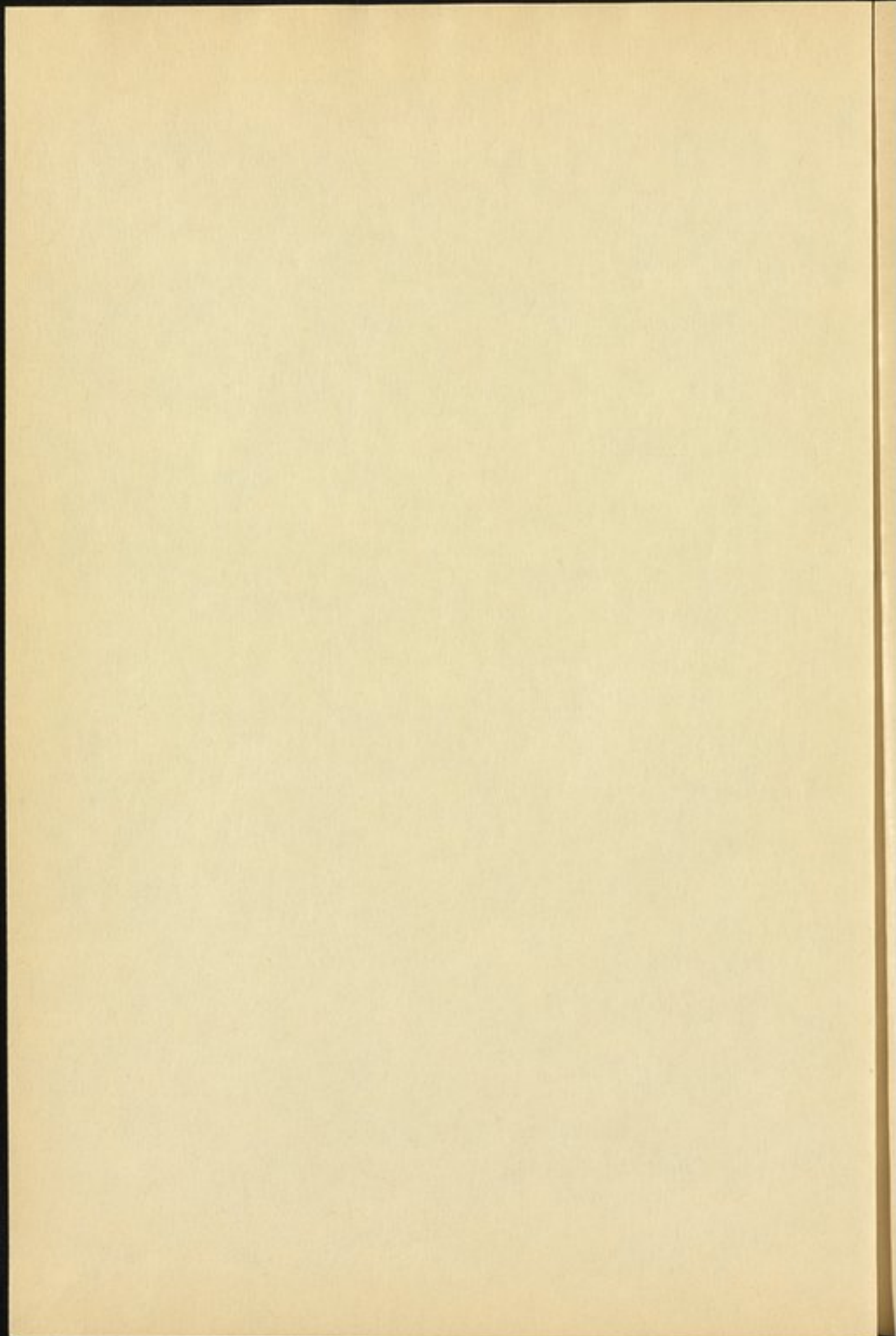
مكتبة ومطبعة

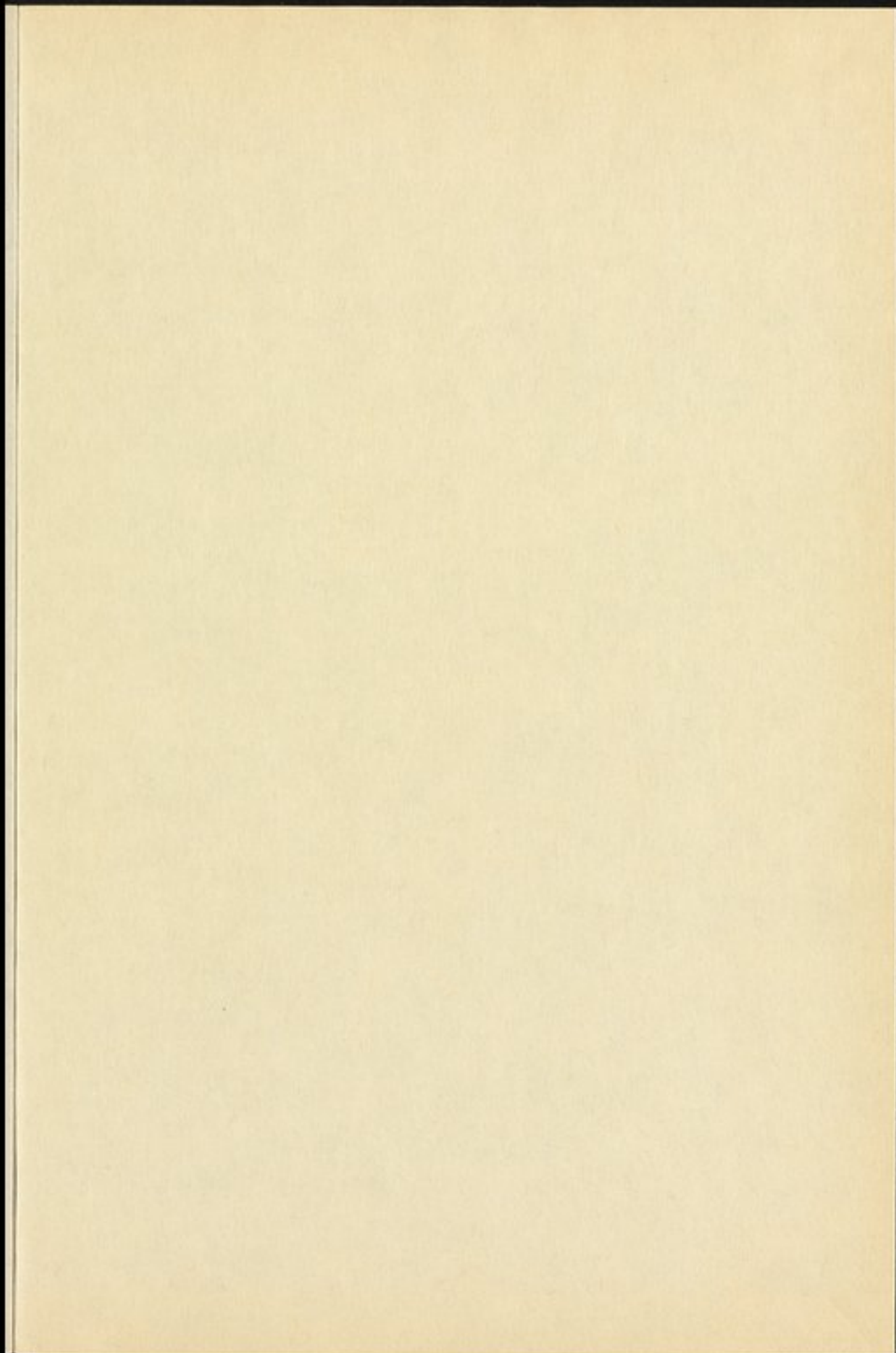
عيسى الباني الحلبي وشركاه

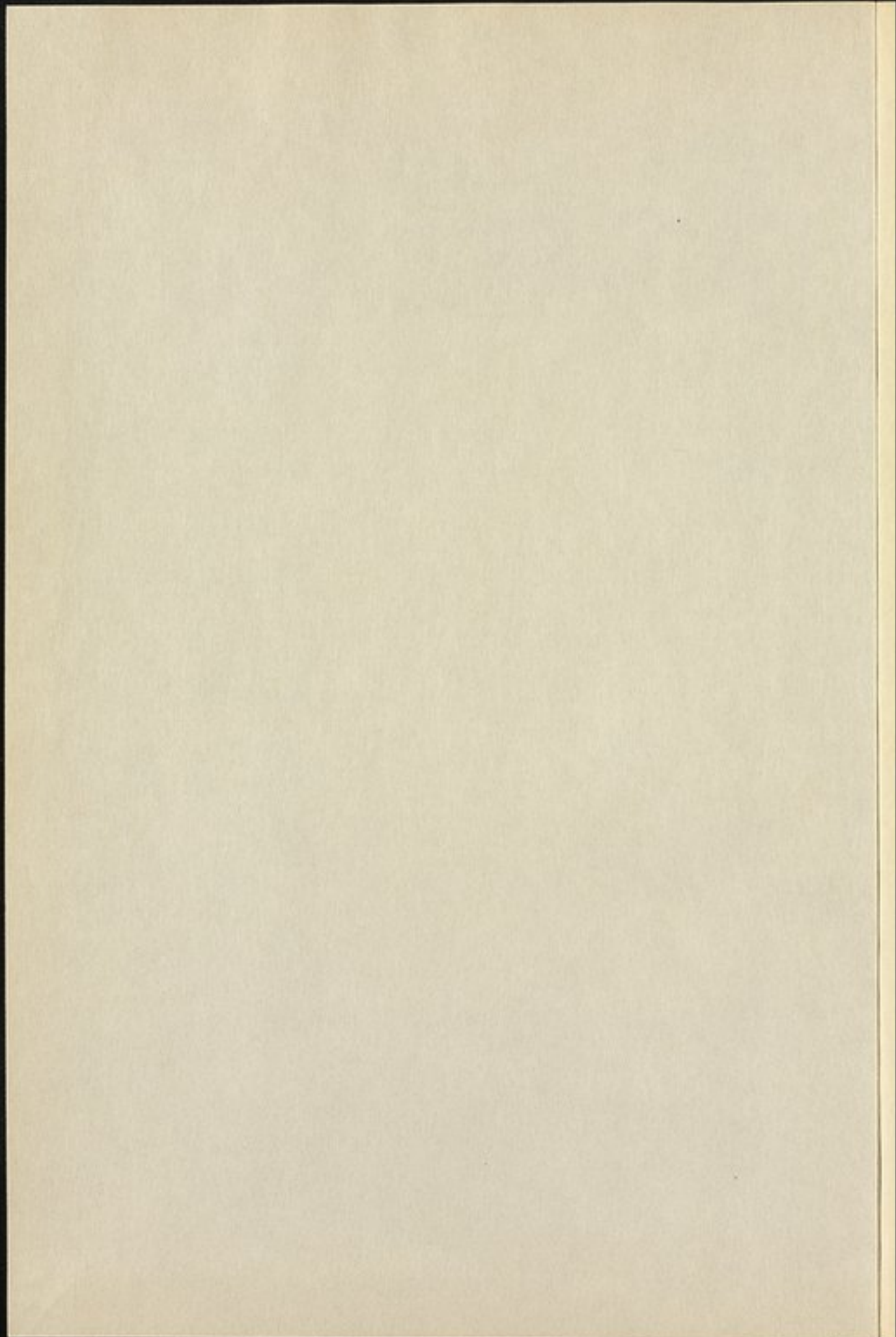
بمؤازرة السيد الحسين تقي

صندوق بوسطة القورية نمرة ٢٦ مصر

ها فهرست يرسل هدية لمن يطلبه
مستعده لطبع الكتب النفيسة بالسكيفية
التي ترضى مؤلفيها







DATE DUE

FEB 15 2007

FEB 09 2007

JUN 01 2012

MAY 28 2013

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0023570660

893.791

St644

1

10879714

BOUND

JAN 10 1957

